منشورات وزارة الثقافة والفنون ـ الجمهورية العراقية

سلسلة دراسات
(١٣٤)

١٩٧٨

النقد اللغوي عند العرب

حتى نهاية القرن السابع الهجري

الدكتور نعمة رحيم العزاوي



المقدمــة

لكل فن من الفنون الانسانية مادة يصاغ منها ، فالألوان مادة الرسم ، والرخام أداة النحت ، والأصوات وسيلة الموسيقى • وتنزل اللغة من الأدب منزلة هذه المواد من تلك الفنون • فهي اداة الأديب التي بها يصوغ روائعه ، ويبدع آثاره •

وطريقة استخدام الأديب للغة ، في عرض مضامينه الجيدة ، تحدد منزلته بين الأدباء ، وتعطيه السمة التي يتفوق بها على غيره ، أو يتخلف • والتجديد في الشعر خاصة والادب عامة يعني القدرة على اقامة علاقات متميزة بين الالفاظ ، فاذا استعرضنا الشعراء المبرزين عبر العصور وجدنا أنهم اختطوا لأنفسهم سبلا في التعبير اللغوي غير ما شاع بين الناس ، والا فما فضيلة الأديب المبدع في الكشف عن افكاره واحاسيسه غير ان ينفرد بأداء لغوي ، ويتخذ لنفسه اسلوبا في التعبير يختص به وحده ؟

واذا كانت اللغة مادة الفن الأدبي ، واذا كان نبوغ الأديب او تفوقه يرتبط بطريقته في استخدام اللغة ، والتعامل معها ، فان على الناقد ان يولي هذه الأداة عنايته ، ويصرف اليها جهده واهتمامه ليكون ذلك كفاء لاهميتها في الأدب ، ومكانها منه • ومعنى ذلك أن الموضوع الاول للنقد هو اللغة ، لان اللغة هي الحقيقة الاولى في الفن الأدبي • اما موضوعات النقد الاخرى ، وقضاياه المتعارفة المشهورة ، فهي لا ترقى من حيث الاهمية الى قضية (اللغة) • بل ان كثيرا من موضوعات النقد وقضاياه يمكن ان تعالج من خلال اللغة ، أو تكون اللغة الأساس الذي ينطلق منه الناقد في معالجة تلك الموضوعات •

وكما ان التفنن في استخدام اللغة هو مجلى عبقرية الأديب ، كذلك يعد تصدي الناقد لدرسها ، واستكشاف ما أودعه الاديب فيها من اسرار ، مجلى نبوغه ، وآية تمكنه من ميدانه ، ورسوخ قدمه فيه •

وقد ادرك نقادنا العرب هذه الحقيقة ، وفطنوا الى اهمية اللغة في العمل الأدبي ، فأولوها اهتمامهم ، وصرفوا اليها عنايتهم ، حتى صار الناقد منهم ـ كابن الاثير مثلا ـ يدل على غيره ، بما يستكشف من دقائق اللغة ، واسرار الالفاظ والتراكيب •

وادرك الدارسون المحدثون عناية النقاد العرب باللغة ، ومنهم من عاب ذلك عليهم • وعندي أن النقاد العرب لا يلامون على اهتمامهم بلغة الأدب ، فذلك ما يجب ان يصنعه كل ناقد ، ولابد من عثرات في أي سبيل ، فان وجد بعض الدارسين في النقد اللغوي جوانب ضعف فان ذلك لا يغض من شأنه ، ولا يقلل من أهميته ولا يغطي على جوانب اخرى منه راسخة وقوية •

وعلى الرغم من ادراك المعاصرين ان قضية اللغة قد استنفدت جزءا كبيرا من عناية النقاد العرب ، وكانت مدار الدرس النقدي عندهم ، فانهم حين أقدموا على الكتابة في النقد العربي لم يولوا تلك القضية ما تستحق من العناية، وانما راحوا يستصفون ما في ذلك النقد من آراء تتعلق بموضوعات النقد الاخرى : كماهية الشعر وغايات الأدب وصفات الناقد والذوق ووحدة الموضوع والطبقات والخصومة والخيال واجناس الأدب والطبع والتكلف والصدق والكذب والموازنات والسرقات الخ ••• وتركوا ، برأيي ، ما هو أهم من ذلك جميعا ، أعني الاطار اللغوي الذي يضم تلك الموضوعات كلها •

فنحن اذا رجعنا الى أي كتاب من الكتب التي صنفت حديثا عن النقد عند العرب وجدناه يعنى بما في ذلك النقد من آراء وملاحظات تتصل بالموضوعات التي أشرنا اليها ، مع محاولة ربطها او موازنتها بما للنقاد المحدثين من آراء • أما قضية النقد العربي الاولى ، وهي اللغة ، فلا نجد في هذه الكتب

الحديثة الا اشارات سريعة اليها ، لا تجلي موقف القدامى منها ، ونظرتهم اليها مع انهم لم يهتموا بشيء اهتمامهم بها ، وما أكثر خصوماتهم حولها .

وحين أردت أن اسهم بجهدي المتواضع في كتابة بحث ، اسدي به خدمة الى اللغة العربية الخالدة وأدبها ونقدها ، لم أجد غير موضوع النقد اللغوي يأخذ عليّ مسارب تفكيري لأهميته القصوى ولانصراف الدارسين المحدثين عنه وتلهيهم بغيره من موضوعات النقد ، فرأيت أن ادرس هذا الموضوع خدمة للتراث العربي وتجلية له من جوانبه جميعا ، ولم أحفل - عند اقتناعي بأهمية هذا الموضوع - بما يعرض للباحث فيه من صعوبات جمة ، بل زادتني تلك الصعوبات رغبة فيه ، واندفاعا نحوه .

ومن هذه الصعوبات ان المادة النقدية التي تتعلق بلغة الأدب لا توجد في كتب النقد فحسب ، بل هي مبثوثة في المعجمات وكتب اللغة والنحو والبلاغة والتراجم والطبقات . ولا يستطيع الباحث ان يبرز موقف النقاد من لغة الأدب ، ما لم يرجع الى هذه المظان جميعا ، ويستخلص ما تفرق فيها من نقد لغوي . وليس هذا العمل بالامر الهين وقد كابدناه ، وعانينا منه .

وهناك صعوبة أخرى ، لابد من الاشارة اليها ، وهي ان جزءا كبيرا من النقد اللغوي وصل الينا على أنه لاحق بالنقد البلاغي ، أو متصل بالبلاغة ذلك لأن المتأخرين جعلوا كثيرا من مباحث (النقد اللغوي) في دائرة البلاغة ، فضموا بعضها الى (المعاني) والحقوا بعضها بـ (البديع) وتابعهم على هذا بعض المحدثين ، فصاروا ينظرون الى تلك الموضوعات على انها أمسّ رحما بالبلاغة منها بالنقد اللغوي ، أو على انها موضوعات بلاغية خالصة .

أما نحن فلم تخدعنا تقسيمات المتأخرين ، ومتابعيهم من المحدثين ، واخذنا من البلاغة ما رأيناه من النقد اللغوي ، وسيتضح ذلك للقارىء في غير موضع من هذه الرسالة .

وكانت طبيعة الموضوع تقضي بأن أجعل البحث في ثلاثة أبواب يسبقها تمهيد ، وتقفوها خاتمة . ففي التمهيد قدمت لمحة موجزة عن اللغة ، ورأيت أن

هناك ضربين من الاستخدام لها ، هو استخدام الجماعة في حياتها اليومية ، واستخدام الفن ، ثم أوضحت ميزات الاستخدام الفني ، وألمت بعد ذلك بالمناهج النقدية المتعارفة لأصل من ذلك الى تقرير أن (المنهج اللغوي) هو المنهج الملائم لطبيعة العمل الادبي ، القادر على استكشاف ملامح الاستخدام الفني للغة . وأوضحت أن العرب عرفوا (المنهج اللغوي) في النقد ، وقدمت الدليل على ذلك ، ثم ختمت التمهيد بأمثلة من أقدم صور النقد اللغوي عند العرب .

وفي الباب الاول درست العوامل التي أثرت في النقد اللغوي أو التي أذكت حركته ودفعت الى استخدامه ، وجعلت الباب في خمسة فصول هي : الرواية ، والتطور اللغوي ، والتعصب للقديم ، والخصومة ، والاعجاز ، وتناولت في كل فصل واحدا منها والمقاييس والنظرات التي أثارها .

ولما كان الناقد اللغوي يعرض النص على ضربين من المقاييس ، يتكفل الضرب الاول بتشخيص ما في لغة الأدب من أخطاء وأوهام ، ليرشد الى ما يقابلها من الصواب ، ويتكفل الضرب الثاني بتحديد مواطن الجودة والرداءة في تلك اللغة ، فقد جعلت الباب الثاني في فصلين ، بحثت في الفصل الاول مقاييس الخطأ والصواب ، وتحدثت في الفصل الثاني عن مقاييس الجودة والرداءة .

وجاء الباب الثالث من البحث ليبين قيمة النقد اللغوي ، أي ما له من أهمية وفوائد ، وما عليه من المآخذ ، وقد وزعت الباب على فصلين تكلمت في أولهما على وجوه الاهمية والفوائد ، وتناولت في ثانيهما المآخذ والعيوب . ثم أوجزت في الخاتمة صورة البحث ، وقدمت خلاصة لأهم ما جاء فيه .

واذا كان من شأن الباحثين أن يأتوا في رسائلهم بجديد ، أو يرتادوا افقا لم يسبقوا اليه ، فانني قد فعلت ذلك ، وعرضت لموضوع شائك ووعر ، تجافى الدارسون قبلي عن الغوص وراء دقائقه وتفصيلاته ، واقتصروا على الالمام السريع الموجز ببعض قضاياه وأطرافه . لقد قدم هذا البحث ، أول

مرة ، وبصورة مفصلة نظرة النقاد العرب للغة الأدب ، وما اثاروه حولها من قضايا ومشكلات ، وما بذلوه في سبيلها من جهد خصب ومثمر •

ومن أجل أن اصل بهذا البحث الى ما كنت أرجوه له من نضج وسداد ، فقد بذلت فيه اقصى الجهد ، ومنحته من وقتي وعافيتي غاية ما يمنحه باحث ، ولكني مع ذلك لا أدعي له الكمال ، فتلك غاية لا تنال •

وبعد :

فاني مدين بهذا البحث لاثنين من اساتذتي هما : الدكتور علي جواد الطاهر الذي اقترح علي موضوع البحث وأنار لي سبيل معالجته وخطة السير فيه • والدكتور جلال الخياط الذي تولى الاشراف عليه ، فكان لي من توجيهاته الصائبة وآرائه السديدة خير عون على تسهيل وعورته وتذليل صعابه ومشكلاته • فاليهما تحية التلميذ البار وشكر المعترف بالجميل • والله ولي التوفيق •

نعمة رحيم العزاوي

التمهيد

اللغة تربط بين الفرد وغيره من ابناء الجماعة اللغوية ، فهي وسيلة للتعبير والتفاهم وتبادل الاراء والافكار ، ولولا اللغة لظل الانسان بعيدا من مجتمعه ، منفصلا عن الآخرين ، لا يدرك تماما ما يجري حوله من أحداث، ولا يسهم فيها بشكل مؤثر فعال . وساعدت اللغة على أثراء العقل البشري بما تطور من علوم ومعارف ، بوصفها أداة توصيل ، وحفظ لما اكتشفه الانسان في هذا المجال أو ذاك . والمتكلم بلغة ما يجد أمامه اصولا وضوابط ، قوامها عدد من الاجهزة تحكمها قوانين معينة ، وما عليه سوى أن يراعيها ، ولا يحيد عنها .

فللغة جهاز صوتي يتم استعماله حسب قواعد معينة ، لابد للمتكلم من ان يطابقها عند الكلام ، وللغة جهاز صرفي يتكون من مجموعة من الصيغ ، تخضع لقوانين محددة ، درجت عليها البيأة اللغوية ، فلا مفر للمتكلم من ان يراعيها ، ويخضع لها ، ومثل هذا يقال عن (النحو) و (المعجم) ، فلكل منها اصول وقوانين يجري المتكلم عليها ، ولا يخل بشيء منها [1] .

وهكذا فاللغة مجموعة تقاليد صوتية ، ورثتها الجماعة اللغوية عن اسلافها ، فالتزمت بها . واذا كان العرف هو الذي يحدد المقاييس الاجتماعية ، فانه هو الذي يحدد معايير الاستعمال في اللغة ، واذا كان الفرد خاضعا دائما لما يحدده العرف من المقاييس الاجتماعية ، فهو خاضع أيضا لما يحدده العرف من معايير لغوية . بمعنى أن الفرد الذي يتكلم بلغة المجتمع الذي نشأ فيه ، يستعمل اصواتا وصيغها ومفرداتها وتراكيبها ، حسب اصول استعمالية معينة ،

(١) لتفصيلات اكثر ينظر : اللغة بين المعيارية والوصفية : ٩ ، ١٠ .

بعد أن يحذقها ، ويرن عليها بالدربة ، والمشاركة المستمرة في التخاطب ، فتصبح سلوكا اعتياديا ، يصدر عنه دون عنت او مشقة .

فاللغة ، اذن ، من نتاج (العقل الجمعي) كما يقول علماء الاجتماع ، وكل فرد منا ينشأ فيجد بين يديه نظاما لغويا يسير عليه مجتمعه ، فيتلقاه عنه ، كما يتلقى النظم الاجتماعية الاخرى [٢] .

وكما يحمي المجتمع ما يتواضع عليه من تقاليد وعادات سلوكية ، فانه يحمي اللغة ، ويشدد الرقابة على من يتكلمها ، ويقف موقفا صارما ازاء أي خروج عن نظامها ، ويرمي من يخطيء فيها بالجهل والغفلة ، وقد يجعله موضع هزء وازدراء [٣] .

والمجتمع لا يستنكر الخطأ اللغوي الناشيء عن جهل المتكلم باللغة ، أو سهوه عن تقاليدها ومواضعاتها فحسب ، بل يستنكر أيضا الاخطاء التي لايد للمتكلم في الوقوع فيها ، ولا قبل له باصلاحها ، لنشأتها مثلا عن خلل طبيعي في احد اعضاء النطق . ان مثل هذه الاخطاء الطبيعية تعرض صاحبها لسخرية المجتمع ، وتجر عليه متاعب وآلاما ، وتزهده في المحاورة والمخاطبة . وفي بعض كتب اللغة والأدب امثلة كثيرة [٤] ، لما كان يعانيه المصابون بخلل في اعضاء النطق من متاعب ومصاعب ، ليجعلوا كلامهم خاليا من الاصوات التي لا يحسنون نطقها ، ولا يعطونها المخارج التي تجب لها .

فالمجتمع يرعى النظام اللغوي ، ويأخذ الناس بالمحافظة عليه ، وليس لمن يخالفه ، أو يخل بشيء من قواعده ومواضعاته عذر . ولكن مع ايماننا بأن اللغة ظاهرة اجتماعية ، فاننا يجب أن نفرق بين استخدامين للغة : استخدام الجماعة ، واستخدام الفن .

---

(٢) اللغة والمجتمع : ٤ .
(٣) لتفصيلات اكثر ينظر : اللغة بين المعيارية والوصفية : ١٠ وما بعدها و : اللغة والمجتمع : ٤ ، ٥ .
(٤) ينظر مثلا : البيان والتبيين : ٣٤/١ وما بعدها ، و٧٢ وما بعدها . والشعر والشعراء : ٧٦٦/٢ . هـ٣ .

فليس من شك في أن لغة الكلام العادي تنقل الافكار من المتكلم الى السامع ، وان على الانسان ان يلتزم في حديثه العادي بلغة الجماعة ، ويخضع لما تتبع هذه اللغة من نظام في مفرداتها وتراكيبها وأساليبها ، كما يتقيد بمدلولات الالفاظ ، فلا يحيد عن شيء من ذلك ، ليضمن للغته أن تؤدي عنه ما يريد . ولو حاول فرد ان يخرج في حياته عن النظام اللغوي للجماعة ، بأن يخترع لنفسه لغة يتفاهم بها ، لما وجد من يفهم حديثه ، ولصح للجماعة ان تصفه بالشذوذ والمروق [٥] .

غير ان الذي يحدث في ميدان الحياة العملية ، لا يصح في عالم الفن والادب . فاذا تقيد الفرد العادي في حياته العامة بلغة الجماعة ، وخضع لنظامها وقوانينها ، وجدنا الأديب يتمتع بقدر كبير من الحرية الفنية في استخدام اللغة. فمع التزام الاديب بلغة الجماعة وقواعدها واصولها ، ومع رعايته لقوانينها العامة ، فهو حرّ ، بحدود ما يبدع ويبتكر ، في استخدام هذه اللغة ، ويملك من أمرها ما لا يملك الانسان العادي من أمر لغته .

ان لغة الادب لا تقتصر على نقل الافكار فقط ، بل هي ـ الى جانب تأديتها هذه الوظيفة الاساسية ـ غاية بنفسها ، أو هي أداة الخلق الفني ، لا تلتزم أحيانا بالاطار اللغوي الشائع . ولو اتبع الأديب التركيب اللغوي الاعتيادي لكان كلامه نوعا من التقليد البحت ، أو شكلا من اشكال الكلام الذي يفتقر الى الاساس الاول الذي يبتني عليه أي خلق أدبي ، وهو رؤية الفنان الذاتية ، وقدرته الخاصة في صياغة أثره الفني في صورة جديدة ، تدهش القارىء ، وتلفت انتباهه الى عبقرية الاديب في استخدامه للغة [٦] .

فاللغة تتخذ عند الاديب الحق ، في بعض الأحيان ، اشكالا غير التي يتداولها الناس ، ويتواصلون بها ، فلا نجد فيها الفاظا كثر استخدامها حتى بليت ، وامّحت معالمها ، وبهتت ظلالها ، فلم تعد تقدر على تحريك أو اثارة ،

---

(٥) اللغة والمجتمع : ٥ . وينظر : قضايا النقد الادبي والبلاغة : ١٥ .
(٦) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ١٦ .

ولا تحكم تلك الالفاظ غالبا علاقات وارتباطات عامة ألفها الناس ، وسكنوا اليها ، حتى استحالت الى ما يشبه الاصطلاحات الجامدة . ان مهمة الأديب تنحصر احيانا في اقامة علاقات جديدة بين الالفاظ ، وابتداع سياق لغوي مملوء بالايحاءات الجديدة [٧] . يأتي الاديب المبدع الى الكلمة ، وهي أداة عادية ، فيجعلها تدل دلالة غير مألوفة ، وأول ما يلجأ اليه ليجعل الكلمة العادية غير عادية ، هو ان يستعملها بارتباط غير مألوف [٨] .

وممن عرف باقامة علاقات غير مألوفة بين الالفاظ ابو تمام ، الذي كان مولعا ، في هذا المجال ، بالابتعاد عما الف الناس ، فجرّ ذلك عليه نقد الذين لا يبيحون للأديب حرية التركيب اللغوي ، ويطالبونه بالابقاء على ما بين الالفاظ من علاقات شائعة . قال ابو تمام :

رقيق حواشي الحلم لو ان حلمه   بكفيك ما ماريت في أنه برد

فقال ابن عمار :

« هذا هو الذي أضحك الناس منذ سمعوه والى هذا الوقت »[٩] . أما الآمدي فلم يكتف بالسخرية من الشاعر ، بل قال : « والخطأ في هذا البيت ظاهر ، لأني ما علمت أحدا من شعراء الجاهلية والاسلام وصف الحلم بالرقة ، وانما يوصف بالعظم والرجحان والثقل والرزانة » [١٠] . ثم ساق عددا كبيرا من الشواهد على ذلك ، اختارها من شعر الجاهليين والاسلاميين ، وذكر أن العرب كانوا اذا ذموا الحلم وصفوه بالخفة ، وأيد ما ذكره بشواهد كثيرة . ثم أخذ على أبي تمام انه وصف البرد بالرقة ، وقد جرت العادة بوصفه بالمتانة والصفاقة . واستنكر أشد الاستنكار قوله (لو أن حلمه بكفيك) . ثم أقر الامدي بأن ابا تمام لم يكن ليذهب هذا المذهب في شعره ، جهلا منه

---

(٧) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ١٥ ، ١٦ .
(٨) النقد الادبي (سهير القلماوي) : ٦٧ .
(٩) الموازنة : ١٣٨/١ .
(١٠) نفسه : ١٤٢/١ .

بالمتعارف من وصف الحلم ، أو نعت البرد ، فكثيرا ما جاء في شعره وصف الحلم بالرزانة ، مقتديا في ذلك بالعرب ، ولكنه كان يجنح في بعض الاحيان الى مغايرة ما تعارف عليه الناس [11] .

وفي « مغايرة ما تعارف عليه الناس » من علاقات بين الالفاظ يكمن الابداع احيانا وتبرز شخصية الاديب . لقد غبر الناس زمانا قبل ابي تمام وهم يجدون « الحلم » مقرونا الى الرزانة ، او موصوفا بها ، ويجدون «البرد» مضموما الى الغلظة أو المتانة ، فجاء أبو تمام ، فلم يشأ ان يجري على ما جرى عليه الناس ، أو أن يأخذ بقوالبهم واستعمالاتهم ، فانشأ للحلم قرينا آخر ، وابتدع له الفا جديدا ، وضم اليه كلمة اخرى ، غير التي لصقت به زمنا طويلا فقال (رقيق الحلم) ، وفعل مثل ذلك في تغيير العلاقة بين (البرد) و (المتانة) فقال : (رقيق البرد) . ان عمل ابي تمام هذا هو الذي قصدناه حين قلنا ان الاديب يبتعد ، احيانا ، عن العلاقات المألوفة بين الالفاظ ، وينشيء سياقا لغويا جديدا ، غير الذي سكن اليه الناس ، وألفوه .

*

واذا عرضنا للاستخدام الفني للغة ، فأننا نأخذ الان في ايضاح المنهج النقدي الذي يجلي هذا الضرب من الاستخدام ، ويتكفل بابراز جمالية اللغة الأدبيــة .

تتفاوت المناهج التي يتبعها النقاد ، فبعضها ينظر الى النص الادبي في ضوء قواعد وأصول فنية ، للنوع الادبي الذي ينتمي اليه النص ، مستمدة من آثار قديمة خالدة . ويسمى هذا المنهج بالمنهج الفني [12] . وبعضها يتجاوز العمل الأدبي وما ينطوي عليه من قيم تعبيرية وشعورية الى البحث في مدى تأثر صاحبه بالبيأة او العصر ، والناقد الذي يفعل هذا ، ينحو منحى تاريخيا

(11) نفسه . ١٤٢/١ .
(12) لتفصيلات اكثر ينظر : في النقد الادبي : ٢٧٧ .

في نقده [١٣] . ومن النقاد من يصطنع (المنهج النفسي) ، ويرى أن من المتعذر عليه أن يفهم هذا العمل أو ذاك دون الاعتماد على حقائق علم النفس [١٤] .

ويبدو ان الذي بعث على اتباع المنهج التاريخي أو المنهج النفسي ، هو الرغبة في جعل النقد علما ، يقوم ، كما تقوم العلوم الاخرى ، على قواعد وقوانين تنأى به عن أن يكون احكاما تأثرية ، لا تخضع لقواعد ولا تستند الى دليل [١٥] .

واذ حاول عدد من النقاد تطويع النقد لنظم العلم ، صاروا يستعينون بالعلوم ، فاستنجد بعضهم بحقائق التاريخ ، واستنصر آخرون بقوانين علم النفس ، والتمس غير هؤلاء في حقائق علم الاجتماع ما يعينهم على فهم الأدب ، وتفسير ظواهره .

غير ان هذا الاتجاه قد وجد من يقاومه ، ويقف في سبيله ، لا في النقد العربي الحديث فحسب ، بل وفي النقد الاوربي أيضا . فقد حرص بعض النقدة في أوربا على أن يظل النقد « حرا طليقا لا تقيده قيود » [١٦] . كما سخروا من النقد الذي يواجه الادب بحقائق غريبة عنه ، ووصموه بانه « يدور حول الفن ولا يدخل فيه » [١٧] . وكان هؤلاء النقاد يرون « أن الاثار الأدبية ليست الا دلالات على نفسها ، ولا تعبر عن شيء في الواقع الا عن نفسها » [١٨] . وعلق بعضهم على نظرية الزمان والمكان والجنس بقوله : « ان دراسة هذه النواحي من الاثر الادبي هي معاملة النص الفني على انه مستند تاريخي أو اجتماعي والنتيجة بالتالي لا تكون الا دراسة في تاريخ الثقافة او المدنية ، دون أن يكون للادب بل لتاريخ الادب المكان الاول »[١٩].

---

(١٣) لتفصيلات اكثر ينظر : نفسه : ٢٨٨ .
(١٤) لتفصيلات اكثر ينظر : التفسير النفسي للادب : ١٦ وما بعدها .
(١٥) في الميزان الجديد : ١٣٢ .
(١٦) النقد الادبي : ٤٨ .
(١٧) نفسه .
(١٨) نفسه : ٤٩ .
(١٩) نفسه .

واذا جئنا الى النقاد العرب المحدثين ، وجدنا منهم من يهاجم اقحــام العلوم على الادب ، ويرتاب أشد الريب في النتائج التي يتوصل اليها النقاد اعتمادا على شيء من قواعد علم النفس او التاريخ أو الاجتماع : « فالاثــر الادبي ليس في طبيعته ما يمكنه من هذه الدلالة المباشرة على أي شيء من تاريخ أو اجتماع او سياسة بل من علم نفس أيضا ، وانما هو بحكم فنيته التي هي هدفه الاول يدل ــ ان دلّ ــ على مثل هذه المعلومات بطريق ملتو غير مباشر » [٢٠] .

وكان محمد مندور يرى في اقحام العلوم على الأدب كارثة عليه ، وقتلا لروحه : « وأنا اذ اقاوم بكل قوتي هذا الاتجاه الذي يصدر عنه الاستاد خلف الله ، لا أدعو الى الكسل او الى اهمال ابحاث علماء النفس والجمال والاجتماع فهذه أشياء اضعنا فيها جزءا كبيرا من شبابنا ، وهي لا ريب تفتح آفاقــا للتفكير ، وقد تزيدنا بالانسان معرفة ، ولكني أقول إنها غير الأدب ، وانــه لا يجوز ان نظن اننا سنجدد الادب في شيء عندما نقحمها فيه . وخير عندي من كل هذا ان نناقش قصيدة شعر او رواية ، واني لمؤمن ايمانا لا يتزعزع بأنه من الاجدى على استاذ الادب ان يناقش امام طلبته ، او يعرض على قرائه مناقشة نص ادبي ، يقف عند تفاصيله ، ويظهر ما فيه ، من ان يشرح لهم في سنين او في مئات الصفحات نظريات علم النفس او علم الجمال ، فهذه لن تكون ادراكا ادبيا ، هذه لن تصقل ذوقا ، ولن ترهف حسا ، وتلك هي ملكات الادب التي يجب ان ننميها وان نتعهدها . يجب ان نحبس أنفسنا في الأدب ، واما الفرار الى غيره فلا » [٢١] .

واذا كانت محاولة اقحام العلم على الادب قد فشلت ، أو لم تجد لها الا انصارا قلائل ، لان الادب بطبعه نام متغير ، ومحاولة أخذه بالمعادلات محاولة ظالمة له ، تعمل على جفافه ، وتسلبه نظرته ، ولا تصل بنا الى ما نروم

---

(٢٠) نفسه .
(٢١) في الميزان الجديد : ١٣٢ .

معرفته ، والوقوف عليه من اسراره ، فما المنهج الذي رأى عدد من النقاد أن يدرس الادب في ضوئه ، وعلى هدى منه ؟

وجد بعض النقاد ان المنهج الفني احق بالاتباع ، لانه أقرب الى طبيعة الادب ، من المنهجين الآخرين ، ومن كل منهج يقحم العلوم وقواعدها على الادب . ووجدوا أيضا ان هذا المنهج يتيح للنقاد قدرا كبيرا من الحريـة ويمكنهم من ان ينتفعوا بما ثقفوه ، وحصلوا عليه ، من الوان الثقافة ، وفنون المعرفة ، ويحررهم من اتباع علم معين ، أو الاعتماد على ثقافة دون سواها[٢٢] .

وثمة ميزة أخرى للمنهج الفني ، هي انه يجعل النص محور العمليـة النقدية ، في حين ان المنهجين التاريخي والنفسي ، يبعدان الناقد عن النص ، ويقللان من عنايته به ، لانهما يجعلانه يحوم حول النص ، دون ان يدخل فيه ، أو يحبس نفسه في داخله ، ويواجهه بما هيأه له من عدّة ، قوامها الذوق المدرب المصقول ، والنظرة العلمية الواسعة ، التي تدعم الذوق وتسنده ، وتجعل ما يصدر عنه مقبولا ، يعتد به ويركن اليه .

ووجد غير هؤلاء ان النص الادبي يجب ان يستأثر بكل انتباه الناقد ، ودراساته [٢٣] ، وهم لذلك لم يروا في المنهج الفني ، على وثاقة علاقته بالنص، منهجا كافيا لخدمة النص الادبي ، واستنباط جميع قيمه وأسراره . ثم نظروا ، فوجدوا ان الادب فن لغوي ، وان اللغة هي المادة الاولية له ، وهي تقوم منه مقام الالوان من التصوير ، والرخام من النحت ، انها « الصق بموضوع الادب من هذه المواد الاولية بموضوع فنونها ، وذلك لان الفكرة والاحساس لا يعتبران موجودين حتى يسكنا الى اللفظ . وكثيرا ما تكـون المشقة في اخضاع الفكرة او الاحساس للفظ ، وكثيرا ما يكون الخلق الفني مستقرا في العبارة ذاتها ، بحيث انك لو اعدت التعبير عن الفكرة اوالاحساس لانتهيت الى شيء مغاير للخلق الفني الاول » [٢٤] .

---

(٢٢) في النقد الادبي : ٢٠٨ .
(٢٣) النقد الادبي : ٥٨ .
(٢٤) في الادب والنقد : ١٧ .

ادرك بعض النقاد ذلك ، فاتجهوا الى اللغة ، بوصفها الاداة التي يستعملها الفن الادبي ، واخذوا يهتمون بدراستها ، حتى اصبحت كل شيء عندهم ، وحتى أخذت دراساتهم حولها ، تنحصر ، وتمعن في التخصص ، فتقتصر على الصوت اللغوي مثلا ، أو تقف عند جرس اللفظة وعلاقته بمضمونها ، الى غير ذلك من ابحاث ، تكشفت عن نتائج كثيرة ، تفيد النقد بلا جدال ، لانها تدور حول حقيقته الاولى ، وتفيد العلم اللغوي أيضا (٢٥) .

لقد استقر هؤلاء النقاد على ان المنهج الذي يلائم الدرس النقدي ، ويرتبط أشد الارتباط بالفن الادبي ، هو « المنهج اللغوي » الذي يقوم على النظر في لغة النص ، ويتجه الى فقهها ، بوصفها أداة الاديب ، وموضع عنايته ، ومجلى نبوغه ، واصالته .

ولا شك في أن ما ينفع الناقد ، وهو يواجه اللغة ، ويجعلها مدار نقده ، هو علم اللغة ونظرياتها ، ومناهج درسها وفقهها ، لان من شأن هذه العلوم والنظريات أن تزيده علما بلغة الادب ، وتجعله أبصر بأسرارها ، وأقدر على استخراج طاقاتها التعبيرية . يقول محمد مندور : « وموضع الخطر هو ان نقحم على دراستنا معارف اقل ما فيها من اضلال ، هو صرفنا عن ان نركز نظرنا في الادب كفن لغوي ، واهسين اننا نجدده ، اذ نتناوله بمبادىء علوم أخرى . واما النظريات اللغوية ، واما علوم اللغة ، ومناهج اللغة ، فذلك موضع دراستنا الذي نعتز به » (٢٦) .

وكان مندور قد دعا الى « المنهج اللغوي » في درس الادب ونقده ، وعقد لشرحه ، وبيان جدواه واهميته ، فصولا عديدة في كتابه (في الميزان الجديد) ثم جدد الدعوة اليه في كتابه (النقد المنهجي عند العرب) . وقد دفعه الى التزام المنهج اللغوي ما أخذ يشيع في النصف الثاني من هذا القرن من دراسات نقدية ، اتخذت لها متكأ من قواعد علم النفس او غيره من العلوم،

(٢٥) النقد الادبي : ٥٨ .
(٢٦) في الميزان الجديد : ١٤٤ .

بدعوى اخضاع النقد للعقل ، وتخليصه من التحـــكم الذوقي ، واضطراب المقاييس ، فانتهى أكثر تلك الدراسات الى نتائج لا تؤيدها النصوص التي أريد لتلك النتائج ان تقوم عليها . ذلك لان الدارسين لم يفهموا تلك النصوص على وجهها ، ولم يهتدوا الى دلالات الالفاظ والتراكيب فيها .

من ذلك أن محمد خلف الله درس خطب الحجاج ، فوجده في احدى خطبه يكثر من كلمة « واني » فيقول : اني لأرى رؤوسا اينعت وحان قطافها، واني لصاحبها ... واني ... وأني ... » وذكر ان في علم نفس الاطفال مرحلة تسمى « التركيز الأني » ، وهي تلك التي يرد فيها الاطفال كل شيء الى أنفسهم . واذا كان الحجاج يكثر من استعمال ضمير المتكلم ، فهو اذن مولع بذاته ، أو مصاب بـ « الأنية »[٢٧] . فقال مندور : « وهذا مثل ثان لطغيان علم النفس على الادب . وأنا بعد لا أرى في هذا انية ما ، وانما هي حماسة قلب ، تلتمس من طرق الاداء ما يشفيها . ذلك ما يحدثني به المنهج الفقهي ، المنهج الطبيعي المستقيم » [٢٨] .

ولا اشك في أن خلف الله قد ابعد في الاستنتاج ، ولم يوفق الى تفسير اختيار الحجاج كلمة « واني » واستكثاره منها . وكان مندور على حق عندما أحس بذوقه المرهف ان استخدام الحجاج للضمير « أنا » وتكراره أياه ، يدل على انه كان في سورة غضب وهياج ، لم يجد ما يفثؤها ، ويخفف من حدتها ، الا الاكثار من هذا الضمير .

وكان العقاد قد لاحظ ان المتنبي يكثر من استعمال التصغير ، فربط بين هذه الظاهرة ، وبين ما عرف عن المتنبي من غطرسة وتكبر [٢٩] . بمعنى أن المتنبي لو لم يكن تياها ، مفرط الكبر ، لما استخدم التصغير ، ولا عرج عليه .

---

(٢٧) في الميزان الجديد : ١٤٥ نقلا عن عدد من « الثقافة » لم يذكره .
(٢٨) نفسه : ١٤٥ .
(٢٩) مطالعات : ١٢٤ وما بعدها .

وقد علق مندور على رأي العقاد بقوله : « وهذا أيضا من طغيـــان النفســيات على الأدب » [٣٠] . والحقيقة ان التصغير ـ كما يرى النحاة [٣١] ـ كثيرا ما يكون للتحقير ، والمتنبي لم يأت به الا في معرض ذم أو هجاء كان يقول « الشويعر » أو « كويفير » أو « الاحيمق » أو « الخويدم » أو « أهيل » ، مريدا بذلك تحقير خصومه ، والغض من شأنهم . ومعنى ذلك أن التصغير عند المتنبي ـ كما هو عند غيره من الشعراء ـ اداة من ادوات الهجاء ، ووسيلة من وسائل ايلام المهجو ، وليس وليد كبرياء ، أو وليد طبيعة نفسية خاصة [٣٢] . وقد استخدمه المتنبي للتعظيم فقال :

أحـــاد ام سُداس في أحـــــاد   لييلتنـا المنوطـــــة بالتنـاد

فالليلة طويلة حتى ظن الشاعر أنها لم تكن واحدة ، بل سبعا . واذا كان هذا طولها ، فلا يستقيم له تصغيرها فيقول : « لُيَيْلتنا » الا ان يكون قد أراد تعظيمها . والتصغير من معانيه التعظيم . ولقد سئل المتنبي نفسه عن ذلك فقال : « هذا تصغير التعظيم ، والعرب تفعله كثيرا ، قال لبيد :

وكل أناس سوف تدخـــل بينهم   دُوَيْهية تصفرّ منهـــا الانامل

أراد لطف مدخلها فصغرها . وقال الانصاري : أنا عذيقها المرجّب وجذيلها المحكك فصغر ، وهو يريد التعظيم » [٣٣] .

من هذا نرى ان العلاقة بين التصغير والتكبر لا تطرد ، لان التصغير لا يفيد التحقير وحده ، بل يفيد معاني أخرى كالتمليح والتعظيم وما اليها [٣٤].

---

(٣٠) في الميزان االجديد : ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٣١) شرح العكبري : ١٨٢/٣ .
(٣٢) في الميزان الجديد : ١٤٦ .
(٣٣) الوساطة : ٥٨ ، ٥٩ (عذيق : تصغير عذق وهي النخلة . والترجيب: ارفاد النخلة من جانب ليمنعها من السقوط ، ومعنى قوله : لي عشيرة تعضدني . والجذل عود ينصب للابل الجربى تحتك به فتشفى اي لي علم ورأى يشتفى بهما كما تشتفي الابل الجربى بهذا الجذل) .
(٣٤) شرح العكبري : ١٨٢/٣ .

وما على الناقد الا ان يستعين بالسياق الذي ترد فيه الصيغة ، ليستشف معانيها. ومن الخطأ أن نعمم على غير احتياط ، فنربط بين التكبير والتصغير ، اعتمادا على قوانين علم النفس [٣٥] .

فالدرس النقدي لا يكون مأمون النتائج ، قريبا من طبيعة العمل الأدبي ، الا اذا ابعدنا العلوم عنه ، وجعلنا غايته الاولى فقه لغة النص ، واستكشاف اسرارها ، وما دفع اليها من ظروف قولية ، في ضوء ما تتسلح به من معرفة عامة ، ومعرفة لغوية لا تقف عند حدود الالمام بالنحو والصرف وغيرهما ، بل تتعدى ذلك الى معرفة اللغة معرفة حس وعاطفة . بمعنى ان ندرك « أرواح » الالفاظ لا أشباحها ، وما أرواحها الا الايحاءات والظلال ، وأما اشباحها فمعانيها المعجمية الباردة . وهذا الضرب من معرفة اللغة هو من المواهب التي لا يرزقها الا القليل [٣٦] .

على أن المنهج اللغوي لا يقتصر على انارة مواطن الحسن ، والتقاط القيم النفسية والشعورية التي تنبض بها الالفاظ والتراكيب ، وانما يتعدى ذلك الى النظر في تلك اللغة ، من حيث موافقتها او مخالفتها لمواضعات اللغة ، ونظامها المتعارف . ان من تمام عمل الناقد اللغوي أن يدل الاديب على قاعدة فارقها ، أو زلة لغوية وقع فيها .

ومن النقاد من يرى أن هذا الجانب من عمل الناقد اللغوي ليس بذي قيمة أو خطر ،اذا قيس بعمله في تفسير لغة النص وتحليلها ، ووضع اليد على منابع الجمال فيها . وأن بامكان الاديب أن يرجع الى المعجمات ، وكتب القواعد ، ليصحح لغته ، ويتخلص من اخطائه [٣٧] . او يرجع الى الشعراء الكبار ، فما طابق لغتهم ، وكان جاريا على اساليبهم ، كان صحيحا ، وما ندّ عن تلك اللغة والأساليب ، هو خطأ ولحن [٣٨] .

---

(٣٥) في الميزان الجديد : ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٣٦) في الادب والنقد : ١٨ .
(٣٧) اللغة بين الفرد والمجتمع : ١١٠ .
(٣٨) اللغة بين الفرد والمجتمع : ١١٥ .

ولكن الاديب لا يستطيع أن يرجع الى المعجمات لمعرفة اخطائه ، لأن المعجمات سجل للالفاظ والعبارات ، كما استعملت منذ عصر بعيد ، وهذا يجعلها احيانا مخالفة لما صارت اليه الالفاظ والتراكيب في العصور المتأخرة [٣٩] . كما أن الاديب لا يستطيع أن يرجع الى الشعراء الكبار بشأن الصواب والخطأ في لغته ، اذ ليس من السهل الاتفاق على شاعر معين ، أو عصر خاص ، يتخذ الادباء من لغته نبراسا للصواب ، ومقياسا للصحة . وحين اتخذ اللغويون في أول العصر العباسي لغة الاقدمين من الجاهليين لغة مثالية ، يجب أن تحتذى ، نشب صراع حاد بين الأدباء والنقاد ، وثار الشعراء على هذا القرار الذي أهمل ما جاءوا به من جديد طريف . ثم ان الشعراء الكبار ، متقدمين ومتأخرين ، لم يسلموا من الخطأ ، ولذا لا يصح الاقتداء بكل استعمالاتهم وقد حفلت كتب اللغة والنقد نماذج من أخطائهم ، ومخالفاتهم اللغوية [٤٠] .

فالظاهرة الادبية ، اذن : « ظاهرة لغوية في جوهرها ، لا سبيل الى التأتي اليها الا من جهة اللغة »[٤١] . ومعنى ذلك ان النقد اللغوي دون سواه من فنون النقد الاخرى ، هو الذي يلائم هذه الظاهرة ، لارتباطه الوثيق بأداتها الخام ، ومادتها الاولية ، أعني اللغة . على ان الناقد اللغوي يعرض لغة النص على ضربين من المقاييس : يتكفل الاول ببيان مواضع الجودة والرداءة في تلك اللغة ، ويتكفل الآخر بتشخيص الخطأ فيها ، والارشاد الى الصواب . وكلا المقياسين متمم للآخر ، ولا تصح عملية النقد اللغوي الا بالرجوع اليهما .

*

بقي ان نعرف : هل خبرت العرب النقد اللغوي ؟ وما أقدم صوره عندهم ؟ لقد احب العرب لغتهم ، وفتنوا بها ، وبهرتهم قدرتها العجيبة على

(٣٩) نفسه : ١١٠ .
(٤٠) اللغة بين الفرد والمجتمع : ١١٧ .
(٤١) التركيب اللغوي للادب : هـ .

الاعراب عن أدق خلجات النفس ، وأخفى اسرار الضمير ، وقد أداهم هذا الحب الى ان يبالغوا بالعناية بها ، ويتجهوا الى البحث المدقق عن اصولها وخصائصها ، ويؤلفوا الكتب التي تتوخى صياتها ، والابقاء على نقائها ، فحظيت بمؤلفات كثيرة في نحوها وصرفها ومتنها ، وغير ذلك من فروع درسها المتشعب النواحي، المتعدد الاتجاهات .

وقد كان نزول القرآن الكريم بالعربية سببا مهما في زيادة حب العرب للغتهم ، واشتداد حفاوتهم بها ، لانهم ادركوا ا نالعناية بها سبيلهم الى فهم القرآن ، والوقوف على مراميه ، وطريقهم الى المحافظة عليه من تسرب الخطأ الى تلاوته .

ولم يكن القرآن الكريم باعثا على زيادة حب العرب للغتهم فحسب ، بل كان السبب الذي جعل افئدة غير العرب من المسلمين ، تهوي الى هذه اللغة ، وتنشد معرفتها ، معرفة حذق وتخصص ، ليشاركوا اخوانهم العرب في فقه الدين ، وادراك مرامي القرآن .

لقد كان حب العرب للغتهم حقيقة لا مراء فيها ، وكانت خدمتهم لها ، وعنايتهم بدرسها ، حقيقة أخرى لا تقل عن الاولى وضوحا وسطوعا ، وتكفي لاثباتها الاشارة العابرة الى ضخامة التراث الذي ورثناه بهذا الشأن .

والنقد اللغوي جانب من جوانب عناية العرب بلغتهم ، ووسيلة من الوسائل التي اتخذوها لبيان سحرها ، والحفاظ على سلامتها ونقائها . لقد عرف العرب النقد اللغوي ، وتوسعوا فيه ، واهتموا به في مصنفاتهم ، حتى لقد ذهب بعضهم الى ان العرب لم يعرفوا غير ضربين من النقد : الاول هو النقد اللغوي ، والثاني هو النقد البياني الذي يقوم على نقد الصور البلاغية المختلفة ، والكشف عن طبيعتها ، والتفنن في شرحها ، وابراز مواطن الجودة والرداءة فيها (٤٢) .

---

(٤٢) النقد الجمالي واثره في النقد العربي : ١١٥ .

وترجع معرفة العرب بالنقد اللغوي الى مرحلة مبكرة من العصر الجاهلي والدليل على ذلك أمران : الاول ان الشعر الجاهلي الذي وصل الينا يمثل درجة عالية من النضج والاتقان ، وهو لم يبلغ هذه الدرجة الا بعد ان تعاقبت عليه مراحل ، خضع خلالها الى عملية نقد ، توخت تهذيبه ، وتقويم أوزانه وأساليبه . والثاني : ان هذا الشعر تتنظمه لغة مشتركة ، ولا تكاد تظهر فيه اللهجات المتباينة التي كانت سائدة بين القبائل ، حتى يخيل الى المرء ان قائليه جميعا كانوا ينحدرون من قبيلة واحدة ، وليسوا من قبائل شتى [٤٣] .

وتوحد لغة الشعر الجاهلي يعود الى عملية نقد لغوي طويلة الامد ، كانت قد بدأت منذ عصر مبكر ، لا نعرف حدوده ، ثم استمرت حتى نشأت لغة أدبية مشتركة ، استطاعت ان تتخلص من كثير من مظاهر اللهجات المحلية، التي لم تذب ، ولم تتلاش ، وانما ظلت قائمة ، يقصد اليها في مجالات الحياة اليومية [٤٤] .

وكانت قريش ذات أثر كبير في تهذيب لغة الادب ، وتنقيتها من مستقبح اللهجات ، ومستبشع الالفاظ والتراكيب . فقد كانت مكة ــ موطن قريش ــ ملتقى القبائل ، ومهوى افئدة العرب ، يأتون اليها ليطوفوا بالكعبة ، ويؤدوا

---

(٤٣) ان الاختلاف الذي كان حاصلا بين اللهجات يتمثل في مظاهر معينة يتعلق بعضها بالاصوات كان تنطق تميم الهمزة (عينا) فتقول (اعن) بدلا من (ان ..) فتسمى لهجتها هذه (عنعنة) وتبدل طيء الهمزة (هاء) فتقول (لهنّك ...) بدلا من (لانك ...) ويتعلق بعضها باوزان المفردات ، كان تقول قبيلة (اسرى) في جمع (اسير) وتقول الاخرى (اسارى) . وتقول قبيلة (انظر) ، فتقول الاخرى (انظور) باشباع الضمة ومطلها . ويتعلق بعضها الاخر بالمفردات ، كان تقول قبيلة (مدية) بدلا من (سكين) وتقول هذيل (متى) بدلا من (من) الجارة . و تقول حمير (وثب) بمعنى (جلس) . وقد يرجع الاختلاف الى الاعراب ، فمن العرب من يلزم المثنى الالف في جميع حالات الاعراب، وبهذه اللغة قرىء :

« ان هذان لساحران » . ينظر : فقه اللغة : ٩٦ ، ٩٧ .

(٤٤) مستقبل اللغة العربية المشتركة : ٩ .

معظم ما تؤديه اليوم في فريضة الحج ، وكانت قريش تسمع لغاتهم ، وتصغي لما يتناشدونه من شعر ، فتستقبح بعض لهجاتهم ، وتستنكر شيئا من عاداتهم الكلامية ، كما تستحسن لهجات أخرى ، وتستحلي الفاظا وأساليب ، فتأخذها وتضمها الى لغتها • يقول ابن فارس : « وكانت قريش مع فصاحتها ، وحسن لغاتها ورقة السنتها ، اذا أتتهم الوفود من العرب ، تخيروا من كلامهم واشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ،فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك افصح العرب • الا ترى انك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس مثل تِعلمون ونِعلم ومثل شِعير وبِعير »[٤٥] • ودأبت قريش على هذا الاقتباس من لغات القبائل التي تفد عليها في المواسم حتى تكونت لغة جديدة هي لغة قريش وما في اللهجات الاخرى من الفاظ وتراكيب عذبة مقبولة ، ثم مالبثت هذه اللغة ان شاعت بين العرب ، واصبحت اللغة المشتركة ، التي بها ينظم الشعراء ، ويتكلم الخطباء ، وصار الشاعر او الخطيب يفضل هذه اللغة على لغة قبيلته الخاصة ، لما تنطوي عليه لغة قبيلته من صفات وخصائص لا ترتضيها القبائل الاخرى ، أو ينكرها الذوق العام ، أو تنكرها لغة قريش الجديدة ، التي اصبح العرب جميعا ينظرون اليها نظرة اعجاب واكبار ، ويصطنعونها « في كل مجال جدي من مجالات القول »[٤٦] •

فاللغة المشتركة ، اذن ، ليست لغة قريش وحدها ، وانما هي تمثل لغات العرب جميعا ، أو هي مزيج منسجم من خصائص اللهجات كلها ، فلا تستطيع قبيلة أن تدعيها لنفسها[٤٧] ، وقد نزل القرآن الكريم بهذه اللغة المشتركة التي احبها العرب ، وسكنوا اليها ، وصاروا يصطنعونها فيما يصدر عنهم من نتاج أدبي رفيع •

---

(٤٥) الصاحبي : ٥٢ ، ٥٣ .
(٤٦) مستقبل اللغة العربية المشتركة : ٨ .
(٤٧) نفسه : ٩ .

وما يؤيد خلوّ اللغة الادبية المشتركة بين العرب من صفات اللهجات المحلية : « أن شعر الشعراء من ربيعة لا يعرف ما اشتهر عن لهجتها من كشكشة ، وشعر الشعراء من تميم لا يعرف العنعنة ، بل حين تتبع صفات لهجة هذيل في ديوان الهذليين لانكاد نعثر على شيء اللهم الا تلك الاشارات السريعة التي نراها في كلام بعض شراح الديوان ، وكلها لا تخلو من التكلف أو التعسف ، وربما كانت من صنع الرواة في العصور المتأخرة [٤٨] » .

قد يسأل المرء عن تلك الامثلة القليلة التي وردت في الشعر القديم مشتملة على صفات محلية لقبائل معينة ، مثل :

تزود منا بين أذناه طعنة   دعته الى هابي التراب عقيم

★

ان اباها وأبا أباها   قد بلغا في المجد غايتاها

ومثل :

أبيت أسرى وتبيتي تدلكي   شعرك بالعنبر والمسك الزكي

لقد فسرّ بعض الباحثين مثل هذه الابيات بواحد من أمور ثلاثة [٤٩] : الاول ان يكون الرواة قد اخطأوا في روايتها ، وانحرفوا بها عن الطريق المألوفة في لغة الشعر . الثاني ان الشاعر نظم البيت على حسب ما تقضي به قواعد اللغة المشتركة ، ثم ذاعت القصيدة ، ورواها بعض الاعراب على حسب ما تقضي به لغتهم المحلية . الثالث ان تلك الامثلة من بقايا الادب الشعبي للقبيلة ، ذلك الادب الذي عبرت به القبيلة عن شؤونها الخاصة ، واتخذت له لهجتها المحلية اداة للتعبير .

---

(٤٨) نفسه : ١٢ .
(٤٩) نفسه : ١٠ ، ١١ .

فالأدب الجاهلي الذي وصل الينا يخلو الى حد كبير من اللهجات المحلية، مما يدل على ان لغة مشتركة كانت قد شاعت بين قبائل الجزيرة جميعا كما ذكرنا ، وان العرب لم ينتهوا الى هذه اللغة ، الا بفضل النقد اللغوي المستمر الذي تعرّض له الشعراء والخطباء ، حتى تخلوا عن كثير من العادات الكلامية التي استبشعها النقاد ، وكانت قريش هي القبيلة التي قادت حملة النقد هذه ؛ لما تمتعت به من منزلة رفيعة ، وسلطان ديني واقتصادي كبير .

ولم يصل الينا شيء من النقد اللغوي الذي سبق مرحلة توحد اللغة ، والذي أدى الى توحيدها ، الا ان علماء اللغة قد اشاروا الى وجوده اشارات سريعة ، كاشارة ابن فارس السابقة . اما النقد اللغوي الذي تناول الشعر المنظوم باللغة الموحدة المشتركة ، فقد انتهت الينا نماذج منه ، ذلك لان النقد الادبي في العصر الجاهلي ، اتجه الى الصياغة والمعاني . والاحكام التي وصلت الينا من ذلك العصر ، تؤكد ذلك ، فالشعراء « حين كانوا يتمدحون بأشعارهم لا يجدون ما يصفونها به الا جودة السبك وقوة المعنى » [٥٠] . ومعنى ذلك ان جانبا من النقد الجاهلي كان نقدا لغويا ينصب على الصياغة ، ويتناول لغة الشاعر .

وأهم ما أخذه النقاد على الشعراء من حيث الصياغة ، هو الأقواء ، الذي كان يصدم الأذن العربية ، ويذهب بشيء ، غير يسير من روعة النغم وانسجامه. ويبدو أن الاقواء كثير في شعر البدو الضاربين في اعماق الصحارى ، وقد تنبه ابن سلام الى ذلك فقال : « وهو في شعر الأعراب كثير » [٥١] . ولعل السبب في ذلك يرجع الى « جفوة الاعراب وغلظ حسهم مما يحول بينهم وبين ادراك ذلك النشاز » [٥٢] . اما اهل القرى ، فهم أرهف حسا ، وأشد تنبها لهذا النوع من الشذوذ ، أو النشاز في موسيقى الشعر ومن أجل ذلك

(٥٠) تاريخ النقد الادبي عند العرب : ١٦ .
(٥١) طبقات فحول الشعراء : ٥٩ .
(٥٢) في تاريخ النقد : ٤٤ ، ٤٥ .

كان البداة من الشعراء لا يفطنون الى هذا العيب في شعرهم ، الا بعد ان يفدوا على المدن ، وقد وصف المرزباني اهل المدن بقوله : « وأهل القرى الطف نظرا من أهل البدو » [٥٣] . وقصة اقواء النابغة مشهورة ذائعة ، فقد أقوى في بيتين هما :

أمن آل مية رائح أم مغتدى عجلان ذا زاد وغير مزوّد

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الاسود

« فقدم المدينة فعيب ذلك عليه ، فلم يأبه له ، حتى اسمعوه اياه في غناء » [٥٤] .

وكان الشعراء من الاعراب يقعون في عيب آخر من عيوب الصياغة الشعرية، هو « الاكفاء » والاكفاء اختلاف حرف الروى ، بمعنى أن يكون الروى دالا ، ثم يأتي في بعض الابيات طاء ، أو يكون صادا ثم يأتي في بعض الابيات سينا ، وانما كان يدخل عليهم هذا العيب ، لتقارب مخارج هذه الحروف ، وتشابهها في الصفات ، يقول ابن سلام . « وقد يغلطون في السين والصاد والميم والنون والدال والطاء وأحرف يتقارب مخرجها من اللسان يشتبه عليهم ، انشدني ابو العطاف :

أرمي بها مطالع النجوم رميَ سليانَ بذي غُضُون

وقال زغيب بن نسير العنبري :

نظرت بأعلى الصوق والباب دونه الى نَعَم ترعى قوافي مِشْردِ

الصوق : يريد السوق . ثم قال : « كَحَيل ُمخلَط » فقلت له : قل : « معقد » فيصح لك المعنى وتستقيم القوافي . قال : أجل (فاستعدته فعاد الى قوله الاول) » [٥٥] .

---

(٥٣) الموشح : ٤٦ .
(٥٤) نفسه .
(٥٥) طبقات فحول الشعراء : ٦٦ .

ويبدو ان أهل المدن كانوا يفطنون الى هذا العيب ، وينبهون الشعراء عليه ، ذلك لأن بعض اهل المدن كانوا يكتبون ، والكتابة تجعل اصوات اللغة تأخذ صورا متميزة في أذهانهم ، فيستطيعون أن يميزوا ما بين الاصوات المتقاربة من فروق ، لان لكل حرف عندهم صورتين ، صورة مسموعة ، وصورة مرئية ، وذلك يقيهم الخلط بين الاصوات التي يقع فيها الاكفاء كالطاء والدال والميم والنون والسين والصاد واللام والنون ، أما الاعراب فيعرفون للصوت صورة واحدة هي المسموعة ، فيؤدي ذلك الى أن يشتبهوا في نطق الحرف ، ويضعوا مكانه حرفا آخر قريبا منه في المخرج أو الصفة [٥٦] .

وهناك لون آخر من النقد اللغوي في هذا العصر ، وهو الذي يتعلق بمعاني المفردات ، فقد يخرج الشاعر بالمفردة من مجالها الذي تستعمل فيه ، الى مجال آخر فيجرّ ذلك عليه النقد . ونقد طرفة للمسيب بن علس من هذا القبيل . قال المسيب :

وقد اتناسى الهمّ عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مُكْدَم

فسمعه طرفة ، فقال : استنوق الجمل . لأن الصيعرية سمة تكون في عنق الناقة لا في عنق البعير [٥٧] . ولما كان المسيب قد ذكر البعير ثم نعته بما تنعت به النياق ، سخر طرفة منه ، وقال قولته السابقة ، التي خلدت ، وصارت مثلا على التخليط وعدم وضع الشيء في موضعه .

وقصة النابغة الذبياني مع حسان ، صورة أخرى من صور النقد اللغوي في العصر الجاهلي . فقد روى ان النابغة أخذ على حسان في قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى واسيافنا يقطرن من نجدة دما

انه استعمل في مجال الفخر مفردات ، كان غيرها أولى منها بالاستعمال ، فقد ترك الجفان ، والسيوف وهما اليق بموطن الفخر ، لانهما جمع كثرة ،

---

(٥٦) في تاريخ النقد : ٤٥ ، ٤٦ .
(٥٧) الموشح : ١١٠ .

واستعمل الجفنات والاسياف وهما جمع قلة ،فقال لـــه النابغة : « اقللت جفانك واسيافك »[٥٨] • وقيل انه عاب كلمات اخرى هي : « الغر » و «الضحى» و « يقطرن »[٥٩] واقترح عليه ان يضع مكانها « البيض » و « يشرقــن » و « يجرين » لأنهما الصق بغرض الفخر •

وقد انكر الاستاذ طه احمد ابراهيم هذا الخبر ، وطعن في صحته ، لأن الجاهلي لم « يعرف جمع التصحيح وجمع التكسير وجموع الكثرة وجموع القلة ، ولم يكن له ذهن علمي يفرق بين هذه الاشياء كما فرق بينها ذهن الخليل وسيبويه ، ومثل هذا النقد لا يصدر الا عن رجل عرف مصطلحات العلوم ، وعرف الفروق البعيدة بين دلالة الالفاظ ، وألمّ بشيء من المنطق »[٦٠] • ولم ير باحث آخر في هذا الخبر ما يدعو الى التشكيك في صحته ، ذلك أن كلمة « أقللت جفانك واسيافك » لا تعني أن النابغة كان يعرف المنطق ومصطلحات العلوم ، « وانما مبلغ دلالتها ان العرب كانوا يفرقون بطبيعة حسهم اللغوي بين صيغة الجمع الدالة على القلة ، والصيغة الدالة على الكثرة ، وليس هذا مما يحتمل الانكار ، بل هو الامر الطبيعي وهو الذي بنى عليه علماء النحو كلامهم عن جموع القلة وجموع الكثرة ، والا فمن اين لهم هذه التفرقة بين صيغ الجمع من هذه الناحية ، الا ان يكونوا صدروا بها عن الاستعمال العربي الذي يفرق بين هذه الصيغة وتلك ، دون ان يكون هذا الاستعمال صادرا عن ذهن علمي كذهن الخليل »[٦١] •

لقد عني النقد في العصر الجاهلي باللغة ، ووصلت الينا أحكام من ذلك العصر تؤيد ذلك ، وهي أحكام تكاد تنحصر ـ كما رأينا ـ في التنبيه على الاقواء والاكفاء واستعمال بعض المفردات في غير مواضعها •

---

(٥٨) الموشح : ٨٢ •
(٥٩) نقد الشعر : ٥٣ ، ٥٤ •
(٦٠) تاريخ النقد الادبي عند العرب : ١٩ •
(٦١) في تاريخ النقد : ٤٢ ، ٤٣ •

أما في القرون الاسلامية فقد ازدهر النقد اللغوي ، ونما ، كغيره من جوانب النشاط الفكري ، حتى جعله بعض الباحثين ، كما تقدم ، أحد نوعين من انواع النقد لم يعرف لهما العرب ثالثا ، وهما النقد اللغوي ، والنقد البلاغي . وسيتضح لنا فيما يأتي من فصول ازدهار النقد اللغوي ، وكثرة ما وصل الينا من آراء فيه .

★ ★ ★

الباب الاول

العوامل المؤثرة في النقد اللغوي

الفصل الاول

الرواية

الرواية في أصلها اللغوي هي الاستقاء ، فقد جاء في اساس البلاغة : « رويت لهم ورويتهم : استقيت لهم » . ثم أطلقت الكلمة على أخذ الشعر أو الحديث ، لعلاقة النقل في كلّ . والراوية هو البعير الذي يستقى عليه [1] ، ثم أريد بها من ينقل الاشعار والاخبار ، وذلك على سبيل المجاز . ومن الاستعمالات المجازية لهذه الكلمة قولهم : « ان فلانا لراوية الديات » أي حاملها [2] ، والرواية بالمعنى الاصطلاحي ، أمر قديم ، عرفه العرب في الجاهلية، كما عرفوه في الاسلام ، ذلك لانهم قوم يحبون الشعر ، ويحرصون على تناقله ، تعمر به مجالسهم ، وتسير به ركبانهم ، ويتخذون منه ديوانا ، يؤولون اليه اذا أرادوا ان يذكروا شيئا من مفاخرهم ، ومناقبهم ، أو ما عرض لهم من أحداث ووقائع . والرواة عندهم نوعان : فمنهم من يروي شعر شاعر بعينه ، ومنهم من يروى لكثير من الشعراء ، ولا يختص بواحد [3] .

وتطور أمر الرواية في مطلع القرن الهجري الثاني ، فلم تعد تقتصر على إرضاء ما في نفوس القوم من رغبة في تناشد الاشعار ، وتناقلها ، التماسا للمتعة ، أو احياء لعصبياتهم ، وتمجيدا لقبائلهم ، بل نشأت طبقة خاصة من الرواة ، اتخذت من الرواية حرفة ، يقصدون منها الى الكسب ، او يبتغون بها وجه العلم فقط . ونشأت في مقابل ذلك ، طبقة من التلاميذ والمتعلمين ، كانوا يقصدون اولئك الرواة ، ويتحلقون حولهم في المساجد أو المنازل ،

---

(1) اساس البلاغة : ١٨٥ .
(2) نفسه : ١٨٦ .
(3) الرواية والاستشهاد : ٦ .

يقيدون ما يسمعونه من شعر وغريب وشروح وحوادث وأخبار • وربما كان ابو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) وحماد الرواية (ت ١٥٥ هـ) من اوائل المشتغلين بهذا اللون من الرواية العلمية ، اذا صح التعبير ، فهما مهدا الطريق لمن جاء بعدهما من الرواة ، قال ابن سلام : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق احاديثها حماد الراوية » [٤] • وفي نزهة الالباء : « كان خلف الأحمر اول من أحدث السماع بالبصرة ، وذلك أنه جاء الى حماد الراوية فسمع منه وكان ضنينا بأدبه » [٥] • وقد أخذ عن ابي عمرو وحماد ، أئمة الرواية الاخرون ، كخلف الاحمر والمفضل والاصمعي وابي عبيدة وابي عمرو الشيباني ، واخذ عن هؤلاء تلاميذهم كابن الأعرابي وأبي حاتم السجستاني ، ثم أخذ عن هؤلاء السكّري وثعلب وأضرابهما •

وكانت البادية المصدر الذي استقى منه هؤلاء الرواة علمهم ، فهم يتجمعون البوادي ، ويقصدون أخبية العرب ومضاربهم ، فيشافهونهم ، ويقيدون في ألواحهم ودفاترهم ما يسمعونه منهم أو ينصرفون عنهم وقد وعت صدورهم ما أخذوه وسمعوه • ولم تكن البادية وحدها مجال الالتقاء بالاعراب ، بل كانت البصرة وسوقها المربد موطنين آخرين من مواطن السماع والمشافهة يأتي اليهما الاعراب ، يمتارون ما يفتقرون اليه من البضائع ، فيتعلق بهم طلاب الشعر واللغة ، ويلتفون حولهم ، يلتقطون من أفواههم الشعر والغريب والاخبار •

ولم تنشط حركة الرواية الا في البصرة والكوفة ، ولم تنافسهما في هذا الجانب ، حاضرة أخرى ، وقد أحس رواة البلدين انفسهم بهذا التفرد ، فذكروا ما يؤيد ركود الرواية في الاقاليم الاخرى ، قال الاصمعي : « أقمت بالمدينة زمانا ، ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة الا مصحفة او مصنوعة »[٦]

---

(٤) طبقات فحول الشعراء : ٤٠ .
(٥) نزهة الالباء : ٥٣ .
(٦) مراتب النحويين : ٩٩ .

وأما بغداد فلم تنافس البصرة والكوفة في نشاط حـــركة الرواية ، وكثرة الرواة ، بل أفادت منهما ، بعد ان انتقل اليها عدد من علماء هاتين المدينتين ، الذين قرروا ضعف الرواية في بغداد ، وأظهروا عدم ثقتهم بما يسمعون من كلام العرب على الســنة أهلها . قال ابو الطيب اللغوي :« قال ابو حاتم : أهل بغداد حشو عسكر الخليفة ، لم يكن بها من يوثق به في كلام العرب ولا من ترتضي روايته فان ادعى أحد منهم شيئا ، رأيته مخلطا صاحب تطويل ، وكثرة كلام ومكابـرة » [٧] .

ولم يكن رواة البصرة وعلماؤها متفقين مع رواة الكوفة وعلمائها ، بل كان لكل منهم منهج في النقل والتلقي ، ومسلك في الدرس والتقعيد ، وقد أدى هذا الخلاف بين علماء المدرستين الى أن « يتعصب علماء كل مدرســة لمدرستهم ، ويجرحوا هم وتلاميذهم علماء المدرسة الاخرى ، ويضعفوهم ويرموهم بالوضع والكذب والتزيّد » [٨] .

وللرواية أثر جلي في النقد اللغوي ، فقد رافق الرواية ، ونشط بنشاطها وحفظت لنا كتب اللغة والأدب الوانا منه ، لم تكن لتظهر لـــولا الرواية . ونستطيع أن نقول ان النقد اللغوي الذي نشأ بسبب الرواية ، يمكن تقسيمه على قسمين : الاول نظري ويتمثل بالمقاييس التي كان الرواة يعرضون عليها الشعر ، فما وافقها منه قبلوه ورووه ، وما لم يوافقها طرحوه ، وأبوا روايته . والثاني عملي ، أو موضعي ، ينظر الى مواضع بعينها من لغة النص المروي ، ليقومها ، ويصلح ما فيها من خطأ .

أما المقاييس النظرية فهي :

الزمان والمكان : حين بدأ الرواة بجمع الشعر ، اختلفوا فيما يقبلونه منه ، وما يرفضونه ، فصنفوا الشعراء الذين ارتضوا لغتهم ، وقبلوا شعرهم ، تصنيفا يقوم على الزمان من جهة ، وعلى المكان من جهة أخرى « فأما الزمان

---

(٧) مراتب النحويين : ١٠١ .
(٨) مصادر الشعر الجاهلي : ٤٢٩ .

فقد قبلوا الاحتجاج بأقوال عرب الجاهلية وفصحاء الاسلام حتى منتصف القرن الثاني سواء أسكنوا الحضر أم البادية » [٩] . واستمر العلماء يتتبعون أهل البادية ، ويأخذون اللغة عنهم ، حتى فسدت سلائقهم في آخر القرن الرابع الهجري . [١٠] وأما الضابط المكاني ، فقد كان محط خلاف بين الرواة واللغويين ، فتزمت البصريون ، وضيقوا على انفسهم فلم يأخذوا الا من الاعراب الذين سكنوا الصحراء ، وبعدت منازلهم عن التخوم . أما الكوفيون فكانوا أسلس خطة ، وأكثر حرية في جمع الشعر وروايته ، لانهم ضموا الى « الاطلس اللغوي » كثيرا من القبائل التي ابعدها البصريون ، ولم يعترفوا بسلامة لغاتها .

فالذين نقل البصريون عنهم ، ورووا شعرهم وأقوالهم ، هم – على مانقله السيوطي عن الفارابي – : « قيس وتميم وأسد ، فان هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما اخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي الاعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم . فانه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم اهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان وأياد ، لمجاورتهم اهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت ألسنتهم » [١١] .

---

(٩) في اصول النحو : ٦ .
(١٠) اللغة والنحو بين القديم والحديث : ١١٧ .
(١١) المزهر : ٢١١/١ ، ٢١٢ .

أما الكوفيون فقد ارتضوا لغات الشعراء الذين ينتسبون الى قبائل جاورت الحضر ، أو خالطتهم ، كأعراب سواد الكوفة من تميم وأسد ، وأعراب سواد بغداد من أعراب الحطميّة ، الذين ترّفع البصريون عن الاخذ عنهم ، ولحنوهم واتهموا الكسائي بأنه أفسد النحو ، اذ وثق بهم ، وأخذ عنهم ، واستنصر بلغتهم عن سيبويه في المناظرة المعروفة التي جرت بينهما (١٢) •

لقد اتخذ الرواة البصريون من « البداوة » مقياسا لجودة الشعر وسلامته ، فلم يرووا منه الا ما كان بدويا ، لم يعرف قائله الحضر ، ولم يذق عيش أهل المدن والارياف • وكان الذي دفعهم الى ذلك ، ما وقر في نفوسهم ، من أن الحاضرة تنسخ سليقة البدوي ، وتدخل الضيم على لسانه ، وتجلب الفساد للغته ، بسبب من يقطنها أو يفد عليها من الاعاجم •

وبسبب هذه النظرة لم يوثقوا شعر بعض الجاهليين الذين ترددوا على الحواضر وطال غيابهم عن البادية ، فرقت الفاظهم ، وسهلت وعورتهم كعدي ابن زيد وأبي داود الايادي• لقد كان الاصمعي يصفهما بلين اللسان، ويقول : « لاتروي العرب أشعارهما لان الفاظهما ليست بنجدية »(١٣) • وقال ابن سلام عن عدى : « كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه » (١٤) • وجاء في الموشح عنه أنه كان يسمع الوفود التي تفد على ملوك الحيرة فيدخل لغاتهم في شعره (١٥) •

لقد كان مقياس « البداوة » مقياسا صارما ، أخذ به الرواة البصريون ، ولم يتسامحوا في تطبيقه ، فرفضوا كثيرا من الشعر الذي ظهرت عليه الرقة ، أو جرت فيه لغة الحضر • قال ابو حاتم : « قلت للاصمعي : اتجيز (انك لتُبرق لي وتُرعد) فقال لا ، انما هو « تَبرق وتَرعد » فقلت له : فقد قال الكميت :

---

(١٢) مدرسة الكوفة : ٣٧٧ •
(١٣) الموشح : ١٠٤ •
(١٤) طبقات فحول الشعراء : ١١٧ •
(١٥) الموشح : ١٠٣ •

أبرق وأرعِــــد يا يزيـــــ ـد فمــا وعيـدك لي بضائـر

فقال : ذاك جرمقاني من أهل الموصل ولا آخذ بلغته » [١٦] .

وكان من أثر هذا الموقف الذي اتخذه الرواة والعلماء من الشعر البدوي، أن نزع بعض الشعراء في العصر الاموي « الى مجاراة العرب الخلّص كمـا يتمثلون في أهل البادية ، واتخاذ سنتهم ، واصطناع اساليبهم ، وخاصـة اللغة » [١٧] . وحين سال بشر بن مروان الاخطل عن الفـرزدق وجرير ، واستعفاه من الحكم بينهما ، ثم قال : الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر ، لم يرض جرير أن يوصف بالسلاسة والليونة ، فكان ذلـك سببا لهجائه الاخطل [١٨] .

وكان جرير أيضا يعيب شعر بعض الحجازيين لرقته ، ويصمه باللين ، ويقول عنه انه تهامي اذا أنجد وجد البرد ، يعني بذلك انه ليس له صلابة الشعر النجدي ، وقوة متنه ، وجزالة بنائه [١٩] .

وكان الكميت نفسه قد هوي الشعر البدوي ، وحرص على تقليد لغته حتى قيل انه قلد احدى قصائد ذي الرمة ، فوضع قصيدة على نهجها ، وصاغها على غرارها ، فنجح في هذه المحاولة بعض النجاح [٢٠] . وأظن انه لم يفعل ذلك الا ليتقرب من اللغويين ، الذين لم يرضوا عن شعره ، ونالـوه بالنقـد والتجريـح .

وقاد تشجيع الرواة للشعر البدوي الى ان يرحل الشعراء الى الباديـة ويتجشموا مشقة الحياة فيها ، ليعودوا منها وقد صحت سلائقهم ، وفصحت السنتهم فيكسبوا ثقة النقاد ، ويظفروا باعجابهم ، وقد انبأتنـا كتب الادب والتراجم برحلة بعض المولدين الى البادية ، كبشار الذي عاش في كنف بني

---

(١٦) المزهر : ٢/٢٧٥ .
(١٧) في تاريخ النقد : ١١٧ .
(١٨) طبقات فحول الشعراء : ٤٠٨ .
(١٩) الموشح : ٢١٨ .
(٢٠) في تاريخ النقد : ١١٦ .

عقيل زمانا طويلا [٢١] ، وابي نواس الذي قصد البادية ، ومكث فيها عاما [٢٢] .

لقد كان البدو ، اذن ، في نظر الرواة والنقاد « حجة لا يعتورها الشك في جميع مسائل اللغة ، وكم خلاف بين علماء اللغة حول التفسير الصائب لبيت من الشعر ، أو حول صحة تعبير من التعبيرات ، رفعه حكم بدوي حاضر عرضا » [٢٣] . واذا أحب النقاد ان يقرظوا شاعرا ، او يرفعوا منزلة أديب وصفوه بأنه ينطق كما ينطق البدوي ، فيكون ذلك أبلغ ثناء عليه ، وأحسن تقريظ له [٢٤] .

و « الغريب » مقياس آخر من مقاييس الرواة النقدية ، فقد جدوا في طلبه ، واحتفلوا بالشعر المشتمل عليه . وكان الباعث لهم على ذلك ما كانوا بصدده من جمع اللغة وتقييدها بواضحها وغريبها . وآية كلف الرواة بالغريب وتنافسهم على التقاطه ، ما حكاه الاصمعي ، فقال : « جئت الى ابي عمرو بن العلاء فقال : من أين اقبلت يا أصمعي ؟ قلت : من المربد . قال هات ما معك . فقرأت عليه ما كتبت في الواحي ، ومرت به ستة أحرف لم يعرفها ، فخرج يعدو في الدرجة وقال : شمّرت في الغريب [٢٥] .

وقد كان لهذا المقياس ـ أعني الغرابة ـ أثر كبير في شعر الاسلاميين والمولدين ، فقد حمل كثيرا منهم على الاكثار من الغريب ، وتوشيح أشعارهم به ، وكان الكميت أحد المولعين بالغريب ، حتى لينسب اليه أنه قال : « اذا قلت الشعر فجاءني أمر مستو سهل لم اعبأ به ، حتى يجيء شيء فيه عويص فأستعمله » [٢٦] .

---

(٢١) الاغاني : ٣/١٥٠ .
(٢٢) اخبار ابي نواس : ١/١٢ .
(٢٣) العربية : ٥٢ .
(٢٤) نفسه : ٥٣ .
(٢٥) ذيل الامالي والنوادر : ١٨٢ .
(٢٦) الموشح : ٣٠٢ .

وكان الاحتفال بالغريب أحد المقاييس التي اعتمد عليها ابن سلام ، فقدم النابغة الجعدي على طرفة ؛ تجعل الاول في الطبقة الثالثة وقال عنه :

« وكان فصيحا كثير الغريب ، متمكنا من الشعر » وأخر الثاني الى الطبقة الرابعة لسهولة منطقه ، وقلة ما بأيدي الرواة من شعره [٢٧] .

وكان الذي بعث الرواة على الاحتفال بالشعر الكثير الغريب ، هو اعتقادهم بأنه صحيح النسبة الى قائليه ، أو غير منحول ، لانهم كانوا يرون ان الشاعر اذا لانت الفاظه ، حمل عليه ما لم يقله ، فكأن لين الفاظه ، يسهل على الوضاعين مجاراته ، والنسج على منواله . قال ابن سلام : « وعدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحمل عليه شعر كثير ، وتخليصه شديد » [٢٨] .

ولم يكن الرواة وحدهم يحبون الغريب ، ويرفعون من شأن الشعر المشتمل عليه ، بل كان بعض الحكام يشجعونه ، ويثيبون الشاعر اذا ضمن شعره شيئا منه . وكان الشعراء حريصين على ارضاء ممدوحيهم ، واتخاذ السمت الذي يعجبهم ، فبشار مثلا حين علم أن الامير سلم بن قتيبة يحب الغريب ، ويعد نفسه بصيرا به ، مدحه بأرجوزة ملأها بالنادر المتخّل من الالفاظ [٢٩] .

على أن اصطناع الشاعر الغريب لم يكن دائما محط اعجاب النقاد وأهل اللغة ، وانما كانوا يقبلونه ممن عرف بالبداوة ، ويرفضونه ممن كان يتعلمه ، أو يتصيده من أفواه الرواة . فالكميت والطرماح كانا يكثران من الغريب ، الا ان العلماء أبوا الافادة من غريبهما ، لانهما أخذاه بالتعلم ، ولم يجر على لسانيهما فطرة ، قال الاصمعي : « الكميت تعلم النحو وليس بحجة . وكذلك

---

(٢٧) طبقات فحول الشعراء : ١١٠ .
(٢٨) نفسه : ١١٧ .
(٢٩) الاغاني : ٣/١٩٠ .

الطرماح وكانا يقولان ما قد سمعاه ولا يفهمانه . وقال رؤبة : « كانا يسألانني عن غريب شعرهما » [٣٠] .

ومن المقاييس النقدية التي احتكم اليها الرواة في قبول لغة الشعر او رفضها ، هو مقياس « الطبع والصنعة » ، فقد عدوا الصنعة مع الجودة عاملا للطعن ، وعدوا الطبع حتى مع الرداءة عاملا من عوامل الثقة والقبول . وكان الاساس الذي قامت عليه نظرتهم هذه ، هو أن الشاعر الاصيل ذا الفطرة السليمة « هو الذي تجيء لغته في شعره سليقة وطبعا ، وهو بذلك قريب من البدوي الذي تتدفق اللغة على لسانه بلا تكلف أو تعمل ، أما ذلك الذي يجود شعره ويصنعه فان دافعه لذلك من وجهة نظرهم هو ضعف سليقته ، وبعده عن الفطرة السليمة [٣١] . وكان الاصمعي « يعيب الحطيأة ويتعقبه فقيل له في ذلك ، فقال : وجدت شعره كله جيدا ، فدلني على أنه كان يصنعه ، وليس هكذا الشاعر المطبوع ، انما الشاعر المطبوع الذي يرمي بالكلام على عواهنه : جيده على رديئه »[٣٢] . ويعني ذلك ان الاصمعي واضرابه من النقاد واللغويين والرواة ، كانوا يعيبون تثقيف الشعر وتهذيبه ويعدون ذلك ناجما عن ضعف السليقة اللغوية ، الا ان نظرتهم هذه لم تمنعهم من الاحتجاج بشعر زهير ، ومن تبعه من الشعراء الذين كانوا يعنون بصقل اشعارهم وتحكيكها .

والى هذه المقاييس النظرية التي وضعها الرواة اساسا يبنون عليه قبولهم لغة المروي ، أو رفضهم لها ، ظهر حول الرواية لون آخر من النقد اللغوي ، وهو الذي سميناه في صدر هذا الفصل بالنقد العملي ، لانه يقوم بتسليط الضوء على لغة النص ، لمعرفة المواضع التي لحقها التغيير .

لقد كان الباعث على هذا اللون من النقد اللغوي ، هو ما لحق المتون المروية من تغيير كان بعضه مما عمد اليه الرواة ، وكان الاخر قد حدث على

---

(٣٠) الموشح : ٣٠٢ .
(٣١) الرواية والاستشهاد باللغة : ٣٦ .
(٣٢) الخصائص : ٢٨٢/٣ .

غير عمد منهم . فأما التغيير الذي حدث في النصوص المروية بلا قصد فقد كان نوعين ، هما التصحيف والتحريف . ويبدو ان الاول كان ينشأ عن طبيعة الخط العربي ، وتقارب صور الحروف ، ومن امثلته ما جاء في جمهرة ابن دريد : « أنّ الماء يؤنّه أنا : صبه . وفي كلام للقمان بن عاد : أن ماء واغله أي صبّ ماء واغله . وكان ابن الكلبي يقول : ازّ ماء (بالزاى) ويزعم أنّ أ'نّ تصحيف »[٣٣] . أما التحريف فهو تغيير كلمة بأخرى ، أو احلال لفظ محل لفظ . يقول العسكري في قول ابن أحمر الذي روي على هذا الوجه :

فلا تَصلي بمطروق اذا ما سرى بالقوم أصبح مستكينا

انما هو « اذا ما سرى في الحي » ثم يقول : « وهذا من التحريف لا من التصحيف »[٣٤] . ويبدو أن السبب في حدوث التحريف ، ان لم يقصد اليه قصدا ، هو ما يعتري الذاكرة من ضعف يؤدي الى أن تغير الكلمة بالكلمة ، أو يوضع مكان التركيب تركيب غيره . وقد اشار بعض الباحثين الى أثر الذاكرة فيما نال المروي من تحريف فقال : والذاكرة « مهما بلغت من الدقة ، ومهما ساعد الوزن الشعري على صحة الرواية ، لابد أن تزلّ ، فتجعل لفظا مكان آخر ، أو تنسى من القصيدة بيتا أو ابياتا ، فللذاكرة قدرة محدودة ... ولا نستطيع أن نتصور ان الرواة في تلك العصور كانوا جميعا ذوي مقدرة واحدة في رواية الشعر القديم وتذكره ، واذا صحت رواية الراوي ، فربما لم تصح رواية من سبقه ، وهكذا لا يمكن أن نجزم ان الشعر القديم قد خلا من أي تحريف » [٣٥] .

وظاهرة التصحيف كانت ظاهرة شائعة في التراث ،لم يكد أحد من العلماء يسلم من التورط فيها ، الا ان النقاد اللغويين لم يتركوا النصوص تشكو من هذه الافة التي تفسدها ، وتجعلها غير صالحة لان يقام عليها درس ،

(٣٣) الجمهرة : ٢٢/١ .
(٣٤) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف : ٧٧ .
(٣٥) موسيقى الشعر : ٢٩٢ ، ٢٩٤ .

أو يستنبط منها حكم وآية اهتمام النقد اللغوي بهذه الظاهرة ، وسعيه الى تخليص النصوص منها ، ما نراه من كتب عديدة تعالجها ، ككتاب « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة بن حسن الاصفهاني ، وكتاب التنبيهات على اغاليط الرواة » لعلي بن الحمزة البصري وكتاب « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » لأبي أحمد الحسن بن عبدالله العسكري . ومن الامثلة على النقد اللغوي المتعلق بالتصحيف قول ابي زيد تعليقا على بيت لامرىء القيس رواه ابو عمرو بن العلاء على هذا النحو :

تأوّبني دائي القديم فغلّسا   احاذر ان يشتد دائي فأنكسا

قال ابو زيد : « هذا تصحيف لان المتأوب لا يكون مغلّسا في حال واحدة ، ولأن « غلّس » انما هو أتى في آخر الليل ، وتأوّب جاء في أوله ، وانما هو « فعلّسا » أي اشتد وبرّح »[٣٦] . وكان الاصمعي قد صحف بيتا لذي الرمة فرواه على هذا الوجه :

فيها الضفادع والحيتان تصطخب

فقال ابو علي : « اي صوت للسمك ؟ انما هو تصطحب أي تتجاور »[٣٧] .

وهذان المثالان يكشفان لنا عن ان النقاد لم يقبلوا لغة النصوص المروية على علاتها ، ولم تمنعهم المنزلة العلمية لمن روى تلك النصوص ، من نقدها ، واطالة النظر فيها ، لمعرفة ما داخلها من خطأ ، والارشاد الى الصواب فيه .

وأما الضرب الثاني من التغيير فهو الذي كان الرواة انفسهم يقصدون اليه ، ويدخلونه على ما يروونه من نصوص ، لاسباب مختلفة ، وأغراض شتى . ولم يخف هذا الضرب أيضا على النقاد اللغويين ، بل فطنوا اليه ، وخلصوا النصوص المروية منه . ونستطيع أن نقسّم التغيير العامد للرواية ، بحسب

(٣٦) التنبيه على حدوث التصحيف : ١٢٣ .
(٣٧) نفسه : ١٢٤ .

ما وراءه من أغراض ، الى نوعين : الاول ويتمثل في تحريف المروي ، وافساد لغته ، بقصد التشهير بقائله ، ووصمه بالخطأ ، أو البعد عن الفصاحة . وقد فطن النقاد اللغويون الى هذا ، فأعلنوا برمهم به ، وصبوا لومهم على من كان يتعاطاه من الرواة . ومن الامثلة على هذا النوع أن عيسى بن يزيد بن دأب (ت ١٧٠ هـ) روى بيتا للأعشى على هذا الوجه :

من دعا لي غزيّلي　　　أربح الله تجارته

ثم زعم ان الاعشى هكذا قاله ، أي بحذف الالف التي قبل « الهاء » في « الله » وتسكين « الهاء » ورفع « تجارته » وهي منصوبة . وقد جرّ ابن دأب على نفسه بهذا التغيير لوم الاصمعي وتقريعه [٣٨] . وموقف الاصمعي هذا هو مظهر ثان من مظاهر النقد اللغوي العملي القائم حول الرواية ، وهو كما رأينا يهدف الى فحص لغة النص المروى ، لمعرفة ما طرأ عليها من تغيير ، جلبه الرواة انفسهم ، بقصد النيل من المنشيء ، والغض من قدره .

اما النوع الثاني من التغيير العامد الذي لحق بعض النصوص المروية ، فقد كان الباعث عليه ، الرغبة في نصرة رأي أو تعزيز قاعدة . وقد أقدم بعض النحاة على مثل هذا التغيير ليجعلوا بعض النصوص موافقة لما ذهبوا اليه من آراء . ولكن النقاد اللغويين لم يفتهم أن يدركوا ذلك التغيير ، بل نبهوا عليه ، وارشدوا الى الرواية الصحيحة لتلك النصوص . ومن العجيب أن سيبويه نفسه كان قد اتهم بتغيير الرواية ليجعلها موافقة لما ذهب اليه من آراء . فمن ابيات سيبويه :

فاليوم اشربْ غير مستحقب　　　اثما من الله ولا واغل

و :

رحت وفي رجليك ما فيهما　　　وقد بدا هنْك من المئزر

(٣٨) الاغاني : ٥٦/٦ .

ساق الاول لتأييد أن المضارع قد يجزم بلا اداة جزم ، وساق الثاني شاهدا على ان العرب قد تسكن المرفوع . وقد طعن المبرد في رواية سيبويه لهذين البيتين ، وقال : « ان الرواية في الاول « فاليوم فاشرب » وفي الثاني « وقد بد ذاك من المئزر » » . اما ابن جني فقد دافع عن سيبويه ، ونزهه عن الكذب ، فقال مناقشا المبرد : « وقول ابي العباس انما الرواية : فاليوم فاشرب ، فكأنه قال لسيبويه : كذبت على العرب ، ولم تسمع ما حكيته عنهم ، واذا بلغ الامر هذا الحد من السرف فقد سقطت كلفة القول معه . وكذلك انكاره عليه أيضا قول الشاعر : وقد بدا هنك من المئزر ، فقال : انما الرواية : وقد بدا ذاك من المئزر . وما اطيب العرس لولا النفقة » [٣٩] .

وتكرر اتهام سيبويه بتغيير الرواية ، ليجعلها موافقة لآرائه ، في كتاب « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة بن الحسن الاصفهاني وكتاب « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » لابي احمد العسكري . ففي الاول : « وصدّر سيبويه كتابه بباب ضمّنه اشعارا على روايات توافق ما بنى عليه الباب ، يخالفه رواة الشعر في أكثرها ، ضمنه روايته لقول الشاعر :

ألم يأتيك والانباء تنمي بما لاقت لبون بني زياد

ورواه غيره : ألم يبلغك . واذا روي على هذا لم يكن لسيبويه فيه حجة [٤٠] .

وفي الثاني : «ومما غلط فيه النحويون من الشعر ، ورووه موافقا لما ارادوه ، روي عن سيبويه ،عندما احتج به في نسق الاسم المنصوب على المخفوض قول الشاعر :

معاوى اننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديدا

---

(٣٩) المحتسب : ١/١١٠ ، ١١١ .

(٤٠) التنبيه على حدوث التصحيف : ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

وغلط على الشاعر ، لان هذه القصيدة مشهورة ، وهي مخفوضة كلها ، وأولها :

معاوي اننا بشر فأسجح   فلسنا بالجبال ولا الحديد
اكلتم ارضنا فجردتموها   فهل من قائم او من حصيد
فهبها أمة هلكت ضياعا   يزيد يسوسها وأبو يزيد[41]

لقد لفت النقاد اللغويين ما في لغة هذه الشواهد وامثالها ، من خروج على المألوف من قواعد العربية ، فشكوا فيها ، وأخذوا يبحثون عن الرواية الصحيحة لها ، أو يبحثون عن القصائد التي انتزعت منها ، ليروا مدى صحة رواية النحاة لها ، وقد هداهم البحث الى ما اصاب تلك الشواهد ، على أيدي النحاة ، من تغيير وتبديل ، فنبهوا على ذلك ، وأعلنوا انها شواهد محرّفة ، لا يعتد بما بني عليها من احكام نحوية .

وارتاب النقاد اللغويون ايضا بطائفة من شواهد النحاة ، فوصفوها بأنها مختلقة ، تفوح منها رائحة الوضع ، وهي اما اخترعها النحاة انفسهم ، أو طلبوا اختراعها من « الاعراب المستعدين لتلبية الطلبات » [42] ليعزوا بها قواعد لم يجدوا لها في كلام العرب ما يسندها ، وينهض شاهدا على صحتها . ولعل الذي جعل النقاد اللغويين يشكون في صحة تلك النصوص ما لا حظوه على لغتها من سمات تجعلها أقرب الى اشعار المبتدئين . ومما زادهم شكا فيها أن النحاة لم يعزوا كثيرا منها الى أحد . ولا شك في أن خبرة هؤلاء النقاد بكلام العرب ، ومعرفتهم الواسعة بطرائقهم في التعبير هي التي جعلتهم يهرجون تلك الشواهد ، ويظهرون عدم ثقتهم بها . ومن الشواهد التي لم تحظ بثقة النقاد اللغويين ما رواه خلف شاهدا على أن العرب صاغوا بناء « فُعال » من الاعداد متسقا الى « عُشار » . أنشد خلف [43] :

---

(41) شرح ما يقع به التصحيف والتحريف : ٢٠٧ وانظر الشعر والشعراء ٩٨/١ ، ٩٩ .
(42) الرواية والاستشهاد باللغة : ٥٤ .
(43) درة الغواص : ٩١ ، ٩٢ .

قل لعمرو يا ابن هند　لو رأيت اليوم شنّا
لرأت عيناك منهم　كل ما كنت تمنّى
اذ أتتنا فيلق شهباء من هنّا وهنا
واتت دوسر والملحاء سيرا مطمئنا
ومشى القوم الى القوم أحادى وأثنا
وثلاثا ورباعا وخماسا فاطعنا
وسداسا وسباعا وثمانا فاجتلدنا
وتساعا وعشارا فاصبنا وأصبنا
لا ترى الا كميّا قاتلا منهم ومنا

وقد علق الخفاجي على هذه الابيات بقوله : « هذه الابيات موضوعة ورائحة الوضع تفوح منها . وكان خلف الاحمر متهما بالوضع »[44] . وكان الخفاجي على حق في شكه لان لغة الابيات تنادي عليها بأنها موضوعة ومخترعة ، وضعها خلف ، أو غيره من النحاة ، بقصد ان يسند بها قاعدة نحوية لم يجد لها في كلام العرب ما يعززها .

وهكذا كان النقاد اللغويون يحرصون على اصلاح النصوص المروية ، واقامة متنها ، والعودة بها الى الصورة التي تركها عليها منشئوها ، أو الى صورة قريبة منها . وليت النقاد اللغويين اكتفوا باصلاح الخطأ الذي لحق النصوص بسبب رواتها ، لان هذا العمل يخدم العلم ، ويصحح مادته ، ويوثق الاسس التي يقوم عليها ، ولكنهم كانوا يصححون الاخطاء التي وقع فيها المنشيء اصلا ويغيرون مالا يروقهم أو يرضيهم من الفاظه وتراكيبه ، فكان ذلك يؤدي الى ضياع ما قاله المنشيء حقا . وكان الرواة بذلك يصدرون عن مبدأ تعارفوا عليه ، وهو أنهم لا ينقلون نصا ، ولا يقدمون على روايته ، قبل ان يصلحوه، ويرموا ما وهى منه ، أو يخلّصوه مما يشوبه من اخطاء في المعاني او الصيغ والتراكيب . وكأنهم كانوا يأنفون من رواية الخطأ ، وان كانوا يعلمون انهم

---

(٤٤) شرح درة الغواص : ١٩١ .

غير مسؤولين عنه ، لانهم رواة او نقلة . ومن النصوص التي لم يرتض النقاد صياغتها ، فغيروا الفاظها قول جرير :

فيالك يوما خيره قبل شره تغيّب واشيه وأقصر عاذله

هكذا قال جرير ، وهكذا أنشده الاصمعي ، وكان خلف حاضرا ، فقال خلف : « ويله وما ينفعه خير يؤول الى شر . قلت (الاصمعي) : هكذا قرأته على ابي عمرو بن العلاء . فقال لي : صدقت ، وكذا قاله جرير ، وكان قليل التنقيح ، مشرّد الالفاظ ، وما كان ابو عمرو ليقرئك الا كما سمع . فقلت : فكيف كان يجب ا ذيقول ؟ قال : الاجود له لو قال : خيره دون شره . فاروه هكذا ، فقد كانت الرواة قديما تصلح من اشعار القدماء . فقلت : والله لا أرويه بعد هذا الا هكذا »[٤٥] . فعلى الرغم من صحة النص عن قائله ، وعمن رواه ، وهو أبو عمرو ، وثبوت ذلك عند الاصمعي وخلف أيضا ، فأنهما غيراه وبدّلا الفاظه ، اعتمادا على ما ساد بينهم ، وهو أن الرواة كانت قديما تصلح اشعار الاوائــــل .

ويبدو ان الشعراء كانوا مختلفين في حق التغيير والتبديل في النص الذي ادّعاه النقاد لانفسهم ، فمن الشعراء من أقرهم عليه ، وأطلق ايديهم فيما يروونه من شعره ، لينقحوه ، ويغيروا مالا يعجبهم منه ، ويأتون بما يعتقدونه أنسب له ، بل ان من الشعراء من كان لا يتولى تنقيح شعره اعتمادا على تنقيح النقاد من الرواة ، قال ابن مقبل : « اني لارسل البيوت عوجا فتأتي الرواة بها قد اقامتها »[٤٦] . ومن الشعراء من لم يعجبهم هذا المبدأ ، واحسّوا بخطره على شعرهم فحرص بعضهم على كتابة شعره ، ليمنع النقاد والرواة من اجراء التغيير فيه ، كما فعل ذو الرمة ، حين قال لراويته موسى بن عمر : « اكتب شعري فالكتاب أعجب الي من الحفظ ، لأن الاعرابي ينسى الكلمة قد تعب في طلبها ليلة ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب

---

(٤٥) الموشح : ١٩٨ ، ١٩٩ .
(٤٦) مجالس ثعلب : ٤٨١ .

لا ينـى ولا يبدل كلاما بكلام »[٤٧] . واكتفى بعضهم بالاعراب عما ينتابه من قلق على شعره ، بسبب المبدأ المذكور ، فقال ، والقائل الحطيأة : « ويل للشعر من راوية السوء » [٤٨] .

ومهما يكن فان هذا اللون من النقد اللغوي العملي القائم حول الرواية الذي يفضي الى تغيير لغة المنشيء ، وتبديل الفاظه ، كان أمرا مختلفا فيه ، فمنهم من رآه عبثا بالمروي ، وتجاوزا عليه ، ومنهم من رآه نافعـا يقوّم ما اعوجّ من لغة المروي ، ويصوّب ما لحق معناه من الخطأ . وأما العلم فلا يجيز ذلك لأنه افتئات على الحقائق ، وافساد للنتاج الأدبي ، الذي كان على الدارسين والرواة ان يحافظوا عليه ، ويرووه كما صدر عن منتجيه .

فمؤدى أثر الرواية في النقد اللغوي : أن العلماء فحصوا ما وصل اليهم من الشعر ،واجالوا البصر في اعطافه ، فقبلوا منه ما قبلوا ، وزيفوا منه ما لاح عليه طابع الوضع والافتعال ، وارشدوا الى ما عرا بعضه من خلل وتحريف ، حتى لنستطيع ان نقول : ان حركة الرواية ، قد خضعت اولا لمقاييس نظرية صدر عنها الرواة في قبول الشعر وروايته ، أو رفضه وطرحه ، ثم قامت بسببها حركة نقدية عملية ، مهمتها فحص المروي ، وتسليط الضوء على متنه ، لمعرفة ما شاب ذلك المتن من اخطاء ، وما طرأ عليه من تغيير . وقد كان لحركة النقد اللغوي هذه أثر كبير في تصحيح الموروث ، وتخليصه مما علق به من أوهام ، واندس فيه من تصحيف ، ولولا هذا النمط من النقد الذي رافق الرواية ، لورثنا ما ورثناه محرّفا ، لا يعتد به ، ولا يطمأن اليه . وكان اختلاف النقاد في النظر الى الموروث من الشعر مصدر خير له فلو اتفقت كلمتهم على اهمال ما اهمله البصريون من شعر القبائل التي لم يسلموا لهـا بالفصاحة ، لحرمنا كثيرا من الشعر ، وللحقت ادبنا خسارة فادحة ، ولكانت الخسارة مضاعفة ، لان هذا الشعر الذي نقل الينا لم يكن كل ما قالته

---

(٤٧) العمدة : ٢/٢٥٠ .
(٤٨) الاغاني : ٢/١٩٥ .

العرب ـ على حد قول ابي عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » [٤٩] ـ فاذا أسقط منه البصريون المتزمتون ما اسقطوه ، كانت الخسارة اعظم ولكن حرية الكوفيين في النقل ، حفظت لنا كثيرا من التراث .

وهناك عوامل أخرى استدعت ان يهتم النقاد بلغة الادب ، ويقفوا عليها جهودهم . وكان التطور اللغوي الذي صاحب العربية عقب موجة الفتح الكبرى ، ثم استمر بعدها ، عاملا من تلك العوامل ، حمل النقاد على ان يراقبوا اللغة ويعملوا على حمايتها ، وعلى تبصير المنشئين بما اخذوا يتورطون فيه من زيغ وانحراف عن جادة التعبير اللغوي السليم ، وسنعرض في الفصل القادم لهذا العامل ، ونبرز أثره في حركة النقد اللغوي .

---

(٤٩) طبقات فحول الشعراء : ٢٣ .

الفصل الثاني

التطور اللغوي

ان العربية ، متمثلة في الشعر الجاهلي ، والقرآن الكريم ، لغة نامية ، متطورة بلغت درجة كبيرة من النضج والاستواء ، بعد أن قطعت مراحل ، وتعاقبت عليها اطوار ، تنقلت خلالها من حال الى حال ، و « هذه النصوص الجاهلية تقدم للباحث نماذج عالية من العربية ، وهذه النماذج لا يمكن ان تكون بأي حال من الاحوال من البدايات في اللغة ، فلابد ان تكون العربية قد قطعت قبل هذه النصوص مراحل أخرى في تاريخها ولم تكن فيها على هذا المستوى العالي من حيث قدرة اللغة على اداء المعاني ، ومن توافر المادة العربية للتعبير عن النواحي المادية ، وانصرافها الى المعنويات من الامور توسعا ومجازا » [١] .

واذا كانت العربية التي نزل بها القرآن الكريم وليدة مراحل كثيرة ، فانها ، شأنها شأن أي لغة ، لم تكف عن التطور ، ولم تجمد على ما هي عليه ، بعد الاسلام ، بل ظلت تجري في سبيل التطور ، خاضعة في ذلك لعوامل ونواميس تؤثر في كل لغة ، وتعمل على تغييرها [٢] . وكان لظهور الاسلام أثر بعيد في حياة العربية [٣] ، فقد عمل على نشرها ، وتوسيع رقعتها ، وزيادة عدد المتكلمين بها من غير العرب ، فكان ذلك سبب ما نالها من فساد وتحريف اذهل علماء اللغة ، وأثار دهشتهم ، فهبوا يصونون اللغة منه ، ولكنه كان أقوى من أن تقفه صرخاتهم ، أو ترد موجته العاتية محاولاتهم الكثيرة المتنوعة .

---

(١) التطور اللغوي التاريخي : ٥٩ .

(٢) ينظر مثلا : لحن العامة والتطور اللغوي : ٣٤ وما بعدها .

(٣) العربيـة : ١ .

لقد زحفت العربية مع الفاتحين ، ونزلت في الامصار التي أظلها الاسلام ، « فكان ذلك ايذانا بشروق عصر جديد للغة العربية » [٤] ، اذ أن تموز العربية الى مناطق جديدة « كانت تستوطنها لغات أخرى ، لم يكن ليمر عليها دون تأثير أو تغيير » [٥] .

وكان عمر (رض) قد تنبّه لما قد يجره اختلاط العرب بغيرهم من أبناء الاقاليم المفتوحة ، من أخطار تتناول لغتهم ، وكثيرا من مظاهر حياتهم وتقاليدهم ، فحرم عليهم أن يتملكوا الضياع في الاقاليم الجديدة ، أو أن يتخذوها لهم وطنا ومقاما ، لكي يحفظهم « من التلاشي في جماهير الشعوب المغلوبة » [٦] .

لم يشأ عمر ان تسكن الجيوش المدن المفتوحة ، ولا أن تخالط أهلها فانشأ لهم المعسكرات التي تقع بعيدا من تلك المدن ، وأمرهم بسكناها ، ولم يرتض لهم البناء باللبن ، لانه كان ينوي ترحيل الجيوش من تلك المعسكرات ، والعودة بها الى الجزيرة [٧] . غير أن المسلمين بعد عمر ، إستقروا في الامصار التي فتحوها ، وتحولوا بتلك المعسكرات الى مدن ، ما لبثت أن إتسعت ، وأخذت باسباب الازدهار والعمران [٨] .

وكان من أثر استقرار العرب بالامصار ، واتصالهم بابناء الشعوب ، ان بدأ الفساد اللغوي يغزو السنتهم ، ويتفشى في كلامهم ، كما بدأ الداخلون في الاسلام من ابناء الشعوب الاخرى يتعلمون العربية ، ويعالجون التفاهم بها مع العرب ، فلقيت على السنتهم صنوفا من التغيير ، وضروبا من الانحراف والفساد ، في اصوات كلماتها وأوزانها ، وفي نحوها وأساليب تركيبها . وقد أشار الزبيدي في طبقاته الى أن الفساد لم يفش في العربية الا بعد استقرار

---

(٤) العربية : ٧ .
(٥) نفسه .
(٦) نفسه : ٨ .
(٧) المجتمعات الاسلامية : ٢٤٩ .
(٨) نفسه .

العرب بالامصار ، واختلاطهم بابناء الشعوب المغلوبة ، قال : « ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر اسلامها ، وماضي جاهليتها ، حتى أظهر الله الاسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجا ، وأقبلوا عليه ارسالا ، واجتمعت فيه الالسنة المتفرقة ، واللغات المختلفة ، ففشا الفساد في اللغة العربية » (٩) . ومما يزيدنا اطمئنانا الى رأي الزبيدي هذا ، ان كلمة « اللحن » بمعنى الخطأ ، كلمة مولدة ، لم يرق استعمالها بهذا المعنى ، الى ما قبل العصر الاموي ، وهو العصر الذي تلاقت فيه الالسنة ، واختلطت الاجناس ، قال ابن فارس : « فأما اللحن بسكون الحاء ، فامالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية ، يقال لحن لحنا ، وهذا عندنا من الكلام المولد ، لان اللحن محدث لم يكن في العرب العاربة ، الذين تكلموا بطباعهم السليمة » (١٠) .

وما عرض للعربية من تغير في العصر الاموي لا يخرج عن ان يكون خطأ في الاعراب ، أو أصوات المفردات ، أو أوزانها ، أو دلالاتها ، كما عد استعمال الدخيل ضربا من اللحن ، أو الفساد اللغوي . فالاعراب ، وهو ميزة العربية الاولى ، كانت العرب تلتزمه وتقيمه طبيعة وسليقة كما مر بنا ، ولكن التمازج اللغوي ، جعل العرب يتهاونون فيه ، ويتخففون منه ، بعد أن علموا بخلو اللغات الاخرى منه ، وبعد أن أصبح مجرد الافهام أكبر غرض المتكلم (١١) . ويبدو أن العرب ، أول الامر ، لم يهملوه كل الاهمال ، وانما صاروا يقيمونه احيانا اقامة خاطئة ، تدلنا على ذلك الروايات الكثيرة التي أخبرتنا عن تفشي هـذه الظاهرة ، بحيث لم تسلم منها طبقة المثقفين : ولا العلية من القوم ، ولا العلماء (١٢) .

وثمة مظهر ثان من مظاهر اللحن يتمثل في تغير اصوات المفردات ، والانحراف بها عن مخارجها التي تجب لها ، ومن الامثلة على ذلك ما رواه

---

(٩) طبقات الزبيدي : ١ .
(١٠) المقاييس : ٥/٢٣٩ .
(١١) المجتمعات الاسلامية : ٢٦٧ .
(١٢) دراسات في اللغة : ٢١ .

الجاحظ من أن عبيد الله بن زياد كان ينطق الهاء بدل الحاء ، والهمزة بدل العين ، فقد قال لهانيء بن قبيصة « اهروري سائر اليوم ، يريد : احروري »[13] . وكان عبيدالله بن زياد هذا ، ينطق عربية غير فصيحة ، لأنه تربى في حجر أم غير عربية تدعى « مرجريت » وصارت « مرجانة » فيما بعد . ويروى أن معاوية أوصى زيادا ، وكان خطيبا لسنا ، بأن يعلم أبنه العربية ، ويصلح من لسانه [14] . اما الموالي والرقيق الذين تعلموا العربية ، وصاروا يتفاهمون بها مع العرب ، فلم يكونوا يحسنون النطق بحروفها وأصواتها ، بل كان نطقهم في كثير من الاحيان مدعاة للسخرية ، حتى ان الشاعر المعروف ، ابا العطاء السندي ، وهو مولى ، كان يجمع بين لثغة ولكنة[15] وكان لا يكاد يفهم كلامه ، فأتى سليمان بن سليم وانشده شعرا طلب فيه أن يهب له غلاما فصيحا ، يقوم بانشاد شعره ، قال :

أعوزتني الرواةُ يا ابن سُليم ... وأبى أن يُقيم شعري لساني
وغلا بالذي أجمجمُ صدري ... وجفاني لعجمتي سلطاني
وازدرتني العيون اذ كان لوني ... حالكا مجتوى من الالوان
فضربت الأمور ظهراً لبطن ... كيف احتال حيلة للساني
وتمنيت أنني كنت بالشعر فصيحا وبان بعض بناني
فاكفني ما يضيق عند رواتي ... بفصيح من صالحي الغلمان
يُفهم الناسَ ما أقول من الشعر فان البيان قد أعياني [16]

وظلت ظاهرة ابدال الحروف ، واقامة بعضها مقام بعض ، واضحة لمن يتقصى أمر اللحن ، ويتتبعه في عصور العربية . ولم يقع هذا اللحن من الموالي فحسب ، بل تورط فيه العرب أنفسهم ، ولهذا حفلت كتب (لحن العامة) بأمثلة كثيرة لهذه الظاهرة ، ذلك أن اللغويين لم يسمحوا للمتكلمين

---

(١٣) البيان والتبيين : ٧٢/١ .
(١٤) العربية : ١٦
(١٥) الشعر والشعراء : ٧٦٦/٢هـ ٣ .
(١٦) نفسه .

بأن ينحرفوا بنطق أصوات المفردات ، وعدوا ابدال صوت من صوت لحنا يجب أن تتحاماه الالسن ، ويتجافى عنه المتكلمون . وابدال صوت من صوت ظاهرة قديمة في كلام العرب ، قال ابن فارس : « ومن سنن العرب ابدال الحروف واقامة بعضها مقام بعض ، ويقولون : مدحه ومدهه وفرس رفل رفن ، وهو كثير مشهور قد ألف فيه العلماء [١٧] » . وعلى الرغم من أن هذه ظاهرة شاعت في كلام العرب ، على حد قول ابن فارس ، فان اللغويين لم يرتضوها للعرب المتأخرين وكأنها في رأيهم ، وقف على العرب الاوائل ، فلا يحق لمن يأتي بعدهم أن يحدثوا شيئا منها في اللغة .

وظهر اللحن أيضا في صيغ المفردات وأوزانها ، و « كتاب ما تلحن فيه العوام » للكسائي ، أقدم ما سجل لنا نماذج من الخطأ الذي كان يجري على ألسنة الناس ، ومن الامثلة على ذلك قوله : « ويقال فلان معدن العلم ، ولا يقال : معدن بفتح الدال [١٨] » . وهذا يعني ان الكلمة تبدلت صيغتها ، وتطور وزنها . وقوله : « وتقول : هذه أتان للانثى من الحمير ، بغير هاء » [١٩] ومعنى ذلك أن الناس كانوا ينطقون هذه الكلمة « أتانة » بتطور الصيغة من التأنيث بدون علامة ، الى التأنيث بالتاء . وقوله « وتقول : غثت نفسي ولا يقال : غثيت بالياء . وكذلك غلت القدر بلا ياء » [٢٠] . وقوله : « وأغلقت الباب فهو مغلق ، ولا يقال مغلوق » [٢١] . ويعنى هذا كله أن صيغ هذه المفردات قد تطورت ، فكان هذا التطور قد خرج بها من عداد الفصيح .

وهناك مظهر آخر من مظاهر اللحن ، كان يبدو في استعمال الالفاظ في غير ما وضعت له ، أو في غير ما استعملها به العرب الذين يحتج بأقوالهم ، ويطمأن الى فصاحتهم . ومن أقدم ما روي لنا من هذا اللحن ، في العصر

---

(١٧) الصاحبي : ٢٠٢ .
(١٨) كتاب ما تلحن فيه العوام رقم ٧٣ .
(١٩ ، ٢٠ ، ٢١) نفسه : رقم ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

الاموي ، ما يحدثنا به الجاحظ من أن عبيد الله بن زياد قال مرة لجنوده : « افتحوا سيوفكم » يريد : سلوا سيوفكم ، فلم يقع على اللفظة التي يستعملها العرب في هذا الموضع ، وجاء بلفظة أخرى ، فاستعملها لغير ما وضعت له . وكانت قولته هذه ، مثار سخرية الشاعر يزيد بن مفرّغ ، الذي هجاه فغمزه بخطئه هذا ، فقال :

ويوم فتحت سيفك من بعيد   أضعت وكل أمرك للضياع(٢٢)

وابن زياد هو الذي قال لسويد بن منجوف : « اجلس على آست الارض » فقال سويد : « ما كنت أحسب أن للارض استا »(٢٣) .

ومن الأمثلة على سوء استعمال الالفاظ ما يرويه ابن قتيبة فيقول : « اجتمع ابو عمرو بن العلاء وعمرو بن عبيد ، فقال عمرو : ان الله وعد وعدا ، وأوعد ايعادا ، وانه منجز وعده ووعيده . فقال له أبو عمرو : أنت أعجم ، لا أقول انك اعجم اللسان ، ولكنك أعجم القلب ، أما تعلم ويحك أن العرب تعدّ انجاز الوعد مكرمة ، وترك ايقاع الوعيد مكرمة ، ثم انشده :

واني وان اوعدته أو وعدته   لمخلف ايعادي ومنجز موعدي »(٢٤)

ومضى اللغويون الذين عنوا بتصويب الاخطاء ، وتنقية اللغة منها ، يذكرون في كل عصر أمثلة لهذا النوع من اللحن ، فينبهون عليه ، ويرشدون الى الفصيح الذي يجب أن يحل محله .

ومن مظاهر اللحن استعمال الالفاظ الاجنبية ، لمسميات ، لها أسماء بالعربية وكثر ذلك عند أهل المدن ، الذين يخالطون الاقوام الاخرى ، ويلقونهم لقاء متصلا ، يقول الجاحظ في أهل المدينة : « .. الا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بالفاظ من الفاظهم ،

---

(٢٢) البيان والتبيين : ٢/٢١٠ ، ٢١١ .
(٢٣) نفسه : ٢/٢١١ .
(٢٤) عيون الاخبار : ٢/١٤٢ .

ولذلك يسمون البطيخ الخِرْبز ويسمون ... » [٢٥] ويقول عن أهل الكوفة والبصرة : « ويسمى اهل الكوفة الحَوْك الباذَروج (الحوك : البقلة الحمقاء ـ الرجلة) والباذروج بالفارسية والحوك كلمة عربية . وأهل البصرة اذ التقت اربع طرق يسمونها مُرَبّعة ، ويسميها أهل الكوفة الجِهار سُوك ، والجهار سوك بالفارسية . ويسمون السّوق والسوَيْقة : وازار ، والوازار بالفارسية . ويسمون القثّاء خيارا ، والخيار بالفارسية . ويسمون المجذوم َويْذي بالفارسية » [٢٦] .

وطغت ظاهرة اللحن وفشت فلم تسلم منها طبقة من طبقات المجتمع ، ولم ينج منها علية القوم ، وأهل العلم منهم . وكان الجاحظ قد وصف موجة اللحن بأنها امتدت ، فشملت ابناء القرويين والمدنيين [٢٧] . فعبد الملك ابن مروان كان يحذّر أبناءه من اللحن ، ويصفه بأنه في منطق الشريف أقبح من آثار الجدري في الوجه ، وأقبح من التفتيق في الثوب[٢٨] . وروي عنه انه « قيل له : لقد عجل اليك الشيب يا أمير المؤمنين ، قال : شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن » [٢٩] . ولم يقتصر اللحن على الطبقة الحاكمة ، وانما جاوزها الى الطبقات العالمة ، فرويت عن بعض العلماء سقطات تشهد عليهم بتورطهم في اللحن . فالجاحظ يقص علينا ان زيادا النبطي ، كان نحويا، وكان شديد اللكنة ، وقد دعا غلامه ثلاثا فلما أجابه قال : « فمن لدن دأوتك الى أن قلت لبّى ما كنت تصنأ ، يريد : من لدن دعوتك الى أن أجبتني ما كنت تصنع » [٣٠] . وظهر اللحن على ألسنة البلغاء والابيناء أيضا ، حتى لقد عقد الجاحظ بابا في « البيان والتبيين » جعل عنوانه « ومن اللحانين

(٢٥) البيان والتبيين : ١٩/١ .
(٢٦) نفسه : ٢٠/١ .
(٢٧) نفسه : ٢١٠/٢ وما بعدها و١٦٢/١ .
(٢٨) العقد الفريد : ٤٧٨/٢ .
(٢٩) العقد الفريد : ٤٧٩/٢ .
(٣٠) البيان والتبيين : ٢١٢/٢ .

البلغاء » [٣١] . على ان فشو اللحن لم يقتصر على المواطن الجديدة التي انتقل اليها العرب ، بل شمل الوطن اللغوي الام ، فالجاحظ يقول عن أهل المدينة : « ولأهل المدينة ألسن ذلقة ، والفاظ حسنة ، وعبارة جيدة ، واللحن في عوامهم فاش ، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب » [٣٢] .

وتيجة لفشو اللحن واستشرائه ، قوي النقد اللغوي ، فكان بمثابة رد الفعل لموجة اللحن الطاغية . أي ان موجة اللحن العارمة قد لقيت من يقف لها ، ويحاول منع فشوها .

والنقد اللغوي الذي ظهر بسبب اللحن ، مرّ بطورين : الاول طور استنكار اللحن ، واظهار الزراية على مرتكبيه . وقد مارس هذا اللون من النقد الحكام وغيرهم ، ممن كانوا يغارون على العربية ، ويحز في نفوسهم ما لقيته من صنوف الانحراف على السنة المتكلمين بها . فقد مرّ بنا ان عبدالملك كان يحذر من اللحن ، ويعده عيبا يضع من قدر الشريف . وكان مسلمة بن عبدالملك يقول : « اني لأحب أن اسأل هذا الشيخ ـ يعني عمرو ابن مسلم ـ فما يمنعني منه الا لحنه » [٣٣] . ويقول : ان الرجل يسألني الحاجة ، فتستجيب نفسي له بها ،فاذا لحن انصرفت نفسي عنها » [٣٤] . وكان الحجاج لا ينطق عربية ناصعة فحسب ، بل يحاول ان يعبر من يحيط به تعبيرا صحيحا [٣٥] . « ويزعم بعضهم ان كثير بن كثير البصري الذي أراد الحجاج اكراهه على عمل يتولاه تخلص منه بأن أساء الى اذن الحجاج بلحن فظيع في القواعد » [٣٦] .

وكما كان الغيارى على اللغة يعيبون اللحن ، ويضعون من قدر مرتكبه كذلك كانوا يمدحون من يصحح اعرابه ، ويحرص على الفصيح من الالفاظ

---

(٣١) نفسه : ٢٢٠/٢ .
(٣٢) نفسه : ١٤٦/١ .
(٣٣) البيان والتبيين : ٢١٩/٢ .
(٣٤) طراز المجالس : ٦٧ .
(٣٥) العربية : ٢٨ .
(٣٦) نفسه .

والتراكيب ، فها هو ذا رؤبة (ت ١٤٥ هـ) يمدح بلال بن أبي بردة قاضي البصرة بانه لا يلحن [٣٧] :

فُزْتَ بقِدْحَي مُعْرِب لم يلحن

وكان رؤبه نفسه يتمدح بمقدرته اللغوية ، وبتفوقه على أي نحويّ ، حتى ولو كان ضليعا ، أو « دهيّ العلم والتعبّر » . يقول في ارجوزته التي امتدح بها القاسم بن محمد بن القاسم فاتح السند [٣٨] :

كيف تراني أتتحي في دفتري ··· على قضيب الذاهبات الشبّر
لا ينظر النحوي فيها نظري ··· وان لوى لحييه بالتحقّر
وهو دهيّ العلم والتعبّر

غير ان انتشار اللحن لم يكن يمنعه ، أو يحدّ منه الاستنكار ، ولذا فكر اولو الأمر ومن تهمه سلامة العربية ، بعمل يحصن اللغة ، ويعصم الناس من السقوط في اللحن ، فكان ان هداهم تفكيرهم الى وضع « علم » يدل الناس على نظام اللغة في صياغة المفردات ، وتصريف الكلمات ، وبناء الجمل ، وعرف هذا العلم بـ « النحو » .

وبنشوء النحو ، وظهور قواعده ، بدأ الطور الثاني من اطوار النقد اللغوي الذي ظهر بسبب اللحن ، وكان بمثابة رد فعل له . ويتميز هذا الطور بأن الناقد كان لا يقف عند استنكار اللحن ، أو رمي المتكلم بالخطأ ، بل كان يدعم حكمه بالحجج والبراهين ، وما تلك الحجج والبراهين الا القواعد النحوية التي استنبطت من كلام العرب ، بعد استقرائه ، ومراقبة استعمالاته. ولاجل هذا وصف بعض الدارسين النقد اللغوي في هذا الطور بأنه كان أول ما عرفته العربية من النقد العلمي القائم على التعليل وذكر الأسباب [٣٩].

---

(٣٧) اللسان : (لحن) . وينظر : لحن العامة والتطور اللغوي : ١٨ ، ١٩ .
(٣٨) العربية : ٢٩ ، ٣٠ .
(٣٩) في تاريخ النقد ، ١١٧ ، ١١٨ .

وبسبب موضوعية أكثر النقد اللغوي في هذا الطور ، واستناده الى الاسباب والعلل ، لم يجد الشعراء بدا من التسليم به ، والاذعان له . ومن لم يقبله منهم لم يستطع ان يدفعه بالدليل او البرهان ، بل اضطر الىدفعه بالهجاء .

وقد أحس النقاد اللغويون بقوة سلطانهم على الشعراء ، فقال قائلهم ـ وهو الخليل ـ ، مخاطبا ابن مناذر : « انما انتم معشر الشعراء تبع لي ، وأنا سكان السفينة ، ان قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم ، والا كسدتم »[٤٠] . و « حكي ان رجلا قال لخلف الاحمر : ما ابالي اذا سمعت شعرا استحسنته ما قلت انت واصحابك فيه فقال له : اذا خذت درهما تستحسنه ، وقال لك الصيرفي : انه ردىء هل ينفعك استحسانك اياه »[٤١] .

ونتيجة لشغف النقاد بما اهتدوا اليه من قواعد النحو واللغة . ورغبتهم الشديدة في مراقبة تطبيق الشعراء لها ، وتقيدهم بها ، فانهم نسوا اذواقهم ، ولم يصدروا عنها في درس الشعر وتحليله . بمعنى انهم شغلوا بالبحث عن مخالفات الشعراء اللغوية ، ولم يكن من همهم الحديث عما في النصوص من عذوبة وجمال ، أو مقومات فنية وبلاغية [٤٢] .

ولم يكتف اللغويون بنقد الشعراء وبيان ما وقعوا فيه من مخالفات لحدودهم وقياساتهم ، بل تجاوزوا هذا الموقف ، واتخذوا موقفا ايجابيا ، فاصلحوا بعض ما كانوا يرونه معيبا او خطأ من وجهة نظرهم ، وعادوا به الى ما يتفق مع قواعدهم ، ويساير أقيستهم ، يدل على ذلك ما رواه ابن سلام ، من أن الفرزدق أخذ عليه شيء في شعره ، فقال : « اين هذا الذي يجر في المسجد خصييه ولا يصلحه ؟ يعني ابن ابي اسحاق » [٤٣] . وفي عبارة

---

(٤٠) الاغاني : ١٦/١٧ .
(٤١) العمدة : ١١٧/١ .
(٤٢) تاريخ النقد الادبي عند العرب : ٥١ ، ٥٢ .
(٤٣) طبقات فحول الشعراء : ١٥ .

الفرزدق هذه ما يفصح عما كان ابن ابي اسحاق يصنعه بالشعر ، اذ كان يقيمه على حدود النحو •

فالتطور اللغوي الذي حدث في العصر الأموي ، لم يكن ليترك دون مقاومة ، ودون حملة نقد تهدف الى وقف تياره ، أو الحد من طغيانه ، وكانت تلك الحملة قد مرّت بطورين : الاول طور استنكار الخطأ والزراية على مرتكبيه ، ثم وجد أن الاستنكار لا يكفي للوقوف بوجه الخطأ ، فانتقل النقد الى الطور الثاني ، وفيه نشأت مجموعة مقاييس وقواعد ، اصطلح عليها بـ (النحو) ، واصبح الشعراء ملزمين باتباعها ، فان أخلوا بها ، او حادوا عنها ، رفض شعرهم ، ووصموا بالخطأ •

واذ أطلّ العصر العباسي استمر الفساد اللغوي في الانتشار ، وخفّت السليقة العربية أكثر من ذي قبل ، وصارت اللغة تؤخذ بالتعلم ، وتنال من افواه المؤدبين ، وذلك لبعد العرب من عصور النقاء والسلامة ، ونأيهم عن الجزيرة ، مهد العربية الاول ، وامعانهم في الارض ، يجوبون اطرافها ، ويستوطنون الاماكن النائية منها ، ويخالطون من فيها من ابناء الامم الاخرى• واذا أمكن لكثير من افراد القبائل المهاجرة ، ان يحتفظوا بسلامة السنتهم ، ونقاء ملكاتهم ، فان أولادهم الذين شبّوا في ديار غير ديار آبائهم ، وبين اقوام ترطن بغير العربية ، لا يمكنهم ان يحتفظوا بشيء من صفاء السليقة ، ونقاء الملكة (٤٤) • يقول يوهان فك : « لقد احتفظت كثير من القبائل البدوية أيضا في البلدان التي استولت عليها بطريقة حياتها البدوية ، وحافظت بذلك على سلامة لهجاتها ، وخلوصها ، ولهذا كان لا يزال ممكنا اوائل العهد العباسي ان يلاقي المرء من جنوب البرتغال في الغرب الى خراسان في الشرق قبائل عربية ، وان يسمع من افواهها عربية بدوية خالصة لا تشوبها هجنة ولا عجمة » (٤٥) •

---

(٤٤) تاريخ النقد الادبي عند العرب : ٥١ .
(٤٥) العربية : ٧ .

كما ان ابناء الامم الاخرى ، الذين بدأوا يتعلمون العربية ، ويعالجون التفاهم بها مع العرب ، لابد ان يخلوا بشيء من قواعدها ، ويزيغوا عن السنن الصحيح في نطقها او ادائها . وهذا كله يقودنا الى أن موجة الفساد التي دهمت العربية في العصر الاموي ، لم تتراجع في العصر العباسي ، بل قويت واتسع مداها ، وأن لغة التفاهم التي نشأت عند اختلاط العرب بغيرهم في اثناء الفتوح [٤٦] ، ترسخت في هذا العصر ، واتسعت مسافة الخلف بينها وبين الفصحى . وقد حفظ الجاحظ لنا بعض سمات هذه اللغة [٤٧] ، ولعل أهم خصائصها ترك الاعراب ، وفتح الباب امام الدخيل والكلمات الاعجمية [٤٨] .

فالفصحى المعربة لم تعد لغة الحياة ، منذ عهد الجاحظ في الأقل ، وانما غدت لغة الادب والتأليف العلمي ، وأصبح « استعمال الاعراب والتصريف الكاملين في خارج المحيط العلمي يعد تقعرا وتشادقا » [٤٩] . يدل على ذلك تنبيه الجاحظ على ضرورة رواية نوادر الاعراب بالاعراب الكامل ، لئلا تفقد طرافتها . قال الجاحظ : « ومتى سمعت ـ حفظك الله ـ بنادرة من كلام الاعراب ، فاياك أن تحكيها الا مع اعرابها ، ومخارج الفاظها فانك ان غيرتها بأن تلحن في اعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديّين ، خرجت من تلك الحكاية ، وعليك فضل كبير ، وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فاياك وان تستعمل فيها الاعراب أو تتخير لها لفظا حسنا ، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فان ذلك يفسد الامتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ... ويذهب استطابتهم اياها . » [٥٠] . ويستفاد من قول الجاحظ هذا ، ان الاعراب

---

(٤٦) نفسه : ١٠٠ .
(٤٧) دراسات في اللغة : ١٩٨ .
(٤٨) العربية : ١٠٤ ، ١١٢ .
(٤٩) نفسه : ١١٩ .
(٥٠) البيان والتبيين : ١/١٤٥ ، ١٤٦ .

في عصره كان ما يزال حيا على ألسنة البدو الخلص ، اما لغة الحضر فقد خلت منــه .

بيد أن لغة الاعراب أيضا قد ظهرت عليها أمارات مختلفة من التجديد في القرن الثالث ، فعمارة بن عقيل ، الذي عاش في سهول البصرة ، كان ابو حاتم لا يثق بعربيته ، لانه استعمل « ريّانة » بـدلا من « ريّي » في قولـه [51] :

ومن ليلة قد بتهــا غـير آثــم ‏ ‏ بساجية الحجلـين ريّانة القلب

وكان عمارة هذا أيضا يستعمل « خيـول » بدلا من اسم الجمـع « خيل » ويستعمل كلمة « ابن » كما لو كانت همزتها همزة قطع ، وكان يحذف همزة المد في لفظ « الدهناء » [52] .

واذا تركنا البدو ، وعوام الحضر ، ونظرنا في لغة الادباء ، وجدناها لم تبرأ من الخطأ ، ولم تنج من الزيغ ، الا أن الادباء كانوا متفاوتين في احاطتهم باللغة ، وتمكنهم منها ، فكان لابد ان تكثر الاخطاء عند بعضهم ، وتقل ، وقد تنعدم ، عند الذين تفقهوا في النحو واللغة ، وأخذوا بهما أنفسهم ، ومرنت عليهما ألسنتهم .

فلغة بعض كتّاب الدواوين ، كانت على جـانب كبير من الضعف والانحطاط ، وحفظت لنا كتب الادب اخبارا تدل على استعمال هؤلاء الكتّاب صيغا وتراكيب مخالفة للنحو تماما . من ذلك أن ميمون بن ابراهيم كاتب اسحاق بن ابراهيم بن مصعب ، ارتكب في رسالة الى المأمون خطأ شنيعا ، اذ قال : وهذا المال مالا يجب على فلان . فخط المأمون على (مالا) ووقع بخطه في حاشية الكتاب : اتكاتبني بلحن يا ابا اسحاق [53] . ولم يكن

---

(51) لحن العوام : ١٦٢ .

(52) العربية : ١٢٣ .

(53) العربية : ١٢٧ وينظر مصدره .

اسحاق نفسه أحسن معرفة بالنحو من كاتبه ، فقد وقع في لحن امام المأمون ، فاضطر بسبب ذلك الى أن يتعلم العربية على النحوي هشام بن معاوية (٥٤).

وكان بعض كتّاب الدواوين يجهل اللغة ، كما يجهل النحو ، فقد روي ان كاتبا « اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه ، وارتضاه لسرّه ، فقرأ عليه يوما كتابا ، وفي الكتاب (ومطرنا مطرا كثر عنه الكلأ) فقال له الخليفة ممتحنا له : وما الكلأ ؟ فتردد في الجواب عنه ، وتعثر لسانه ، ثم قال : لا أدري . فقال : سل عنه » (٥٥) .

واذا تركنا الكتاب وجئنا الى الشعراء ، وجدنا حظوظهم من الثقافة اللغوية تتفاوت ، فالمتقدمون منهم جدوا في تحصيل اللغة ، وبلغوا من العلم بها منزلة رفيعة ، وقد ساعد كثيرا منهم على ذلك ، تنقلهم في البوادي ، واقامتهم بين الأعراب .

فبشار مثلا استطاع بفضل تضلعه من اللغة أن يصمد للغويين ويقاومهم . قيل له مرة : « ليس لاحد من شعراء العرب شعر الا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من الفاظهم ، وشك فيه ، وانه ليس في شعرك ما يشك فيه . قال : ومن أين يأتيني الخطأ ، ولدت ها هنا ، ونشأت في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل ، وما فيهم احد يعرف كلمة من الخطأ ، وان دخلت الى نسائهم ، فنساؤهم أفصح منهم . وأيفعت فابديت الى أن ادركت فمن اين يأتيني الخطأ ؟ » (٥٦) .

واما ابو نواس فقد كان « متفننا في العلم ، قد ضرب في كل نوع منه بنصيب » (٥٧) . وقال ابن قتيبة عنه : « وقد كان يلحّن في اشياء من

---

(٥٤) معجم الادباء : ١٩/٢٩٢ .
(٥٥) ادب الكاتب : ٦ ، ٧ .
(٥٦) الاغاني : ٣/ ١٤٩ ، ١٥٠ .
(٥٧) الشعر والشعراء : ٢/٧٩٩ .

شعره ؛ لا أراه فيها الا على حجة من الشعر المتقدم ، وعلى علة بيّنة من علل النحو » (٥٨) .

وكان ابو تمام من الشعراء المتقدمين ، الذين ضربوا بسهم وافر في الثقافة اللغوية ، حتى عدّه النقاد ثقة في الشعر العربي ، وعالما به (٥٩) . وعلى الرغم مما أثير حول شعره ، فان احدا لم يتعلق عليه بلحن ، أو مخالفة لغوية (٦٠) . ومع ان اللغويين لم يكونوا يحتجون بالمولدين ، فان الزمخشري خرق اجماعهم هذا ، واحتج بابي تمام (٦١) .

ولكن شعراء العصر العباسي لم يكونوا جميعا بهذا المستوى من العلم بالعربية ، فقد حفظت لنا كتب الادب واللغة نماذج كثيرة من اخطاء شعراء هذا العصر ، ومخالفاتهم اللغوية ، قال المبرد عن ابي العتاهية : انـه كان « يكثر عثاره ، وتصاب سقطاته ، وكان يلحن في شعره » (٦٢) . وروى الصولي ابياتا لابن الرومي ، اعتذر فيها من أخطاء عرضت لـه في بعض شعـره (٦٣) .

ولم يبرأ البحتري من بعض اللحن ، فقد أخذ عليه استعمال (طلحات) بسكون اللام (٦٤) ، واستعمال كلمة (مثن) بدل (مثنيا) في قوله :

يا مادح الفتح ويا آملـه　　لست امرأ خاب ولا مثن كذب (٦٥)

وأخذ عليه ، عدا اللحن ، عدم دقته في استعمال بعض المفردات ، وذلك في قولـه :

محل على القاطول أخلق داثره

---

(٥٨) نفسه : ٨١٨/٢ .
(٥٩) النقد الادبي واثره في الشعر العباسي : ٧٢ .
(٦٠) العربية : ١٢٣ .
(٦١) الاقتراح : ٢٦ .
(٦٢) الموشح : ٤٠٥ .
(٦٣) ادب الكتاب : ١٣٣ .
(٦٤) خزانة الادب : ٣٩٤/٣ وانظر شرح ابن عقيل : ٣٥٣/٢ .
(٦٥) الموشح : ٥١١ .

فقيل : « ولا يقال : أخلق داثره لان الداثر لا بقية له فتخلق أو تستجد » (٦٦) .

وكان شعر المتنبي مادة خصبة للغويين ، والباحثين عن الخطأ ، والاستعمالات المحظورة . غير أن كثيرا مما أخذ عليه يمكن ان يقبل ، ويجد له سندا من اقوال النحاة ومذاهبهم . ولم يكن يوهان فك على حق حين وصف المتنبي بأنه عاجز « عن التعبير الموافق لروح العربية القديمة » (٦٧) ، لان هذا حكم غال ومسرف ، وهو ان صدق على شيء من شعر الرجل ، فلا يصدق عليه كله .

وهناك من يفسر الضعف الذي طرأ على الملكة اللغوية في نفوس كثير من المنشئين ، كتابا وشعراء ، والاخطاء التي ظهرت في كلامهم ، بأن اللغة الفصحى لم تعد لغة الأديب الطبيعية التي ينطق بها فطرة ، وانما اصبحت لغة يتلقاها بالتعلم والاكتساب ، ومع التعلم يكون الخطأ . ذهب الى هذا شكري فيصل حين رأى أن الانحراف عن التعبير اللغوي السليم جاء « أثرا لبعد ما بين اللغة الادبية واللغة اليومية ، فهذه اللغة التي يكتب بها الكاتب ، والتي يتغنى بها الشاعر ، ليست هي لغته اليومية التي يتعلمها في البيت والسوق ولكنها لغة خاصة يتعلمها في حلقات الدراسة وفي صحون المساجد . لم يكن هو الذي يترعرع فيها ، وانما كانت هي التي تنمو فيه ، أعني انها لم تكن لغة طبيعية ، وانما كانت لغة مكتسبة . ولهذا كان من العسير ان تظل بعيدة عن هذه الاخطاء ، مهما يكن الوفاء لها ، والبرّ بها ، وكان لابد ان تتسرب اليها آثار من اللغة اليومية ، رغم كل ما حولها من سدود وقيود » (٦٨) .

وازاء هذا التطور اللغوي ، وتتيجة له ، ولضعف الملكة اللغوية في نفوس كثير من المنشئين ، نشط النقد اللغوي ، وظهر نوعان من التأليف فيه :

---

(٦٦) نفسه : ٥١٧ .
(٦٧) العربية : ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٦٨) المجتمعات الاسلامية : ٤١٨ ، ٤١٩ .

أما الاول فقد تكفل بمعالجة الاخطاء ، والتنبيه على المفسد والمزال من الصيغ والتراكيب ، والارشاد الى ما يقابلها من الاستعمال اللغوي السليم• وقد تمثل هذا النوع من التأليف بالكتب الكثيرة التي عرفت بكتب (اللحن) ككتاب (ما تلحن فيه العوام) للكسائي ، و (البهاء فيما تلحن فيه العامة) للفراء ، و (ما تلحن فيه العامة) لأبي عبيدة ، و (ما يلحن فيه العامة) للاصمعي ، و (ما خالفت العامة فيه لغات العرب) لابي عبيد و (اصلاح المنطق) لابن السكيت و (ما تلحن فيه العامة) لابي حاتم السجستاني ، و (النحو ومن كان يلحن من النحويين) لابن شبّة ، و (ادب الكاتب) لابن قتيبة ، و (الفصيح) لثعلب ، و (تقويم اللسان) لابن دريد ، و (ليس في كلام العرب) لابن خالويه ، و (لحن العوام) للزبيدي ، و (ما لحن فيه الخواص من العلماء) لابي أحمد العسكري ، و (ما تلحن فيه الخاصة) لابي هلال العسكري [٦٩] • ومع أن أكثر هذه الكتب قد انصرف الى اصلاح ما يجري على السنة العوام من اخطاء في حياتهم اليومية ، فان بعضها قد انصب على معالجة اخطاء الادباء والمثقفين ، ولابد من الاشارة هنا الى ان عددا من النقاد لم يفردوا لاخطاء الادباء كتبا ، كما فعل هؤلاء ، وانما اوردوا شيئا من تلك الاخطاء مع ما يقابلها من الصواب ، في اثناء تآليفهم النقدية او اللغوية • وتشدد أكثر المؤلفين في معالجة الاخطاء وتصويبها، ودعوا الى استعمال افصح ما في اللغة من مفردات وصيغ وتراكيب • ومن هؤلاء الفراء والاصمعي وابن قتيبة وثعلب والزبيدي[٧٠] •

وأما الثاني فقد هدف الى تنمية لغة الادباء ، والنهوض بأساليبهم ، وأمدادهم بما يحسن ويجمل من الالفاظ والعبارات ، مع تنبيههم على مناسبة كل لفظ ، والمقام الذي يقال فيه كل تعبير • ومن الكتب التي تمثل هذا النوع من التأليف كتاب (ادب الكاتب) لابن قتيبة الذي جمع الى تقويم السنة

---

(٦٩) لحن العامة والتطور اللغوي : ٩٧ ، ٩٨ •

(٧٠) ابو بكر الزبيدي الاندلسي وآثاره في النحو واللغة : ٤٠٧ •

الكتاب خاصة والادباء عامة ، معارف لغوية لا يستغني عنها اديب . وكتاب (اصلاح المنطق) لابن السكيت ، مما يفيد منه الكتاب والشعراء في تقويم اقلامهم واصلاح السنتهم ، كما يقفون فيه على ثروة لغوية كبيرة تسهّل عليهم التعبير . ويؤخذ على هذا الكتاب انه جاء زاخرا بلهجات الاعراب ، ولغاتهم النادرة والمهجورة ، فقلل ذلك من انتفاع الادباء بمادته ، لان أكثرهم اخذوا يعافون الالفاظ البدوية ويزهدون في الاستعمالات الغريبة . ومن الكتب التي الفها ابن السكيت للنهوض بلغة الادباء ، كتاب (الالفاظ) وهو مرتب على ابواب المعاني ، كتاب (الغنى والخصب) وباب (الفقر والجدب) ثم باب (الجماعة) وباب (الكتائب) ، وهكذا . الا انه كسابقه (اصلاح المنطق) زاخر بلهجات الاعراب والفاظهم ، التي لم تعد تستملح في شعر أو نثر .

وعني قدامة بن جعفر بلغة الكتاب خاصة ، ورمى الى النهوض بها ، فألف كتابه (جواهر الالفاظ) وارشد فيه الى ما يصح ويحسن في نظره من الالفاظ والعبارات . وهو لذلك لم يورد لفظا غريبا او نابيا ، او عبارة مستهجنة غير متخيرة . كما عرض في كتابه طائفة من الالفاظ ثم شفعها بأخرى تتفق معها في القافية ، ليفيد الكتاب من ذلك في أسجاعهم .

ويبدو أن قدامة لم يكن اول من ألف في هذا الباب ، بل سبقه عبدالرحمن الهمذاني (٣٢٢ هـ) الى هذا الضرب من التآليف ، فألف (الالفاظ الكتابية) ، وحذا فيه ، من حيث المنهج ، حذو كتاب (الالفاظ) لابن السكيت ، بمعنى انه رتبه على ابواب المعاني . والكتابان بعد ذلك مختلفان من حيث المادة ، اذ عني ابن السكيت بالغريب ، وعني الهمذاني بالسهل المستعمل [٧١] . غير ان قدامه ـ كما يبدو ـ لم يستحسن كتاب الهمذاني ، ولم يره قد حقق ما هدف اليه ، من خدمة لغة الكتاب واغنائها ، وانقاذها مما تردّت فيه من ضعف وركاكة . على أن قدامة لم يصرّح بكتاب

(٧١) ابن السكيت اللغوي : ٢١٨ .

الهمذاني ، وانما نقد بعبارة مختصرة ، جاءت في مقدمة كتابه ، كتابا على هذه الشاكلة ، ظهر قبل كتابه بقليل . وقد رجح فك[72] ان الكتاب الذي عناه قدامه هو كتاب الهمذاني .

ويؤخذ من مقدمة (الالفاظ الكتابية) ان الهمذاني كتبه لانــه وجد « من المتأخرين في الالة قوما أخطأهم الاتساع في الكلام ، فهم متعلقون في مخاطباتهم وكتبهم باللفظة الغريبة ، والحرف الشاذ ، ليتميزوا بذلك مـن العامة » [73] . ووجد « آخرين قد توجهوا بعض التوجه ، وعلوا عن هـذه الطبقة ، غير انهم يمزجون الفاظا يسيرة قد حفظوها من الفاظ كتاب الرسائل بالفاظ كثيرة سخيفة من الفاظ العامة ، استعانة بها ، وضرورة اليها ، لخفة بضاعتهم ... » [74]

وقد نال كتاب الهمذاني اعجاب الصاحب بن عباد ، أحد كبار الكتاب في القرن الرابع . الا أن الصاحب أخذ على الهمذاني أنه « جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة ، فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ، ورفع عـن المتأدبين تعب الدروس ، والحفظ الكثير ، والمطالعة الكثيرة الدائمة » [75] .

ويعد كتاب (فقه اللغة وسر العربية) للثعالبي حلقة أخرى في سلسلة الجهد النقدي الذي بذل للنهوض بالادباء المتخلفين ، فالقسم الاول من الكتاب يزخر بضروب من الاوصاف والاسماء والافعال الخاصة التي لكل منها حالة معينة تناسبها ، ومقام معلوم تقال فيه . فالكتاب مادة وتوجيه في وقت واحـــد .

ويبدو ان بعض الكتاب لم يرق له هذا الاتجاه في التأليف النقدي ، فالصاحب كما مرّ بنا ، يأخذ على الهمذاني انه في عمله قد رفع عن المتأدبين

---

(72) العربية : ١٤٩ .
(73) الالفاظ الكتابية : مقدمة المؤلف .
(74) نفســه : مقدمة المؤلف .
(75) نفســه : مقدمة المحقق .

مؤونة التعب والدرس ، وجعل أمامهم عبارات والفاظا حاضرة ، يرجعون اليها ليواروا بها ضعفهم ، ويحلوا كتاباتهم ، ولا شك في ان الصاحب كان على حق في خوفه من هذا الضرب من التأليف ، لأن من شأنه ان يجعل فن التعبير الادبي عبارة عن قوالب ورواسم ، تجري على كل قلم ، ويجعل الادباء مقلدين ، يعيشون على جهود غيرهم ، ويعبرون بقوالبهم ، كما انه يقتل الابداع ، ويحول بين الاديب وبين امداد اللغة بالطريف الجديد .

وقد حدث ما كان الصاحب يخشاه ، فاستسلم ادباء العصور المتأخرة الى تلك القوالب والتعابير ، وأخذوا يستكثرون منها في آدبهم ، ولم يكتفوا بما هيأه لهم منها قدامة والهمذاني والثعالبي وغيرهم ، بل راحوا يأخذونها من أي وعاء ، يشجعهم على ذلك ذوق العصر ، الذي كان يرى في استعارة الاديب لتعابير غيره ، دليل حفظ واطلاع على اعمال الاخرين ونتاجهم .

ومهما يكن من قيمة الكتب التي اشرنا اليها ، فانها لم تظهر لولا التطور اللغوي المتمثل بضعف الملكة اللغوية في نفوس كثير من المنشئين ، وقلة دراية هؤلاء باللفظ الفصيح ، والاستعمال الصائب ، فالمنشئون قبل هذه الحقبة لم تكن فيهم حاجة الى هذا الضرب من التأليف ، لانهم يملكون اللغة فطرة ، ولا يتعلمونها تعلما ، ولا يتكلفون التعبير بها تكلفا .

فالكتب النقدية التي ظهرت نتيجة للتطور اللغوي ، والضعف الذي طرأ على ملكات المنشئين ، سواء منها التي عنيت بتصحيح الخطأ ، او تنمية الذخيرة اللغوية عند الادباء ، تدل بوضوح على نشاط حركة النقد اللغوي ، وتصدي النقاد الحازم لظواهر الضعف والتخلف التي بدأت تظهر في الاساليب الادبية ، ومحاولتهم التغلب عليها ، وتخليص المنشئين منها .

واما ما ذهب اليه يوهان فك من ان النقاد في عصر المتنبي قد فقدوا الحس اللغوي ، ولم تعد ظواهر اللحن في شعره تسترعي انتباههم [٧٦] ،

---

(٧٦) العربية : ١٧٣ ، ١٧٤ .

فاننا لا نتفق معه ، لان النقد الذي دار حول المتنبي كان في الغالب نقدا لغويا ، يعني بلغة الشاعر وما فيها من اخطاء ، وخروج عن المألوف من قواعد العربية . وقد جمع لنا صاحب الوساطة قدرا كبيرا من هذا النقد ، كما احتوت شروح ديوانه على شيء كثير منه .

واذا جاوزنا القرن الرابع الى القرن الخامس وما بعده ، وجدنا العربية وقد عرض لها على السنة الادباء واقلامهم ما لم يعرض لها من قبل ، من صنوف الانحراف ، والوان الخطأ والفساد . وليس هذا بغريب في عصور عرفت من الانحطاط ، واضطراب شؤون الادارة والسياسة ، ما أضعف النواحي العلمية والادبية ، وهبط بها عما كانت عليه في العصور المتقدمة .

واذا كان ابن قتيبة في القرن الثالث قد شكا من ضعف طائفة من الكتاب كانوا يعملون في الدواوين ، أو يتقلدون مناصب في الدولة ، فان التبريزي في القرن الخامس وصف طلاب العلم ، والمشتغلين بتحصيله ، بضعف الثقافة اللغوية ، والقصور عن فهم الاشعار الفصيحة ، دون شرح أولي (٧٧) . وكما لفت التبريزي انحطاط مستوى الثقافة اللغوية في بغداد ، ابان القرن الخامس ، لفت الحريري ما شاع في لغة الطبقات المثقفة من اوهام ، فالف كتاب « درة الغواص » لينبه على تلك الاوهام ، ويرشد الى ما يقابلها من الفصيح . واذا كان اللغويون الذين تقدموا الحريري قد ساءهم اللحن الذي شاع في لغة الحديث اليومية ، فان الحريري لم يكن يشغله هذا الضرب من اللحن ، لتفشيه واستعصاء معالجته ، بل انصرف الى لغة الادب محاولا انقاذها ، والعودة بها الى ما عرفته عصور النقاء اللغوي من الصحة والصفاء .

ويكشف لنا كتاب الحريري هذا ما كان عليه المثقفون من ضعف الاحساس اللغوي ، وقلة الدراية بالفصيح . وقد تنبه يوهان فك الى ذلك ، فاختار نماذج من لحن المثقفين ، ليدلل بها على ما انتابهم من بعد عن الفصيح،

(٧٧) العربية : ٢١٠ .
(٧٨) درة الغواص : ١٠١ .

وضعف في السليقة اللغوية ، من ذلك انعدام شعورهم بالفرق بين جمع القلة والكثرة ، فكانوا يقولون : « ثلاثة شهور وسبعة بحور » والاختيار « ثلاثة أشهر وسبعة أبحر » . ومن ذلك أنهم لم يعودوا يلاحظون ان اسماء الالات تتميز بـ « ميم » مكسورة في أول الكلمة ، فقد كانوا يقولون « مبرد ومبضع ومنجل كما يقولون مقرعة ومقنعة ومنطقة ومطرقة فيفتحون الميم من جميع هذه الاسماء ، وهو من أقبح الاوهام ، واشنع معايب الكلام ، لان كل ما جاء على مفعل ومفعلة من الآلات المستعملة المتداولة بكسر الميم » (٧٩) . كما لم يكونوا يفرقون بين الاسم الدال على المرّة الواحدة وهو وزان « فعلة » بفتح الفاء ، والاسم المخبرّ عن هياة الحدث ، ووزنه « فعلة » بكسر الفاء ، فكانوا يقولون : « قتله شر قتلة بفتح القاف » (٨٠) . كما لم يفرقوا بين «نعم» و «بلى» بل كانوا يضعون احداهما موضع الاخرى (٨١). ولم يلاحظ معاصرو الحريري ان « تاء التأنيث » لا تدخل على وزن «فَعَول» بمعنى « فاعل » فكانوا يقولون : « امرأة شكورة ولجوجة وصبورة وخؤونة » على حين أن هذه « التاء » انما تدخل على « فَعَول » بمعنى « مفعول » : « كقولك ناقة ركوبة وشاة حلوبة لانهما بمعنى مركوبة ومحلوبة » (٨٢) .

وكما كان للتطور اللغوي ، وبعد ما بين لغة الادب والحياة ، الأثر الواضح في تسرب الخطأ الى الأدباء ، في القرون الاربعة الاولى ، فقد أضحى الازدواج اللغوي الحاد سببا لا يستهان به فيما أصاب الادب في العصور المتأخرة من ضعف وركاكة ، وخطأ وانحراف . بل لقد ذهب بعض الدارسين الى أن الجدب الذي نزل بالادب في العصور المتأخرة ، فعصف بنضرته ، وسلبه ماءه ورواءه ، ليس الا نتيجة للاختلاف بين لغة الادب ، واللغة الحيّة

(٧٩) درة الغواص : ٩٧ .

(٨٠) نفسه : ١٠٦

(٨١) نفسه : ١١٩ .

(٨٢) نفسه : ٦٨ .

على السنة الناس ، وليس نتيجة للانحطاط الذي طرأ على النواحي السياسية والادارية في تلك العصور [٨٣] .

لقد عرفت العربية الازدواج اللغوي منذ عصر الفتوحات ، كما مرّ بنا قبل قليل ، الا أن الازدواج في العصور الاولى كان يسيرا « لا يتجاوز النطق الصوتي للكلمات والجمل من ناحية مخارج الحروف وانواع الفك والادغام والاظهار والاخفاء والمدّ والحذف وما شاكل ذلك من قضايا علم الصوتيات أو التصريف ، ولا يتجاوز الجزئيات في النحو واليسير من المفردات » [٨٤] .

أما الازدواج الذي صارت اليه العربية في القرون المتأخرة فقد كان حادا اتسعت فيه « مسافة الخلف اتساعا كبيرا بين لغة الحديث ولغة التكلم ، بحيث توشك هذه الاخيرة ، أي لغة النظم ، ان تصبح لغة اجنبية بالقياس الى الناظم والى ابناء مجتمعه » [٨٥] . وقد حال هذا الازدواج اللغوي بين الشعراء « ممن ينظمون في اللغة المعربة وبين اتقان تلك اللغة اتقانا يبلغ مبلغ اتقان الشعراء الجاهليين وشعراء العصور الاسلامية الاولى لها » [٨٦] . وقد أدى ذلك الى أن تظهر في شعر هذه العصور مظاهر ضعف كثيرة ممثلة « في الركاكة حينا ، وفي الخطأ اللغوي والنحوي أحيانا أخرى وفي العامية يقرن بينها وبين الفصيحة فتبدو كالرقعة في الثوب تارة ثالثة » [٨٧] .

ولم يقتصر اثر الازدواج اللغوي في الشعر على ما نزل به من ركة وضعف وخطأ ، بل تجاوز ذلك الى أن جعل الشاعر العربي يفقد ثقته بنفسه ويميل الى التقليد ولا يستطيع الفكاك منه : « وسر هذا الارتباط هو ما يعتقده الشاعر بحق من أن اللغة التي يتعلمها تعلما ، ويتكلف التعبير بها تكلفا كانت عند اصحاب التراث الاول سليقة وطبيعة ، وانهم كانوا حجة في هذه

(٨٣) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر : ٩ وما بعدها .
(٨٤) نفسه : ١٤ .
(٨٥) نفسه .
(٨٦) نفسه : ١٧ .
(٨٧) نفسه .

اللغة ، وكانوا أعرف بأسرارها ، وأقدر على السيطرة عليها والتحكم فيها ، فهم الأئمة المقتدى بهم في هذا السبيل ، وهم الاساتذة الذين يعتبر نفسه وابناء عصره تلاميذ لهم . ويمتد هذا التقدير امتدادا طبيعيا من مفردات اللغة وقواعدها الى تراكيبها وأمثالها ثم الى تشبيهاتها واستعاراتها ، حتى تنتهي الى فن الشعر فيها بكل ما يشتمل عليه من أوزان وموضوعات واخيلة ومعان . ولو أن الشاعر المتأخر اعتقد ان اللغة ملك له ، وانها عنده ملكة كما كانت عند الشعراء في العصور الاولى ، لتغير الموقف ، ولتطورت لغة الكتابة في العربية تطورا جوهريا كما حدث ذلك في لغات أخرى ، ولتحرر الشاعر من عبوديته للشعر القديم » (٨٨) .

ولا بأس بان نسوق المثال التالي لندلل به على ان الشاعر المتأخر ، قد فقد حريته في التعبير ، وصار يلهث وراء شعر العصور الاولى ، يغير على تعابيرهم ، ويتصيد الفاظهم ، لانه يراها خيرا مما تهديه اليـــه ملكته ، ومقدرته البيانية .

نظم ابن سناء الملك قصيدة في مديح الملك الناصر جاء فيها :

صليني وهذا الحسن باق فربما   يعزّل بيت الوجه منه ويكنس

فلما اطلع القاضي الفاضل ، على القصيدة كتب الى الشاعر يبدي اعجابه بقصيدته وينتقد عليه البيت المذكور ويتمنى لو خلت القصيدة منه ، قائلا : « ولكن بيت يعزّل ويكنس ، أردت أن اكنـــه من القصـيدة فان لفظة الكنس غير لائقة بمكانها » (٨٩) . فلما قرأ ابن سناء الملك نقد القاضي الفاضل كتب اليه مراجعا «قد علم المملوك ما نبه عليه مولانا من أمر البيت الذي اراد ان يكنـــه من القصيدة ، وقد كان المملوك مشغوفا بهذا البيت ، مستحليا له ، متعجبا منه ، معجبا به معتقدا أن قافيته أميرة ذلك الشعر ، وسيدة قوافيه وما اوقعه في الكنس الا ابن المعتز ، حيث يقول :

---

(٨٨) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر : ٢٧ .
(٨٩) ثمرات الاوراق : ٢٩ .

وقوامي مثـل القناة من الخـط   وخدي من لحيتي مكنـوس

والمولى يعلم ان المملوك لم يزل يجري خلف هذا الرجل ويتعثر ، ويطلب مطالبه ، فتتعسر عليه ، وتتعذر ... » [٩٠] فالشاعر يعتذر بأنه وجد لفظة (مكنوس) عند ابن المعتز ، في حديث له عن فتى يباهي بحسنه ، فاخذهـا وليس ابن سناء الملك في هذا الشأن ، أي متابعة الشعر القديم ، والنظر اليه نظرة اكبار وتقديس الا مثالا لشعراء العصور المتأخرة ، الذين جعلتهم مشكلة الازدواج اللغوي يحسون بأنهم دون القدماء معرفة باللغة ، وقدرة على تصريفها ، والتعبير بها ، فأوقعهم ذلك في اسار التقليد ، أو جعلهـم ينصرفون الى التلاعب اللفظي ، يخفون وراءه عجزهم عن التعبير عما يجثم على صدورهم ، أو تمتليء به نفوسهم من عواطف واحاسيس .

وكما استتبع التطور اللغوي في العصور السابقة نشاطا في حركة النقد اللغوي ، وحرصا على مراقبة لغة الادب ، بقصد تنقيتها ، والتنبيه على ما يظهر فيها من أوهام واخطاء ، فكذلك استتبع التطور اللغوي في هـذه الحقبة ان يعنى النقاد بلغة الادب ، ويحرصوا على تهذيبهـا ، واستبعاد ما يكدرها من استعمالات غير فصيحة .

غير ان التطور اللغوي في هذه الحقبة كان كبيرا ، يدلنا على ذلك كثرة ما ظهر في لغة الادب من اخطاء وزيادة ضعف الملكة اللغوية في نفوس المنشئين وقد أدى ذلك الى أن يدع النقاد التشدد في محاسبة الادباء ، ويقلعوا عن مطالبتهم باستعمال الافصح ، ويسمحوا لهم باستعمال المرجوح والشـاذ والضعيف ، توسيعا عليهم من جانب ، ويأسا من أن يأتوا بالافصح من جانب آخر . لقد بدا النقاد وكأنهم لا يعنيهم الافصح قدر ما يعنيهم الفصيح، ولا يطلبون من الاديب أكثر من ان يرتفع عن العامي ، او الخطأ الذي لا سند له من العربية ، على سعتها ، وتعدد لهجاتها .

---

(٩٠) نفسـه : ٢٩ ، ٣٠ .

فابن السيد البطليوسي (ت ٥٢١ هـ) لم يرض عن يذهب مذهب التشدد وأنحى « بشدة اللائمة على ابن قتيبة لانه احتضن مذهب الاصمعي المتطرف في تنقية اللغة ، دون ان يعنى بمذاهب الثقات الاخرين من علماء اللغة ولو على سبيل العرض فحسب »[٩١] .

وابن هشام اللخمي (ت ٥٧٠ هـ) نعى على الزبيدي تشدده ، وأنكر عليه تمسكه بالافصح ، وأجاز كثيرا مما نهى عنه ، وحظر النطق به ، وقد صرّح بمذهبه في أكثر من موضع من كتابه الموسوم بـ (الرد على الزبيدي) فقال : « وما تكلمت به العرب ، ووقع في اشعارها واخبارها ونقله اهل الثقة عنها لا تلحن به العامة ، وان قلت شواهده ، وضعف قياسه »[٩٢] . وقال : « فلا معنى لانكاره مع نطق العرب به وان كان لغة قليلة »[٩٣] . وقد حاول ابن هشام اللخمي ان يحتج لمذهبه النقدي ، فذكر اقوالا عزاها لعدد من القدماء ، ترجح عدم التشدد ، وتحض اللغويين عليه ، قال : « ومن اتسع في كلام العرب ولغاتها لم يكد يلحن أحدا ، ولذلك قال ابو الخطاب عبدالحميد بن عبدالمجيد : انحى الناس من لم يلحّن احدا . وقال الخليل رحمه الله : لغة العرب أكثر من ان يلحن بها متكلم . وروى الفراء أن الكسائي قال : على ما سمعت من كلام العرب ليس أحد يلحن الا القليل »[٩٤] .

وحين تشدد الحريري (ت ٥١٦ هـ) في (الدرة) ودعا الى استعمال أفصح ما وعت العربية من صيغ وقوالب انكر ذلك معاصروه ومن جاء بعدهم ، وحملوا عليه حملة شعواء[٩٥] ، واجازوا كثيرا مما حظره ، ونهى عن استعماله . وكان ابن بري (ت ٥٨٢ هـ) حامل لواء الثورة على تشدد

---

(٩١) العربية : ٩١ .
(٩٢) مخطوطة الرد علي الزبيدي : ٢ .
(٩٣) نفسه : ٤ .
(٩٤) نفسه : ٧ .
(٩٥) العربية : ٢٢٢ .

الحريري ؛ فقد أعترف بكثير من الصيغ التي وصمها الحريري بالخطأ ، وكان الذي حدا ابن برى على قبولها ، والاعتراف بها ، أنها ظهرت في العربية قبل عصر الحريري ، وان الادباء درجوا عليها ، واطمأنوا اليها ، فأصبح ذلك مسوغا لقبولها والاعتراف بها . وتبعه الشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩ هـ) فأجازها أيضا [٩٦] .

لقد كان الحريري في نظرته للصواب اللغوي يمثل اتجاها غير الاتجاه الذي يمثله ابن برى ؛ اذ ان الحريري كان ينهج نهج اللغويين القدامى الذين يابون الاعتراف بما جدّ من صيغ وأساليب لم تؤثر عن عصور الاحتجاج ، ولم تات بها النصوص الجاهلية والاسلامية الاولى . واذا علمنا ان هؤلاء اللغويين قد وصموا بالخطأ كل ما جدّ في العربية بعد منتصف القرن الثاني ، ونظروا اليه على انه مولد ، لا يصح الاخذ به ، أدركنا ان كثيرا من الصيغ والاساليب ، بقيت ، في نظرهم ، خارج دائرة الفصيح المقبول . أما ابن برى فقد كان يمثل اتجاها آخر ، يذهب الى « الاعتراف بالفاظ وقوالب وتعبيرات مولّدة ، بل شعبية دارجة أحيانا ، على أنها صحيحة في العربية الفصيحة ، ما دام قد ثبت ورودها في كتابة القرون الثلاثة الاسلامية »[٩٧] . ومعنى ذلك أن الحريري يذهب مذهب اللغويين الذين جعلوا نهاية القرن الثاني حدا يفصل بين الفصيح وغير الفصيح ، فتقبلوا كل ما عرض للغة من تطور ، وجدّ فيها من صيغ وأساليب ، ضمن تلك الحقبة الزمنية القصيرة ، ورفضوا ما طرأ عليها ، واستحدث بها في العصور التالية . اما ابن برى ومن تبعه فقد كانوا أسلس الى حد ما حين مدّوا عصر الاحتجاج قرنا آخر ، فاعترفوا بصحة ما نشأ من قوالب وصيغ حتى نهاية القرن الثالث .

ولم يكن توسيع عصر الاحتجاج والاخذ باقوال من سماهم المتزمتون بالمولدين ، هو الطابع الوحيد لمنهج ابن برى ومن تبعه من النقاد في العصور

---

(٩٦) نفسه : ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٩٧) نفسه : ٢٢٢ .

المتأخرة ، بل كان هناك طابع آخر لهذا المنهج ، هو الاعتماد على الحديث النبوي والاستشهاد به في الشؤون النحوية ، وكان المتقدمون يأبون الاعتماد عليه في هذا المجال [٩٨] . بل لقد ذهب النقاد في هذه العصور الى ابعد من ذلك ،فاحتجوا بأحاديث غير موثقة ، من ذلك انهم صوبوا ادخال « أن » على خبر « كاد » اعتمادا على حديث « كاد الفقر ان يكون كفرا » وهو حديث لم يثبت نصه عند ابن الانباري (ت ٥٧٧ هـ) بل عدّ ادخـــال « أن » فيه « من تغيير الرواة لانه صلى الله عليه وسلم أفصح من نطـق بالضاد » [٩٩] . واحتج ابن برى بالحديث ليصوّب قول الأدباء في عصره : « الأسود والابيض » في الكناية عن العربي والعجمي ، والعرب تقول فيهما « الأسود والاحمر » . قال ابن برى : « ذكر الهروى ان بعض الناس روى الحديث بلفظ : بعثت الى الاسود والابيض ، وحينئذ فلا خطأ فيما اشتهر على الألسنة بعد وروده في كلام أفصح الناس » [١٠٠] . وظل الرأي القائل بحجيّة الحديث في أمور اللغة والنحو ، يلقى تأيدا مطردا بعد ابن برى [١٠١] ، فاعتمد ابن خروف على الحديث واستشهد به ، وتبعه ابن مالك في ذلك [١٠٢] ، وكان ابن مالك « يرى أن القرآن هو أوثق المصادر وأصحها في اللغة ، وتجيء أحاديث الرسول (ص) بعد ذلك مباشرة في المرتبة الثانية ، على حين أن كلام البدويين من الاعراب في المرتبة الثالثة » [١٠٣] . وقد صحح ابن

---

(٩٨) ذهب أكثر النحاة الى عدم الاحتجاج بالحديث وذلك لعاملين : الاول ان رواة الحديث اجازوا نقله بالمعنى ، ولم يوردوه عن النبي (ص) بلفظه، وكان احدهم ، وهو سفيان الثوري ، يقول « ان قلت لكم اني احدثكم كما سمعت فلا تصدقوني ، انما هو المعنى » . الثاني ان كثيرا من رواته لم يكونوا من العرب ، فوقع فيما رووه شيء من اللحن . تنظر : خزانة الادب : ٥/١ ، ٦ .

(٩٩) خزانة الادب : ٧/١ .

(١٠٠) شرح درة الغواص : ٢١٩ .

(١٠١) العربية : ٢٢٦ .

(١٠٢) خزانة الادب : ٥/١ .

(١٠٣) العربية : ٢٢٧ .

مالك ـ نتيجة لاعتماده على الحديث ـ قول من يقول « أكلوني البراغيث » لمجرد أن الحديث النبوي جاء بهذه اللغة ، فقد روي عن النبي (ص) قوله : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » . ولم يحتج الرضى الاسترابادي بالحديث فحسب ، بل احتج بكلام أهل البيت أيضا ، فطرأ ـ تبعا لذلك ـ تحول حاسم على طبيعة العربية [١٠٤] .

ولم يكن بد ، اذن ، من أن يتسامح النقاد اللغويون ، منذ القرن السادس ، ويضربوا صفحا عن تلك الروح المتشددة التي ظهرت في نقد الحريري ، ومن سبقه من المتزمتين ؛ وذلك لانحطاط المستوى اللغوي ، وتردي النواحي الثقافية والعلمية ، بسبب ما طرأ على البلدان الاسلامية من عوامل الضعف والانحلال ، وما تواتر عليها من حروب ، جعلت تماسكها يؤول الى انفصال ، وقوتها تحور الى ضعف ، وازدهارها العلمي والفكري يعود الى ذواء وذبول . وكان أحد العلماء ، في تلك العصور ، قد اعطانا صورة واضحة لما كان عليه شيوخ الحديث في عصره من الغفلة ، وقلة الضبط ، فوصفهم بأنهم « لا يدرون ما يروون ، ولا يضبطون ما في كتبهم ضبطا يصلح لان يعتمد عليه في ثبوته [١٠٥] » ، وهذا وصف « لا ينطبق على شيوخ المحدثين فحسب بل على جميع العلماء في عصر السلجوقيين بوجه عام »[١٠٦] . فازاء هذا التخلف في ضروب من الثقافة مختلفة ، لم يكن منهج الحريري المتشدد في النقد ، هو المنهج الملائم ، بل انه حين حاول أن يعود بلغة الأدباء الى فصحى العصور المبكرة ، وحرم عليهم أن ينطقوا بغير اللهجات الموثقة التي ارتضاها المتشددون من علماء العربية ، كان في محاولته هذه كمن يطرق على حديد بارد ، أو كمن يرقم على الماء ، ولا أدل على فشله من أنه نفسه لم يستطع أن يبر بتعاليمه ، ويفي لمنهجه ، فوقع في بعض ما خطأ الناس فيه ، من ذلك أنه منع أن يقال :

---

(١٠٤) العربية : ٢٢٧ .

(١٠٥ ، ١٠٦) نفسه .

كافة الناس ، ثم قال في (الدرة) نفسها[١٠٧] : « وتشهد الآية باتفاق كافة أهل الملل » فعلق الخفاجي على ذلك بقوله : وقول المصنف : باتفاق كافة أهل الملل استعمل فيه كافة على خلاف ما قدمه ، فكأنه نسيه ، او الله انطقه بالحق » [١٠٨] . ومما نبه على الخطأ فيه قولهم « ما كان ذلك في حسابي أي في ظني » ورأى الواجب ان يقال « في حسباني » [١٠٩] . فقال الشهاب : « والعجب منه انه يقول في شعر له كما في الخريدة :

بلّت يدي منك بما لم يكن يخطر في الوهم ولا في الحساب »[١١٠]

ومما أخذ عليه « أنه قال في المقامة الحلوانية في حديثه عن ابي زيد السروجي : (فلما رأيت تلهب جذوته ، وتألق جلوته ، أمعنت النظر في توسمه ، وسرّحت الطرف في ميسمه) فنراه يقول : امعنت النظر ، وانما يقال : أمعن في النظر . وفي الأساس : امعن في الأمر : ابعد فيه » [١١١] . ومنه ذلك أنه يعلق على قولهم : « اصفرّ لونه من المرض ، واحمرّ خده من الخجل » بقوله : « وعند المحققين أنه انما يقال اصفرّ واحمرّ ونظائرهما في اللون الخالص الذي قد تمكن واستقر ، وثبت واستمر ، فأما اذا كان اللون عرض لسبب يزول ، ومعنى يحول ، فيقال فيه : اصفارّ واحمارّ ليفرّق بين اللون الثابت والمتلون العارض ، وعلى هذا جاء في الحديث : فجعل يحمارّ مرة ويصفارّ أخرى »[١١٢] . على حين انه نفسه يقول في المقامة الحراميّة : « فازورّت مقلتاه ، واحمرّت وجنتاه » [١١٣] . ان مخالفة الحريري لضوابطه اللغوية ، دليل على ان اقوال النقاد المتزمتين « لم تكن ــ عمليا ــ مستطاعة التنفيذ »[١١٤].

---

(١٠٧) درة الغواص : ٢٥ ؛ ١٠٩ .
(١٠٨) شرح درة الغواص : ٢٢٦ .
(١٠٩) درة الغواص : ١١٣ .
(١١٠) شرح الدرة : ٢٣٣ .
(١١١) الاخطاء اللغوية الشائعة : ١٢ .
(١١٢) درة الغواص : ١٥ .
(١١٣) شرح الدرة : ٥١ .
(١١٤) العربية : ٢٢٢ .

اتضح من كل ما تقدم أن العربية لم تجمد على ما هي عليه ، بل امتدت اليها يد التطور منذ عصر الفتوحات ، وظلت تعمل فيها ، محدثة الوانا شتى من التغيير ، فأدى ذلك الى ان ينشط النقد اللغوي ، ويتصدى في كل عصر نفر من النقاد لحماية اللغة من التطور ، والعودة بالناطقين بها الى الموروث من النطق الصائب ، والاستعمال اللغوي السليم . كما ظهر في بعض العصور عدد من المؤلفات ، الهدف منها زيادة ثقافة الادباء اللغوية ، وتبصيرهم بما يجمل ويحسن من الالفاظ والعبارات ، وبالمواطن التي يستعمل فيها كل منها . وقد رأينا ان أكثر النقاد في العصور الاولى جنحوا الى التشدد ، ووصموا بالخطأ كثيرا من الصيغ والاساليب لانها في نظرهم من اللغات الضعيفة او المغمورة . ثم رأينا أن النقاد في العصور المتأخرة ـ نتيجة لانحطاط المستوى اللغوي ، وضعف الملكات اللغوية عند الادباء ـ ينزعون عن التشدد ، ويقبلون كثيرا مما كان الاوائل يعدونه ضعيفا أو شاذا أو مرجوحا .

واذا كان التطور اللغوي قد حفز النقاد الى مراقبة لغة الأدب ، وصد عوامل التغيير عنها ، فان التطور الذي عرض لادبنا في اوائل العصر العباسي ، قد أثار حملة نقد لغوي أيضا ، قادها اولئك اللغويون الذين تعصبوا للقديم ، واستمسكوا به ، وانكروا الجديد ، وزهدوا فيه . ومعنى ذلك أن التطور الادبي لم يكن ليثير في النقد اللغوي ما أثاره ، لولا التعصب عليه ، ونفرة جمهور المحافظين منه . وسيتناول الفصل القادم اثر التعصب للقديم في النقد اللغوي ، وما نشأ بسبب هذا التعصب من مقاييس ونظرات هدفت الى تسفيه الجديد ، والقدح فيه .

الفصل الثالث

التعصب للقديم

لم يخل أدب أمة من الأمم ، من نشوء طبقة تتعصّب للقديم ، وتحرص على تقليده ، وفرض سماته وخصائصه على من يزاول الأدب ، ويتصدى لابداعه . وهذه الظاهرة من السنن الثابتة التي لن تجد الامم عنها حولا [1] .

ولم يكن العرب بدعا من غيرهم ، فقد برزت عندهم هذه الظاهرة ، وتعصّب فريق منهم للقديم ، وأسرفوا في تأييده ، وغضوا من الجديد ، وانصرفوا عنه في استعلاء وازدراء .

ومن اسباب التمسك بالقديم ، والاندفاع القوي في تأييده ، أن الانسان اذا ألف شيئا أحبه ، وعزّ عليه تغييره . وهذا ما حدث لانصار القديم في أدبنا العربي ، بمعنى أنهم ألفوه ، وتوثقت صلتهم به ، ولم يكن الاعجاب وحده مبعث تلك الصلة بل أملتها حاجتهم اليه فيما أقدموا عليه من أعمال علمية ، تهدف الى تفسير القرآن وفهم مراميه من جانب ، ووضع قواعد اللغة ، واستنباط أصولها من جانب آخر .

وهكذا تلاقت في نفوس أنصار القديم حاجتان ، لم يكن يرضيهما الا الشعر القديم ، الاولى حاجة فنية ، والاخرى حاجة علمية . وقد ظهرت الحاجة العلمية منذ اتجه العلماء الى تفسير القرآن ، والوقوف على معاني مفرداته وتراكيبه ، ووجدوا في الشعر الجاهلي ما يعينهم على العمل الذي تصدّوا له . وكان ابن عباس من اوائل العلماء الذين اتخذوا من شعر العرب وسيلة الى فهم ما في القرآن من غريب [2] . وتبع ابن عباس في مذهبه هذا عدد

---

(1) انظر حديث الاربعاء : ٢/١ ففيه تفصيل اكثر .
(2) اثر القرآن في تطور النقد العربي : ٣٢ .

من المفسرين الاوائل الذين كانوا يسترشدون في تفسيرهم للقرآن بالشعر العربي الجاهلي بوجه عام [٣] .

كان ابن عباس ، اذن ، يدعو الى تفسير القرآن بالشعر ، فيقول : « اذا تعاجم شيء من القرآن ، فانظروا في الشعر ، فان الشعر عربي » [٤] . ويقول : « اذا سألتموني عن غريب القرآن ، فالتمسوه في الشعر فان الشعر ديوان العرب » [٥] . وقد أثار ابن عباس في عمله هذا حركة قوية تهدف الى جمع الشعر الجاهلي ، وتحصيله من صدور حفظته ورواته، لمواجهة ما في القرآن من غريب ، وتفسير ما غمض من مفرداته وتراكيبه .

ولم يمض وقت طويل حتى نشأ النحو ، للوقوف بوجه اللحن الذي شاع وفشا حتى شمل اولاد الخلفاء ، كما تقدم [٦] . فتعززت الحاجة الى الشعر الجاهلي ، لأنه أصبح الأساس الذي بنيت عليه قواعد هذا العلم ، والنبع الذي استمدت منه قوانينه وأصوله .

فليس غريبا بعد ذلك أن تظهر طبقة ، تعنى بالشعر القديم ، وتجدّ في روايته ، وتتحمل المشاق في سبيل جمعه وتدوينه ، ثم تتسابق الى دراسته وتحليله . وكانت هذه الطبقة هي طبقة علماء اللغة ورواتها .

ولم يعد تعلّق هذه الطبقة بالشعر القديم قائما على أساس من الذوق وحده ، وانما كان قائما أيضا على ما يقدمه هذا الشعر من مادة ، تبنى عليها العلوم اللغوية التي جدّت ، والتي أرادوا لها أن تبنى على القديم فحسب ، لصفائه ، وبعد تأثيه عن البيئات الجديدة التي انغمس فيها العرب بعد خروجهم من الجزيرة ، وهي بيئات تطرقها الأعاجم ، وتلتقي فيها ألسن شتى .

---

(٣) اثر القرآن في تطور النقد العربي : ٢٢

(٤) جامع البيان عن تاويل آي القرآن : ٢٠٦/١٧ .

(٥) الاتقان في علوم القرآن : ١١٩/١ .

(٦) انظر ص ٥٩ من هذه الرسالة .

ان نظرة هذه الطبقة الى الشعر القديم تفصح عن احترام له واعتماد عليه فيما تصدوا له من أعمال علمية ، أما موقفهم من الشعر الاسلامي فقد ذهب بعضهم الى الاستغناء التام عنه ، وعلى رأس هؤلاء ابو عمرو بن العلاء الذي روي انه كان شديد الوطأة على الشعر الاسلامي ، وأنه لم يرو شيئا منه ، قال الاصمعي : « جلست اليه ثماني حجج ، فما سمعته يحتج ببيت اسلامي » [٧] . وقيل انه سئل عن المولدين فقال : « ما كان من حسن فقد سبقوا اليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم » [٨] . وذهب أكثرهم الى الاعتماد على شطر من الشعر الاسلامي مما قيل حتى منتصف القرن الثاني . فقد وضع هؤلاء حدا زمنيا تنتهي عنده الفصاحة ، وأجمعوا على أن ابن هرمة المتوفى بحدود سنة ١٥٠ هـ ، ساقة الشعراء ، وآخر من يحتج بشعره ، ويوثق بفصاحته [٩] .

أما بشار ومن عاصره ، وجاء بعده ، فمولدون ، امتدت الى لغتهم يد الحضارة ، فأفسدتها ، ونسخت فصاحتها ، فلم تعد تصلح لأن يحتج بها على صحة قاعدة ، أو فصاحة كلمة . لقد كان اللغويون « مقتنعين بأن اللغة العربية لغة صحراوية ، تزدهر في البداوة ، وتكمل بالجزيرة العربية ، وأن الاقامة في الحضر ، تفسد الملكة ، وتنقص البيان ، وتجلب اللحن ، وكانت لديهم براهين على ذلك مما شاب البيان العربي ، منذ خرج من شبه الجزيرة » [١٠] . وكان قرار اللغويين هذا مثارا لمعركة نقدية عنيفة ، دارت رحاها بين المولدين والمحدثين ، وبين اللغويين ، وظلت هذه المعركة مشبوبة الاوار طول القرنين الثاني والثالث ، ولم يخب ضرامها الا في القرن الرابع . وكان بشار قائد الثورة على اللغويين ، فقد أبى أن يذعن لاحكامهم ، بل لم يرهم أهلا لأن يكونوا نقادا ، لان علمهم لا يسمو بهم الى حيث يشتهون من

---

(٧) العمدة : ١/٩٠ .
(٨) نفسه : ١/٩٠ ، ٩١ .
(٩) نفسه : ١/١٢١ .
(١٠) تاريخ النقد الادبي عند العرب : ١٠٢ .

الحكم على الشعر أو التصدي للشعراء ، فهم ليسوا الا نقلة ، أو جامعي شعر واخبار ، ولا يستطيع نقد الشعر ، وميز رديئه من جيده ، الا من خبره وعانى نظمه ، سئل بشار عن جرير والفرزدق « أيهما أشعر ، فقال : جرير أشعرهما . فقيل له : بماذا ؟ فقال : لان جريرا يشتد اذا شاء ، وليس كذلك الفرزدق ، لأنه يشتد ابدا . فقيل له : فان يونس وابا عبيدة يفضلان الفرزدق على جرير . فقال : ليس هذا من عمل اولئك القوم ، انما يعرف الشعر من يضطر الى أن يقول مثله » [11] .

وأراد بشار أن يفتح للشعراء باب التصرف في اللغة ، فاستحدث صيغا ، وابتكر مشتقات لم ترد في كلام العرب ، فانكرها اللغويون عليه وعدوها من اخطائه . قال بشار :

والان أقصَر عن سميةَ باطلي　　　وأشار بالوَجلَى علي مشير

وقالَ :

على الغَزَلَى مني السلام فربما　　　لهوت بها في ظل مخضرّة زهر

فطعن الأخفش في هذين البيتين وقال : « لم يسمع من الوجل والغزل « فَعَلى » وانما قاسها بشار ، وليس هذا مما يقاس ، انما يعمل فيه بالسماع » [12] .

ولم يكن بشار وحده غرضا لسهام اللغويين ، ومن والاهم من انصار القديم ، وانما تعرّض لها المولدون عامة ، ولم ينج منها أحد منهم ، وان أبدى من العلم بالعربية ، ما كان خليقا بأن يعطف عليه اولئك المتزمتين . ذلك أن اللغويين لم يكونوا ينظرون في الشعر نفسه ، وانما كانوا ينظرون الى قائله ، أو عصر قائله ، اذا شئنا الدقة . ولم يكن للمحدثين من ذنب الا أنهم تأخروا عن ذلك العصر السعيد الحظ ، وأعني به العصر الجاهلي . قال ابو عمرو

---

(١١) اعجاز القرآن : ١١٦ ، ١١٧ .

(١٥) الموشح : ٢٨٥ .

ابن العلاء عن الأخطل : « لو أدرك يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه أحدا » [١٣] . وقال في شاعر أموي آخر : « لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته » [١٤] . واذا كان هذا شأن ابي عمرو مع الاسلاميين ، فاحرى به ، وبمن ينهج نهجه من اللغويين ، الا يسلموا بفضل لمن جاء بعدهم في العصر العباسي .

لم تكن نظرة اللغويين للمحدثين علمية ، بل كانت بعيدة عن الموضوعية والنصفة . والاخبار المحكية عنهم ، تؤيد هذا الحكم عليهم وتعززه ، وتنفي عنهم النزاهة والتجرد .

لقد كثر تقولهم على ابي نواس ، ووصفوه بأوصاف لم يجرؤوا على أن يرموا بها أحدا من السابقين ، لأخطاء يسيرة ، يمكن أن يجدوا لها ، لو انصفوا ، وأحسنوا الظن ، ما يسوّغها ، على حين أن كتب اللغة قد حفظت من اخطاء المتقدمين شيئا ، غير أن قداسة الزمن ، حالت بين اللغويين وبين أن يرموهم بالخطأ [١٥] .

وقد أحس الشعراء بهذا الموقف الجائر الذي وقفه اللغويون منهم فكانوا يستعطفونهم ، ويرجونهم أن ينظروا الى الشعر نفسه ، لا الى العصر الذي قيل فيه . من ذلك ما جرى بين ابن مناذر وابي عبيدة ، حين قال الاول للثاني « اتق الله واحكم بين شعري وشعر عدي بن زيد ، ولا تقل : ذلك جاهلي ، وهذا اسلامي ، وذاك قديم ، وهذا محدث ، فتحكم بين العصرين ، ولكن احكم بين الشعرين ، ودع العصبية » [١٦] .

فالنحاة واللغويون الذين حملوا على الشعر المحدث ، وناصبوه العداء ، كانت احكامهم تأثرية ، كتلك التي عرفت في العصر الجاهلي وصدر الاسلام ،

---

(١٣) المثل السائر : ٢/٣٩٥ .
(١٤) العمدة : ١/٩٠ .
(١٥) الرواية والاستشهاد باللغة : ٣٤ .
(١٦) الاغاني : ١٧/١٢ .

لأنهم لم يكونوا يفضلون القديم لاسباب فنية من صدق احساس او جودة عبارة ، أو جمال صورة ، او غير ذلك مما يعنى به الناقد ، وانما فضلوه لمجرد السبق في الزمن[17] . ولذا نراهم اذا وقعوا على شيء من شعر المحدثين ، صيغ على غرار الشعر القديم ، استحسنوه ، ونظروا اليه بعين الرضا ، حتى اذا علموا أنه محدث ، اعرضوا عنه ، وعادوا الى ثلبه .

روي أن اسحاق بن ابراهيم الموصلي أنشد الاصمعي :

هل الى نظرةٍ اليكِ سبيلُ   فَيُرَوَّى الصدى ويُشفَى الغليلُ
انّ ما قلّ منكِ يكثرُ عندي   وكثيرٌ ممن تحبّ القليل

فقال الاصمعي : لمن تنشدني ؟ فقال : لبعض الاعراب ، قال : والله هذا هو الديباج الخسرواني ، قال : فانهما لليلتهما ، فقال : لا جرم والله أن أثر الصنعة والتكلف بيّن عليهما » [18] .

وكان ابن الأعرابي نظير الاصمعي في التعصب للقديم ، فقد اسرف في الطعن على ابي تمام خاصة ، حتى حكي عنه انه أنشد شعرا لابي تمام فقال : « ان كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل » [19] .

وهذا التعصب المفرط من ابن الاعرابي ، جعل انصار ابي تمام يعللون تعصبه بأنه لم يفهم معاني شعره ، قالوا : ان ابن الاعرابي « كان شديد التعصب عليه ، لغرابة مذهبه ، ولانه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه ، فكان اذا سئل عن شيء منها يأنف ان يقول : لا أدري فيعدل الى الطعن عليه » [20] .

---

(17) النقد المنهجي عند العرب : ٧٥ وانظر : الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ٤١ .
(18) الموازنة : ١/٢٣ .
(19) اخبار ابي تمام : ٢٤٤ .
(20) الموازنة : ١/٢٢ .

وكما كان الاصمعي يعجب ببعض الشعر المحدث ، قبل ان يعرف قائله ، فاذا عرفه غض منه ، وتنكر له ، كذلك كان ابن الاعرابي ؛ قال الصولي : انه « تمثل بشعر ابي تمام ، وهو لا يدري ، ولعله لو درى ما تمثل به ، وكذلك فعل في النوادر ، جاء فيها بكثير من أشعار المحدثين ، ولعله لو علم بذلك ما فعله » [٢١] .

لقد عدّ اللغويون الشعر الجاهلي القدوة المثلى التي يجب أن تحتذى ، ومن أجل ذلك نجدهم يعللون رفضهم لما يرفضون من شعر المحدثين بقولهم « ما سمع عن العرب » أو قولهم « وما سمعنا مثل هذا ولا علمناه في اللغة » أو « وما جاء مثله في أشعار العرب » أو بأقوال مثل هذه .

ولم يكونوا يفزعون للشعر الجاهلي ، ويتخذونه مقياسا لما يقبل أو يرفض الا لأنهم ألفوا ذلك الشعر ، وطال تمرسهم به ، وكثرت مدارستهم له ، بحكم تنقيبهم الدائم فيه عن الشواهد التي يؤيدون بها ما يستنبطونه من أحكام وقواعد . ولا شك في أن عكوفهم على هذا الشعر ، وطول معاناتهم إياه ، أكسبهم خبرة واسعة به ، وعلما راسخا بمعانيه . لقد كانوا بالقياس الى الشعر القديم كمن يسير في طريق كثر سالكوها فذللت صعابها ، ووضحت معالمها ، وكانوا بالقياس الى الجديد كمن يدفع الى السير في طريق مجهولة ، لم يسبق له أن عرفها ، أو سار فيها .

لقد انتفع اللغويون بجهود من سبقهم في درس الشعر الجاهلي ، وتفسيره ، وتذليل صعابه ، اما الشعر الحديث فلم يسبقهم اليه أحد ، ليساعدهم على ولوج ميدانه ، فكان ذلك من اسباب تفورهم منه ، ومعاداتهم اياه .

وقد تنبه الصولي الى هذا السبب ، فقال محللا اسباب اعراض اللغويين عن الشعر المحدث عامة ، وشعر ابي تمام خاصة : « اما ما حكي عن بعض

---

(٢١) اخبار ابي تمام : ١٧٧ .

العلماء في اجتناب شعره ـ اي ابي تمام ـ وعيبه ، ولا أسمي منهم احـــدا لصيانتي لأهل العلم جميعا ، وابقائي عليهم ، وحياطتي لهم ، فلا تنكر أن يقع ذلك منهم . لان اشعار الاوائل قد ذللت لهم ، وكثرت لها روايتهم ، ووجدوا ائمة قد ماشوها لهم ، وراضوا معانيها ، فهم يقرأونها سالكين سبيل غيرهم في تفاسيرها ، واستجادة جيدها ، وعيب رديئها . والفاظ القدماء ، وان تفاضلت فانها تتشابه ، وبعضها آخذ برقاب بعض ، فيستدلون بما عرفوه منها على ما أنكروه ،ويقوون على صعبها بما ذللوه .ولم يجدوا في شعر المحدثين مذ عهد بشار أئمة كأئمتهم ، ولا رواة كرواتهم ، الذين تجتمع فيه شرائطهم ، ولـم يعرفوا ما كان يضبطه ويقوم به ، وقصروا فيه فجهلوه فعادوه » [٢٢] .

ويؤيد ما ذهب اليه الصولي ، ما حكي عن جهل ثعلب بمعاني شعر ابي تمام ، واستعانته على فهمها ببعض اصدقائه ، قال الصولي : « ولقد حدثني بنو نيبخت ـ وما رأيت ابا العباس احمد بن يحيى على جلالته عند احد أجلّ منه عندهم ، وكلهم ينتسب اليه في تعلمه ـ انه قال لهم : انا اعاشر الكتاب كثيرا ، وخاصة ابا العباس بن ثوابة ، وأكثر ما يجري في مجالسهم شعر ابي تمام ، ولست أعلمه ، فاختاروا لي منه شيئا ، فاخترنا منه له ، ودفعناه اليه ، فمضى به الى ابن ثوابة ، فاستحسنه ، فقال له : انه ليس مما اخترت ، وانما اختاره لي بنو نوبخت ، قال : فكان ينشدنا البيت من شعره ثم يقول : ما اراد بهذا ؟ فنشرحه له ، فيقول : أحسن والله ، وأجاد فهذا (كذا) قصة امام من ائمة الطاعنين عليه عندهم »[٢٣] .

ولكن الدارس لموقف اللغويين من الشعر المحدث ، يقف على ظاهرة لابد من الاشارة اليها ، وهي انه قد وجد بين لغويي القرن الثالث من كانوا أقل تعصبا عليه ، وأكثر تقبلا له ، ممن سبقهم من لغويي القرن الثـــاني . فبعد أن كان ابو عمرو بن العلاء ومن في طبقته يعرضون عنه أشد الاعراض ،

---

(٢٢) اخبار ابي تمام : ١٤ .
(٢٣) اخبار ابي تمام : ١٥ ، ١٦ .

ولا يبيحون لانفسهم رواية شيء منه ، نجد اللغويين في القرن الثالث متفاوتين في النظرة الى الشعر الجديد ، فبعضهم ظل منكرا له ، شديد التعصب عليه ، كابن الاعرابي ، وبعضهم كانت احكامه تراوح بين الانكار مرة ، والاستجادة تارة وكان ابو حاتم السجستاني من هذا الفريق ، قال الصولي : « أنشد ابو حاتم السجستاني شعرا لابي تمام فاستحسن بعضه واستقبح بعضا » [٢٤] . وهناك آخرون قبلوه ، وأذنوا له بالدخول الى كتبهم ومصنفاتهم . وكان المبرد يمثل هذا الفريق المتسامح « بل يمكن اعتباره ممثلا للفئة التي تأتي في نقيض المتزمتين ، وما كتابه « الروضة » الا شاهد على التفاته الى فن المحدثين ، واقباله على مذاهبهم » [٢٥] . وكان ابن سنان يراه من الفئة التي تقول : لا فضل لقديم على محدث ولا لمحدث على قديم الا بالاجادة [٢٦] ، ومما يؤيد تسامحه مع المحدثين ، ايراده كثيرا من اشعارهم في كتابه « الكامل » بل لقد عقد بابا فيه قال في أوله « هذه اشعار اخترناها من اشعار المولدين حكيمة مستحسنة يحتاج اليها للتمثيل » [٢٧] . كما ألف كتابا سماه « الروضة » قصره على اشعار المحدثين [٢٨] .

ولئن كان موقف اللغويين من الشعر الحديث قد اتسم في جملته بالنفور منه ، والاعراض عنه ، لقد رزق هذا الشعر نقادا آخرين ، أقبلوا عليه ، وأحسنوا درسه ، ولم يمنعهم حبهم للقديم ، من ان يعجبوا بالجديد ، ويعترفوا بما له من سمات لم تتوافر في سواه . وكان هؤلاء النقاد هم الكتاب والادباء الذين تلمذوا لائمة اللغة والنحو ، وأفادوا منهم ، ولكنهم لم يرثوا عنهم نظرتهم للجديد ، بل اقبلوا عليه ، وعنوا به أشد عناية ، فنقدوا عناصره ،

---

(٢٤) أخبار ابي تمام : ٢٤٤ .
(٢٥) الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ٤٥ .
(٢٦) سر الفصاحة : ٢٧١ .
(٢٧) الكامل : ٢/٢ .
(٢٨) معجم الادباء : ١٢١/١٩ . وينظر : الحركة النقدية : ٤٥ .

ونوهوا بالمقبول منها والمرذول ، فاستحقوا ، لذلك ، في نظر الجاحظ ، ان يكونوا العلماء بالشعر ، البصراء بجوهره . قال الجاحظ : « طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يحسن الا غريبه ، فرجعت الى الاخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على ابي عبيدة فوجدته لا ينقل الا ما اتصل بالأخبار، وتعلّق بالأيام والانساب ، فلم أظفر بما اردت الا عند ادباء الكتاب » (٢٩). ولم يبعد الجاحظ عن الحق في قولته ، فقد كان الفضل في تحليل اشعار المحدثين وتعرّف خصائصها ، يعود الى الادباء ، لا الى اللغويين أو غيرهم ، ممن لم يعنهم من الشعر الا الشاهد او الخبر او اللفظ الغريب .

وجاء ابن قتيبة ، فعزز الرأي القائل بوجوب الاهتمام بالحديث ، ونبذ التعصب للقديم ، وقال «... ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، واعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه » (٣٠) . ثم أنحى باللوم على من كان من علماء عصره « يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده الا أنه قيل في زمانه ، أو أنه رأى قائله » (٣١) . وعني ابن المعتز بالشعر المحدث ، فدرسه ، وألف فيه . وعلى ذلك فان اتجاها جديدا في درس الادب ونقده ، قد بدأ يظهر وتتضح ملامحه ، وأن النقاد احسوا بوجوب الالتفات الى الشعر المحدث ، وتقويمه ، ووضع الأسس التي تصلح للمفاضلة بين منشئيه . أما اللغويون فقد بدأوا يتركون ميدان النقد ، وان لم يودعوه ، بعد أن تصدى الادباء ، والكتاب لهذه المهنة .

وما ان جاء القرن الرابع حتى خفت الحماس للشعر القديم ، وتضاءل ، وأصبح أكثر النقاد مجمعين على التسليم بأنه لا فضل لقديم على محدث ، ولا لمحدث على قديم الا بالاجادة (٣٢) . بل ارتفعت اصوات جريئة ، تذم التعصب،

---

(٢٩) العمدة : ١٠٥/٢ .
(٣٠) الشعر والشعراء : ٦٢/١ .
(٣١) نفسه : ٦٢/١ ، ٦٣ .
(٣٢) الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ٣٣٣ .

وتندد به ؛ فالجرجاني كان يرى ان العصبية اذا استحكمت حسّنت للناقد الميل ، وصورت له الشيء بغير صورته ، وتخطت به الاحسان الظاهر الى العيب الغامض [٣٣] . ولم يقف الجرجاني عند هذا ، بل جهر برأي خطير ، أحجم سابقوه عن التصريح به . لقد رأى أن الاعتقاد بعصمة القدماء من الخطأ ، وهم لا سند له من الواقع ، وأن ما وصل الينا عنهم ، لم يبرأ من الخطأ ، قال : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية والاسلامية ، فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه ، اما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، او معناه او اعرابه ؟ ولولا أن أهل الجاهلية جدّوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والاعلام والحجة ، لوجدت كثيرا من اشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ؛ لكن هذا الظن الجميل ، والاعتقاد الحسن ، ستر عليهم ، ونفى الظنّة عنهم ، فذهبت الخواطر في الذبّ عنهم كل مذهب ، وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام » [٣٤] . وكان الآمدي قد ذهب في القدماء هذا المذهب ، ولم يفته أن يزيف دعوى عصمتهم من الخطأ ، قال : « ... لأن اللحن لا يكاد يعرى منه احد من الشعراء المحدثين ولا سلم منه شاعر من شعراء الاسلاميين ، وقد جاء في اشعار المتقدمين ما علمتم من الاقواء وغير الاقواء مما لا يقوم العذر فيه الا بالتأويلات البعيدة »[٣٥] .

ومثل هذه الاراء ، دليل على أن الزمن قد خفف من سلطان القديم ، وأخمد تلك الحرب التي تأججت زمنا طويلا بين القديم والحديث ، أو قلل « هدأ من حدتها » [٣٦] .

والان ، وبعد أن وقفنا على ظهور طبقة من النقاد ، عرفت بالميل الشديد الى القديم ، والتعلق المفرط بنماذجه ، نخلص الى القول بان هذه الطبقة قد

---

(٣٣) النقد الادبي واثره في الشعر العباسي : ٢٢ . وينظر مصدره .
(٣٤) الوساطة : ٤ .
(٣٥) الموازنة : ٢٨/١ .
(٣٦) النقد المنهجي عند العرب : ٩٨ .

أثرت في النقد اللغوي ، وأذكت حركته ، وجعلت ريحه تشتد طوال القرنين الثاني والثالث . ولو ان هذه الطبقة لم تظهر ـ على أن ظهورها أمر حتمي في كل أمة وكل عصر ـ لمرت الامثلة الجديدة ، دون ان تستتبع طعنا عليها ، أو توهينا لها . وآية ذلك ان النقاد الذين لم يستحوذ عليهم حب القديم ، ولم يستبد بهم الميل نحوه ، قبلوا الجديد ، ومالوا اليه ، ولم ينهضوا للدفاع عنه ، الا لان المتعصبين أفرطوا في تجاهله ، وتمادوا في التنكر له ، والغض منــــه .

لقد أملى التعصب للقديم طائفة من المقاييس النقدية التي هدفت الى مقاومة الجديد ، والحيلولة دون استقراره ، ومعنى ذلك أن هذه المقاييس لم تكن لتنشأ لو ان المتعصبين تخلّوا عن تعصبهم ، ونظروا الى الحديث بعين الناقد المتجرد .

وهذه المقاييس قد استبعت مقاييس مضادة لها ، فأباحت الثانية ما حظرته الاولى ، وعدّت هذه من الاحسان ما عدّته تلك من الاساءة والتقصير .

أما المقاييس التي دفع اليها التعصب للقديم ، فتمثلت فيما يلي :

١ ـ الغرابة والفخامة :

شاعت السهولة في لغة طائفة كبيرة من شعراء العصر العباسي ، حتى لقد ظهر منهم « من يبهر الناس لسرعته في قول الشعر ، وقدرته العجيبة على وزن الكلام » (٣٧) . وما ذلك الا لان هذا الفريق من الشعراء كان ينظم شعره مما يجري على ألسنة الناس من الفاظ ، فلا يتوعّر ، ولا يلتمس مفرداته فيما وعته دفاتر اللغويين ، أو جرت به السنة القدماء . ولم تكن السهولة في اسلوب الشعر بالامر الغريب الذي لم يعهده الشعر العربي من قبل ، بل سبق أن ظهرت في أشعار أهل الحجاز ، الذين عاشوا خلال الحكم الاموي في ظروف تشبه ظروف العباسيين ، وأتيح لهم ان يأخذوا باسباب الترف ولين العيش ،فأدّى

(٣٧) الشعر في بغداد : ٢٩١ .

ذلك الى ان ترق لغتهم ، وتشيع السهولة في قصائدهم . ولكن سهولة الحجازيين ورقة لغتهم ، كما رأينا ، لم تكن موضع اعجاب النقده المتزمتين الذين الفوا الجزالة ، واستطابوا قوة الرنين . وقد مرّ بنا [٣٨] أن جريرا كان ينعي على أهل الحجاز رقتهم ، ولين أساليبهم فيخف شعرهم بانه تهامي اذا أنجد وجد البرد . وظلت الفخامة والجزالة الطابع المستحب عند النقاد ، الذين كان أكثرهم من اللغويين ، وحين تبدلت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ، وشاعت مظاهر الترف والرقة ، صدف الناس عن الالفاظ الغريبة ، وتبرموا من الكلمات التي تملأ الأفواه ، وتقتحم الاسماع ، ومالوا الى الرقيق الهامس ، والعذب الموحي .

وقد اشار يوهان فك الى التطور الذي نال لغة الشعر فقال : ان الذي دعا اليه هو « الانتقال من حياة البداوة الى حضارة المدن ، وتغلغل غير العرب في مناطق الادب » [٣٩] . ثم قال : « وذلك الطابع الوحشي للعربية القديمة بثروتها الفياضة في الالفاظ والقوالب تراجع في ذلك العهد امام اسلوب منوّق مهذّب ، لا يسبب استواؤه وسهولته صعوبات ذات بال للافهام » [٤٠] .

غير أن النقاد الذين رفعوا لواء المحافظة على القديم ، وعرفوا بالتعصّب الشديد له ، لم ترقهم السهولة ، ورأوا فيها خروجا على ما كان للقدامى من اسلوب تميز بالفخامة ، والاكثار من الغريب . لقد اقحم التعصّب للقديم هذا المقياس في ميدان النقد اللغوي ، ولم يبال المتعصبون ذوق العصر ، الذي أخذ يجفو الغريب ، ويجنح الى اللغة السهلة الواضحة ، يتساوى في ذلك الناس على اختلاف طبقاتهم ، شعراء ومتلقّين ، ولا يشذ عنهم فيه الا المتعصبون للقديم . وطبيعي أن يكون الشعراء انفسهم طليعة الذين ارتضوا السهولة ، ودافعوا عنها ، لانهم حرصوا على أن تكون « لغة شعرهم هي لغة الحياة

---

(٣٨) تنظر ص٠٤ من هذه الرسالة .

(٣٩) العربية : ٥٨ ، ٥٩ .

(٤٠) نفسه : ٥٩ .

اليومية نفسها ؛ أو على الاقل ان تكون قريبة منها » [٤١] . وقد سئل السيد الحميري : « مالك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء ؟ فقال : لان أقول شعرا قريبا من القلوب ، يلذّه من سمعه خير من أن أقول شيئا متعقدا تضلّ فيه الاوهام » [٤٢] .

وكان الخلفاء من انصار السهولة أيضا ؛ لانهم لم يكونوا يفقهون الغريب ، ولا يشجعون عليه ، فقد روى ان الرشيد نفسه لم يرض من الاصمعي أن يستعمل في خطابه اياه تعبيرا غريبا مهجورا هو « ما لاقتني بعدك أرض » أي لم تسكني [٤٣] . كما ان الخليفة المأمون ، وهو العالم الاديب ، لم يكن يفقه كثيرا مما يقول عمارة بن عقيل من الشعر في مدحه ، لان عمارة بدوي ، يذهب في شعره مذهب القدماء [٤٤] .

وعلى ذلك فان مقياس الغرابة والفخامة ، الذي اراد له المتعصبون للقديم أن يصبح المقياس المأخوذ به ، في تقديم نص على نص ، لم يكتب له البقاء ، بل سرعان ماتضاءل، وصار موضع ازدراء النقاد الذين اجمعوا على أن من عيوب الشعر « أن يركب الشاعر فيه ما ليس يستعمل الا في الفرط ، ولا يتكلم به الا شاذا ... وهذا الباب مجوز للقدماء ، ليس من اجل أنه حسن ، لكن من شعرائهم من كان اعرابيا قد غلبت عليه العجرفية ... ولان من كان يأتي منهم بالوحشي لم يكن يأتي به على جهة التطلب ، والتكلف لما استعمله منه لكن لعادته وعلى سجية لفظه » [٤٥] .

واذا كان الرواة الاوائل ، قد طلبوا الغريب ، واحتفوا بالشعر المشتمل عليه ، فان لهم من غايتهم ما يسوغ ذلك ، لان الذي حداهم عليه ، ما ندبوا أنفسهم له من جمع اللغة ، وتدوينها بواضحها وغريبها . أما انصار القديم

---

(٤١) اتجاهات الشعر العربي : ٥٥٤ .
(٤٢) الاغاني : ٢٤٨/٧ .
(٤٣) وفيات الاعيان : ٢٤٥/٢ .
(٤٤) الشعر في بغداد : ٢٠٠ .
(٤٥) نقد الشعر : ١٧٠ ، ١٧١ .

فلم يكونوا معذورين في حمل الشعراء المحدثين على الاكثار من الغريب ، والتبدي في الأسلوب •

٢ ـ رفض اشتقاق ما يسمح به القياس :

وبسبب التعصّب للقديم ، وبحجة حماية اللغة من أن يدخلها لفظ لم تنطق به العرب ، رفض المحافظون بعض الالفاظ التي استحدثها بعض الشعراء قياسا على نظائر لها ، كما طعن الاخفش في بيتين لبشار لانه قاس فيهما ما يعمل فيه بالسماع [٤٦] •

٣ ـ رفض المعرب والدخيل :

واستعمال الكلمات الاعجمية امر قديم ، عرفته العربية من قبل بحكم اختلاط العرب بغيرهم من ابناء الامم الاخرى ، غير أن هذا الاختلاط كان قد اتسع واشتد ، بعد أن اندفعوا من الجزيرة في موجة الفتح الكبرى ، فكان من أثر ذلك أن ظهرت في لغة الشعراء كثير من ألفاظ الفرس وغيرهم • وليس على اللغة ضير اذا اقتبس ابناؤها شيئا من الفاظ الامم الاخرى ، اذ راعوا في هذا الاقتباس طبيعة لغتهم ، وطبعوا الالفاظ المقتبسة بطابعها ، وذلك بأن يغيروا في حروفها أو يزيدوا او ينقصوا في تلك الحروف ، فتصبح اللفظة وكأنها واحدة من الفاظ اللغة الاصيلة • وهكذا فعل العرب الاوائل ، فأغنوا لغتهم بالعديد من الفاظ الامم الاخرى • وكذلك فعل العرب في العصر العباسي، وكما فعلت أمم أخرى حين أدخلت الى لغاتها كثيرا من الكلمات العربية وكان الاولى بالمتعصبين أن يتقبلوا ذلك منهم بحدود ويسلموا به ، لا أن يرفضوه ، ويعدوه مما يقدح في الكلام ، أو يهجنه •

لقد رأى المتعصبون ان التعريب حق مقصور على العرب الاوائل أنهم لان اللغة ملك خاص لهم ، ولا يحق لمن بعدهم ان يدخل في اللغة لفظا لم يدخلوه [٤٧] • وسنناقش هذا المقياس في موضعه من الباب الثالث [٤٨] •

---

(٤٦) تنظر : ص٨٨ من هذه الرسالة •
(٤٧) اللغة والنحو بين القديم والحديث : ٢٢٤ •
(٤٨) تنظر ص ٢٣٩ من هذه الرسالة •

٤ ــ التقيد بالعرف اللغوي :

ومن مقاييس النقد اللغوي ، التي نشأت بسبب التعصب للتديم ، القول بضرورة التقيد بالعرف اللغوي في صوغ المجاز وبناء الاستعارة • ومعنى هذا ان اللغويين ومن نهج نهجهم نظروا لى اللغة على أنها مجموعة « ألفاظ » وضعها العرب ليعبروا بها عن اغراضهم ومقاصدهم ، وهي عندهم نوعان : الفاظ حقيقية وضعت في الاصل للدلالة على مسميات معينة ، فاذا ذكرت تلك الالفاظ تمثلت مسمياتها في الذهن ، والفاظ مجازية ، انتقلت دلالاتها الاصلية الى دلالات اخرى بينها وبين الدلالات الاولى علاقة • وعلى هذا الاساس فان المتكلم اما أن يستخدم اللغة استخداما حقيقيا ، واما أن يستخدمها استخداما مجازيا ،الا أن المفضل في الادب هو الاستخدام الثاني •والمتكلم في كلتا الحالين محكوم ــ في نظر المتعصبين ــ بالعرف اللغوي ، وليس له أن يخلّ به ، أو يحيد عنه ، فيستعمل الالفاظ في غير ما وضعت له ،أو يخرج بها الى دلالات لا يوجد بينها وبين الدلالات الاولى ضرب من مناسبة ، أو نوع من علاقة • وكما ان الشاعر غير حرّ في الاستخدام الحقيقي للغة ، فلا يحق له أن يغير دلالات الالفاظ ، أو يعبر بها عما لم يتقرر في العرف اللغوي ، فكذلك هو غير حرّ في الاستخد م المجازي أيضا ، بل « ان عليه أن يرتبط بنوع خاص من العلاقات حددها له اسلافه من قبل ، وأي خروج على هذه العلاقات المجازية المحددة سلفا ، لا يعد خروجا على التقاليد والنظام اللغوي فحسب ، بل يعد خروجا على قواعد العقل ، وعناصر الواقع الثابتة ايضا » (٤٩) •

ومعنى هذا ان العرب جرت على أن تستعير بعض الالفاظ لتدل بها على معان أخرى غير المعاني المقررة لها ، أو الموضوعة بازائها ، وما على المتكلم الا أن يتابعهم في ذلك ، فهم استعاروا « الاسد » للرجل الشجاع ، واستعاروا « النور » للعلم ، واستعاروا « الحمار » للرجل البليد ، فاذا رام شاعر أن

(٤٩) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ٢٥٧ .

يستعمل هذه الالفاظ استعمالا مجازيا اخر ، أو يطلقها على معان غير هذه ، رفض استعماله ، وحكم عليه بالخطأ • وعلى هذا عيب قول الشاعر :

بل لو رأتني أخت جيراننا   اذ أنا في الدار كأني حمار

لانه استعمل « حمار » ليدل به على صحته ، وتمام قوته ، ففارق العرف اللغوي الذي درج على تشبيه الرجل البليد بالحمار ، او استعارة الثاني للاول (٥٠) •

لقد كانت احدى سمات التجديد التي استفزت اللغويين ، ومن تبعهم من النقاد المحافظين ، هي استخدام الالفاظ على غير النحو المألوف ، وفي غير المجال الذي كانت ترد فيه •

لم يشأ انصار القديم أن يبيحوا للشاعر شيئا من الحرية في استخدام اللغة ، ولم يتصوروا « أن طريقة تفكير الشاعر وحالاته الذهنية ، يمكن ان تفرض عليه استخداما خاصا للغة ، من حيث الدلالة والتركيب »(٥١) • ولم يروا ان من حق الشاعر ان يندمج بالاشياء المحيطة به « ويعاملها كما لو كانت هي ذاته » (٥٢) ، فينعتها بما يشاء من نعوت ، ويسقط عليها من نفسه ما يريد من المشاعر ، ويستعمل اللغة تبعا لذلك استعمالا يتواءم مع هذه الطريقة في تصور الاشياء والاحساس بها • ولا شك في أن هذا النحو من التصور والتفكير يؤدي الى ان تمحي الحدود بين الاشياء وتهتز الفواصل بين العناصر الخارجة عن ذات الشاعر ، ويطلق على هذا الشيء ما اعتاد الناس اطلاقه على الشيء الاخر ، فاذا المعنوي المجرد يعبر عنه بما يعبر به عن المادي المحسوس ، واذا الحيوان ينعت بما ينعت به الانسان ، أو العكس •

وكان ابو تمام ــ كما مرّ في التمهيد ــ أشد الشعراء خروجا على ما هو كائن ، ومتعارف عليه من استعمالات لغوية ، فأعطى نفسه قدرا كبيرا من

---

(٥٠) الكامل : ٢/١٣٢ •
(٥١) الصورة الفنية : ٢٥٨ •
(٥٢) نفسه : ٢٤٧ •

الحرية في استخدام الالفاظ ، واقامة علاقات جديدة بينها ، وكانت طريقته هذه « فخا يوقع اللغويين في شراك عدم الفهم »[٥٣] ، مما جعل الصولي يسخر منهم سخرية مريرة ، ويرميهم بالجهل بالجديد [٥٤] .

لقد صدف اللغويون عن شعر ابي تمام - لانهم استشعروا في استخدامه للغة غموضا ، وغرابة لم يعهدوها في الشعر القديم ، فحملوا عليه ، ووصفوه بأنه « شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب المألوفة الى الاستعارة البعيدة ، المخرجة للكلام الى الخطأ والاحالة » [٥٥] .

ظل اللغويون فوجدوا ان العرب كانت تستعير « المعنى لما ليس هو له اذا كان يقاربه أو يناسبه ، أو يشبهه في بعض احواله أو كان سببا من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له ، وملائمة لمعناه » [٥٦] . أما ابو تمام فلم يجر في هذه السبيل ، بل كان يضع الالفاظ في غير مواضعها المألوفة ، ويعبر بها عن معان لم تتقرر في العرف اللغوي المأثور ، فجرّ عليه ذلك نقد اللغويين ، الذين دفعهم تعصبهم الى الوقوف له ، والتشهير به .

وقد مثل الامدى نظرة اللغويين هذه ، ووقف موقفهم من حرية الشاعر في استعمال الالفاظ ، ولم ير بعض الدارسين [٥٧] غرابة في متابعة الآمدي للغويين ، ومن سايرهم من انصار القديم ، وذلك لانه تلميذ مخلص لهم ، درس على الاخفش ، ورضي نهج البصريين ، ومال اليه فقال : « ينبغي ان ينتهي في اللغة الى حيث انتهوا ، ولا يتعدى الى غيره ، فان اللغة لا يقاس عليها »[٥٨] . وكان يرى ان العرب اذا اعتمدت على الشيء ضرورة ، لم يكن ذلك لمتاخر [٥٩] .

---

(٥٣) الصورة الفنية : ٢٦٠ .
(٥٤) تنظر ص٩١ ، ٩٢ من الرسالة .
(٥٥) الموازنة : ٢٢/١ .
(٥٦) نفسه : ٢٥٠/١ .
(٥٧) الصورة الفنية : ٢٥٧ ، ٢٥٩ .
(٥٨) الموازنة : ٢١٦/١ .
(٥٩) نفسه : ٢٤٣/١ .

وهذا اتجاه بصري ، لا يعترف بالقليل النادر ، ولا يقيس الا على الكثير المتعارف عليه عند الجميع . فاذا اوردنا هنا شيئا من تعليقات الامدي على استخدام ابي تمام للغة ، فذلك لانها تمثل وجهة نظر النقاد واللغويين الذين سبقوه ، وقادوا الثورة على الجديد . ولان نظرة الآمدى هذه استمرت ، فآمن بها عدد من نقاد القرن الرابع والقرن الخامس كالرماني والخطابي والقاضي الجرجاني والعسكري وابن رشيق وابن سنان وغيرهم [٦٠] .

لم يرض الآمدي عن عدد من مجازات ابي تمام ، وأفرط في تأنيب الشاعر عليها ، وهو يصدر هنا عن رأي اللغويين الذين أرقتهم ما كانوا يجدونه عند ابي تمام من جرأة في استخدام الالفاظ لغير ما وضعت له ، واستهانة بالشائع والمالوف من تعابير العرب ومذاهبهم . من ذلك قوله :

تحمّلت ما لو حُمّل الدهر شطره   لفكّـر دهراً أي عبأيه أثقل

قال الآمدي في نقده : « فجعل للدهر عقلا ، وجعله مفكرا في أي العبأين أثقل ، وما شيء هو أبعد من الصواب من هذه الاستعارة . وكان الاشبه والأليق لما قال (تحملت ما لو حمل الدهر شطره) أن يقول : لتضعضع ، أو لا نهدّ ، أو لأمن الناس صروفه ونوازله » [٦١] .

وقال ابو تمام :

أنزلته الايامُ عن ظهرها من   بعدِ اثبات رجله في الركاب

وقال :

يا دهر قوّم من أخْدَعَيك فقد   أضْجَجت َ هذا الأنامَ من خُرُقك

فلم يرض الامدي ، ومن سبقه من انصار القديم ، عن هذا التشخيص للدهر والايام ، ونعتهما بما لم يتعارفه من نعوت ، ووجدوا في أمثال هذه

---

(٦٠) الصورة الفنية : ٢٦٨ .
(٦١) الموازنة : ١/٢٥٥ ، ٢٥٦ .

التعابير خروجا على السنن العربي الموروث ، اذ لم يؤثر عن عربي أنه جعل للايام ظهرا وركابا ، أو جعل للدهر أخدعا ، واذا كان أحد من العرب قد تورط في شيء من هذا ، فلا يحق المتأخر أن يجاريه فيه ، لأن ما يصدر عن العرب على سبيل الندرة ، أو السهو ، لا يمكن ان يسوغه متأخر [٦٢] ، أو يجعله اصلا يحتذيه أو يستكثر منه [٦٣] ، كما لا ينبغي « للمتأخر ان يحتذى الاخذ الا للجيد المختار لسعة مجاله ، وكثرة امثلته » [٦٤] .

لقد صدر اللغويون في هذا المقياس ، مقياس التقيد بالعرف اللغوي ، عن نظرة تكبر القديم ، وتغلو في التعصب له ، وترى في الاستعمال الجديد للغة خروجا على الموروث من تقاليدها ومواضعاتها . ولو أنهم لم ينظروا للجديد هذه النظرة ، لقبلوا ما جاء به من استعمالات ، ان فارقت مذاهب العرب ، فانها وفت لما يقتضيه الفن الشعري من اعادة لتشكيل المفردات ، على النحو الذي تسليه الرؤية الشعرية ، أو تفرضه طبيعة التجربة . ومن هنا كان لنا ان نقول : ان المقاييس الاربعة السابقة لم تكن لتظهر ، لو ان المتعصبين تخلّوا عن موقفهم من الجديد ، وشرحوا صدورهم له . فالتقيد بالقديم ، هو الذي حال بينهم وبين تذوق الاستعمالات الجديدة ، ودفعهم الى مقاومتها بما شرعوا من مقاييس ، واستنوا من أصول . أما النقاد الذين تحرروا من التعصب ولم يتقيدوا بالقديم ، فاستساغوا الجديد ، ومرنت اذواقهم وعقولهم عليه .

وأخيرا لابد ان نقف قليلا عند ظاهرة من ظواهر النقد اللغوي دفع اليها تعصب اللغويين ، وأغرى بها تطرّفهم في عداء الجديد ، والغض منه ، هذه الظاهرة هي البحث عن اخطاء القدامى ، وتتبع ما وقعوا فيه من أوهام .

فازاء هجوم المحافظين على المحدثين ، ورميهم بالخطا ومفارقة مقاييس اللغة واصولها ، نهض انصار الحديث ليردوا عليهم ، ويثبتوا لهم أن القدامى

---

(٦٢) الموازنة : ٢٤٩/١ ، ٢٥٥ .
(٦٣) نفسه : ٢٥٩/١ .
(٦٤) نفسه : ٤١٧/١ .

لم ينجوا من الوقوع في الخطأ ، ولم يسلم بعض نتاجهم من مفارقة قواعد اللغة والاخلال باصولها . ولذا نستطيع أن نقول : ان الحملة التي قامت لغرض التنقيب عن اخطاء القدامى ، انما هي حملة دفع اليها تعصب اللغويين للقديم ، واسرافهم في الغض من الجديد . غير ان هذه الحملة لم تظهر الا في القرن الرابع ، وبعد أن خف سلطان القديم على النفوس ،وتبدد بعض ذلك الضوء الذي سلطه المتعصبون عليه ، ومنعوا به العيون من ان تثبت له وتنقب فيه عما عسى أن يكون فيه من خطأ او قصور . لقد أشار انصار القديم ، ابان غلبتهم على مجالس الدرس والنقد ، أن الشاعر القديم لا يخطىء ، لان سليقته تمنعه من الخطأ ، فاذا عثروا في كلامه على ما يشذ عن قواعد اللغة ، عمدوا اليه فتأولوه ، وعادوا به الى مسايرة تلك القواعد . وسلّم الناس ، في ذلك الوقت ، بهذا المنحى ونظروا الى القديم على أنه مبرأ من كل خطأ ، فاذا جاء القرن الرابع انبرى بعض رجاله كالصولي والجرجاني والآمدي لابطال هذه الدعوى . فجمع الصولي قدرا كبيرا من اخطاء القدماء في الالفاظ والمعاني ، وقال : « كما انه قد عاب العلماء على امريء القيس ومن دونه من الشعراء القدماء والمحدثين اشياء كثيرة اخطاوا الوصف فيها وغير ذلك مما يطول شرحه فما سقطت بذلك مراتبهم فكيف خص ابو تمام وحده بذلك لولا شدة التعصب »[٦٥] ، وفعل مثل ذلك القاضي الجرجاني ، فسرد أمثلة كثيرة من اخطاء القدماء [٦٦] ، قاصدا من ذلك التدليل على أن ادعاء العصمة لهم ، وهم لم يورّط اصحابه فيه الا تعصبهم للقديم ، وشدة اعظامهم له . وسنعود لنقف عند دعوى عصمة القدماء من الخطأ ، لنزيدها ايضاحا ، ونبين ما تركته من أثر في النقد اللغوي [٦٧] . وحسبنا هنا ان نشير الى أن هذه الدعوى ، تصدى لها من يبطلها ، ويجلب لها الفند .

---

(٦٥) اخبار ابي تمام : ٣٢ .

(٦٦) الوساطة : ٤ وما بعدها .

(٦٧) تنظر ص٤٠٦ من هذه الرسالة .

واذا كان الشعراء والادباء لقوا أعنف النقد وأمره بسبب ما ظهر على لغتهم من أمارات التجديد ، ومفارقة مذاهب العرب في التعبير ، فان كثيرا منهم كانوا يلقون نقدا مرا ، لا لدواع فنية ، وانما لدواع شخصية ، أو نحسد ذاتي . ومعنى هذا أن الخصومة والعوامل الشخصية كانت وراء كثير من النقد اللغوي الذي توجه لطائفة من الادباء . وسيتولى الفصل القادم الكشف عن هذا العامل الجديد الذي نشأت بسببه اراء وأحكام كان يمكن ان تختفي لو سلم النقاد من الحسد والحقد .

الفصل الرابع

الخصومة

نشأت في عالم الأدب والنقد ، خصومة شخصية بعيدة من الاسباب الفنية اذكتها عوامل لا علاقة لها بالتقاليد الادبية ، والخصومة غير الفنية تختلف باختلاف الدوافع اليها كما حدث بين الفرزدق وابن ابي اسحاق الحضرمي ، وهو من الموالي الذين اتقنوا العربية ، وبرعوا فيها . الا أن العرب كانوا يربطون بين اللغة والجنس ، بمعنى انهم كانوا يعتقدون ان غـير العربي لا يستطيع أن يتقن العربية اتقان أهلها لها [1] . وقد حملتهم هذه النظرة على عدم الاعتراف لابن ابي اسحاق وغيره من الاعاجم ، بمعرفة العربية ، الأمر الذي جعل هذا النحوي يبحث جاهدا في لغة معاصريه ومن سبقهم من الشعراء الاقدمين ، عن اخطاء وزلات لغوية ، ليتناولها بالنقد والتصحيح ، ويتخذ من ذلك دليلا على أن غير العربي يستطيع اتقان اللغة ، والاحاطة باستعمالاتها .

ولو لم يكن هذا غرض الحضرمي من نقده ، لتجاوز ذلك الاقواء الذي وقع فيه الفرزدق في قوله :

مستقبلين شمال الشام تضربنـا   بحاصب من نديف القطـن منثور
على عمائمنـا يلقى وارحلنـا   على زواحف تزجى مخهـا رير

ولما صار يرويه « كما لو كان الفرزدق قال رير بالكسر » [2] ، ليشهر به ، ويرميه باللحن . فعلى الرغم من أن الاقواء معروف في الشعر [3] ، فقد تعامى ابن ابي اسحاق عنه ، بباعث من حقده على الفرزدق الذي كان يتعالى عليه ،

---

(1) فصول في فقه العربية : ٧٩ ، ١٤٢ .
(٢) العربية : ٤٧ .
(٣) طبقات فحول الشعراء : ٥٩ .

ولا يراه أهلا لأن يتعقب كلام العرب ، ويبحث فيه عن الخطأ • ويبدو أن الحضرمي لقي جزاءه ، فقد ناله خصومه بمثل ما نالهم به من النقد والتشهير ، ووصفوا لغته بأنها لم تكن « على ما ينبغي » [٤] •

وتصح تلك الدوافع في نقد عيسى بن عمر (ت ١٤٩ هـ) أيضا ، وهو مولى ، أصاب من العلم بالعربية حظا عظيما ، حتى قيل : انه لم يكن يتكلم الا بالغريب الشاذ • وليس ببعيد ان يكون عيسى بن عمر قد اراد باصطناع الغريب ، وتتبعه الشعراء الاقدمين بالنقد والتخطئة ، أن يثبت أن بامكان الموالي ان يصلوا من العلم بالعربية ، والتقيد باصولها ومواضعاتها الى ما عجز عنه العرب أنفسهم • ولم يفت القدامى أن يجمعوا بين الحضرمي وعيسى ابن عمر في قرن واحد ، ويصفوهما بالطعن على العرب • واذا وازنا بين منهج ابي عمرو بن العلاء ـ وهو عربي ـ ومنهجهما ، تبين لنا ان تشددهما في النقد يرجع الى الرغبة في اظهار تفوقهما على العرب أنفسهم في علم العربية • قال ابن سلام : حكى يونس : « أن ابا عمرو بن العلاء كان أشد تسليما للعرب ، وكان ابن ابي اسحاق وعيسى بن عمر يطعنان عليهم • وكان عيسى يقول : اساء النابغة في قوله حيث يقول :

فبت كأني ساورتني ضئيلة ... من الرقش في أنيابها السم ناقع

يقول : موضعها (ناقعا) » [٥] •

ولم يكن عيسى بن عمر على حق في نقده ، لأن النابغة كان دقيق الحس بلغته ، كما كان يدرك أن (الاعراب) بهذه اللغة قد اعطى المتكلم بها حق التقديم والتأخير ، ذلك لان حركة الكلمة من شأنها ان تحدد قيمتها اللغوية في السياق ، وان هذه القيمة لا تفارق الكلمة في أي موضع من الجملة حلّت • ففي قولنا : زيدا اكرم خالد ، قدمنا المفعول به للاهتمام به ، وقد

---

(٤) العربية : ٤٨ •

(٥) طبقات فحول الشعراء : ١٥ ، ١٦ •

ظلت قيمته اللغوية واضحة ومتميزة ؛ لان الحركة تكفلت ذلك ؛ ولولاها لما اهتدى السامع لما لكلمة (زيد) من قيمة لغوية في الجملة ؛ ولولاها لما استطعنا تقديم المفعول به ؛ ولالزمنا الكلمة موضعا معينا من الجملة لا تتعداه ، كما هي الحال في الانجليزية مثلا، ولاشك في أن هذا الالزام ؛ يفوت علينا الغرض البلاغي الذي يحققه تقديم المفعول . واذا علمنا هذا ادركنا ان عيسى بن عمر قد فاته أن يفهم أن « علامة الرفع في (ناقع) تدل على الصفة ؛ وتعطي الكلمة معناها الذي يلائم الوزن ويلائم الاعراب » [٦] ؛ وأدركنا كذلك ان النابغة اراد (ضئيلة ناقع في انيابها السم) ؛ ثم أخر « الصفة الى مكان القافية ؛ لانها ـ وهي مرفوعة ـ لا تكون الا صفة موافقة لموصوفها اينما انتقل بها ترتيب الكلم المنظوم » [٧] .

والنوع الآخر من الخصومة الشخصية ؛ هي الخصومة المذهبية ؛ وقد كانت سببا في كثير مما وصل الينا من النقد اللغوي . من ذلك ما نسب الى ابي حنيفة من أنه قال : « ولو ضرب رأسه بأبا قبيس » بدلا من « بأبي قبيس » [٨] . وقد رأى يوهان فك ان هذا الخبر مصنوع ؛ بقصد النيل من ابي حنيفة ؛ صنعه ابراهيم الحزبي (ت ٢٨٥ هـ) وهو أحد كبار الحنابلة[٩] . ومع أن الخبر مصنوع ؛ فان ابن فارس اللغوي ؛ كبر عليه ان يرمى ابو حنيفة باللحن ؛ فرأى أن يلتمس لما نسب اليه من قول وجها من العربية ؛ وخرّجه على لهجة خاصة تعامل الاسماء الخمسة معاملة الاسم المقصور ؛ فتلقى معسكر الحنفيين هذا الدفاع بشغف [١٠] .

وكان الاصمعي مدفوعا بالخصومة المذهبية في نقده لعدد من شعراء الشيعة . ذهب الى ذلك غير واحد من القدامى ؛ كما قرره بعض المحدثين .

---

(٦) اللغة الشاعرة : ٢١ .
(٧) نفسه .
(٨) البيان والتبيين : ٢/٢١٢ .
(٩) العربية : ٦٥ .
(١٠) نفسه .

قال ابن درستويه (٣٤٥ هـ) : « وانما انحرف الاصمعي عن الكميت لمذهبه ، لا لأدبه » (١١) . وقال علي بن حمزة (٣٧٥ هـ) : « ولكنه ـ يعني الاصمعي ـ كان متعصبا على الكميت ، كما انبأتك ... أنه كان متعصبا على ذي الرمة ، وأعلمتك أن علة ذي الرمة معه اعتقاد العدل » (١٢) . وقال أيضا : ان الاصمعي « كان يسب الكميت ، ويقدح في شعره ، ويضع من قدره ، لان الكميت كان شيعيا » (١٣) .

وقال داود سلوم في تعليل حملة الاصمعي على الكميت : « والظاهر ان هذه الحملة لها أسبابها السياسية ... ففي العصر الاموي كان الكميت يمثل المعارضة السياسية ، وأراد الاصمعي ان يكيد الكميت على ذلك ، فاخرج أدبه من لغة العرب التي يحتج بها ، وتعصبه عليه زمن العباسيين ، يبعثه نفس السبب الذي تعصب به عليه زمن الامويين ،فقد كان الكميت في الحالتين علويا ، وكان الاصمعي منحرفا عن آل علي » (١٤) .

ورفضت سنية أحمد محمد ان يكون الاصمعي مدفوعاً بتعصبه المذهبي في تخطئة شعراء الشيعة ، وذهبت الى أن علي بن حمزة كان متحاملا عليه حين نعته بالتعصب على ذي الرمة والكميت بسبب مذهبهما (١٥) . ثم قالت : « وكان تعصبه ـ اي علي بن حمزة ـ ابلغ من تعصب ادعاه على الاصمعي . وكان الاولى به ان يسأل نفسه عن السبب الذي جعله يخص الكميت دون غيره بعنايته ودفاعه . واذا سلمنا جدلا برأيه وفرضنا ان التعصب هو الذي أدى بالاصمعي الى رفض شعر الكميت فلم اذن أبعد الطرماح وضعفه مع أنه لم يكن شيعيا » (١٦) .

---

(١١) تصحيح الفصيح : ١٧٩ .
(١٢) التنبيهات (مطبوع مع المنقوص والممدود للفراء) : ٢٤٧ .
(١٣) نفسه .
(١٤) النقد العربي بين الاستقراء والتاليف : ١١٧ .
(١٥) النقد عند اللغويين : ١٦٠ .
(١٦) نفسه : ١٧٨ .

وليس ما استدلت به الباحثة هنا بكاف لتبرئة الاصمعي من تهمة التعصب، لان الطرماح أيضا كان مخالفا للاصمعي في المذهب .

ويترجح لدى الباحث ان نقد الاصمعي لم يكن كله نزيها ، بل كان الرجل في بعض آرائه مدفوعا بعوامل شخصية مذهبية وغير مذهبية ، يدلنا على ذلك ما اعترفت به الكاتبة نفسها حين ذهبت الى أن الاصمعي قبل شعر عمر بن ابي ربيعة ، واباح الاحتجاج به ، مع أنه عرف برفضه الاحتجاج بشعر الحضريين [١٧] . وعندما اخطأ عمر في قوله :

ثم قالوا : تحبها قلت بهرا   عدد الرمل والحصى والتراب

اذ كان ينبغي أن يقول : أتحبها لانه استفهام [١٨] ، راح الاصمعي يلتمس لعمر مخرجا ، فقال : « وله في ذلك مخرج اذ قد أتى به على سبيل الاخبار » [١٩] ، ثم قال « ومن الناس من يزعم انه انما قال : قيل لي هل تحبها قلت بهرا » [٢٠] . ويمكن ان نستدل ايضا على عدم تجرد الاصمعي في بعض نقده اللغوي ، بما روي [٢١] من انه انكر كلمة (زوجة) التي جاءت في قول ذي الرمة :

أذو زوجة في المصر ام ذو خصومة   أراك لها بالبصرة العام ثاويا

واتهم ذا الرمة بسببها بضعف اللغة وبأنه « قد أكل البقل والمملوح في حوانيت البقالين » ثم قبل الكلمة نفسها حين سمعها في بيت من قصيدة لعبدة ابن الطبيب يقول فيه :

فبكى بناتي شجوهن وزوجتي   والطامعون اليّ ، ثم تصدّعوا

---

(١٧) النقد عند اللغويين : ١٦٣ .
(١٨) الموشح : ٣١٥ .
(١٩) الاغاني : ١/٧٩ .
(٢٠) نفسه .
(٢١) الموشح : ٢٨٤ والخصائص : ٢/٢٩٥ .

وثمة نوع ثالث من الخصومة الشخصية ، وهي الخصومة التي كان الباعث عليها ما ينشأ بين العلماء والادباء من تنافس على المجد والشهرة ، اذ ان هذا التنافس لا يلبث ان يجر الى الكراهية والبغضاء .

ومن الامثلة على هذا النوع : الخصومة التي نشبت بين البصريين والكوفيين ، وكانت سببا في تراشق علماء المدرستين بتهمة الخطأ واللحن . فحماد الراوية (١٥٥ هـ) ، وهو كوفي ، نال منه يونس بن حبيب البصري (١٨٠ هـ) ، وحكم عليه بأنه « كان يكذب ويلحن ويكسر » [٢٢] ونسج عنه البصريون رواية اخرى تشير الى أن الكميت (١٢٦ هـ) رفض أن يملي اشعاره على حماد لأنه خشي لحنه[٢٣] ، ويدلنا على أن الحكم على حماد باللحن باعثه الخصومة ، أن ابا عمرو بن العلاء ـ وهو بصري عاش قبل نشوب الخلاف بين البصريين والكوفيين ـ كان يزكي حمادا ، ويثني على علمه[٢٤] . ونستطيع أن نحمل على هذا ايضا ما نسب الى الفراء الكوفي من لحن في مجلس الرشيد ، فلما خاطبه فيه اعتذر بأن اللحن عند سكان المدن لازم لهم كالاعراب عند أهل البادية [٢٥] .

وقام الكوفيون يتهمون خصومهم من البصريين باللحن والخطأ ، فقد نسجوا على لسان يونس بن حبيب الجملة الآتية : « هاتي ذيك الماء من ذلك الجرة » [٢٦] . وقد صدق ابن جني حين وصف ما كان بين الفريقين من تراشق بقوله : كان بعضهم « يهجن بعضا ، ولا يترك له في ذلك سماء ولا أرضا » [٢٧] .

---

(٢٢) طبقات فحول الشعراء : ٤١ .
(٢٣) الموشح : ٣٠٨ .
(٢٤) طبقات الزبيدي : ٣١ ، والعربية : ٦٣ .
(٢٥) العربية : ٨٤ ، ٨٥ .
(٢٦) المزهر : ٢٠٣/١ .
(٢٧) الخصائص : ٣١٢/٣ .

والخصومة التي كانت بين الشعراء هي خصومة اساسها التنافس على المجد والشهرة وعطايا اصحاب النفوذ . فقد كان صغار الشعراء يحقدون على الكبار والمبدعين ؛ لان هؤلاء كانوا يقصونهم عن رحاب الخلفاء ، ويحرمونهم المجد والشهرة والصلات . وكان الخصوم ينفسون عن حقدهم بالنقد وتتبع العثرات في اللغة والصور والمعاني . ولهذا يمكن ان نقرر : أن كثيرا من النقد اللغوي الذي نال بعض كبار الشعراء كان مبعثه الخصومة .

فأبو تمام كان شعره ملتقى جمعين من العائبين : اللغويين ومن أخذ بمذهبهم من الشعراء المقلدين ؛ وقد كان لمداوتهم مذهب ابي تمام مسوّغ فني ، وهو ادعاء مناصرة مذاهب القدماء[٢٨] ؛ والشعراء الذين حاربوا مذهب ابي تمام لدواع شخصية ، ولحسد ذاتي [٢٩] يرجع الى ان ابا تمام قد سار ذكره ، وعلا صيته ،فتشاغل الناس بشعره ، واقبلوا عليه يتذاكرونه ، ويتناشدونه ، ويبحثون عن المذهب الجديد الذي تمثل فيه .

وقد أشار ابن رشيق الى شيء من طغيان شخصية ابي تمام على معاصريه من الشعراء ، ومنهم عبدالصمد بن المعذل الذي قال عنه ابن رشيق : « غمره حبيب ذكرا واشتهارا » [٣٠] .

فبسبب ما نال ابو تمام من شهرة ،وما لقيه من حظوة عند الممدوحين ، تألب عليه كثير من الشعراء ، وانبروا يثلبون شعره ، ويسفهون مذهبه ، ويبحثون جاهدين عن سقطاته وعثراته في الالفاظ والمعاني والصور ، ولم يكن الدافع الى ذلك الا ما يجدونه من كساد شعرهم ، وانصراف الممدوحين عنهم . وللخبر الذي يذكره يزيد المهلبي دلالة واضحة على هذا الدافع الشخصي المحض الذي يكمن وراء غير قليل من النقد اللغوي الذي نال ابا تمام ، يقول :

---

(٢٨) الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ٤٧ .
(٢٩) نفسه .
(٣٠) العمدة : ١٠١/١ .

« ما كان احد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهما واحدا في أيام ابي تمام ، فلما مات ابو تمام اقتسم الشعراء ما كان يأخذه » [٣١] .

ومن الذين عادوا ابا تمام ، وجهدوا في تتبع شعره بالعيب والطعن ، الشاعر المعروف بابن الخثعمي ، الذي اقصاه ابو تمام عن مكانه في قصر ابن الزيات ، وحل محله ، فنظم الخثعمي قصيدة يسخر فيها من ابي تمام ، ويستعدي ابن الزيات عليه ، ويعرّض بقصيدة ابي تمام التي مدح فيها ابن الزيات ، فكانت سبب حظوته عنده ، والتي يقول فيها :

لك القلم الأعلى الذي بشباته يصاب من الأمر الكلى والمفاصل

قال الخثعمي :

ما خطبة القلم التي أبثتها وردت عليك لشاعر مجدود [٣٢]

وظل ابن الخثعمي يتتبع شعر ابي تمام ، ليظفر باخطاء يشهر بها ، ومن النقد اللغوي المنسوب الى هذا الشاعر ، ما ذكره الصولي ، من أن ابن الخثعمي قال : « جن أبو تمام في قوله :

تروح علينا كل يوم وتغتدى خطوب يكاد الدهر منهن يصرع

أيصرع الدهر » [٣٣] غير أن انصار ابي تمام « كانوا يردون مثل هذا النقد المغرض الذي لا مبعث له الا الحسد » [٣٤] ، فقد روى الصولي في اعقاب نقد ابن الخثعمي ردّ محمد بن عمرو عليه ، فقال له : « هذا بشار يقول :

وما كنت الا كالزمان اذا صحا صحوت وان ماق الزمان أموق

(٣١) اخبار ابي تمام : ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٣٢) الحركة النقدية : ٥٢ .
(٣٣) اخبار ابي تمام : ٢٤٧ .
(٣٤) الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ٥٢ .

قال : فسكت . فقلت له : وابوك ، يقول :

وليّن لي دهري بأتبـــاع جــوده فكدت للين الدهر أن أعقد الدهرا»[٣٥]

وكان دعبل من ابرز خصوم ابي تمام ، واشدهم حسدا له ، وانتقدهم لمذهبه [٣٦] . ذلك لانه « ما اصاب مع ابي تمام طريقا على تقدمه في السن والشهرة » [٣٧] ، وقد حفظت لنا كتب الادب الوانا من النقد اللغوي المنسوب الى دعبل في شعر ابي تمام ، من ذلك انه حين سمع بيته من قصيدته التي قالها في فتح عمورية :

خمسون الفا كآساد الشرى نضجت اعمارهم قبل نضج التين والعنب

لم يرض عن قوله « التين والعنب » ثم زعم أن ابا تمام غيره ، لما عيب عليه فقال :

خمسون الفا كآساد الشرى نقدت أعمارهم فهووا في لجة العطب

ثم عقب على هذا البيت بقوله : « وان الثاني شر من الاول ، وكان ينكر لجة العطب عليه » [٣٨] . ويعلق الربداوي على نقد دعبل هذا بقوله : « ويقيني أن التغيير الذي طرأ على البيت لم يسمع به ابو تمام ، وانما هو من بنات افكار دعبل ، ليزري بشعر ابي تمام »[٣٩] .

ولا بد لنا ، ونحن بصدد عرض أمثلة للنقد اللغوي الباطل ، القائم على الحسد والبغضاء أن تتجاوز شعراء جاءوا بعد أبي تمام ، ونقف وقفة أخرى عند المتنبي ، لنرى ان خصومه الكثيرين اثاروا حول لغته واستعمالاته ملاحظات كان مبعثها عداوتهم اياه ، وحقدهم عليه .

(٣٥) اخبار ابي تمام : ٢٤٧ ، ٢٤٨ .
(٣٦) الحركة النقدية : ٥٣ .
(٣٧) العمـدة : ١/١٠١ .
(٣٨) الموشح : ٤٩٤ .
(٣٩) الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ٦٠ .

ويبدو ان الذي نفّر من المتنبي ، لم يكن ما أصابه من جاه وشهرة فحسب ، وانما كان لكبريائه واعتداده بنفسه من جانب ، ولجرأته ، وركوبه الاستعمالات النادرة من جانب آخر ، الاثر الكبير في النفرة منه ، والتألب عليه . وقد اشار الى هذا احسان عباس فقال : « وصدم المتنبي الذوق مرتين : مرة بشخصه المتعالي المتعاظم ، ومرة بجرأته في الشعر ، جرأته التي تركب المبالغة حتى تمس العقيدة الدينية ، وتنتحل اراء فلسفية غريبة وتستخف بأصول اللياقة والعرف في مخاطبة الممدوحين ورثاء النساء ، وتتصرف باللغة تصرف المالك المستبد » (٤٠) . ومعنى ذلك أن النقد الذي دار حول المتنبي قسمان : الاول ، وهو الغالب ، كان بسبب شخصيته ، وخصاله المبغضة ، والثاني كان الباعث عليه ما في شعره من خصائص لافتة ، استرعت نظر النقاد ، ودعتهم الى نقده . وهناك من يرى ان الحركة النقدية الضخمة التي قامت حول المتنبي لم تكن بسبب شعره ، وانما قامت بسبب شخصيته ، وما امتازت به من شمائل لم تعهد في شخصيات معاصريه او سابقيه من الشعراء ، قال احمد مطلوب : « وكانت الخصومة من نوع يختلف عن تلك الخصومة بين أنصار البحتري وابي تمام اللذين كانا يمثلان اتجاهين مختلفين في الشعر . فالخصومة هنا ليست من أجل مذهب فني ، وانما هي في المتنبي وطبعه وشهرته في زمانه » (٤١) .

وكان محمد مندور أدق حين قال : « والخصومة حول المتنبي لم تكن خصومة حول مذهب شعري، وانما كانت خصومة حول شاعر أصيل »(٤٢) . ففي قوله (شاعر اصيل) ما يفصح عن أن شعر المتنبي نفسه ـ فضلا عن شخصيته وصفاته ـ كان يستوقف الناقد .

---

(٤٠) تاريخ النقد الادبي عند العرب : ٢٥٢ .
(٤١) اتجاهات النقد الادبي في القرن الرابع الهجري : ٢٥١ .
(٤٢) النقد المنهجي عند العرب : ١٥٩ .

كان شعر المتنبي اذن ملتقى ثلاث فئات من النقاد : فئة تعصبت له ، وأفرطت في الاعجاب به ، حتى لم تر له شيئا يعاب ، وفئة غالت في التعصب عليه والغض من شأنه ، ولم يكن يهمها من شعره الا العيوب ، تذكرها لتشهّر به ، وتتخذها وسيلة لتحطيمه ، والانتقام من شخصه ، وتعاظمه ، وتعاليه ، وقد صوّر الجرجاني هاتين الفئتين المحتربتين فقال : « وما زلت أرى اهل الادب منذ الحقتني الرغبة بجملتهم ، ووصلت العناية بيني وبينهم ، في أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي فئتين : من مطنب في تقريظه ، منقطع اليه بجملته ، منحط في هواه بلسانه وقلبه ، يلتقي مناقبه اذا ذكرت بالتعظيم ، ويشيع محاسنه اذا حكيت بالتفخيم ، ويعجب ويعيد ويكرر ، ويميل على من عابه بالزراية والتقصير ، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجهيل ، فان عثر على بيت مختل النظام ، أو نبّه على لفظ ناقص عن التمام ، التزم من نصرة خطئه ، وتحسين زلله ، ما يزيله عن موقف المعتذر ، ويتجاوز به مقام المنتصر ، وعائب يروم ازالته عن رتبته ، فلم يسلّم له فضله ، ويحاول حطه عن منزلة بوأه اياها ادبه ؛ فهو يجتهد في اخفاء فضائله واظهار معايبه ، وتتبع سقطاته ، واذاعة غفلاته . وكلا الفريقين اما ظالم له أو للادب فيه » [٤٣] .

والمتتبع للنقد الذي وصل الينا حول المتنبي ، يجد ان أكثره هو النقد الذي شنّه عليه الخصوم والشانئون ، يقول احسان عباس : « ان النقد الذي دار حول المتنبي كان في اكثره هجوما على المتنبي الانسان من خلال الشعر » [٤٤] .

ومن الغريب اننا نسمع بانصار المتنبي ، ونرى الكتب مملوءة بالرد عليهم ، ولكننا « لا نجد لهم آثارا مكتوبة في الدفاع عن صاحبهم » [٤٥] وكانهم اكتفوا بما كانوا يذيعونه في المجالس ، على حين تلاحقت الكتب في العراق

---

(٤٣) الوساطة : ٣ .

(٤٤) تاريخ النقد الادبي : ٢٥٢ .

(٤٥) نفسه : ٢٧٧ .

وفارس ومصر للرد عليهم « وليس في الحالين تكافؤ ، فأنصار المتنبي يضيعون جهودهم في احاديث المجالس والحلقات ، بينا يخلد خصومه مذمته في الكتب والرسائل » (٤٦) •

واما الفئة الثالثة من النقاد فهي التي توسطت بين الفئتين ، وهدفت الى التقريب بين الخصوم والانصار ، ويمثل هذه الفئة القاضي الجرجاني الذي ألف كتاب « الوساطة » ليتبين في هدوء ، وبعيدا عن اللجاجة ، ما في شعر المتنبي من ضعف وقوة •

ويتخذ النقد اللغوي الذي لم يكن مبعثه الا العداوة للشاعر ، والحقد عليه ، مظاهر ثلاثة :

الاول : محاسبة الشاعر على الفاظ وتراكيب ليس عليه حرج ان عبّر بها أو أودع شعره شيئا منها ، وذلك لان الشعراء استعملوا نظائرها ، أو أن كبار اللغويين صرحوا بجوازها •

الثاني : التعليقات التي تتسم بالحدّة والمبالغة والتي تنعت المتنبي وشعره بنعوت شتى لا يأتي بها ناقد منصف يحتاط لاحكامه ، ويتحرى الدقة في أقواله •

والثالث : هو الاختلاق ، والكذب على الشاعر ، ونحله أقوالا لم يقلها بغية تجريحه ، والنيل منه •

ومن الامثلة على المظهر الاول أنهم عابوا وصله « الا » بالضمير في قوله :

ليس إلاّك يا علي همام سيفه دون عرضه مسلولا

وقوله :

لم تر من نادمت الاّكا

---

(٤٦) تاريخ النقد الادبي : ٢٧٧ •

وحين علم المتنبي انكارهم ذلك عليه ، احتج ببيت رواه الفراء ، هو :

فما نبالي اذا ما كنت جارتنا   الا يجاورنا الاك ديّار

غير أن الخصوم ، لم يفيئوا الى هذه الحجة ، وأبوا على المتنبي ان يحتذي ما في كلام العرب من لغات صحيحة ، رواها الأئمة ، والموثوق باقوالهم من النحاة ، واما الجرجاني ، الناقد الذي لم يلوّن الهوى نظرته للمتنبي ، فلم ير قوله مما يعاب ، قال : « وأنا أرى الا يطالب الشاعر أكثر من اسناده قوله الى شاعر عربي منقول عن ثقة ، وناهيك بالفراء » (٤٧) .

ومن هذا الباب أيضا النقد الذي دار حول كلمة « ترنج » التي وردت في قوله :

شديد البعد من شرب الشمول   ترنج الهند أو طلع النخيل

فقد قال خصومه : « المعروف من العرب الا ترج ، والترنج مما يغلط به العامة » (٤٨) ولولا الخصومة لما عيبت هذه اللفظة ، ولما اسقطت الى درك العامية ، ذلك لان من اللغويين من رواها ، فقد حكى ابو عبيدة : ترنجة وترنج (٤٩) . ودافع المتنبي نفسه عن هذه الكلمة ، فذكر أن أبا زيد حكاها وذكرها ابن السكيت في أدب الكاتب (٥٠) . فلقول المتنبي : « سند من الصحيح ، وان كان غير متواتر بين اللغويين ، الا أنه سند على كل حال »(٥١) .

وأما المظهر الثاني من مظاهر هذا النقد الناجم عن الخصومة ، فيتمثل لنا في تعليقات هازئة حادة كان خصوم الشاعر يعقبون بها على بعض أقواله ، لابد ان يترفع عن امثالها ناقد نزيه ، أو دارس جادّ . فاذا قال المتنبي :

اذا كان بعض الناس سيفا لدولة   ففي الناس بوقات لها وطبول

---

(٤٧) الوساطة : ٤٥٦ ، ٤٥٧ .
(٤٨) نفسه : ٤٧٠ .
(٤٩) لسان العرب (ترج) .
(٥٠) الوساطة : ٤٧٠ .
(٥١) المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث : ٦٢ .

قال الصاحب بن عباد : « وهذا التحاذق منه ، كتغزل الشيوخ قبحا ، ودلال العجائز سماجة » [٥٢] . واذا قال :

حتى يقول الناس مـاذا عاقـلا ويقول بيت المـال ماذا مسلمـا

قال العميدي : « بكم الخرس احسن من هذا الكلام العامي الغث ، والنظام الفاسد الرث » [٥٣] . واذا استعمل لفظة « جبرين » بدل « جبريل » قال الصاحب : « وقلب هذه اللام الى النون ، ابغض من وجه المنون ولا أحسب جبريل عليه السلام يرضى منه بهذه المجازاة » [٥٤] .

والمظهر الثالث من مظاهر النقد اللغوي الذي أثارته الخصومة ، يتجلى فيما اختلقه الخصوم من روايات نسجوها حول المتنبي ،فوصفوه فيها بالجهل، وفيما اختلقوه كذلك من اخطاء ، الصقوها به ، ودسوها في شعره .

فمما اختلقوه من الروايات ما حكاه ابن وكيع عن شيخه ابي الحسن المهلبي ، من أن هذا الاخير حضر في مصر مجلسا لاحد الرؤساء ، كان قد ضم المتنبي ، فجرت مسألة في المذكر والمؤنث ، فقال المهلبي : قد يؤنث المذكر اذا نسبته الى مؤنث مثل (كما شرقت صدر القناة من الدم) ، فانكر المتنبي الشاهد ، وابدى جهله به ، ثم تساءل عمن قال بهذا القول من النحاة ، فقال المهلبي : انه سيبويه . فقال المتنبي : « لا اعرف هذا ، ولعله مذهب البصريين ، ولا أعمل على قولهم . قال (المهلبي) : فقلت هذا كتاب ابن السكيت في المؤنث والمذكر ، قال : ليس ذلك فيه ، فاخرجته من خزانة الرئيس الذي كنا عنده فلما قرأه ، قال : ليس هذا بخط جيد ، أنا اكتب خيرا منه ، فقلت : ما جلسنا للتخاير بالخطوط ، فانقطع » [٥٥] .

---

(٥٢) الكشف عن مساوىء المتنبي : ٢٢٨ .
(٥٣) الابانة عن سرقات المتنبي : ٦٣ .
(٥٤) الكشف عن مساوىء المتنبي : ٢٤١ .
(٥٥) تاريخ النقد الادبي : ٢٠٦ ، ٢٠٧ وينظر مصدره .

فاذا قسنا هذه الرواية التي تظهر لنا المتنبي قصير الباع في اللغة ، لا يعرف قاعدة مشهورة من قواعد التأنيث والتذكير ، الى روايات كثيرة ، تنعت المتنبي بالعلم باللغة ، والتضلع منها ، وتصوره ، وقد ألمّ بالنادر واشارده بله المعروف والمتداول ، تبين لنا أن هذه الرواية مصنوعة ، لفقها ابن وكيع أو شيخه ، انتقاما من المتنبي الذي ورد مصر ، ثم غادرها مخلفا فيها شيعة ومؤيدين ، خلقوا حول ابن وكيع جوا لا يستريح اليه ، ولا يحقق ما يرجوه لنفسه من شهرة ، وذيوع صيت (٥٦) . وان لم تكن هذه الرواية من قبيل النقد اللغوي الملفق ، فكيف نوفق بينها وبين رواية أخرى تقول ان ابا علي الفارسي سأله : « كم لنا من الجموع على وزن (فعلى) ، فقال المتنبي في الحال : حجلى وظربى ، قال الشيخ أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثا فلم أجد » (٥٧) . أو رواية أخرى تقول عنه انه « كان من المكثرين من نقل اللغة ، والمطلعين على غريبها وحوشيها ، ولا يسأل عن شيء الا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر »(٥٨) .

ومما اختلقوه من اخطاء ، ما رووا من أن الصاحب بن عباد عمد الى قول المتنبي :

اني على شغفي بما في خمرها   لأعف عما في سرابيلاتها

فجعل « سراويلاتها » مكان « سرابيلاتها » ليتسنى له تجريحه ، وعكس المعنى الذي قصد اليه ، فقد اراد المتنبي أن يصف نفسه بالعفة ، فلما بدّل الصاحب قوله ، استقام له ان يصفه بالتبذل والسقوط ، فقال « كانت الشعراء تصف المآزر تنزيها لالفاظها عما يستشنع ذكره حتى تخطى هذا الشاعر المطبوع الى التصريح ، وكثير من العهر احسن من هذا العفاف»(٥٩).

---

(٥٦) تاريخ النقد الادبي : ٢٩٤ في ٢٩٥ .
(٥٧) وفيات الاعيان : ١٠٢/١ وحجلى جمع حجل وهو الطائر الذي يسمى القبج . والظربى جمع ظربان على مثال قطران وهي دويبة منتنة الرائحة.
(٥٨) نفسه .
(٥٩) الواحدي : ٢٧٨ .

وابو بكر الشعراني خادم المتنبي نسب الى الصاحب تغيير هذه اللفظـة في شعر المتنبي ، قال الواحدي : « سمعت ابا الفضل العروضي يقول : سمعته ابا بكر الشعراني يقول : هذا مما غير عليه الصاحب وكان المتنبي قد قال : لاعف عما في سرابيلاتها ، جمع سربال وهـو القميص ، وكـذا رواه الخوارزمي » [٦٠] .

ولم ينسب الشعراني الى الصاحب تغيير هذه اللفظة فحسب في شعر المتنبي بل نسب اليه تغيير لفظة أخرى . قال المتنبي :

رواق العـز فوقـك مسـتظلّ

فرواه الصاحب :

رواق العـز فوقـك مسـبطرّ

ثم أنكر عليه لفظة « مسبطر » . قال الشعراني فيما رواه العروضي عنه: « قدم علينا المتنبي ، وقرأنا عليه شعره ، فانكر هذه اللفظة ، وقال مستظل . قال العروضي وانما غيره الصاحب وعابه عليه » [٦١] .

ولكن احسان عباس لم يقطع بان الصاحب تعمد تغيير بعض الالفاظ ليتوصل الى عيب المتنبي ، والغضّ من شعره ، فقد يكون الامر كذلك ، وقد يكون بعض اصدقاء المتنبي والمعجبين به ، قد بذلوا هذه المحاولات ، ورووا تلك الالفاظ بوجهين ، ليخففوا من حدّة النقد الموجه اليه [٦٢] .

ولا استبعد ان يكون التحامل على الشاعر ، وشهوة القدح في شعره قد دفعا الصاحب الى أن يغير في الفاظ المتنبي ، ويدس عليه ما لم يقله .

وبعد ، فلا أقول ان خصوم المتنبي لم يكونوا على حق دائما فيما وجهوه اليه من النقد ، ولكن الذي أراه هو أن كثيرا من المآخذ التي اخذوها عليه ،

---

(٦٠) الواحدي : ٢٧٨ .
(٦١) شرح العكبري : ٣/١٢ .
(٦٢) تاريخ النقد الادبي : ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

لم تكن لتبدو لهم على انها مآخذ ، لو نظروا اليها بعين الرضا ، او لو واجهوها بنظر الناقد المنصف ؛ لانها ليست باخطاء ولا هفوات ، وانما هي الفاظ وتراكيب استقاها المتنبي من لغات نادرة ، لم ير بعض النحاة ان تحاكى ، أو ينسج على غرارها ؛ ولا شك ان القليل غير الخطأ .

ولابد من الاشارة الى ان اضخم حركة نقدية لغوية ، دفعت اليها الخصومة ، نشأت حول شعر المتنبي ، ويبدو أن المتنبي هو الذي اعطى خصومه السلاح الذي يهاجمونه به ؛ فقد كثرت في شعره الصيغ والاستعمالات التي لا تساير الكثير المطرد من كلام العرب والتي اختلف حولها النحاة : قبلها الكوفيون ؛ لانهم يأخذون بالنادر والقليل ، ويقيسون عليه[٦٣] ، ورفضها البصريون ؛ ووصموا قائلها بالخطأ لانهم لا يقيسون ، الا على ما كثرت شواهده ، واستفاضت امثلته[٦٤]، فاستغل خصوم المتنبي هذا الجانب من لغته، ونفذوا اليه منه ؛ فأخذوا بمذهب البصريين ، وخطأوه فيما ظهر في شعره من أقوال ، تساير مذهب الكوفيين [٦٥] . وجاء الجرجاني ، فلم يخطّيء ما في شعر المتنبي من صيغ واستعمالات إن لا توافق المشهور الذائع من كلام العرب ، فقد رويت ، وثبت نقلها عن العرب . وقد ترددت في كتاب « الوساطة » عبارات تشير الى مذهب الجرجاني في النقد اللغوي مثل قوله « فان كانت اللفظة مسموعة عن العرب ، فقد زالت الكلفة » [٦٦] ، وقوله : « غير أنه ليس على الشاعر عيب ، في اتباع اللفظة النادرة ، اذا رواها الثقات . ومتى وجدت الرواية عن ثقة ، لم يحظر على الشاعر قبولها ، والعمل بها ، لأجل اختلاف النحويين » [٦٧] .

---

(٦٣) القواعد النحوية : ٧٥ .
(٦٤) نظرات في اللغة والنحو : ١١ .
(٦٥) الدرس النحوي في بغداد : ١٥٠ .
(٦٦) الوساطة : ٤٦٢ .
(٦٧) نفسه : ٤٦٣ .

ان الخصومة ، والدوافع الشخصية كانت عاملا من عوامل تنشيط النقد اللغوي ، وأن جملة من هذا النقد كان يمكن ان تختفي ، لو تجرد بعض النقاد من الغرض ، وسلمت صدورهم من دواعي الحسد والغيظ ، لان كثيراً من الصيغ والاستعمالات التي عابوها ، اما مختلقة واما صيغ واستعمالات ، قبلها النقاد المنصفون ، ولم يروها مما يعاب ، لأن الثقات من الرواة ، رووها ، أو رووا نظائرها عن العرب •

واذا كان للمنشيء أنصار فقط ، بقي كثير من معاييبه خفيا ، لا ينبه عليه أحد ، ولكن اذا تصدّى له الخصوم ، وضعوا لغته تحت المجهر الدقيق ، الذي لا تستتر منه هفوة ، ولا تتوارى عنه زلة • والخصوم أيضا تجابههم حركة مضادة ، تحاول تبين أخطائهم ، وتجنياتهم ، وهذا كله يغذي النقد اللغوي ، ويغنيه ، ويبعث الحياة في أوصاله •

الفصل الخامس

الاعجاز

شغل العرب بالقرآن الكريم ، وعنوا بتفسيره وحياته ، وكان اساسا لكثير من علوم العربية . وبعد أن قامت حركة الفتوح ، وامتزج العرب بغيرهم من الامم ، أخذ الاسلام يتعرض لحملة طعن وتشكيك ، شنها عليه أصحاب الديانات القديمة ، وكان طبيعيا ان ينال القرآن شيء من تلك الحملة [1] .

وكان من اقدم ما تردد عن القرآن انه مغاير لكلام العرب ، وغير جاز على ما ألفوه ، واطمأنوا اليه من انماط التعبير . فجرّد أبو عبيدة كتابا اسماه « مجاز القرآن » ليفند هذه الدعوى ، ويثبت ان القرآن جارٍ على اساليب العرب .

روى أبو عبيدة أن الفضل بن الربيع ، استقدمه الى بغداد ، سنة ١٨٨هـ ، فلقي عنده أحد كتّاب الوزير وجلسائه ، وهو ابراهيم بن اسماعيل الكاتب ، الذي سأله قائلا : « قال الله عزّ وجل (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) وانما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف » [2] فقال ابو عبيدة : « انما كلّم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم ، أوعدوا به » [3] ، ثم قال ابو عبيدة « وعزمت من ذلك اليوم ان اضع كتابا في القرآن

---

(١) منهج الزمخشري في تفسير القرآن : ٢٠١ .

(٢) معجم الادباء : ١٥٨/١٩ .

(٣) معجم الادباء : ١٥٨/١٩ ، ١٥٩ .

في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج اليه من علمه ، فلما رجعت الى البصرة عملت كتابي الذي سميته المجاز » [٤] .

ولعل كتاب « المجاز » لأبي عبيدة اول كتاب يبحث في أسلوب القرآن ، ويوازن بينه وبين كلام العرب ، ليصل من الموازنة الى أنه نمط من ذلك الكلام [٥] .

وهكذا اتجه الطاعنون الى القرآن ، فخاضوا في نظمه ومعانيه ، فقام علماء الاسلام من متكلمين ولغويين ومفسرين ينافحون عنه . وكان لايستطيع التصدي لهذه المهمة الا من « كثر نظره ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الاساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات » [٦] .

وبعد أن أثبت المدافعون عن القران انه عربي ، كان عليهم ان يردوا على سؤال جديد ، هو : اذا كان القرآن عربيا ، جاريا على نمط اساليب العرب ، ففيم كان الاعجاز ؟

وتعددت اراء الدارسين في سبب الاعجاز ، فذهب « قوم الى ان العلة في اعجازه الصرفة ، أي صرف الهمم عن المعارضة ، وان كانت مقدورا عليها ، غير معجوز عنها » [٧] . و « زعمت طائفة ان اعجازه انما هو فيما تضمنه من الاخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان »[٨] . « وزعم آخرون ان اعجازه من جهة البلاغة ، وهم الاكثرون من علماء أهل النظر » [٩] .

غير أن أكثر القائلين بان بلاغته سبب اعجازه ، لم يكونوا يحققون مواطن هذه البلاغة ، وكأنها ــ في نظرهم ــ أمر يحس ولا يوصف ، أو يدرك ولا

---

(٤) معجم الادباء : ١٩/١٥٩ .
(٥) منهج الزمخشري في تفسير القرآن : ٢٠٢ .
(٦) تاويل مشكل القرآن : ١٠ .
(٧) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٢٠ .
(٨) نفسه : ٢١ .
(٩) نفسه .

يعلل فهم يقولون : « انما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربا من المعرفة ، لا يمكن تحديده » [١٠] ، ويقولون : « وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع ، وهشاشة في النفس ، لا توجد مثلها لغيره منه ، والكلامان معا فصيحان ، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة » [١١] .

أما المحققون من الدارسين ، فلم يكتفوا بالقول بان البلاغة سبب للاعجاز ، بل ندبوا أنفسهم لبيان تلك الاسرار البلاغية ، التي علت بالاسلوب القرآني ، واكسبته سمات التفوق والامتياز . وبدراسات هذا الفريق من كتّاب الاعجاز ، نما النقد اللغوي ، وغني بنظرات نقدية صائبة ، ظلت مرجعا لكل ناقد ، ومصدرا لكل باحث في خفايا التعبير العربي .

ولا أريد هنا ان اعرض لأثر « فكرة الاعجاز » في النقد الادبي ، أو البلاغة ، فليس هذا من وكدي ، ولا من هدف البحث ، وأنما اريد ان اوضح ما أثارته هذه الفكرة من نقد لغوي ، تناول اللفظة ، واقتصر على العبارة ، ووقف عندها ، يستنبط منها مقاييس للجودة او الرداءة .

ويستطيع الباحث ان يقول باطمئنان : ان القرآن الكريم كان أهم النصوص التي استقيت منها مقاييس الجمال في العبارة الادبية ، وان جلّ ما نراه من قوانين تتعلق بجودة الكلام أو قبحه ، انما انبنت على عبارة القرآن ، واستنبطت منها ، فما أطال النقاد الوقوف على نص كما أطالوه على القرآن وما قلبوا النظر في كلام ، كما قلبوه في آيه وسوره ، وكان من اثر ذلك ان اهتدوا الى دقائق واسرار جمالية كثيرة ، لولا « فكرة الاعجاز » لظلت محجوبة مطوية .

واذا علمنا ان النقد اللغوي هو البحث عن الحسن والاحسن في التعبير ، أدركنا ان اكثر النقد الذي دار حول القرآن ، ان هو الا نقد لغوي ، اتخذ الآية القرآنية ميدانا له ، فمضى ينقّب فيها عما استكن وراءها من دلائل الجمال ، ووجوه الروعة .

---

(١٠) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٢٢ .
(١١) نفسه .

ولكي نرسم المجال الذي تحرّك فيه كتّاب الاعجاز ، ونحدد السبل التي طرقوها ، وهم بصدد اثبات الاعجاز للقرآن ، نورد قول الخطابي الذي جاء في رسالته الموسومة بـ « البيان في اعجاز القرآن » ، قال : « وانما يقوم الكلام بهذه الاشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم . واذا تأملت القرآن وجدت هذه الامور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئا من الالفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا ، وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه ، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل انها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقّي الى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها . وقد توجد هذه الفضائل على التفرّق في أنواع الكلام ، فأما ان توجد مجموعة في نوع واحد منه ، فلم توجد الا في كلام العليم القدير » (١٢) .

ويعني كلام الخطابي أن فكرة « الاعجاز » قادت الى درس ألفاظ القرآن ، وتأمل خصائصها ، كما أدت الى درس « النظم » أو الاسلوب لمعرفة أسراره ، والوقوف على أخص ميزاته ، ثم مقارنة لفظ القرآن واسلوبه بغيره من روائع الشعر والنثر ، لاثبات أن القرآن يعلو على ما يوازن به من كلام . وهذا يعني أن « الاعجاز » أثار حركة نقدية لغوية واسعة ، شملت القرآن وكلام العرب ، وتمخضت عن قوانين وأحكام نقدية كثيرة ، منها ما يخص اللفظ ، ومنها ما يتصل بالعبارة ، او التركيب ، ثم صارت تلك الاحكام والقوانين ، مبادىء يؤخذ بها عند الحكم على النصوص ، وتقديم بعضها على بعض . لقد اصبحت القضايا التي أثارها كتّاب « الاعجاز » والقوانين التي انتهوا اليها بشأن تلك القضايا ، دليلا يهتدي به النقّاد ، فقد نقلوها من مجال القرآن الى مجال النصوص ، وصاروا ينشدون في النصوص ما اكتشفه أهل الاعجاز في القرآن بمعنى أن الفاظ القرآن كانت السبيل الذي يجب أن يحتذيه المنشىء ، كما ان تراكيبه ، وما امتازت به ، كانت المثال الذي يحاسب

(١٢) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٢٤ .

الادباء على الاقتداء به ، وتقليده • وسنعرض هنا لطائفة من قضايا اللفظ ، والتركيب ، نشأ بعضها بسبب فكرة « الاعجاز » ، وبرز بعضها الآخر بشكل واسع على ايدي كتّابه ، ثم صارت تلك القضايا من صميم النقد اللغوي ، لا يغفلها أي ناقد ، ينشد معرفة اسرار البيان ، ودقائق التعبير • فأما قضايا اللفظ فهي :

١ ـ الغرابة والسهولة :

ان النقاد الذين سبقوا أهل الاعجاز ، خاضوا في هـــذا الموضوع ، وانقسموا حوله ، فمنهم من نشد الغريب ، وقدّم الشعر المشتمل عليه ، ومنهم من آثر السهولة ، ورضى الكلام العذب الأليف ، الا أن الحكم الذي أصدره كتّاب الاعجاز ، كان معززا الفريق الثاني من النقاد ، وظل الحكم المأخوذ به في العصور جميعا • لقد نظر أهل الاعجاز ، فوجدوا ان الفاظ القرآن جمعت الفخامة الى العذوبة والسهولة ، فقرروا أن هذه هي الصفة الفنية التي يجب أن تتصف بها الالفاظ ، ثم ردوا على الذين زعموا ان اللفظ السهل ، لا فضل فيه ، ولا مزية له ، لأنه مما الفته العرب ، واستعملته في مخاطباتها ومحاوراتها • ذهب أهل الاعجاز الى ان الغرابة ليست من سمات البلاغة ، وان الغريب الوحشي يكثر في كلام الاوحاش من الناس ، والأجلاف من جفاة العرب ، وقد صدف القرآن عن هذا اللون من الالفاظ ، فتحققت له البلاغة [١٣] •

٢ ـ موسيقى اللفظ والتركيب :

وخاض بعض كتاب الاعجاز في هذا الموضوع ، وتوسعوا فيه ، وفتحوا الباب بعدهم لمن أراد ان يدرس اللفظة من هذا الجانب ، ويحكم لها او عليها في ضوء تأليفها ، وطبيعة الاصوات التي تتركب منها ، وما بين تلك الاصوات من تلاؤم وانسجام ، أو تنافر وتناكر •

---

(١٣) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٣٣ ، ٣٤ •

لقد فطن الرماني مثلا ، وهو أحد كتّاب الاعجاز ، الى أن من خصائص اللفظة القرآنية ، تلاؤم حروفها ، وانسجام الاصوات المؤلفة لها ، فتكلم على ذلك ، وتوسع في ضرب الامثلة ، كما تكلم على ما بين الفاظ الاية من تلاؤم ، يجعلها سهلة النطق ، خفيفة الجري على اللسان . فحين وازن الرماني بين قوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) وقول العرب (القتل أنفى للقتل) انتهى الى ان الآية ابلغ من المثل العربي ، وقرر أن أحد الاسباب التي أوجبت للآية هذا الحكم ، هو انسجام الفاظها مجتمعة ، وائتلافها وعدم تنافرها ، قال : « واما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة ، فهو مدرك بالحس ، وموجود في اللفظ ، فان الخروج من الفاء الى اللام أعدل من الخروج من اللام الى الهمزة لبعد الهمزة من اللام ، وكذلك الخروج من الصاد الى الحاء أعدل من الخروج من الالف الى اللام » [١٤] . وظل مقياس التلاؤم بين الفاظ التركيب مأخوذا به ، في التمييز بين التراكيب .

٣ ــ الفروق بين المترادفات :

لقد وجد علماء العربية أن هناك عددا من الالفاظ ، يحسبها الناس مترادفة ، وهي بخلاف ذلك ، متفاوتة في الدلالة ، متباينة في المراد ، لا يغني بعضها عن بعض في التعبير الدقيق السليم . ومن هذه الالفاظ : العلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، والنعت والصفة ، واقعد واجلس ، وذلك وذاك ، ونحوها من الاسماء والافعال والحروف . قال الخطابي : « والحمد والشكر ، قد يشتركان أيضا ، الحمد لله على نعمه ، أي الشكر لله عليها ، ثم قد يتميز الشكر عن الحمد في اشياء ، فيكون الحمد ابتداء بمعنى الثناء ، ولا يكون الشكر الا على الجزاء ، تقول : حمدت هذا اذا أثنيت عليه في اخلاقه ومذاهبه ، وان لم يكن سبق اليك منه معروف ، وشكرت زيدا اذا اردت جزاءه على معروف ابتدأه اليك ، ثم قد يكون الشكر قولا كالحمد ، ويكون فعلا كقوله جلّ وعزّ : « اعملوا آل داود شكرا » .

(١٤) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٧٢ .

واذا أردت ان تتبين حقيقة الفرق بينهما ، اعتبرت كل واحد منهما بضده ، وذلك أن ضد الحمد الذم ، وضد الشكر الكفران ، وقد يكون الحمد على المحبوب والمكروه ، ولا يكون الشكر الا على المحبوب » [15] . وقال : « واما النعت والصفة ، فان الصفة أعم والنعت أخص ، وذلك أنك تقول : زيد عاقل وحليم ، وعمرو جاهل وسفيه ، وكذلك تقول : زيد أسود ودميم ، وعمرو ابيض وجميل ، فيكون ذلك صفة ونعتا لهما ، واما النعت فلا يكاد يطلق الا فيما لا يزول ولا يتبدل كالطول والقصر والسواد والبياض ونحوهما من الامور اللازمة » [16] .

ووجد كتاب الاعجاز أن القرآن أولى الفروق بين المترادفات عناية خاصة ، فاذا عرض معنى يشترك في التعبير عنه لفظان ، اختار التنزيل العزيز أدق اللفظين دلالة على ذلك المعنى . لقد اتخذ كتاب الاعجاز من هذه الظاهرة الاسلوبية احد الادلة التي استندوا اليها في اثبات الاعجاز للقرآن . وهذا يعني أن فكرة « الاعجاز » قد أدت الى الخوض في هذا الموضوع النقدي ، وان العلماء الذين ندبوا انفسهم لاثبات الاعجاز قد افادوا من هذه الحقيقة ، واعتمدوا عليها في دعم رأيهم ، وضاعفت اهتمامهم بهذا الجانب من جوانب النقد اللغوي ، تلك الحملة التي شنها بعضهم على اللفظ القرآني ، والتي وصفته بعدم الدقة في بعض المواضع . قال الخطابي : « فان قيل : انا لا نسلم لكم ما ادعيتموه من ان العبارات الواقعة في القرآن ، انما وقعت في أفصح وجوه البيان وأحسنها ، لوجودنا اشياء منها بخلاف هذا الوصف عند اصحاب اللغة ، واهل المعرفة بها ، كقوله (فأكله الذئب) وانما يستعمل مثل هذا في فعل السباع خصوصا الافتراس ، يقال : افترسه السبع . هذا هو المختار الفصيح في معناها ، فأما الأكل فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع » [17] ثم قال : « الجواب : ان القول في وجود الفاظ

---

(15) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : 27 .
(16) نفسه : 28 .
(17) نفسه : 34 .

القرآن وبلاغتها على النعت الذي وصفناه صحيح لا ينكره الا جاهل أو معاند، وليس الامر في معاني هذه الآية على ما تأولوه ، ولا المراد في أكثرها على ما ظنوه وتوهموه : فأما قوله تعالى : (فأكله الذئب) فان الافتراس معناه في فعل السبع القتل حسب ، وأصل الفرس دق العنق ، والقوم انما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلا ، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلا ولا عظما ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم اياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الاكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى ، فلم يصلح على هذا ان يعبر عنه الا بالاكل . على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع . وحكى ابن السكيت في ألفاظ العرب قولهم : أكل الذئب الشاة فما ترك فيها تامورا . وقال بعض شعرائهم :

ابا خراشة أما أنت ذا نفر فان قومي لم تأكلهم الضبع »[١٨]

ولم تبق مسألة الدقة ، ومراعاة ما بين المترادفات من فروق ، مسألة تتردد في كتب الاعجاز فقط ، بل سرعان ما انتقلت الى كتب النقد ، وصارت من المقاييس المهمة التي يحتكم اليها النقاد في المفاضلة بين لفظ ولفظ ، وصرنا نجد النقاد يوصون الخاصة ، ورجال الادب بالتفريق بين الالفاظ المترادفة ، وربما كان الجاحظ من اوائل النقاد الذين اوصوا بذلك ، حين قال : « وقد يستخف الناس الفاظا ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها . الا ترى ان الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع الا في موضع العقاب ، او في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر . والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به الا في موضع الانتقام . والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث » [١٩] .

(١٨) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٣٧ ، ٣٨ ، التامور : الوعاء والنفس وحياتها والقلب وحبته وحياته ودمه .
(١٩) البيان والتبيين : ١/٢٠ .

لقد كانت قضايا اللفظ السابقة من الموضوعات التي عالجها كتاب الاعجاز ، وتوصلوا بشأنها الى مقاييس مهمة ، أفاد منها النقاد اللغويون ، وساروا على هديها في تقويم الالفاظ ، والمفاضلة بينها ، ومن هنا كان لنا أن نقول : ان فكرة الاعجاز كانت عاملا مؤثرا في حركة النقد اللغوي ، فقد أغنتها بما أثارته من قضايا ، سرعان ما انتقلت الى بيأة النقاد ، وصارت من القضايا التي يعالجونها عند درس النصوص ، والتمييز بين الالفاظ والاساليب. ولم يقتصر جهد أهل الاعجاز على دراسة اللفظ القرآني ، بل تعدى ذلك الى دراسة نظم القرآن ، واسلوبه ، وكانت لبعضهم في هذا الشأن آراء مبتكرة ، أغنت النقد عامة والنقد اللغوي خاصة .

لقد وضع كتّاب الاعجاز نظرية عرفت بنظرية « النظم » ، وهي في نظر المؤرخين من أنضج ما عرف النقد العربي من نظريات . وما كان لهذه النظرية أن تظهر ، لولا ما سيطر على النقاد والبلاغيين من رغبة في تلمس أسباب الاعجاز ، والاهتداء لسرّه . لقد كان « الاعجاز » سرّا هائلا ، استفز عقول علمائنا ونقدتنا ، وحركها ، فتفتقت عن كثير من الآراء النقدية السديدة، وكانت نظرية « النظم » احد تلك الاراء . ولمكان نظرية « النظم » من النقد اللغوي ، سنقف عندها ، ونجلو طبيعتها .

لقد برزت فكرة « النظم » مبكرة عند الجاحظ ، ثم تلقفها منه المعتزلة والاشاعرة ، فعللوا بها اعجاز القرآن ، وردوا اليها ما في اسلوبه من بلاغة تباين المعهود من بلاغة القوم ، وتسمو عليها[٢٠] .

وعلى الرغم من أن فكرة « النظم » قديمة ، وان القائلين بها كثيرون ، الا ان أحدا منهم ــ قبل عبدالقاهر ــ لم يستطع أن يكشف ما في « نظم » القرآن من دقائق ولطائف ، وانما اكتفوا بوصف ذلك النظم بأنه عجيب ، ومباين لاساليب العرب ، فظلت فكرة « النظم » في كتبهم نظرية لم يجلها التطبيق .

---

(٢٠) البلاغة تاريخ وتطور : ١١٤ .

وصحيح أن الجاحظ ألف في هذه الفكرة كتابا ، الا أنه لم يصل الينا ، فلا نستطيع لذلك أن نتبين الجهود الذي بذلها لبيان خصائص « النظم » في اسلوب القرآن . وجاء عبدالقاهر الجرجاني ، فاستطاع ان يتناول فكرة « النظم » ويوسعها ، ويفصل القول فيها ، ويشفع النظر بالتطبيق ، فكان بحق صاحب هذه النظرية المهمة في تاريخ النقد اللغوي عند العرب .

وقبل أن اعرض لنظرية « النظم » عند الجرجاني ، لابد من الاشارة الى مشكلة « اللفظ والمعنى » لأنها الأصل الذي تفرّعت عنه فكرة « النظم » . ولا شك في أن فكرة « الاعجاز » هي التي أثارت قضية « اللفظ والمعنى » في النقد اللغوي ، فقد بدأ الباحثون في الاعجاز يتساءلون عن القرآن : أهو معجز في لفظه أم معجز في معناه ، ثم جاء النقاد فنقلوا هذا التساؤل الى النص الأدبي ، وصاروا يبحثون عن سبب الجمال فيه : أهو في لفظه ؟ أم هو في معناه ؟ [21] .

لقد كثر الجدل حول هذه المشكلة ، واحتدم الخلاف بسببها بين النقاد ، فتحيز أكثرهم للفظ وجحدوا المعنى ، فلم يروا له فضلا في تقديم نص على آخر . وكان الجاحظ أول من تعصب للفظ ، وجعل التأنق فيه الغاية التي يهدف اليها الاديب ، والمجال الذي يتفوق فيه على غيره ، فقال : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي المدني ، وانما الشأن في اقامة الوزن ، وتخيّر اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك » [22] . غير أن الجاحظ لم يقصد باللفظ الكلمات المفردة ، وانما عنى « الصورة » التي تنجم من تآلف الالفاظ وتجاورها في تركيب أنيق . ولذا قال : « فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير » [23] ، وهذا هو النظم الذي جعله سر اعجاز القرآن .

---

(٢١) مشكلة السرقات الادبية : ١٩٥ .
(٢٢) الحيوان : ٣/١٣١ ، ١٣٢ .
(٢٣) نفسه : ٣/١٣٢ .

واما ابن قتيبة فقد كان يرى ان المعنى الواحد يمكن ان يعبر عنه بالفاظ مختلفة ، يحلو بعضها ، ويقصر بعض ، فقال : « تدبرت الشعر فوجدته اربعة أضرب : ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ••• وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فاذا انت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ••• وضرب منه جاد معناه وقصرت الفاظه عنه ••• وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه » [٢٤] .

وكان ابو هلال قد اضطرب ، فتابع الجاحظ حينا ، وقال بقوله ، ورفع شأن المعنى حينا آخر ، وأعلى قيمته ، فهو القائل : « ومن الدليل على ان مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة ، والاشعار الرائقة ، ما عملت لافهام المعاني فقط ، لان الردىء من الالفاظ يقوم مقام الجيد منها في الافهام ••• ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة ، يبالغون في تجويدها ، ويغلون في ترتيبها ، ليدلوا على براعتهم ، وحذقهم بصناعتهم ، ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك ، فربحوا كدا كثيرا ، واستقطوا عن انفسهم تعبا طويلا » [٢٥] • ثم عاد العسكري بعد ذلك لينصف المعنى ، بعد ان تنكر له ، وغض من شأنه ، فقال : « ان الكلام الفاظ تشتمل على معان تدل عليها ، وتعبر عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة الى اصابة المعنى كحاجته الى تحسين اللفظ ، لأن المدار بعد على اصابة المعنى ، ولان المعاني تحل من الكلام محل الابدان ، والالفاظ تجري معها مجرى الكسوة ، ومرتبة احداهما على الاخرى معروفة » [٢٦] • وقال في موضع آخر : « ولا خير فيما أجيد لفظه اذا سخف معناه » [٢٧] •

وبعد أن عرض ابن رشيق آراء النقاد في اللفظ والمعنى ، عاد ليسوّي بينهما ، ويقرر انهما مرتبطان ارتباط الروح بالجسم ، فاذا اختل احدهما لحق الآخر نقص ، وعراه قصور ، قال : « اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه

---

(٢٤) الشعر والشعراء : ٦٤/١ وما بعدها .
(٢٥) الصناعتين : ٥٨ ، ٥٩ .
(٢٦) نفسه : ٦٩ .
(٢٧) نفسه : ٦٠ .

به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ ، كان نقصا للشعر ، وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك ، من غير أن تذهب الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه ، كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذي يعرض للاجسام من المرض بمرض الارواح » [٢٨] .

وكان ابن شرف قد تعصب للمعنى ، ولم يأبه بشأن اللفظ ، وكان يرى الا عبرة بالمبنى ما لم يكن فيه ساكن جميل ، فهو القائل « وان من الشعر ما يملأ لفظه المسامع ، ويرد على السامع منه قعاقع ، فلا ترعك شماخة مبناه ، وانظر الى ما في سكناه من معناه ، فان كان في البيت ساكن فتلك المحاسن ، وان كان خاليا فاعدده جسما باليا ، وكذلك اذا سمعت الفاظا مستعملة وكلمات مبتذلة ، فلا تعجل باستضعافها ، حتى ترى ما في اضعافها ، فكم من معنى عجيب ، في لفظ غريب ، والمعاني هي الارواح ، والالفاظ هي الاشباح ، فان حسنا فذلك الحظ الممدوح ، وان قبح احدهما فلا يكن الروح » [٢٩] .

ويبدو ان ابن الاثير كان من انصار تقديم المعنى على اللفظ ، وكان يرى ان العرب لم تهتم بالفاظها ، الا لتقديرهم للمعاني ، ومحاولتهم ابرازها في احسن صورة [٣٠] . وكان ابن جني قد سبق ابن الاثير الى هذا الرأي حين قال : « فاذا رأيت العرب قد اصلحوا الفاظها ، وحسنوها ، وحموا حواشيها وهذبوها ، وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا ترين ان العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني ، وتنويه بها ، وتشريف منها ، ونظير ذلك اصلاح الوعاء وتحصينه ، وتزكيته وتقديسه ، وانما المبغي بذلك منه الاحتياط للموعى عليه » [٣١] .

---

(٢٨) العمدة : ١٢٤/١ .
(٢٩) اعلام الكلام : ٢٧ ، ٢٨ .
(٣٠) المثل السائر : ٣٥٢/١ .
(٣١) الخصائص : ٢١٧/١ .

وتيجة لشغف ابن الاثير بالمعاني ، تراه يغربل الشعر بحثا عما فيه من المعاني المبتدعة ، ثم يؤلف كتابين في المعاني ، الاول بعنوان « المعاني المبتدعة » والثاني باسم « عمود المعاني » [٣٢] . وكان من أثر اهتمامه بالمعاني ان سقط الجاهليون في نظره لسذاجة معانيهم ، وقرب غورها[٣٣] ، وقال بتقديم ابي تمام والمتنبي ، ورآهما اعظم شعراء العربية ، بسبب ما في شعرهما من المعاني [٣٤] .

ولولع ابن الاثير بالمعاني ، نفر من الألاعيب اللفظية التي أغرم بها الشعراء المتأخرون وعدها لاحقة بالشعبذة او الهذيان ، كما لم يعجب بما في بعض رسائل الحريري من محاولات لفظية كايراد لفظة معجمة واخرى غير معجمة على نظام مستمر ، وبشكل متوال [٣٥] .

ولكن ابن الاثير لم يتنكر للفظ الرائق ، والشكل الانيق ، ولم يكن ليستطيع ان يكتم اعجابه بما يمر به من ذلك في النصوص ، بل كان يعبر عن اعجابه بعبارا تستشف منها عدم اهداره جانب الشكل ، على نحو ما فعل ابن شرف مثلا .

ونعود الى عبدالقاهر لنرى أنه افاد مما قاله سابقوه ، وأعمل فيه فكره، فانتهى الى رأي ، ظهرت فيه اصالته ، واستحق به ان يكون قمة شامخة في تاريخنا النقدي .

لم يقر الجرجاني من رجحوا المعنى ، وأغفلوا شأن الصياغة ، ولم يرض عمن فضل الكلام لشرف معناه ، ولو كانت صياغته ركيكة ، واهية النسج ، فهو يقول : « واعلم أن الداء الدوي ، والذي أعيى أمره في هذا الباب ، غلط من قدم الشعر بمعناه ، واقل الاحتفال باللفظ ، وجعل لا يعطيه من

---

(٣٢) الاستدراك : ٦٠ ، ١١ .
(٣٣) تاريخ النقد الادبي : ٥٩٦ .
(٣٤) نفسه .
(٣٥) المثل السائر : ٢/٣٥٣ ، ٣٥٤ .

المزية ، ان هو أعطى ، الا ما فضل عن المعنى ، يقول : ما في اللفظ لولا المعنى ؟ وهل الكلام الا بمعناه ؟ فانت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد اودع حكمة وأدبا »(٣٦) • ثم يقول : « لا نرى متقدما في علم البلاغة ، مبرزا في شأوها الا وهو ينكر هذا الرأي ـ يعني رأي القائلين بتقديم الكلام بمعناه ـ ويعيبه ويزرى على القائل به ويغض منه » (٣٧) • ويدلل على صحة رأيه فيقول : « ان سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وان سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه ، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار • فكما ان محالا اذا انت اردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته ان تنظر الى الفضة الحاملة لتلك الصورة ، أو الذهب الذي وقع فيه العمل ، وتلك الصنعة ، كذلك محال اذا اردت ان تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه • وكما انا لو فضلنا خاتما على خاتم بأن تكون فضة هذا اجود او فصه أنفس لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم ، كذلك ينبغي اذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه الا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام » (٣٨) •

وكان الجرجاني يرمي من وراء احتفاله باللفظ والصياغة الى اثبات اعجاز القرآن ، فهو يقول : « واعلم أنهم لم يبلغوا في انكار هذا المذهب ما بلغوه الا لان الخطأ فيه عظيم ، وأنه يفضي بصاحبه الى ان ينكر الاعجاز ، ويبطل التحدي ، من حيث لا يشعر ، وذلك أنه ان كان العمل على ما يذهبون اليه من أن لا يجب فضل ومزية الا من جانب المعنى ، وحتى يكون قد قال حكمة أو أدبا او استخرج معنى غريبا أو تشبيها نادرا ، فقد وجب اطراح جميع ما قاله الناس في الفصاحة والبلاغة وفي شأن النظم والتأليف وبطل ان يجب بالنظم فضل ، وان تدخله المزية ، وان تتفاوت فيه المنازل • واذا بطل ذلك فقد بطل ان يكون في الكلام معجز ، وصار الامر الى ما يقوله اليهود ومن

---

(٣٦) دلائل الاعجاز : ١٩٤ •
(٣٧) نفسه : ١٩٥ •
(٣٨) نفسه : ١٩٦ ، ١٩٧ •

قال بمثل مقالهم في هذا الباب ، ودخل في مثل تلك الجهالات ، ونعوذ بالله من العمى بعد الابصار » [٣٩] .

ولكن عبدالقاهر لم يكن يتشيع للالفاظ من حيث هي الفاظ مفردة ، اذ ان ذلك يفضي الى المساس بقضية الاعجاز أيضا ، فما الفاظ الا الفاظ عرفها العرب وعبروا بها عن مقاصدهم ، ولا يمكن ان يكون بها تحد لهم[٤٠] .

ثم ان الالفاظ المفردة لا يقع بينها تفاضل من حيث هي الفاظ منردة ، وانما تتفاضل بعد ان تتآلف في عبارة ، وتتآخى في تركيب . واما قبل ذلك ، فلا تتفاضل الا ان يقال : « هذه مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية ، أو ان تكون حروف هذه أخف ، وامتزاجها أحسن » [٤١] . فلا مزية للكلمة من حيث هي صوت مسموع ، وحروف تتوالى في النطق ، وانما الذي يقرر حسنها ، والذي يحكم عليها بالجودة أو الرداءة ، هو السياق الذي وردت فيه ، لانه المجال الوحيد الذي يمكن للفظة ان تتحرك فيه وتعمل . وطبيعي ان الكلمة لا تكتسب القيمة الا وهي تتحرك وتعمل ، وتؤدي وظيفة ما .

لقد أدرك عبدالقاهر ان الكلمة ، بوصفها أداة فن ، لا توجد منفردة في الادب ،وانما توجد الى جانب غيرها ، « والارتباط بينها وبين ما سبق وما لحق هو الحال الطبيعية لها كأداة فنية » [٤٢] . كما وقع عبدالقاهر « على الحقيقة الاساسية عندما رد اعجاز القرآن وبالتالي سرّ الابداع في الفن الكلامي الى النظم أو السياق » فهو يرى ان « السر في البلاغة ليس في اللفظ من حيث هو لفظ ، ولكن السر في البلاغة هو في هذه الارتباطات التي يوجدها الشاعر بين اللفظ وما قبله وما بعده » [٤٣] .

---

(٣٩) دلائل الاعجاز : ١٩٨ ، ١٩٩ .
(٤٠) نفسه : ٣٢ ، ٣٣ .
(٤١) نفسه : ٣٦ .
(٤٢) النقد الادبي : ٦٥ .
(٤٣) نفسه : ٦٥ ، ٦٦ .

ولم يقف عبدالقاهر ، وهو بصدد مناقشة مزية اللفظ ، عند حدود الجدل النظري ، بل تجاوز ذلك الى المجال التطبيقي ، فوضع أمامنا الشاهد بعد الشاهد ، من الشعر والنثر او القرآن الكريم ، لكي يثبت لنا ، من خلال تحليله الشواهد ، الحقيقة التي يتبناها ، ويروم اقناعنا بها . ففي مجال تقريره لقيمة اللفظ من خلال السياق يقول : « ان الالفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ . ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر ، كلفظ (الأخدع) في بيت الحماسة :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني　　　وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا

وبيت البحتري :

واني وان بلغتني شرف الغنى　　　وأعتقت من رق المطامع أخدعي

فان لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ثم انك تتأملها في بيت ابي تمام :

يا دهر قوّم من أخدعيك فقد　　　اضججت هذا الانام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والايناس والبهجة » (٤٤) .

لقد عني الجرجاني بالجملة ، أو التركيب ، ولم يكن للفظة المفردة أي شأن عنده ، ولذا قيل عنه انه كان ينظر الى اللغة على انها مجموعة من العلاقات ، وليست مجموعة من الالفاظ (٤٥) . ان المهم في اللغة « ليس الالفاظ ، بل مجموعة الروابط التي نقيمها بين الاشياء بفضل الادوات اللغوية،

---

(٤٤) دلائل الاعجاز : ٣٨ ، ٣٩ .

(٤٥) النقد المنهجي عند العرب : ٣٢٧ .

وتلك الروابط هي المعاني المختلفة التي نعبر عنها » (٤٦) . ومعنى ذلك ان الالفاظ لم توضع لتعيين الاشياء ، « وانما وضعت لتستعمل في الاخبار عن تلك الاشياء بصفة او حدث أو علاقة ، فنحن لا تقول « زيد » الا اذا اردنا ان نخبر عنه بشيء » (٤٧) . يقول عبدالقاهر : « اذا نظرنا في ذلك علمنا ان لا محصول لها غير ان تعمد الى اسم فتجعله فاعلا لفعل او مفعولا ، أو تعمد الى اسمين فتجعل احدهما خبرا عن الاخر ، او تتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للاول أو تأكيدا له أو بدلا منه ، او تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة او حالا او تمييزا ، أو تتوخى في كلام هو لاثبات معنى أن يصير نفيا او استفهاما او تمنيا ، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك . أو تريد في فعلين ان تجعل أحدهما شرطا في الاخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى ، أو بعد اسم من الاسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف . وعلى هذا القياس » (٤٨) . يتضح لنا من ذلك أن لا قيمة للكلمة ، الا اذا توخينا الاعراب بها عن معنى ، أو الابانة عن غرض ، ولن يتم لنا ذلك الا اذا ضممنا الى الكلمة غيرها ، وقرناها بسواها . وعندئذ تتحول الكلمة من رمز بارد ، الى خلية حيّة تلتحم مع غيرها من الخلايا في نسيج عضوي . أو قل تتحول من اصطلاح جامد الى شحنة من المشاعر والافكار ، تتأثر وتؤثر .

ولم يكن الجرجاني ليذهب هذا المذهب ، وينظر للالفاظ هذه النظرة الا لانه كان بصدد اثبات الاعجاز للقرآن ، ومعرفة الاسرار التي أكسبت البيان القرآني ما بهر العرب ، وعقد ألسنتهم عن مجاراته . لقد ادرك عبدالقاهر ان الاعجاز لا يثبت للقرآن عن طريق الالفاظ التي استعملها ؛ لانها مما استعملته العرب ، وأدارته في شعرها ونثرها ، ولا يثبت عن طريق المعاني ، لان الاعتماد عليها في المفاضلة بين كلام وكلام ، يبطل ما للتأليف والنظم من

(٤٦) النقد المنهجي عند العرب : ٣٢٨ .
(٤٧) نفسه .
(٤٨) دلائل الاعجاز : ٤٤ ، ٤٥ .

الفضل والمزية ، ويفضي الى القول بأن ليس في الكلام معجز ، وهو ما قالته به اليهود . لم يبق امام عبدالقاهر ، وهو يتلمس السبل التي تقفه على سرّ الاعجاز ، غير النظم . ولهذا كان لنا ان نقول : ان نظرية « النظم » ثمرة من ثمار الاشتغال بالاعجاز والبحث عن اسراره ، والسبل التي تثبته ، وتقنع من كان في ريب من أمره ، من اصحاب اللجاجة والعناد ، وتبصر المؤمنين بحقيقته ، فيزدادون ايمانا ، وكانت فتحا في عالم النقد اللغوي .

واذا كان الجرجاني قد أكبر من شأن « النظم » فانه رأى أن « النحو » هو الذي يكفل سلامته ، ويضمن للاديب استخدام اللغة على نحو يجعله يستغل كل طاقاتها ، فتصبح الكلمات ، بعد رعاية قوانين النحو ، وقد ارتبط بعضها ببعض ، كنسيج مملوء بالدلالات والايحاءات ، التي لم تكن المفردات ، وهي خارج السياق ، لتنطق بها ، أو تفصح عنها .

يقول عبدالقاهر : « واعلم أن ليس النظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه واصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه ، غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه ، فينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك : زيد منطلق ، وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق ، وفي الشرط والجزاء الى الوجوه التي تراها في قولك : ان تخرج أخرج ، وان خرجت خرجت ، وان تخرج فانا خارج ، وأنا خارج ان خرجت ، وأنا ان خرجت خارج .... ويتصرف في التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ، في الكلام كله ، وفي الحذف والتكرار ، والاضمار والاظهار ، فيضع كلا من ذلك مكانه ، ويستعمله على الصحة ، وعلى ما ينبغي له . هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه ان كان صوابا ، وخطؤه ان كان خطأ ، الى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم ، الا وهو معنى من معاني النحو ، قد أصيب به موضعه ، ووضع

في حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة ، فازيل عن موضعه ، واستعمل في غير ما ينبغي له • فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه ، الا وانت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد ، وتلك المزية وذلك الفضل ، الى معاني النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من اصوله ، ويتصل بباب من أبوابه » (٤٩) •

فليس النحو عند عبدالقاهر ، هو العلم الذي يبحث في ضبط أواخر الكلمات ، ولا هو جملة القواعد الجافة ، ولا هو الشيء الذي لا علاقة له بالفن او البلاغة ، وانما النحو عنده العلم الذي يعين الأديب على معرفة الفروق بين التراكيب ليختار منها التركيب الذي يلائم معناه ، ويحمل عن نفسه ما يؤودها ، ويجثم عليها من افكار وأحاسيس •

لقد نظر النحاة الى النحو على أنه علم يبحث في أواخر الكلمات ، ويفسر ما يعرض لها من اختلاف في الحركات ، ولم يتجاوزوا به هذا الحد ، فجف الدرس النحوي ، وغاضت حيويته ، فأراد عبدالقادر ان يوسع وظيفة النحو ، ويمد في مجاله ، فدعا الى التنبه الى ما وراء التراكيب من أسرار ولطائف ، لم يكن النحاة ليقفوا عندها ، ويولوها شيئا من عنايتهم • فالنحاة يدرسون الجملة ، وما يعرض للكلمات فيها من تقديم وتأخير ، وحذف وذكر ، واضمار واظهار ، وتعريف وتنكير ، ووصل وفصل ، ولكنهم لا يعرضون لما يترتب على هذه التغيرات التي تطرأ على الجمل من تغييرات في الدلالة ، ولا الى ما تنبيء به فكر ، والوان نفسية لا تقع تحت حصر •

ليس النحو عند عبدالقاهر ، مجموعة القواعد التي تهدي الى الصواب والخطأ في التراكيب ، بل هو العلم الذي يكشف لنا عن معاني التراكيب ، وما معاني التراكيب الا الافكار والاحاسيس التي اعترت الاديب ، فأفصح عنها ، متخذا من نظم الكلمات ، وطريقة توزيعها في الجملة ، وسيلة الى ذلك الافصاح • وهكذا يفرّق عبدالقاهر بين النحو الذي هو قواعد جافة ،

(٤٩) دلائل الاعجاز : ٦٤ ، ٦٥ •

تفسر اختلاف الحركات على أواخر الكلمات ، وبين النحو الذي يضع يديك على ما في التراكيب من أسرار ولطائف ، لا تسلم نفسها لكل من احاط بقواعد اللغة ونحوها وصرفها ، وانما تسلم نفسها لمن تعمق التراكيب ، وفطن الى ما وراءه من معان اضافية ، لولاها لما كان هناك داع لان يقدم تركيب على تركيب ، أو يفضل نص على نص ، ولولاهما لما تفاوت الكلام في سلّم القيم ، حتى ينتهي الأمر الى الاعجاز الذي هو فوق طاقة البشر .

ان (النظم) هو الذي ينتقل باللفظة من مجرد رمز بارد لا تقدر على تحريك أو اثارة ، الى خلية مشحونة بما لا حصر له من مشاعر وصور .

فالجرجاني ، اذن ، ينهج في نقد الادب نهجا لغويا ، لا يكتفي بالنظرة العجلى الى التركيب ، او الالمامة اليسيرة به ، وانما يمعن في استقصاء ما وراءه من معان اضافية ، لم تكن لتلوح للناقد لولا مجيء التركيب على الوجه الذي جاء عليه ، وتشكله بالشكل الذي خرج فيه . ولكي نوضح نهجه هذا ، نقف عند نماذج من النماذج التي حللها على وفق هذا المنهج .

قال ابراهيم بن العباس :

فلو اذنبا دهر وأنكر صاحب	وسلّط أعداء وغاب نصير
تكون عن الاهواز داري بنجوة	ولكن مقادير جرت وأمور
واني لارجو بعد هذا محمدا	لأفضل ما يرجى أخ ووزير (٥٠)

وعلق الجرجاني على هذه الابيات ، فقال : « فانك ترى ما ترى من الرونق والطلاوة ، ومن الحسن والحلاوة ، ثم تتفقد السبب في ذلك فتجده

(٥٠) يصور الشاعر في ابياته هذه ، الاشاعات التي اخذت تتردد من احتمال عزله ، وتجريده من منصبه ، وما تبع ذلك من تنكر أصحابه له ، واهمالهم لشانه ، فافصح الشاعر عن ثورته على الدهر والصاحب والعدو ، ولوح بان له مكانا يستطيع دائما ان ياوى اليه ، ويحتمي به ، اذا حزبه امر، او نزل به مكروه. ولكن المقادير رافت به ، ولم تحقق ما اراده اعداؤه ، اذ انتصر له محمد بن عبدالملك الزيات اخر الامر فخيب آمال اعدائه ، وحقق له ما يريد .

١- تنكير الصفة الدائمة كالدهر تفيد الخصوصية
مثل الدهر . اذ هو يفيد الافراد .
٢- تنكير العارف يفيد الاطلاق مثو اعداء - نصير .

انما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو « اذ نبا » على عامله الـذي هو (تكون) ••• ولم يقل (كان) ثم انه نكّر الدهر ولم يقل (فلو اذ نبـا الدهر) ثم انه ساق هذا التنكير في جميع ما أتى به من بعد ، ثم انه قـال (وأنكر صاحب) ولم يقل (وانكرت صاحبا) • لا ترى في البيتين الاولين شيئا غير الذي عددته لك يجعله حسنا في النظم ، وكله من معاني النحو كما ترى • وهكذا السبيل ابدا في كل حسن ومزية رأيتهما قد نسبا الى النظم ، وفضل وشرف أحيل فيهما عليه » (٥١) • وقال محمد مندور في تعليق له على تحليل الجرجاني هذا : « وبالامعان في ملاحظات ناقدنا نجدها ترجع الى مفارقات في المعاني ، والوان النفس هي التي حددت اختيار الشاعر ، وضمنت له الجودة ، جودة العبارة عما في نفسه بدقة ، ثم تبصيرنا بالالوان النفسية لتلك المعاني ، فهو قد قدم الظرف على عامله ، قدم (اذ نبا) على (تكون) وذلك لانه لم يتمن ان تكون داره بنجوة على الاهواز الا عندما نبا دهر ، وفي هذا النبو ما يحز في نفس الشاعر • وكأني به قد سارع الى نقضه ، ثم هو قد اختار المضارع (تكون) على الماضي (كان) لان المضارع تحس في دلالته معنى الحالة المستمرة المنسحبة من الماضي الى الحاضر ، فالمستقبل • والشاعر ودّ عندما نبا الدهر لو تكون داره على الاهواز بنجوة ، تكـون حتى قبل نبو الدهر ، تكون وتستمر كذلك ، لان الدهر قد أثبت بنبوه تلك المرة أنه قادر على الغدر في كل حين ، ومن الخير أن نقدر ذلك الغدر في كل حين ، واذن فالمفاضلة بين الماضي والمضارع ، ليست مفاضلة بين الفاظ بل بين معان ، وعلى الاصح بين حالات نفسية باكملها • ثم ان شاعرنا قد نكـر (دهر) وهو بهذا يفرد الدهر فيجعله دهرا خاصا به ، دهرا غدارا ، لا الدهر دهر الناس كافة ، نبا دهر ابتلاه به القضاء المحتوم • واذا كان تنكير الدهر ، وهو الشيء الواحد المعرّف بوحدته ، يفيد الافراد ، فان تنكير (صاحب) أو (اعداء) و (نصير) يفيد الاطلاق ، ويشعرنا بضيق الشاعر ، فهو ينكر كل صاحب لما كان من غدر اولئك الصحاب ، وهو يرى ان كل عدو قد

---

(٥١) دلائل الاعجاز : ٦٨ ، ٦٩ •

سلّط ، وان كل نصير قد غاب ، تنكير المتعدد أفاد الاطلاق • والامر في تنكير (مقادير وأمور) يشبه تنكير (دهر) فهو يخصصهما بالشاعر ويجعلهما وقفاً عليه • واذن فنحن امام معان مختلفة والوان نفسية متباينة ، نـدرك بعضها بعقولنا ، ونحس الطفها بقلوبنا ، وهذا الاحساس هو أساس الذوق عند ناقدنا » (٥٢) •

والشواهد على منهج عبدالقاهر كثيرة ، فحيث تنقلت في كتاب دلائل الاعجاز ،تجد ناقدنا العظيم باحثا عن أسرار التراكيب ، وعما ينبيء به كل تركيب من معان ، والوان نفسية قادت اليه ، وأجبرت الاديب على اختياره • ومضمون الكلمة عنده يضيق ويتسع ، وينكمش وينبسط ، بحسب علاقتها بما حولها من الكلمات وبحسب ما يعرض لها من معاني النحو كالتعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ، والاطلاق والتقييد ، والوصل والفصل وما الى ذلـك •

لقد آمن عبدالقاهر بأن التباين في الصياغة ، ينبع من تباين في الاحساس، فأنكر أن يكون ترادف بين الجمل ، أو أن يؤدى المعنى الواحد بعبارات مختلفة ، ذلك لان اي تغيير يلحق بالجملة من شأنه ان يغير المعنى ، ويحيله عن جهته • وصياغة الجملة ـ عند عبدالقاهر ـ ليست مشابهة « للصياغة والتحبير والتفويف والنقش وكل ما يقصد به التصوير » فقد يمكن ان يتشابه ديباجان في النقش ، أو سواران في الصنعة ، غير أن ذلك لا يمكن في الكلام « لانه لا سبيل الى أن تجيء الى معنى بيت من الشعر ، أو فصل من النثر ، فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصنعته بعبارة اخرى ، حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك ، لا يخالفه في صفة ولا وجه ولا أمر من الامور ، ولا يغرنك قول الناس : قد أتى بالمعنى بعينه ، وأخذ معنى كلامه ، فاداه على وجهه ، فانه تسامح منهم ، والمراد أنه أدى الغرض ، فاما ان يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الاول ، حتى لا تعقل ههنا الا

---

(٥٢) في الميزان الجديد : ١٥٩ ، ١٦٠ •

ما عقلته هناك ، وحتى يكون حالهما في تمسك حال الصورتين المشتبهتين في عينك ، كالسوارين والشنفين ، ففي غاية الاحالة ، ولن يفضي بصاحبه الى جهالة عظيمة » [٥٣] .

وبعد أن فرق عبدالقاهر بين اللفظ المفرد ، واللفظ المستخدم ، أو بين اللفظ وهو مجرد اشارة معجمية باردة ، او اصطلاح هامد محدود الدلالة ، وبينه وهو خلية حيّة مشحونة بعناصر الفكر والشعور ، عاد لينكر الثنائية التي شاعت في النقد العربي بين اللفظ والمعنى ، فرأى أن من العبث ان نفصل بينهما ، وأن نرجع الفضل والمزية لاحدهما دون الاخر ، أو أن نقول بسبق احدهما الاخر في الوجود . وقد ابطل الدرس الحديث فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى ، وانتهى الى أن الفكرة لاتكون فكرة، الا اذا سكنت الى اللفظ ، أو عبر عنها بالكلمة ، اما قبل اخضاع الفكرة للفظ ، فلا شيء هناك [٥٤] .

وهذا يعني ان الأديب لا يقف امام المعاني وحدها ، ولا أمام الالفاظ وحدها ، يختار المعاني ثم يختار الالفاظ الملائمة لها « فالتفكير في اللفظ والمعنى تفكير جملي يفكر فيه الاديب مرة واحدة ، وبحركة عقلية واحدة ، فاذا رتبت المعاني في الذهن ترتيبا منطقيا ، انحدرت على اللسان بالفاظها الملائمة لها . وكبار الكتاب الذين ينقحون من ألفاظهم بعد كتابتها انما يغيرون من هذه الالفاظ لان معانيها قد تغيرت في نفوسهم ، اما بالتحديد ، واما بالزيادة والنقص ، فهم يستبدلون اللفظ باللفظ ، وفق ما غيروا في انفسهم من المعاني » [٥٥] .

وعلى الرغم من بساطة هذه الفكرة ، فان عبدالقاهر حشد لها الكثير من الادلة والمناقشات النظرية والتطبيقية ، لتستقر في اذهان الناس ، فقال : « ... فاذا وجب لمعنى ان يكون أولا في النفس ، وجب في اللفظ الدال عليه ان يكون مثله اولا في النطق » [٥٦] . وقال : « وانك اذا فرغت من ترتيب

---

(٥٣) دلائل الاعجاز : ٢٠١ ، ٢٠٢ .
(٥٤) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٢١٦ .
(٥٥) بلاغة آرسطو بين العرب واليونان : ٢٦٢ .
(٥٦) دلائل الاعجاز : ٤٣ .

المعاني في نفسك لم تحتج الى ان تستأنف فكرا في ترتيب الالفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ، ولاحقة بها ، وان العلم بمواقع المعاني في النفس ، علم بمواقع الالفاظ الدالة عليها في النطق »(٥٧).

وكما قضى عبدالقاهر على فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى ، استطاع وهو بصدد الدفاع عن « النظم » ان يبطل فكرة أخرى ، كانت تفضل التعبير المزخرف بالاستعارة والتشبيه ، على التعبير العاري منهما ، فأعلن ان الاستعارة والتشبيه مهما ملحا ولطفا ، لا يرجع اليهما الحسن في العبارة ، وانما يتم لهما الحسن اذا آزرهما النظم ، وأعانهما تأليف الكلام على وجه دون وجه ، يقول : « وان اردت اعجب من ذلك فيما ذكرت لك ، فانظر الى قوله :

سالت عليه شعاب الحي حين دعا   انصاره بوجوه كالدنانير

فانك ترى هذه الاستعارة ، على لطفها وغرابتها ، انما تم لها الحسن ، وانتهى الى حيث انتهى بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها . وان شككت فاعمد الى الجارين والظرف فأزل كلا منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه ، فقل : سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره ، ثم انظر كيف يكون الحال ، وكيف يذهب الحسن والحلاوة ، وكيف تعدم اريحيتك التي كانت ، وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها » (٥٨) .

فالجمال في هذا البيت لا يرتد الى الاستعارة ، وانما يرجع الى ان الشاعر قد وزّع كلماته فيه هذا التوزيع ، ونظمها هذا النظم ، الذي لولاه لم يكن للاستعارة فيه أن تبلغ ما بلغته من الحسن والجمال .

ان عبدالقاهر أدرك بحسه اللغوي النافذ ، وذوقه المرهف ، أن الشاعر قد أراد بتقديم الجار والمجرور « عليه » أن ينبهنا الى ما لهذا المدوح من مكانة عند قومه ، فان صيحة واحدة منه ، قد أسالت عليه شعاب الحي ،

---

(٥٧) دلائل الاعجاز : ٤٤ .
(٥٨) دلائل الاعجاز : ٧٨ .

بجموع من الرجال الذين أقبلوا طائعين مختارين ، يدلنا على ذلك ان وجوههم لم تكن عابسة أو مظلمة ، بل كانت لامعة ومضيئة . ولذا لم يكن لاستعارة « سالت عليه شعاب الحي » ان تنال ما نالته من القيمة والحسن لو لم يتقدمها الجار والمجرور ويتلها الظرف وفعله . وهكذا فان الشاعر لم يختر ما اختاره من وجوه التأليف لمفردات البيت ، الا لانها تؤدي عنه ما تمتليء به نفسه من المعاني والافكار ، ولو انه لم يوفق لهذا التأليف ، لما نال كلامه من الفضل والقيمة ما نال ، ولما كان تعبيره مطابقا لما أراد اليه من المعاني . ولا عبرة بعد ذلك بالاستعارة التي يهم قوم فيحسبونها مكمن الجودة في التعبير .

ولا شك في أن عبدالقاهر كان مدفوعا الى هذا الرأي ، بسبب فكرة الاعجاز أيضا ، لان بعض كتاب الاعجاز ، وجدوا ان ما في القرآن من صور البلاغة المختلفة كالتشبيه والاستعارة وغيرهما ، لا توجب له الاعجاز ، لان هذه الفنون مما يمكن ان يحذقها الناس بالتعلم والمران . قال الباقلاني : « وقد قدر مقدرون انه يمكن استفادة اعجاز القرآن من هذه الابواب التي نقلناها ، وان ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه ، وليس كذلك عندنا ، لان هذه الوجوه اذا وقع التنبيه عليها ، امكن التوصل اليها بالتدريب والتعود والتصنع لها وذلك كالشعر الذي اذا عرف الانسان طريقه صح منه التعمل له وامكنه نظمه . والوجوه التي نقول ان اعجاز القرآن يمكن ان يعلم منها ، فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل اليه بحال » (٥٩) .

وهكذا فان الدافع الديني كان جليا عند عبدالقاهر ، في كل ما كتبه ، وفي الاراء التي توصل اليها . بمعنى انه حين ندب نفسه لاثبات الاعجاز ، والوصول الى سره ، لم يجد ما يثبته ، الا « النظم » ، فكان أن خرج على الناس بهذه النظرية ، التي لمحها سابقوه ، غير أنهم لم يصلوا بها الى ما وصلت اليه عنده من النضج والكمال ، على الوجهين النظري والتطبيقي .

ومن يدرس أثر « الاعجاز » في النقد اللغوي ، لابد أن يلاحظ ان هذا اللون من النقد كان هو الاداة التي اطمأن كتاب الاعجاز الى جدواها

---

(٥٩) اعجاز القرآن : ١٠٧ .

في الكشف عن سر" الاعجاز ، والوصول الى حقيقته . ووجد بعضهم كالباقلاني وعبدالقاهر ان النقد البلاغي ، لا يستطيع أن يقدم لنا التفسير الصحيح لقضية الاعجاز ، لأن ما في القرآن من صور البلاغة المختلفة ، على غرابتها وروعتها ، لا يصح ان تكون في نظرهم سبب اعجازه ، وذلك لامكان التوصل الى نماذج تقرب منها او تساويها عن طريق المران والتعلّم . واذا بطل أن يكون النقد البلاغي هو الوسيلة الى اثبات الاعجاز ، اتجه العلماء الى النقد اللغوي ، يتخذون من بعض موضوعاته السبيل التي تكفل لهم الوصول الى حقيقة الاعجاز . فتكلموا في اللفظ وميزاته ، وتحدثوا عن النظم وأسراره ، ووصلوا في كل ذلك الى المقاييس الصائبة التي وقفنا عند قسم منها ، وأفضنا في الحديث عنه .

نخلص من ذلك الى ان « الاعجاز » دفع العلماء الى ان يبحثوا عن أسراره ويستخلصوا القوانين التي مازت لفظ القرآن وعلت بأسلوبه ، وبعد أن تم لهم ما أرادوه ، لم تبق تلك القوانين اداة ينفرد باستخدامها كتاب الاعجاز ، بل انتقلت الى ايدي النقاد ، فصاروا يقيسون بها النصوص والاساليب ، وينشدون في المنشآت الادبية ، أن تطابق تلك القوانين .

لقد اتضح الان أن « الاعجاز » كان عاملا في اثارة كثير من قضايا النقد اللغوي ، وقد جعلنا هذا الفصل خاصا بما أثارته هذه الفكرة . غير أن القضايا التي اثيرت بسبب « الاعجاز » منها ما هو أساس ، ومنها ما هو فرع أو مكمّل لغيره من القضايا . فمن القضايا الرئيسة قضية الانسجام بين مفردات التركيب ، وقضية الفروق بين المترادفات ، ثم قضية اللفظ والمعنى . وقد تفرّعت عن القضية الاخيرة مسألة « النظم » ، ثم أفضى الحديث عن « النظم » الى ثلاث قضايا فرعية هي : القول بعدم الفصل بين اللفظ والمعنى ، والقول بعدم الترادف بين الجمل ، ثم القول بان صور البلاغة لا توجب للكلام فضلا، ولا تكسبه شيئا من الحسن ، ما لم يؤازرها النظم ، ويظاهرها تأليف المفردات على وجه دون وجه . وما يجمع بين هذه القضايا ، فوق أنها من النقد اللغوي، هو أنها اثيرت لاثبات « الاعجاز » والكشف عن سرّه .

الباب الثاني

موضوعات النقد اللغوي ومقاييسه

الفصل الاول

مقاييس الخطأ والصواب

مرّ بنا ان الناقد اللغوي يخضع العمل الادبي لضربين من المقاييس : يتكفل الاول ببيان سلامة العمل المنقود من الخطأ ، ومطابقته للمألوف من قواعد اللغة ، والمعهود من نظامها . ويتولى الثاني الكشف عن مواطن الجودة والرداءة في ذلك العمل .

وفي هذا الفصل سنتعرض لمقاييس الخطأ والصواب ، وهي مقاييس علمية ، تتمتع بحظ عظيم من الثبات والاستقرار ، ولا شأن لذوق الناقد أو حسه الفني في الكثير منها ، وهي لذلك مجمع عليها ، وليس للمنشيء بد من مراعاتها .

لقد استمدت هذه المقاييس من كلام العرب الفصيح بعد جمعه واستقرائه واصبحت مرجعا ، تبصر الناس بالاستعمال اللغوي السليم ، وتقيهم الوقوع في الخطأ ، والمخالفات اللغوية .

ولم تنشأ هذه المقاييس ، ولم تدون الا في أواخر العصر الاموي ، وذلك بعد أن مست الحاجة اليها ، عندما خرج العرب من الجزيرة ، وامتزجوا بغيرهم من الامم ، وبدأ اللحن يغزو السنتهم ، ويظهر في كلامهم [١] . ومعنى ذلك أن مسألة الصواب والخطأ لم تكن واضحة في النقد اللغوي قبل هذه الحقبة ، لان الشاعر الجاهلي كان مالكا زمام لغته ، ينطقها فطرة ، وتجري على لسانه خالصة من الخطأ ، نقية من شوائب اللحن .

ومن يتتبع النقد الذي وصل الينا عن العصر الجاهلي يجد انه يخلو الى حد كبير من مسألة الصواب والخطأ ، وينصرف الى بيان الجودة والرداءة،

---

(١) ينظر ص٥٤ من هذه الرسالة .

فيما تناول من نصوص . ولما ظهر النحو والنحاة ، واستنبطت للعربية قواعد واصول ، وعثر في لغة بعض المنشئين على ما يفارق تلك القواعد والاصول ، برزت مسألة الصواب والخطأ ؛ ثم امتدت « الى ما بعد ارساء قواعد العربية واصولها بكثير » [٢] .

ولم يسلّم كثير من الشعراء بالحكم على بعض ابياتهم بالخطأ ، وخاصة اولئك الشعراء المتقدمين الذين كانوا ما يزالون قريبي عهد بالبداوة ، أو الذين ثقفوا العربية ، وتضلعوا من معرفتها . ومن هنا تشبت بين النحاة وفريق من الشعراء معركة ، تعرّض النحاة خلالها للشتم القارص ، والهجاء اللاذع . فالفرزدق لم يجد ما ينجيه من نقد ابن ابي اسحاق الحضرميّ الا الهجاء ، فمضى ينال ذلك النحوي بلاذع السباب . وعمار الكلبي امتعض من النحاة ، وضاق بمراقبتهم اياه ، فقال [٣] :

ماذا لقينا من المستعربين ومن	قياس نحوهم هذا الذي ابتدعوا
ان قلت قافية بكرا يكون بها	بيت خلاف الذي قاسوه أو ذرعوا
قالوا : لحنت ، وهذا ليس منتصبا	وذاك خفض ، وهذا ليس يرتفع
وحرّضوا بين عبدالله من حمق	وبين زيد ، فطال الضرب والوجع
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم	وبين قوم على اعرابهم طبعوا
ما كل قولي مشروحا لكم، فخذوا	ما تعرفون ، وما لم تعرفوا فدعوا
لان ارضي ارض لا تشب بها	نار المجوس ، ولا تبنى بها البيع

والخلاف الذي استعر بين ابن خالويه والمتنبي مثل آخر لما كان بين النحاة والشعراء من صراع وجفاء . فقد تحدى احدهما الاخر في مسألة لغوية ، فتطاول المتنبي على ابن خالويه ، فغضب هذا ، واخذ بمفتاح كان يخفيه في كمه ، فضرب به وجه المتنبي ، فاسال دمه [٤] .

---

(٢) الاسس الجمالية في النقد العربي : ٢٣٨ .
(٣) الخصائص : ١/٢٣٩ ، ٢٤٠ .
(٤) الصبح المنبي : ٨٧ .

ومن أسباب الخلاف ان النحاة حاولوا ان يفرضوا آراءهم وقواعدهم على الشعراء ، غير آبهين بما يمكن ان يجيء به الشاعر من استعمالات يقيسها على نظائر لها في كلام العرب ، او يبتكرها ويبتدعها ، بعد أن تدفعه اليها مضايق الشعر ، وضرورات التعبير بقوالبه وأوزانه .

لقد وجد النقاد اللغويون في لغة عدد من الشعراء تراكيب واستعمالات تندّ عن المألوف من قواعد اللغة ، ولا تساير المعهود من أساليبها ، فحكموا على بعضها بالخطأ وانقسموا ازاء بعضها على فئات ثلاث :

الفئة الاولى : وتضم النقاد الذين تأولوا بعض ما في لغة الشعر من صيغ وتراكيب ، تخالف الشائع والمألوف في اللغة ، ووصفوها بأنها من « الضرائر » التي تدفع اليها طبيعة الشعر ، وتمليها على الشاعر قواعد الوزن والقافية . ومعنى ذلك ان هؤلاء النقاد نظروا الى لغة الشعر على انها « موقف فسحة وعذر » [٥] ، يجوز فيها ما لا يجوز في النثر . وكان الخليل على رأس هذه الفئة ، فقد اثر عنه انه قال : « الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا ، وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم » [٦] . ويستشف من قول الخليل هذا انه كان يعترف بأن الشاعر لا يملك ما يملكه الناثر من حرية ، وسعة في مجال التعبير، ولذا جاز له ان يستعمل من الصيغ والتراكيب ما لو ملك حريته لكان له منصرف عنها ، ومحيد الى غيرها .

وآمن بنظرة الخليل هذه عدد من النحاة واللغويين ، فمضوا يستقرون تلك الصيغ والتراكيب ويجمعونها . والناظر في كتاب سيبويه وغيره من المطوّلات يجد الكثير منها [٧] . وقد اصبحت تلك الصيغ والتراكيب مثلا يحتذيها الشعراء ، في مختلف العصور ، اذا اضطرتهم اليها قواعد الوزن والقافية ، فلا ينكرها عليهم أحد من نقاد هذه الفئة . ولا شك في ان العلماء

---

(٥) الخصائص : ٣٢٨/١ .
(٦) زهر الاداب : ٦٣٢/٢ .
(٧) ضرائر الشعر : ٩ .

قد فاتتهم أنواع من الضرائر ، لم يقفوا عليها ، وأن ما جمعوه منها على كثرته لا يمثل في نظر بعض الباحثين كل انواع الضرائر ، ذلك لان « الضرورة بابها الشعر على قول الجمهور ومخالفيهم ، وشعر العرب لم يحط بجميعه أحد، فكيف يمكن حصر الضرائر بعدد دون آخر » (٨) . والضرورة ، عند من يجيزها ، سماعية ، لا يحق للمحدثين او المولدين ان يحدثوا شيئا منها غير ما أحدثه الاوائل (٩) .

وكان ابن جنى (٣٩٢هـ) من اللغويين الذين اقروا « الضرورة » ، متابعا في ذلك شيخه ابا علي الفارسيّ (٣٧٧ هـ) ، وقد عقد لها بابا في كتابه « الخصائص » (١٠) .

كما كان محمد بن جعفر القزاز التميمي (٤١٢ هـ) ممن اقروا « الضرورة » أيضا والف فيها كتابا سماه « ضرائر الشعر » (١١) ، جمع فيه بعض ما تفرّق من انواع الضرائر في كتب النحو واللغة ، ولكنه لم يعالج في كتابه هذا الا الضرائر المتعلقة بالنحو ، وقد فعل ذلك رغبة في الاختصار .

لقد دعا القزاز الشعراء ، في كتابه هذا ، الى الاحاطة بما أجازه الاقدمون من انواع الاستعمالات المخالفة للمألوف من قواعد النحو ، ليتسنى للشعراء الدفاع عن أنفسهم اذا وقع في كلامهم شيء من هذه الاستعمالات ، قال عن الضرائر : « وهو باب من العلم لا يسع الشاعر جهله ، ولا يستغني عن معرفته ، ليكون له حجة لما يقع في شعره مما يضطر اليه ، من استقامة قافية أو وزن بيت أو اصلاح اعراب » (١٢) . كما دعا النقاد كذلك الى العلم بالضرائر ، لئلا يحكموا بالخطأ على صيغ واستعمالات ، كان اللغويون قد

---

(٨) الضرائر (الالوسي) : ٢٤ .
(٩) نفسه : ٩ .
(١٠) الخصائص : ٣٢٣/١ .
(١١) طبع هذا الكتاب بعنوان (كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة) ثم بعنوان (ضرائر الشعر او كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة) .
(١٢) ضرائر الشعر : ٢٩ .

أقروها في الشعر ، واجازوا للشعراء ان يصيروا اليها ، اذا حزبهم الوزن ، او اضطرتهم القافية ، فقال : « ان كثيرا ممن يطلب الادب ، وأخذ نفسه بدراسة الكتب ، اذا مرّ به بيت لشاعر من اهل عصره ، أو لطالب من نظرائه، فيه تقديم او تأخير ، أو زيادة او نقصان ، او تغيير حركة عما حفظ من الاصول المؤلفة له في الكتب ، أخذ في التشنيع عليه ، والطعن على علمه ، والاجماع على تخطئته ، ولو نظر بعين الحق لعلم انّ ذلك لا يخرج الا من وجهين : اما ان يكون ذلك جائزا لعلل تغيبت عنه ، ولم يبلغ النهاية من علمها وهو كذلك ، ووهمه الذي لعله ان نبه عليه ، أو أعاد نظره فيه ، رجع عنه الى الصواب ، وتخطاه الى ما لا مطعن فيه من الكلام ، اذ كان غير معصوم من الخطأ ، ولا ممنوع من الزلل ، فليس للناظر في الاصول مع تأخره عن الاحاطة بسائر الفروع الهجوم على ما لعله جائز عند المتقدمين ، في العلم ، الناظرين بعين الحق » [١٣] .

وكتاب القزاز مملوء بالدفاع عن الشعراء ، والتماس التخريجات والتأويلات لما أخذ عليهم من اخطاء . ومن الامثلة على ذلك دفاعه عن قول ابي نواس :

كمن الشنآن فيه لنا ككمون النار في حجره

فقد قالوا فيه : « والنار مؤنثة فكان الواجب ان يقول : ككمون النار في حجرها » [١٤] . فقال القزاز : « وهذا ظاهره على ما قالوا ، ولكن العرب تتسع فتذكر المؤنث لمعنى تخرجه له يؤول به الى التذكير ، كما قال امرؤ القيس :

برهرهة رخصة رودة كخرعوبة البانة المنفطر

فذكر الخرعوبة والبانة لانه يريد الغصن او نحوه من المذكر . وكما قال الاخر :

---

(١٣) ضرائر الشعر : ٢٩ .
(١٤) نفسه : ٣١ .

لو كان مدحة حي منشرا احدا   احيى اباكن ياليلى الاماديـح

فقال : منشرا وهو للمدحة ، فذكر ، لانه يريد المدح او غيره مما هو في معناه من المذكر . وكثير مثل هذا يذكر في مواضعه . هذا على أن بعض النحويين يقول : كل ما لا روح له يجوز تذكيره وتأنيثه ، فهذا وان لم يكن بشيء ؛ فقد ذكرنا ما يعضده من شعر العرب ، ونذكر فيما يستقبل أكثر من هذا . على أن بيت ابي نواس له وجه لا ضرورة فيه وهو ان الكمون مذكر مضاف الى النار فترد الهاء عليه ، فكأنه قال : ككمون النار في حجر الكمون أي في الحجر الذي تكمن فيه النار » [15] . وهكذا يستنفد القزاز الوجوه التي يمكن ان يحمل عليها قول ابي نواس ، ويذهب في الدفاع عنه كل مذهب، وقد فعل مثل هذا في كل ما عرض من المآخذ النحوية التي اخذها النقاد على الشعراء

ويبدو لنا ان القزاز لم يكن على حق في دفاعه عن بعض الاستعمالات التي حكم عليها بالخطأ جلة العلماء قبله . من ذلك انه حمل على الضرورة قول رؤبة في وصف الرامي :

لا يلتوى من عاطس ولا نَغَق

وانما الصواب ـ كما قال ابن قتيبة ـ « النَّغِيق » أو « النُّغَاق » ، يقال لصوت الغراب [16] . ولكن القزاز المولع بالدفاع عن الشعراء ، عزّ عليه ان يخطىء رؤبة كما خطأه ابن قتيبة ،فمضى يتأول كلمة « نغق » ، ويجد لها تخريجا ، فجاء تخريجه والتكلف باد عليه . قال « يقول ـ أي رؤبة ـ لا يتطير من عاطس ، ولا من صوت غراب ، والمصدر (النغيق) أو (النغاق) ولكن جاء به على هذا « النَّغْق» وحرّك الساكن اضطرارا . وذلك ان اصل الافعال الثلاثية ان يأتي مصدرها على (الفَعْل) فيما كان

---

(١٥) ضرائر الشعر : ٣١ ، ٣٢ .

(١٦) الشعر والشعراء : ٢/٥٩٨ .

متعديا نحو : ضربه ضربا ، فاذا لم يكن متعديا فأصله (فُعُول) كقولك : (قعد قعودا) وربما جاء (الفَعْل) فيما كان غير متعد ، و (الفعول) فيما كان متعديا ، فأما ما جاء به في المتعدى فقوله (شكره شكورا) واما ما جاء من الفعل في غير المتعدي فقولهم (عجز الرجل عجزا) ، فجاء الشاعر بالفعل الذي ذكرناه على هذا » [١٧] . والحقيقة واضحة ولا تحتاج الى كل هذا الدفاع والتأويل ، وهي ان رؤبة اخطأ ، اذ ترك المصدرين المسموعين للفعل (نغق) ، وجاء بمصدر لهذا الفعل لم تتكلم به العرب ، ولا شك في أن القافية قد ساقته الى هذا الخطأ ، واما التخريج الذي جاء به القزاز فلم يجر لرؤبة ببال .

وخطأ ابن قتيبة ابا نواس في قوله :

واذا نزعت عن الغواية فليكن　　　لله ذاك النـــزع لا للنـاس

لان الصواب ان يقول (النزوع) لانه يقال (نزعت عن الامر نزوعا) و (نزعت الشيء من مكانه نزعا) و (نازعت الى اهلي نزاعا) [١٨] . واما القزاز فلم ير بأسا في عدول ابي نواس عن المصدر المسموع للفعل (نزع عن) الى مصدر الفعل (نزع الثوب) ، لان ابا نواس ــ كما يرى القزاز ــ شبه (نزع عن الشيء) بـ (نزع الثوب) وكأن ابا نواس جعل الفعل الاخير هو الاصل [١٩] . وهكذا فان القزاز قد اسرف في حسن ظنه بالشعراء ، وحاول في كثير من الاحيان ان يلتمس لهم العذر فيما لا عذر لهم فيه .

ولم يكتف حمزة بن حسن الاصفهاني (ت ٤٦٠ هـ) باقرار الضرورة ، ولم يجعل فائدتها مقصورة على تخليص الشاعر من كسر وزن ، أو اخلال بقافية ، بل عدها وسيلة من وسائل نماء اللغة ، وعاملا من عوامل اغنائها

---

(١٧) كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة (القزاز) : ١٣٩ : وينظر : ضرائر الشعر : ١٨٢ .

(١٨) الشعر والشعراء : ٨١٢/٢ .

(١٩) كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة (القزاز) : ١٤٠ .

وامدادها بالجديد . فالشعراء قد يتكرون ـ تحت تأثير قوالب الشعر وقواعد التعبير به ـ صيغا ومفردات ، فيكون من الخير للناقد الاعتراف بها ، ومن الخير للغة ان تضمها الى ما فيها من صيغ ومفردات . وقد دخلت العربية ـ في رأي الاصفهاني ـ بسبب الضرورة ، مفردات كثيرة ، فلم ينكرها النقاد القدامى ، وانما قبلوها ، فغني بها متن اللغة ، وزادت مادتها . وكان الاصفهاني قد صرّح برأيه هذا ، حين ذهب الى ان العلماء وجدوا العربية على الضد من لغات الامم : « لما يتولد فيها مرة بعد أخرى ، وان المولد لها قرائح الشعراء ، الذين هم امراء الكلام ، بالضرورات التي هي تمر بهم في المضايق التي يدفعون اليها ، عند حصر المعاني الكثيرة في بيوت ضيقة المساحة، والاحراج الذي يلحتهم عند اقامة القوافي التي لا محيد لهم عن تنسيق الحروف المتشابهة في اواخرها ، فلابد من ان يدفعهم استيفاء حقوق الصنعة الى عسف اللغة بفنون الحيلة ، فمرة يعسفونها بازالة امثلة الاسماء والافعال عما جاءت عليه في الجبلة ، لما يدخلون من الحذف عنها او الزيادة عليها ، ومرة بتوليد الالفاظ على حسب ما تسمو اليه هممهم عند قرض الاشعار »[21] .

وأورد الاصفهاني بعد ذلك عددا من الالفاظ التي ولدها الشعراء القدامى ، بعد ان لم تكن في اللغة ، وما كانوا ليولدوها وهم في حال السعة والاختيار ، ولكنهم فعلوا ذلك حين اضطرتهم مضايق الشعر . قال الاصفهاني : « فاما ما خرج الى الوجود بالتوليد فكثير أيضا يدل عليه قليل ما نحكي منه ، فمن ذلك قول النابغة :

الا الأواريّ لأيـًا ما ابيّنُها والنؤْيُ كالحوض بالمظلومة الجلَدِ

فزعم الرواة والعلماء بالشعر أنه أول من سمى الارض مظلومة وهي التي حفر فيها ولم تكن قبل ذلك محفورة »[21]. ومن ذلك الفاظ (الشُكْم) و (الشُكْد) و (الشُكْب) التي صارت لغات في (الشكر) بعد أن

---

(٢٠) التنبيه على حدوث التصحيف : ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٢١) نفسه : ١٥٨ ، ١٥٩ .

استعمل طرفة الاولى والثانية في قصيدتين من قصائده ، قافية الاولى (ميم) وقافية الثانية (دال) . واستعمل مزرّد الثالثة في قصيدة له قافيتها (بـاء) [٢٢] .

وحازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) ممن أقروا الضرورة أيضا فدعا الى تسويغ ما عند الشعراء ،ولا سيا الذين سماهم بالمجلين ، من اقوال تند عن الشائع او المألوف في اللغة ، وأورد ابياتا لعدد من الشعراء هم عبدالرحمن القس ، وزياد الاعجم ، وابن دراج وابو نواس ، ثم ذكر النقد الموجه اليها ، واتبع ذلك برأيه الخاص فقال : « وكلما أمكن حمل بعض كلام هذه الحلبة المجلّية من الشعراء على وجه من الصحة كان ذلك أولى من حمله على الاحالة والاختلال ، لانهم من ثبت ثقوب اذهانهم ، وذكاء افكارهم ، واستبحارهم في علوم اللسان ، وبلوغهم من المعرفة به الغاية القصوى » [٢٣] . ثم استأنس برأي الخليل في هذا الشأن ، فقال « وقد قال الخليل بن أحمد : الشعراء امراء الكلام يصرّفونه انى شاءوا ، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من اطلاق المعنى وتقييده ، ومن تصريف اللفظ وتعقيده ومد المقصور وقصر الممدود ، والجمع بين لغاته ، والتفريق بين صفاته ، واستخراج ما كلّت الالسن عن وصفه ونعته ، والاذهان عن فهمه وايضاحه ، فيقربون البعيد ، ويبعدون القريب ، ويحتج بهم ولا يحتج عليهم ، ويصورون الباطل في صورة الحق ، والحق في صورة الباطل » [٢٤] . لقد ارتضى حازم مذهب الخليل هـذا ، ودعا النقاد الى الكف عن تخطئة الشعراء ، وخاصة المجلين منهم ، لان لهم من العلم باللغة ، ما يحمل على قبول ما يصدر عنهم من أقوال تبدو مخالفة للمألوف من اساليب العرب ، والتماس التأويل والتخريج لها ، فقال : « فلاجل ما أشار اليه الخليل رحمه الله من بعد غايات الشعراء وامتداد آمادهم في معرفة الكلام ، واتساع مجالهم في جميع ذلك ، يحتاج ان يحتال فيتخريج

(٢٢) التنبيه على حدوث التصحيف : ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٢٣) منهاج البلغاء : ١٤٣ .
(٢٤) نفسه : ١٤٣ ، ١٤٤ .

كلامهم على وجوه من الصحة ، فأنهم قل ما يخفى عليهم ما يظهر لغيرهم ، فليسوا يقولون شيئا الا وله وجه ، فلذلك يجب تأول كلامهم على الصحة ، والتوقف عن تخطئتهم فيما ليس يلوح له وجه » (٢٥) . وقد رأينا ان مبدأ التأويل الذي يدعو اليه حازم ، قد طبقه القزاز من قبل ، فقاده الى التمحل ، وتسويغ اخطاء صريحة .

الفئة الثانية : وتضم النقاد الذين تشددوا في محاسبة الشعراء ، وأبوا ان يسمحوا لهم بأن يخلوا بشيء من الشائع أو المألوف من قواعد اللغة ، وذهبوا الى ان اقامة الوزن والقافية لا تسوّغ لهم ان يفارقوا الصواب ، او يتنكبوا الطريق السوي والمألوف في التعبير .

ومن هؤلاء النقاد ابن طباطبا (ت ٣٢١ هـ) الذي طلب من الشاعر الا يضع في نفسه أن الشعر موضع اضطرار ، والا يتخذ من ابيات معيبة رويت عن بعض القدامى ، حجة تسوّغ له الخطأ ، قال : « فليس يقتدى بالمسيء وانما الاقتداء بالمحسن » (٢٦) .

ولقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) رأي في هذه المسألة لا يخرج عن رأي ابن طباطبا ، فقد حمل قدامة على من احسنوا الظن بالشعراء ، واجهدوا انفسهم في الدفاع عن اخطائهم ، والتماس التخريجات لها ، ودعا النقاد الى أن يحاسبوا الشعراء على ما يقولونه فعلا ، لا ان يتأولوا أقوالهم ، فيضيفوا اليها ، أو يحذفوا منها ما يصحح تلك الاقوال ، ويجعلها متفقة مع القواعد ، ومسايرة للاصول ، بحجة ان الشاعر كان قد أراد كذا ، وقصد الى كذا ، الا ان ضرورات الوزن والقافية كانت قد ثنته عن قصده ، وصرفت كلامه عن جهته التي تجب له . يقول قدامه : « وليس اذا علمنا ان شاعرا اراد لفظة تقيم شعره ، فجعل مكانها لفظة تحيله وتفسده ، وجب ان يحسب له

(٢٥) منهاج البلغاء : ١٤٤ .
(٢٦) عيار الشعر : ١٠ .

ما يتوهم أنه اراده ، ويترك ما قد صرّح به ، ولو كانت الامور كلها تجري على هذا لم يكن خطأ » [٢٧] .

وابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) كان شديد الوطأة على من يخطيء من الشعراء ، او يرتكب شيئا مما يسمى (الضرائر) . وقد ألف رسالة صغيرة جعل عنوانها (ذم الخطأ في الشعر) قال فيها : « ان ناسا من قدماء الشعراء ومن بعدهم اصابوا في أكثر ما نظموه من شعرهم ، وأخطأوا في اليسير من ذلك ، فجعل ناس من أهل العربية ، يوجهون لخطأ الشعراء وجوهـا ، وينتحلون لذلك تأويلات ، حتى صنعوا فيما ذكرناه أبوابا ، وصنفوا في ضرورات الشعر كتبا » [٢٨] . وسخر ابن فارس من قاعدة (يجوز للشاعر ما لا يجوز للناثر)، ولم يرتض ان يقع الشعراء في الخطأ اتكالا منهم على تلك القاعدة ، فقال متسائلا ومتهكما : « ومن اضطره ـ يعني الشاعر ـ ان يقول شعرا لا يستقيم الا باعمال الخطأ ؟ ونحن لم نر ولم نسمع بشاعر اضطره سلطان او ذو سطوة بسوط أو سيف الى ان يقول في شعره ما لا يجوز وما لا تجيزونه انتم في كلام غيره . فان قالوا ان الشاعر يعن له معنى فلا يمكنه ابرازه الا بمثل اللفظ القبيح المعيب ، قيل لهم : هذا اعتذار اقبح وأعيب ، وما الذي يمنع الشاعر اذا بنى خمسين بيتا على الصواب ، أن يتجنب ذلك البيت المعيب ولا يكون في تجنبه ذلك ما يوقع ذنبا ، أو يزرى بمروءة »[٢٩] وقال في (الصاحبي) : « ولا معنى لقول من يقول : ان للشاعر عند الضرورة ان يأتي في شعره بما لا يجوز » [٣٠] .

وهكذا فان هذه الفئة من النقاد تنكر « الضرورة » ، وترى فيها ضربا من الخطأ ، وتدعو الشاعر الى ان يتحرى الوجه المقبول فيأخذ به ،

---

(٢٧) نقد الشعر : ٢٠٦ .
(٢٨) ذم الخطا في الشعر (مطبوع في ذيل الكشف عن مساويء شعر المتنبي): ٢٩ .
(٢٩) نفسه : ٣٠ ، ٣١ .
(٣٠) الصاحبي : ٢٧٥ .

وينأى عن الصيغ التي يعتذر منها ، او التي لا تقبل الا على وجه من التأويل والتخريج .

الفئة الثالثة : وتضم النقاد الذين قبلوا ما حمل على « الضرورة » من أقوال القدماء ، ولم يجيزوا المحدثين أن يجاروا تلك الاقوال ، ويتصرفوا في اللغة على نحو ما تصرف فيها اسلافهم . وقد علل هذا الفريق من النقاد قبولهم ما بني على « الضرورة » من كلام الشعراء القدامى ، بان اولئك الشعراء كانوا يقولـون اكثر شعرهم ارتجالا « لا يتأنون فيه ، ولا يتلومون (٣١) على حوكه وعمله » (٣٢) ، وبأنهم لم يرزقوا النقاد الذين يبصرونهم بالعيب ، او يرشدونهم الى القبيح من الاستعمال ، ليتجنبوه ، وينأوا عنه فيما ينظمون . ونستطيع أن نجعل ابا هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) مثالا هذه الفئة من النقاد ، لانه قال : « وينبغي ان تجتنب ارتكاب الضرورات، وان جاءت فيها رخصة من أهل العربية ، فانها قبيحة تشين الكلام ، وتذهب بمائه . وانما استعملها القدماء في اشعارهم لعدم علمهم بقباحتها ، ولان بعضهم كان صاحب بدائه ، والبدائه مزلة ، وما كانت أيضا تنقد عليهم أشعارهم، ولو قد نقدت وبهرج منها المعيب ، كما تنقد على شعراء هذه الازمنة ، ويبهرج من كلامهم ما فيه ادنى عيب لتجنبوها » (٣٣) .

وكان ابن جني قد عقد في الخصائص بابا جعل عنوانه (باب في هل يجوز لنا في الشعر من الضرورة ما جاز للعرب اولا) ردّ فيه على هذه الفئة من النقاد ، وذهب الى ان ما أجازته الضرورة للقدامى اجازته للمحدثين أيضا (٣٤) . ولم يقتنع ابن جني بما ذهب اليه نقاد هذه الفئة من ان الداعي الى قبول (الضرورة) من القدماء دون المحدثين هو ان القدماء كانوا يرتجلون شعرهم ، ولا يعرضون له بتنقيح او تهذيب ، وان المحدثين على العكس من

---

(٣١) التلوم : الانتظار والتلبث .
(٣٢) الخصائص : ١/٣٢٤ .
(٣٣) الصناعتين : ١٥٠ .
(٣٤) الخصائص : ١/٣٢٣ .

ذلك ، يتأنون في قول الشعر ، ويحكمون صنعته . قال ابن جني في دفع هذه الحجة : « ليس جميع الشعر القديم مرتجلا ، بل قد كان يعرض لهم فيه من الصبر عليه ، والملاطفة له ، والتلوّم على رياضته ، واحكام صنعته نحو مما يعرض لكثير من المولدين . الا ترى الى ما يروى عن زهير : من انه عمل سبع قصائد في سبع سنين ، فكانت تسمى حوليات زهير ، لانه كان يحول القصيدة في سنة » [٣٥] . ثم قال « ان من المحدثين أيضا من يسرع العمل ولا يعتاقه بطء ، ولا يستوقف فكره ، ولا يتعتع خاطره » [٣٦] . ومعنى ذلك ان الشعر القديم كالشعر الحديث من هذا الوجه ، ففي كل منهما المهذب المنقح الذي ابطأ قائلوه في عمله ، وفيه المرتجل الذي لم يصبر عليه قائلوه ، ولم يعملوا فيه يد الاصلاح والتغيير . واذا كان الامر كذلك فلا وجه لان تقبل الضرورة من القدامى ، وترفض من المحدثين . ثم ادلى ابن جني بدليل آخر استند اليه في اجازة (الضرورة) للمحدثين هو « كثرة ما ورد في اشعار المحدثين من الضرورات ، كقصر الممدود ، وصرف ما لا ينصرف ، وتذكير المؤنث ونحوه . وقد حضر ذلك وشاهده جلّة اصحابنا من ابي عمرو الى آخر وقت ، والشعراء من بشار الى فلان وفلان ، ولم نر أحدا من هؤلاء العلماء أنكر على أحد من المولدين ما ورد في شعره من هذه الضرورات التي ذكرناها وما كان نحوها ، فدل ذلك على رضاهم به ، وترك تناكرهم اياه » [٣٧] .

ولابن رشيق رأي في هذا الشأن ، قال : « على أنه لا خير في الضرورة ، على أن بعضها اسهل من بعض ، ومنها ما يسمع عن العرب ولا يعمل به ، لانهم اتوا به على جبلتهم ، والمولد المحدث قد عرف انه عيب ، ودخوله في العيب يلزمه اياه » [٣٨] . ومؤدى هذا ان مركب الشعر وعر ، وان وفاء الشاعر بقواعد هذا الفن قد يؤدي به الى ان يجور على اللغة ، أو يخرج عن

---

(٣٥) الخصائص : ٢٢٤/١ .
(٣٦) نفسه : ٢٢٧/١ .
(٣٧) نفسه : ٢٢٧/١ ، ٢٢٨ .
(٣٨) العمدة : ٢٦٩/٢ .

المألوف من قواعدها ، ولا شك في أن التعبير الذي يحدث فيه هذا الجور ليس التعبير المنشود ، وان غيره مما يفي بمتطلبات اللغة خير منه . اذ المفروض في الشاعر ان يغزر حظه من اللغة ، وان تكون اللغة طيّعة في يديه ، فلا يستشعر - وهو يعبر بها - بضيق او حصر ، أو اضطرار الى مفارقة شائع ، أو اخلال بمألوف . والشاعر - من غير شك - اذا أحسن العلم بلغة واسعة كالعربية ، فانها ستعينه على صعاب الشعر ، وتسعفه بكل ما يريد . ثم المفروض في الشاعر ان يجعل نصب عينيه سلامة اللغة ، وصحة التركيب ، فلا يحمله على التضحية بهما معنى يعتاص عليه ، او خاطر يجتذبه ، اذ لا خير في معنى يخرج في اطار تنكره اللغة ، ويأباه المعروف من قواعد استعمالها . ولكن ليس معنى هذا أن نقيد الشاعر ، ونسلبه حقا تمتع به اسلافه ، فاقرهم عليه كبار علماء العربية ، وانما المعقول ان يضع الشاعر في نفسه - وكما قال ابن رشيق - ان لا خير في الضرورة ، فان احتاج اليها فلينظر اليها - كما نظر بعض النقاد - على أنها نوعان : الاول : حسن ، يقبله الذوق « ولا تستوحش منه النفس كصرف ما لا ينصرف ، وقصر الجمع الممدود ، كحذف الياء في (فعاليل) ونحوه ، واسهل الضرورات تسكين (عين) فعلة في الجمع بالالف والتاء ، حيث يجب الاتباع كقوله :

فتستريح النفس من زفْراتها »[39] . . واتيان الشاعر بشيء من ضرورات هذا القسم - عند الحاجة اليه - مستساغ ومقبول ، والثاني : قبيح يمجه الذوق ، ولا يسلح به التعبير « كالاسماء المعدولة عن وضعها الاصلي بتغيير ما من زيادة او نقص ، كقوله :

أصابهم الحما وهم عواف

أراد : الحمام . وقوله :

وشتا بين قتلي والصلاح

---

(٣٩) الضرائر (الالوسي) : ٢٠ ، ٢١ .

أراد : شتّان » [40] ، وذكر حازم القرطاجني ان من اشد ما تستوحش منه النفس تنوين أفعل من [41] • فنوع « الضرورة » عند استعمالها لا هي ، يجب أن يكون موضع نظر الناقد •

واما الرأي الذي برز عند القزاز ، ثم زاد وضوحا عند حازم ، والذي يذهب الى ان القدماء لا يخطئون ، وأن لهم من العلم باللغة ما يحمل على قبول ما يصدر عنهم من اقوال تخالف النظام اللغوي المألوف ، والتماس تاويل وتخريج لها ، فهو رأي قديم ، كان يدين به بعض النحاة الاوائل ، وقد اوقعهم هذا الرأي في التكلف والتمحل ، وقادهم الى الدفاع عن اخطاء صريحة ، وان ما جاءوا به من تأويلات لتلك الاخطاء لم يحظ بالقبول • وسنعود لنقف عند هذا الرأي في فصل قابل لنفيه حقه من البحث •

واللغويون الذين اجازوا الضرورة لم يحملوا عليها كل استعمالات الشعراء التي ندت من المألوف من قواعد اللغة ، بل ان هناك استعمالات لم تجر على سنن العربية ، فلم يحملها احد على الضرورة ، وانما وصمت بالخطأ ، أو مجانبة الفصيح من كلام العرب •

وقبل ان نعرض لبيان الاخطاء التي لم يجعلها احد في (الضرائر) ، لابد لنا من وقفة عند ابن الاثير ، وكان له رأي في (الخطأ) الذي هو ليس من (الضرورة) •

ذهب ابن الاثير الى ان المطلوب في لغة الادب هو الحسن لا الصواب وان المرجع بشأنها هو الذوق ، لا قواعد النحاة وقياساتهم ، ثم تطرف في رأيه فزعم : « ان الجهل بالنحو لا يقدح في فصاحة ولا بلاغة ، ولكنه يقدح في الجاهل به نفسه • لانه رسوم قوم تواضعوا عليه ، وهم الناطقون باللغة ، فوجب اتباعهم ، والدليل على ذلك ان الشاعر لم ينظم شعره ، وغرضه منه رفع الفاعل ونصب المفعول ، أو ما جرى مجراهما ، وانما غرضه ايراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن ، المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة ، ولهذا لم

---

(٤٠) الضرائر : ٢١ •

(٤١) نفسه •

يكن اللحن قادحا في حسن الكلام »[42] . لانه اذا قيل : جاء زيد راكب و « لم يكن حسنا الا بأن يقال : جاء راكبا بالنصب ، لكان النحو شرطا في حسن الكلام ، وليس كذلك » [43] .

فالشاعر في نظر ابن الاثير لا يهدف من نظمه الى ان يرفع الفاعل ، أو ينصب المفعول ، وانما هو يريد التعبير عن معنى عرض له ، فسواء التزم في هذا التعبير قواعد النحو ، أو أخل بها ، فان المعنى واحد في الحالين . وساق ابن الاثير المثل التالي أيضا ، ليثبت ان الاخلال بالاعراب لا يؤدي الى الاخلال بالمعنى المراد التعبير عنه ، قال : « لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له (قوم) باثبات الواو ، ولم تجزم ، لما اختل من فهم ذلك شيء ، وكذلك الشرط ... والفضلات كلها تجري هذا المجرى » [44] . وقد جرّ رأي ابن الاثير هذا نقد الصفدي له ، وتشنيعه عليه قال الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) : « ما يوزرد مثل هذا الاعوام الناس ، ومن لم يتلبس بالمعرفة ، ولم يرح رائحة العلم ، الم يعلم انه اذا صدر عن مترسل كتاب لم يجزم أفعال أمره ، ولا شروطه وجوابها ، ولم يرفع فاعله وينصب فضلاته ، ولا راعى شيئا من قواعد اعرابه ... كان ذلك ضحكة للمغفلين فضلا عن العقلاء ، وحينئذ فقد استوى العلماء والجهال » [45] . وقال الصفدي في موضع آخر : « ما بقي بعد هذا الا ان يقول : ان مراعاة الاعراب علة موجبة لقبح الكلام . أتراه ما سمع بقولهم : النحو في الكلام كالملح في الطعام » [46] .

وقد خالف ابن الاثير اللغويين في مسائل كثيرة ، كانوا يستصوبونها لانها موافقة لقواعدهم وقياساتهم ، وكان يأباها ، لان الذوق ينكرها ، وينبو عنها . فالخلاف بين ابن الاثير واللغويين ناشيء من ان ابن الاثير كان يرجع

---

(٤٢) المثل السائر : ١/١٨ ، ١٩ .
(٤٣) نفسه : ١٩/١ .
(٤٤) نفسه : ١٠/١ .
(٤٥) نصرة الثائر على المثل السائر : ٣٨ ، ٣٩ .
(٤٦) نفسه : ٤٢ .

الى الذوق بشأن أمور اللغة ؛ اما اللغويون فكانوا لا يعتدون بالذوق ، وانما يرجعون الى قواعدهم ، فما وافقها حكموا له بالصحة ، وان جافى الذوق وجانبه . يقول ابن الاثير : « واما جمع المصادر فانه لا يجيء حسنا ، والافراد فيه هو الحسن ، ومما جاء في المصادر مجموعا قول عنترة :

فان يَبرأ فلم أنفث عليه وان يُفقد فَحُقَّ له الفقودُ

قوله الفقود جمع مصدر من قولنا فقدَ يَفْقِد فَقْدا ، واستعمال مثل هذه اللفظة غير سائغ ولا لذيذ ، وان كان جائزا ، ونحن في استعمال ما نستعمله من الالفاظ ، واقفون مع الحسن ، لا مع الجواز . وهذا كله يرجع الى حاكم الذوق السليم ، فان صاحب هذه الصناعة ، يصرّف الالفاظ بضروب التصريف ، فما عذب في فمه منها استعمله ، وما لفظه فمه تركه »[47] .

ويبدو ان ابن الاثير قد اسرف في آرائه ، لان التقيد باصول اللغة ، أمر لا مفر للاديب منه ، ولا يصح ان يستسيغ الذوق المستنير أمرا تنكره اللغة ، وتاباه قواعد الاستعمال . ولا أحد يقول بان كل ما يجيزه النحاة واللغويون من ضروب التعبير هو جميل وسائغ . وقد فطن عبدالقاهر الجرجاني الى هذه الحقيقة ، فأشار الى أن الصواب اللغوي وحده لا يكفي لكي يكون التعبير جميلا ، فرب تركيب صائب من وجهة نظر النحاة ، الا انه قبيح في نظر الفنان او الناقد، والاديب الذي «لا يتفقد من أمر النظم الا الصحة المطلقة والا اعرابا ظاهرا ، فما أقل ما يجدي الكلام معه »[48] . فالتراكيب اللغوية الصحيحة كثيرة ، ولكنها ليست سواء في الحسن ، واذا تذكرنا ان الفن اختيار ، فما على الاديب ، اذن ، الا ان يختار من الوجوه الجائزة أحقها بالاختيار ، وأنهضها باداء ما يعتريه من مشاعر ، كما عليه أن يعلم أيضا

(٤٧) المثل السائر : ١/٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٤٨) دلائل الاعجاز : ٢٢٥ .

ان الغاية من اللغة في الأدب ليس الايصال والافهام ، بقدر ما هي احداث تأثير واستجابة .

فنحن نخالف ابن الاثير في التهوين من شأن النحو ، وغيره من قواعد اللغة ففي ذلك دعوة الى الفوضى اللغوية ، وتتفق معه في ان ليس كل جائز في اللغة حسنا ، ومقبولا في الفن ، ولكننا لا نرى معه ان على الاديب ان « يصرف الالفاظ بضروب التصريف ، فما عذب في فمه استعمله ، وما لفظه فمه تركه » الا ان يحتاط في عبارته هذه فيقول : فما عذب في فمه من الوجوه الجائزة استعمله ، وما لفظه فمه من تلك الوجوه تركه ذلك لان الاديب ملزم بمطابقة اصول اللغة ، ومنهجها العام في تأليف المفردات او التراكيب .

ويبدو ان السبكي (ت ٧٧٣ هـ) قد تابع ابن الاثير في التهوين من شأن النحو ، ورأى ان الاخلال باعراب الكلمة لا يقدح في فصاحتها ، لان الحركة على آخرها حركة زائدة ، وليس من أصل وضعها ، قال السبكي : « ان الضرائر المتعلقة بحركة اعراب الكلمة ينبغي الا ينظر اليها المتكلم في فصاحة الكلمة ، لان الحركة زائدة على وضع الكلمة عند التركيب » (٤٩) . ومعنى قوله ان بامكان الناقد ان يغض عينيه عن الخطأ في الضبط النحوي ، لان الاخلال بالاعراب ليس اخلالا بالفصاحة التي مردها الى البنية لا الى حركة الاخر . وكان ابن سنان (ت ٤٦٦ هـ) قد رأى قبل ذلك ان اقامة الاعراب شرط من شروط فصاحة الكلمة « لان اعراب اللفظة تبع لتأليفها من الكلام » (٥٠) . وردّ على من يمنع ان يكون اعرا بالكلام شرطا في فصاحته ، فقال « هل يجوز عندك ان يكون عربيا ان استعمل كل اسم منه لغير ما وضعته له العرب ؟ فان قال : نعم ، لزمه ان يكون متكلما باللغة العربية اذا سمي الفرس انسانا والسواد بياضا ، والموجود معدوما وغير ذلك من الكلام ، وهذا حد لا يذهب اليه محصل وان قال : لا يكون عربيا حتى يضع كل اسم

(٤٩) عروس الافراح : ٨٩/١ .
(٥٠) سر الفصاحة : ٩٧ .

في موضعه ويلفظ به على حد ما يلفظ به أهله ، قلنا فقد دخل في هذا اعراب الكلام ، لان معانيه تتعلق به ، وهو الدليل على المقصود منها ، وبه يزول اللبس والجواز فيها ، واذا ثبت انه لا يكون عربيا حتى يجري على ما نطقت العرب به ، وجب ان يشترط في فصاحته ، تبعهم فيما تكلموا به ، ولا تجيز العدول عنه » [٥١] .

ولا شك في أن رأي ابن سنان هذا أسدّ من رأى ابن الاثير والسبكي، لان في تهوينهما من شأن النحو ، ما يمكن ان يؤدي الى الوقوع في العامية . والنظر الى الكلمة من زواياها جميعاً، وتحت كل الاضواء هو مبتغى الناقد ، ولا يجوز له ان يتهاون في أي أصل من أصول اللغة .

وقد حفلت كتب اللغة والنقد بأخطاء الشعراء اللغوية والنحوية ، وما دار حولها من خلاف . ولا بد ان نعرض لقسم منها :

التذكير والتانيث :

كان الاصمعي لا يرتضي (زوجة) مؤنث (زوج) ويرمي من يستعملها باللحن ، لأنها غير فصيحة ، وكان يقول : « ما أقل ما تقول العرب الفصحاء : فلانة زوجة فلان ، انما يقولون : زوج فلان »[٥٢] . وروي ان الاصمعي أقرّ (زوجة) في قول الشاعر [٥٣] :

فبكى بناتي شجوهنّ وزوجتي

وكان يعقوب يقر الصيغتين [٥٤] ، ولم ينكرها ابن منظور ، بل رمى الاصمعي بالتشدد ، وقال عنه : « واحتج بقول الله عز وجل (اسكن أنت وزوجك الجنة) فقيل له : نعم ، كذلك قال الله تعالى ، فهل قال عز وجل : لا يقال : زوجة ؟ وكانت من الاصمعي في هذا شدة وعسر » [٥٥] .

---

(٥١) سر الفصاحة : ٩٩ .
(٥٢) الموشح : ٢٣٨ ، ٢٨٤ ، وتنظر ص١١١ من هذه الرسالة .
(٥٣) المزهر : ١/٢١٤ .
(٥٤) نفسه .
(٥٥) اللسان : (زوج) .

الادوات والظروف :

وقد أخطأ بعض الشعراء في استعمال بعض الادوات والظروف ، فلم يستعملوها على الوجه المقرر لها في اللغة ، من ذلك ان الاصمعي أنكر على لبيد استعماله « أنّى » للمجازاة في قوله :

فأصبحت أنّى تأتها تبتئس بها ... كلا مركبيها تحت رجليك شاجر

وذهب الى أنه لم يسمع أحدا يجازي بـ « أنّى » ، ثم خرّج قول الشاعر على أنه ربما اراد « أيّا تأتها ، يريد اي جانبي هذه الناقة اتيته ، وجدت مركبه تحت رجلك شاجرا ، أي ينحيك ، ويدفعك ، لا يطمئن تحت رجلك » (٥٦) .

واخذ الاصمعي على عدي بن الرقاع استعماله « بينا » في قوله :

اتعرف الدار أم لا تعرف الطللا ... أجل فهيجت الأحزان والوجلا

وقد أراني بها في عيشة عجب ... والدهر بينا له حال اذ انتقلا

فقال الاصمعي : « ليس من كلام العرب ان يقولوا : بينا كذا اذ كان كذا ، انما هو : بينا كذا كان كذا » (٥٧) .

ومما اخطأ فيه الشعراء استعمال كلمة « بين » على غير المعروف او المشهور من استعمالها . فقد خطأ الاصمعي قول امرىء القيس « بين الدخول فحومل » فقد رواه : بين الدخول وحومل ، وقال : لا يقال : رأيتك بين زيد فعمرو ، انما يقال وعمرو ، ويقال : رأيت زيدا فعمرا اذا رأى كل واحد منهما بعد صاحبه (٥٨) .

ولم يعدم امرؤ القيس مدافعا ، فقد ذكر الحريري « ان الدخول اسم واقع على عدة امكنة ، فلهذا اجاز ان يعقب بالفاء كما يقال : المال بين

---

(٥٦) خزانة الادب : ١٩١/٢ .
(٥٧) الطرائف الادبية : ٨١ . وينظر : درة الغواص : ٢٨ .
(٥٨) الاغاني : ٧١/٩ .

الاخوة نزيد ، ومثله قوله تعالى « يزجي سحابا ثم يؤلف بينه » وانما ذكر السحاب وهو جمع لانه من قبيل الجمع الذي بينه وبين واحده الهاء » (٥٩) ، وذكر البطليوسي تسويغا آخر لاستعمال امرىء القيس فذهب الى انه يجوز ان تكون الفاء بمعنى الى فيكون المعنى أن سقط اللوى بين الدخول الى حومل كما يقال هي أحسن الناس قرنا فقدما ، يريدون ما بين قرن الى قدم (٦٠) .

واخطأ ابو تمام في استعمال « بين » فقال :

ومشهد بين حكم الذل منقطع صاليه ، أو بحبال الموت متصل

فقال الآمدي : « فقوله : بين حكم الذل ، لو كان حكم الذل اشياء متفرقة لصلحت فيها (بين) غير أن حكم الذل والذل بمنزلة واحدة ، وكذلك حكم العز والعز ، فكما لا يقال : بين العز فكذلك لا يقال بين حكم العز ، حتى يقال هذا ، لان (بين) انما هي وسط بين شيئين . فان قال : ان حكم الذل مشتمل على مشهد الحرب ومن يصلى بها ، فكأنه ذهب بقوله (بين) الى معنى (وسط) أي ومشهد وسط حكم الذل . قيل : (وسط) لا يحل محل (بين) و (بين) لا يحل محل (وسط) لانك تقول : البئر وسط الدار ، ولا تقول : البئر بين الدار » (٦١) .

وقد يزيد الشاعر بعض الادوات ، فيضطرب المعنى بسبب ذلك ، وتلتوي العبارة . من ذلك ان المتنبي زاد « لا » في قوله :

لا يأتلي في ترك أن لا يأتلي

فقال النقاد : « افسد المعنى ، لان « لا يأتلي » : لا يقصر ، فكأنه قال : لا يقصر في ترك الا ّ يقصر ، فوصفه بالتقصير ، وبيان ذلك أنه لم يأتل ، فقد جدّ في ترك الجد ، وهو نهاية التقصير » (٦٢) . غير ان المدافعين عن

(٥٩) درة الغواص : ٣٦ .
(٦٠) النقد عند اللغويين : ١٨٥ وينظر مصدره .
(٦١) الموازنة : ١/٢٢٦ ، ٢٢٧ .
(٦٢) الوساطة : ٤٧٤ ، ٤٧٥ .

المتنبي لم يروا في زيادة « لا » هنا خطأ يؤخذ على الشاعر ، وان المعنى لم يصب بغموض او التواء بسببه فقال قائلهم : « لا ارى (لا) الا زائدة ، فتقدير الكلام : لا يأتلي في ترك أن يأتلي ، فكأنه لا يقصر في ترك التقصير ، وهذا هو الجد . وزيادة (لا) غير مستنكر ، وقد جاء في القرآن والشعر ، قال الله تعالى (لئلا يعلم) فمعناه يعلم ... وقال العجاج في زيادة (لا) .

في بئر لا حور سرى وما شعر

أي في بئر حور » (٦٣) .

تغيير بنية الكلمة :

ومن بين أخطاء الشعراء تغييرهم بنية الكلمة ، وذلك بأن يزيدوا فيها أو يحذفوا منها . وقد اجاز النقاد ضروبا معينة من التغيير للالفاظ ، وحظروا على الشعراء ما سوى تلك الضروب . ومما لم يجزه النقاد من تغيير صيغة الكلمة قول ابي نواس :

فما ضرّها الا تكون لجرول ولا المزني كعب ولا لزياد

قال المبرد : « لحن في تخفيفه ياء النسب في قوله (المزني) في حشو الشعر وانما يجوز هذا ونحوه في القوافي » (٦٤) .

وقول ابي تمام :

شامت بروقك آمالي بمصر ولو أضحت على الطوس لم تستبعد الطوسا

« فأدخل في (طوس) الالف واللام وهي اسم بلدة معروفة » (٦٥). فاخذ النقاد ذلك عليه ، وعدّوه من اخطائه .

وكان المتنبي قد شدد نون (لدن) في قوله :

فأرحام شعر يتّصلن لدنّه وأرحام مال ما تنى تتقطّع

(٦٣) الوساطة : ٤٧٥ .
(٦٤) الموشح : ٤١٤ .
(٦٥) الموازنة : ٢٩/١ ، ٣٠ .

فثار بسبب ذلك جدل طويل ، ونشب خلاف حاد بين النقاد ، فمنهم من أنحى على المتنبي ، ورماه بالخطأ ، ومنهم من سوّغ استعماله ، وراح يلتمس له ما يؤيده من شواهد ونصوص . ولما بلغ المتنبي أن النقاد عابوا عليه استعماله هذا ، غير قوله ، وجعل (ببابه) مكان (لدنه) . ومع ذلك فقد أسهم في الدفاع عن استعماله ، واحتج له بكلام طويل اورده الجرجاني في الوساطة خلاصته ان للشاعر ان يحذف من اللفظة او يزيد فيها ، ليستقيم له الوزن ، ويسلم بناء البيت ، وان نقاد الكلام ، وأهل البصر به ، أجازوا ذلك ، ولم يستنكروه ، ثم روى ابياتا تؤيد قوله ، منها قول قطرى :

غداة طفت علماء بكر بن وائلٍ وعجنا صدور الخيل نحو تميم

وقول لبيد :

درس المنَا بمتالع فأبان

يريد (المنازل) وقول شبيب بن ثعلبة ، وقد زاد فيه النون :

ولَشَبهُ الحشْرقوص بالقفنْ

يريد (القنا) . وخلص بعد ذلك الى ان التشديد في (لدن) أحسن من هذا كله « لأن النون ساكنة مع (هاء) والنون تتبين عند حروف الحلق لتباعدها منها ، فزاد في تبيينها فاجتلب التشديد » (٦٦) . وقال : « ان النون لما كانت خفيفة ، وكانت ساكنة ، ومن حقها ان تتبين عند حروف الحلق ، حسن تشديدها لتظهر ظهورا شافيا فهذه علة قريبة ، قد يحتمل للشاعر تغيير الكلام لأجلها » (٦٧) . وقد أيد المتنبي بعض النقاد فقالوا « وقد احتمل للشعراء لاجل الشعر ما هو أبلغ من تغيير الالفاظ وازالة الكلام عن موضعه ، قال الفرزدق :

وما فارقتُها شِبعا ولكن رأيت الدهر يأخذ ما يُعار

---

(٦٦) الوساطة : ٤٥١ .
(٦٧) نفسه : ٤٥٥ .

اراد : يعير ، فغيّر البناء ، كما تراه » (٦٨) .

ولم يكن كلام المتنبي ، وكلام أنصاره ، مقنعا النقاد الاخرين ، بل رده هؤلاء وأبوا التسليم به ، فقالوا : لو « جاز للشاعر ان يقول ما شاء ، وان يتناول ما اراد عن قرب ، فيثقل كل مخفف ، ويخفف كل مثقل ، ويحذف ويزيد ، ويغير الجموع ، ويتحكم في التصريف ... لانقلبت اللغة ، وانتقضت الحقائق » (٦٩) . وذكروا ان للشاعر رخصا معلومة ، ووجوها من الضرورة حصرها العلماء ، وليس له ان يتعداها ، ويأتي من الاستعمالات ما لم يكن معدودا في تلك الرخص (٧٠) .

ومع ان العلة التي استند اليها المتنبي في تشديد نون (لدن) ، ووافق عليها بعض النقاد ، هي علة مقبولة من الناحية العقلية ، فاننا لا نسلم بصحة قول المتنبي (لدنّه) : « وما دام العرب لم ينطقوا بها مشدّدة النون ، لدى اتصالها بضمير الغائب ، فليس من حق المتنبي ان يقـــول ما لم يقولوه » (٧١) . واذا سلّمنا بان للشاعر ان يأتي في الضرورة بما لا يجوز في السعة ، فان عليه ان يتقيد بما اجيز له من انواع الضرورات ، وليس منها تشديد نون (لدن) عند اتصالها بضمير الغائب .

المثنى :

ومن اخطاء الشعراء ما كان متعلقا بالتثنية ، وقواعد استعمال المثنى ، فابو نواس ثنّى كلمة « عين أباغ » في قوله :

فما نَجِدت بالماء حتى رأيتهـا   مع الشمس في عيني أباغ تغور

---

(٦٨) الوساطة : ٤٥٦ .

(٦٩) نفسه : ٤٥٣ .

(٧٠) نفسه : ٤٥٤ وما بعدها .

(٧١) المتنبي بين ناقديه : ٥٨ .

« وعين اباغ موحّدة لا مثناة » [٧٢] ولكن ابا نواس قال « حرصت على أن يقع لي في الشعر عين اباغ ، فامتنعت علي فقلت : عيني أباغ » [٧٣] •

وعيب المتنبي في قوله :

مشى بعد ما التفّ الرماحان ساعة كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا

ذلك لانهم « انكروا تثنية الرماح ، وهو جمع رمح » [٧٤] • وقد دافع المتنبي عن استعماله هذا ، واحتج له ببيت لابي النجم :

تنقلت من أول التنقل بين رماحي مالك ونهشل [٧٥]

وأقر صاحب الوساطة استعمال المتنبي ، وأيد ما احتج به ، وقال : « وأكثر ما على ابي الطيب ان يتبع ابا النجم واضرابه من شعراء العرب ، فهم القدوة وبهم الائتمام ، وفيهم الاسوة » [٧٦] •

الجمع :

ومن اخطاء الشعراء جمعهم بعض المفردات جمعا لم تتكلم به العرب ، فأخذ النقاد ذلك عليهم ، وأرشدوهم الى وجه الصواب فيه ، وقد جاء رؤبه في شعره بجمعين خارجين عن كل قياس ، فقال [٧٧] :

مثل الدّمى تصويرهن أطواس

اراد بـ (أطواس) جمع (طاووس) • وقال [٧٨] :

لمن رمى رهن برمي أصواب

أراد بـ (أصواب) جمع (صواب) •

(٧٢ ، ٧٣) الوشح : ٤٢٢ .

(٧٤) الوساطة : ٤٤٩ .

(٧٥) نفسه .

(٧٦) نفسه : ٤٥٠ .

(٧٧) التنبيه على حدوث التصحيف : ١٦٨ .

(٧٨) نفسه .

وحكى ابو نصر عن الاصمعي انه قال : « كنا نظن الطرماح شـيئا حتى قال :

وأكـــره أن يعيب عليّ قومي   هجائي الارذلين ذوي الحنات

لانها احنة واحن ، ولا يقال : حنات » (٧٩) .

وقال بشار :

تلاعب نينان البحـــور وربـــا   رأيت نفوس القوم من جريهـا تجري

« فبلغ سيبويه قوله (نينان البحور) فانكر ذلك ،وزعم ان العرب لا تجمع (النون) ـ وهو الحوت ـ على (نينان) . فبلغ ذلك بشارا ، فقال : ويحه أما يقول : حوت وحيتان ، وغول وغيلان ، فكذلك نون ونينان . وتوعد سـيبويه ولدغه ، فكفّ سـيبويه عن تتبع شعره ، واحتج بشيء منه ، تقربا اليه ، واستكفافا لشره »(٨٠) . وواضح ان بشارا قاس (نون) على (حوت) وهـا بمعنى واحد ، وعلى زنة واحدة ، فقال : (نينان) في جمع (نون) كما قالوا (حيتان) في جمع (حوت) ، وهو على هذا ليس بمخطىء في نظر من يبيح القياس ، الا ان سيبويه ـ كما صوّره الخبر السـابق ـ ممن وقف عند المسـموع ، وأبى ان تقيس ما لم يقله العـــرب على ما قالوه . وسـنعرض لهاتين النظرتين في الباب الثالث من هذا البحث .

جمع المذكر السالم :

جاء في خزانة الادب : « قال ابن الشجري في أماليه ، قال : ومنهم من جعل النون في جمع سنة حرف الاعراب والزمها الياء واثبت النون في الاضافة ورفعها وخفضها ونونها تشبيهاً لها بنون (غسلين) فقالوا : اقمت عنده سنينا وعجبت من سنين زيد واعجبتني سنينك ... وهذا مخالف لشيع

---

(٧٩) الموازنة : ٤٣/١ .

(٨٠) الموازنة : ٣٠٩/٢ ، ٣١٠ .

ابن جني في سر الصناعة فانه خصه بالضرورة ، وجوزه في الجمع الحقيقي ، وتبعه ابن عصفور في كتاب الضرائر قال : ومن العرب من يجعل الاعـراب في النون في جمع المذكر السالم وذلك كله لا يحفظ الا في الشعر نحو قول الفرزدق :

ما سد حيّ ولا ميت مسدّهما الا الخلائف من بعد النبيين

... ومثله قول الزمخشري في المفصل : وقد يجعل اعراب ما يجمع بالواو والنون في النون ، وأكثر ما يجيء ذلك في الشعر ويلزم الياء اذ ذلك ، قالوا : اتت عليه سنين ، وقال الشاعر :

دعاني من نجد فان سنينه لعبن بنا شيبا وشيبننا مردا

وقال سحيم :

وماذا تدري الشعراء مني وقد جاوزت حد الاربعين

قال شارحه ابن يعيش : اعلم ان من العرب من يجعل اعراب هذا الجمع في النون بشرط ان يلحقه نقص كسنين والشيخ قد أطلق هنا والحق ما ذكرته » (٨١) .

ويفهم مما سبق ان هناك رأيين في جمع المذكر السالم : الاول يجيز ان يجعل اعرابه في النون على ان يلزم الياء ولا يكون ذلك الا في الشعر وعند الضرورة ، وجعله ابن الشجري جائزا في السعة أيضا . والثاني : يجيز ذلك ، عند الضرورة ، في الفاظ معينة من هذا الجمع هي التي اصطلح على تسميتها بـ « الملحق بجمع المذكر السالم » مثل (سنون وبنون) . وعلى هذا فقد أخطأ ابو نواس حين قال :

تراث أناسٍ عن اناس تخرّموا توارثها بعد البنين بنونُ

---

(٨١) خزانة الادب : ٣/٤١٢ ، ٤١٣ . وينظر : المفصل : ١٨٩ .

« لانه ـ على حد قول المبرد ـ جمع في الكلمة اعرابين : اعرابا بالحرف واعرابا بالحركة ، وهو غير مسموع في كلام العرب » [٨٢] .

الاشتقاق :

وقد يشتق الشعراء صيغا لم يتكلم بها العرب ، ولم تك مما أثر عنهم ، فيخطئهم بعض النقاد . من ذلك ان بشارا اشتق صيغتين هما (الوَجَلى) وجاءت في قوله :

والان اقصر عن سمية باطلي   وأشار بالوَجَلى عليّ مشير

و (الغَزَلى) ووردت في قوله :

على الغَزَلى مني السلام فربما   لهوت بها في ظل مخضرة زهر

فسمع الاخفش بذلك ، فعاب بشارا ، وطعن عليه قائلا : « لم يسمع من الوجل والغزل « فَعلى » وانما قاسهما بشار ، وليس هذا مما يقاس ، انما يعمل فيه بالسماع » [٨٣] . ونقل صاحب الوساطة رد اللغويين لقول المتنبي :

فدى من على الغبراء أولهم أنا   لهذا الأبي الماجد الجائد القرم

فقد قالوا « لم يحك عن العرب الجائد ، وانما المحكي عنهم رجل جواد وفرس جواد » [٨٤] . وكان قول المتنبي :

العارض الهتن بن العارض الهتن   بن العارض الهتن بن العارض الهتن

قد أثار اعتراض ابن القطاع فقال « غلط المتنبي في هذا البيت وكرر غلطه اربع مرات ، وقد أجمع العلماء ان اسم الفاعل من هتن هاتن . ولا جاء

(٨٢) خزانة الادب : ٤١٨/٢ . وينظر الشعر والشعراء : ٨١٩/٢ .
(٨٣) الموشح : ٢٨٥ .
(٨٤) الوساطة : ٤٧٠ .

عن أحد من العلماء الهتن ، ولم يذكره احد من جميع الرواة حتى نبهت عليه » [٨٥] .

فعل وافعل :

وقد يكون الفعل على وزن (افعل) فيستعمله الشاعر على وزن (أفعل) وقد يكون على (افعل) فيورده الشاعر مجردا ، فيكون ذلك مما يؤاخذ عليه ، ويجلب له النقد ، ويبدو ان الخلط بين صيغتي (فعل) و (أفعل) قد كثر عند الادباء ، حتى اضطر اللغويون الى التنبيه عليه ، وتأليف الكتب لحصر هاتين الصيغتين ، ككتاب (فعلت وأفعلت) للاصمعي ، و (فعلت وأفعلت) لابي عبيدة ، و (فعلت وافعلت) للسجستاني وغيرها [٨٦] .

والخلط بين هاتين الصيغتين قديم ، فقد وقع فيه زهير : حيث قال :

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطينا بها حتى اذا أنبت البقل

فرده الاصمعي قائلا « هو خطأ الا ان يقول : أنبته الله ، وانما يقال : نبت البقل » [٨٧] . وقال الأعشى :

نبي يرى ما لا ترون وقوله أغار لعمري في البلاد وأنجدا

فقال الاصمعي : « ولا يقال : أغار » وانما هي « غار يغور اذا أتى الغور فهو غائر » [٨٨] . وقبل الفراء قول الاعشى وزعم أن « غار وأغار » لغتان بمعنى واحد [٨٩] .

وكان ابو نواس مخطئا في نظر الاصمعي لانه قال :

اهج نزارا وأفر جلدتها

---

(٨٥) شرح العكبري : ٢١٧/٤ . وسنناقش هذا القياس في موضعه من الباب الثالث من هذه الرسالة : تنظر ص٢٢٩ وما بعدها .

(٨٦) رواية اللغة : ١٢٧ .

(٨٧) شرح ما يقع فيه التصحيف : ٢٦٦ .

(٨٨ ، ٨٩) اصلاح المنطق : ٢٤٠ .

ذلك لأن (فريت) تقال في الفساد ، و (أفريت) تقال اذا كان القطع للاصلاح [٩٠] . وأما غير الاصمعي من اللغويين فقد اختلفوا في هاتين الصيغتين : فمنهم من قال : انهما تقالان في الخير والشر جميعا ، ومنهم من رأى ضد ما رآه الاصمعي ، بمعنى أن (أفرى) تقال اذا كان القطع للشر و (فرى) تقال اذا كان القطع للاصلاح [٩١] .

ووقع البحتري في الخلط بين (فعل) و (أفعل) حيث قال :

شرطي الانصاف ان قيل اشترط وصديقي من اذا صافى قسط

« وكان يجب ان يقول (أقسط) أي عدل و (قسط) بغير ألف انما معناه (جار) قال الله تبارك وتعالى (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) ، وقال (ان الله يحب المقسطين) » [٩٢] .

استعمال الكلمات :

وقد أخطأ بعض الشعراء في الفاظ وضعوها في غير مواضعها واستعملوها لغير المعنى الذي اريد لها ، اما النقاد فقد تشددوا في معاني الالفاظ ، وتمسكوا بالمسموع ، ولم يرتضوا ان تستعمل الكلمة في معنى غير الذي استعملها فيه العرب الذين يوثق بأقوالهم .

ويبدو ان الشعراء القدامى أنفسهم ، لم ينجوا من الوقوع في هذا الخطأ ، فالنابغة الذبياني استعمل (الغدو) بمعنى (الرواح) ، قال في صفة الثور :

تَحيدُ عن أسْتَنٍ سُودٍ أسافِلُه مشي الاماء الغوادي تحمل الحُزَمَا

فقال الاصمعي : « وانما توصف الاماء في مثل هذا الموضع بالرواح لا بالغدو لانهن يجئن بالحطب اذا رحن ، ومثله قول الاخنس التغلبي :

---

(٩٠) الموشح : ٤١٨ .
(٩١) اصلاح المنطق : ٢٤٤ .
(٩٢) الموازنة : ١/٢٥٦ ، ٢٥٧ .

يظل بها رُبْد النعام كأنها اماء تَزَجّى بالعشي حواطب »[93]

وقد حاول بعضهم ان يخرج قول النابغة ، ويجد له مسوغا فقال « انما أراد ان الاماء تغدو لحمل الحزم رواحا » [94] .

وكان عدى مخطئا في نظر الاصمعي لانه استعمل (فاره) صفة للفرس ، و « لا يقال للفرس : فاره ، انما يقال له : جواد وعتيق ، ويقال للكودن والبغل والحمار : فاره » [95] .

وقد عيب ذو الرمة بقوله :

حتى اذا دوّمت في الارض راجعه كبر ولو شاء نجى نفسه الهرب

« فقيل : انما يقال دوّى في الارض ، ودوّم في السماء » [96] . وكان الاصمعي هو الذي خطأ ذا الرمة في هذا الاستعمال [97] ، على حين أن بعض اللغويين قبله ، ولم ير به بأسا . قال ابن سيده : « وقول ذي الرمة :

حتى اذا دوّمت في الارض راجعه

هو استكراه . قال الفارسي : قال ابو عبيد ذلك لانه يجعل التدويم في السماء ، وهذا للحيوان الطائر ، ودوّى في الارض ، وهذا للحيوان الماشي ، على مذهبه ، وانما يصف ذو الرمة هنا كلابا وثور وحش . والصحيح بعكس قول ابي عبيد انما التدوية في السماء والتدويم في الارض ، فقول ذي الرمة ليس بستكره » [98] . وجاء في اللسان : « وقال علي بن حمزة : لو كان التدويم لا يكون الا في السماء لم يجز أن يقال : به دوام كما يقال به دوار وما قالوا دومة الجندل وهي مجتمعة مستديرة » [99] .

---

(٩٣) الشعر والشعراء : ١/١٦٨ ، ١٦٩ .
(٩٤) نفسه : ١/١٦٩ .
(٩٥) نفسه : ١/٢٣٠ .
(٩٦) الخصائص : ٢/٢٩٦ .
(٩٧) اللسان : (دوم) .
(٩٨) المخصص : ٨/١٣٧ .
(٩٩) اللسان : (دوم) .

وأخذوا على ابي تمام قوله :

ومها من مها الخـــدور وآجا ‌ ‌ ‌ ‌ ل ظبـــاء يسرعن في الآجـــان

فقالوا : « وهذا مما غلط فيه ابو تمام لان الاجال جمع اجل وهو القطيع من البقر : يقال : سرب من قطا وسرب من نساء وسرب من ظباء »[١٠٠] .

ولم يرض الامدي عن ابي تمام لانه استعمل « الالتدام » وهـــو ان تضرب النساء صدورهن في النياحة ، بمعنى « اللطم » وهو ضرب الخدود . قال ابو تمام :

لها من لوعة البـــين التــدام ‌ ‌ ‌ ‌ يعيد بنفسجا ورد الخـدود

فقال الامدي : « والتدام النساء في النياحة انما هو ضرب الصدور . واللطم هو ضرب الخدود . هذا المستعمل المعروف في كلامهم . فاللطم هو الذي يعيد بنفسجا ورد الخدود لا الالتدام ، لان الالتدام ان تأخذ امرأة جلدا أو نعلا فتدق بها صدرها ... فجعل ابو تمام لطم الوجه لدما »[١٠١]. ثم عاد الامدي فقال : « ولعل ذلك يسوغ ، فان اللدم هو دق الشيء على الشيء »[١٠٢] .

واخطأ المتنبي في استعمال كلمة (الشائل) فتعقبه ابن جني ورد عليه . قال المتنبي :

فلقّين كـــل ردينيـــة ‌ ‌ ‌ ‌ ومصبوحة لبن الشائل[١٠٣]

ويبدو ان الامر اختلط على الشاعر ، فاستعمل (الشائل) : « وهي الناقة التي تشول بذنبها للقاح ، ولا لبن لها اصـلا ، والجمع شُوَّل مثل

---

(١٠٠) الموشح : ٥٠٥ .
(١٠١) الموازنة : ٣٠/٢ .
(١٠٢) نفسه .
(١٠٣) يصف المتنبي جيوش العدو بانها قابلت كل رمح قوي وكل فرس كريم يسقى صباحا لبن النوق لفرط اعتزاز اهله به .

راكع وركع » (١٠٤) مكان (الشائلة) وهي الناقة التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها والجمع شـوّل على غير قياس » (١٠٥) . وقد اعترض ابن جني عليه قائلا له : « الشائل لا لبن لها . وانما التي لها بقية من لبن يقال لها الشائلة بالهاء » (١٠٦) . فقال له المتنبي : « اردت الهاء وحذفتها » (١٠٧) . واذا كان المتنبي قد صدق ، فان حذفه (الهاء) أخل بمراده ، ونقل الكلمة من معنى الى معنى لم يقصده ، ولا يقتضيه المقام .

المصادر :

وكان من بين اخطاء الشعراء ايرادهم الفعل مشفوعا بمصدر فعل آخر، فيؤدي ذلك الى تغيير المعنى الذي قصدوا اليه . ومن الامثلة على هذا الخطأ قول محمد بن يسير :

ولو قنعت أتاني الرزق في دعة　　ان القنوع الغنى لا كثرة المال

قال المبرد : « اخطأ محمد بن يسير لان القنوع انما هو السؤال ، والقانع السائل . قال الله تبارك وتعالى (فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر) فالمعتر الذي لا يتعرض ولا يسأل . يقال : قنَع يقنَع قنوعا اذا سأل فهو قانع لا غير . واذا رضي قيل : قنِع وقانع جميعا » (١٠٨) .

واستعمل المتنبي ايضا (القنوع) بمعنى (القناعة) فقال :

ليس التعلل بالامال من أربي　　ولا القنوع بضنك العيش من شيمي (١٠٩)

والقنوع ـ كما تقدم ـ هو السؤال والتذلل . ولكن من معانيها ايضا الرضا بالقسم ، نقل بن منظور عن ابن السكيت انه قال : « ومن العرب من يجيز القنوع بمعنى القناعة » (١١٠) وذكر الفيروزأبادي ان من امثالهم

(١٠٤ ، ١٠٥) القاموس المحيط (شالت) .
(١٠٦ ، ١٠٧) العكبرى : ٢٦/٢ .
(١٠٨) الموشح : ٤٥٧ .
(١٠٩) الوساطة : ٤٦٢ .
(١١٠) اللسان : (قنع) .

« خير الغنى القنوع وشر الفقر الخضوع » [١١١] ومعنى المثل : خير الغنى (الرضا) وليس من قصدهم ان خير الغنى السؤال والتذلل . ونحن نفهم من هذا ان استعمال (القنوع) بمعنى « الرضا » قليل ، ولكن قلة استعمالها بهذا المعنى لا تجعلنا نخطيء من يستعملها على هذا الوجه .

الندبة والاستغاثة :

وخطأ الاصمعي عبدالله بن قيس الرقيات في قوله :

تبكيكم أسماء معولة ‏ ‏ ‏ وتقول ليلى وارزيئتيه

لأنه « كان ينبغي أن يقول وارزيئتاه كما تقول : وا عماه وا أخياه »[١١٢].
وكان المتنبي مخطئا في نظر بعض النقاد لأنه قال :

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم

« فالحق الهاء في (قلباه) ... وانما تلحق في الوقف لخفاء الالف فتبين بها ، فاذا وصلت حذفت » [١١٣] . غير أن بعضهم دافع عن المتنبي قائلا : « هذا هو الاكثر عند العرب والاختيار عند النحويين ، غير أنه ليس على الشاعر عيب في اتباع اللفظة النادرة ، اذا رواها الثقات ، ومتى وجدت الرواية عن ثقة لم يحظر على الشاعر قبولها ، والعمل بها ، لاجل اختلاف النحويين . وقد اجاز الفراء وغيره الحاق هذه الهاء في الوصل ، وروى فيه :

يارب يا ربّاه اياك أسل ‏ ‏ ‏ عفوا أيا ربّاه من قبل الأجل

وانشدوا

يا مرحباه بحمار ناجية

ففي هذه الابيات عذر واضح للمتنبي » [١١٤] .

---

(١١١) القاموس المحيط (القنوع) .
(١١٢) الموشح : ٢٩٥ .
(١١٣) الوساطة : ٤٦٣ .
(١١٤) نفسه : ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

الاعــراب :

وقد أخطأ بعض الشعراء في الاعراب ، فوقف النقاد عند خطئهم ، ونبهوهم عليه . وهذا اللون من الخطأ قديم ، وقع فيه الشعراء في حقب شتى ، الا ان النحاة ، كما مرّ بنا [115] ، كبر عليهم أن يرموا المتقدمين من الشعراء بالخطأ ، فراحوا يلتمسون لهم المعاذير ، ويتأولون أقوالهم بما يجعلها متفقة مع النحو ، ومسايرة لقواعده وأصوله .

ومع تسليمنا بأن كثيرا مما عدّ خطأ من ناحية الاعراب ، كان له وجه من هذه اللغة أو تلك ، فان الخطأ في الاعراب أمر قد عرض للشعراء ، والمتأخرين منهم بوجه خاص ، وقد قدمنا في فصل (التطور اللغوي) [116] ما يمكن ان يكون تعليلا له . واذا تجاوزنا ما أثر عن المتقدمين كامرىء القيس والنابغة والفرزدق وزياد الاعجم من اخطاء ، فاننا نجد عند شعراء العصر العباسي على امتداده اخطاء نحوية كثيرة ، يكفي في الدلالة عليها التمثيل بهذه الامثلة :

وصم أبو نواس بالخطأ اذ قال :

يا خير من كان ومن يكــون   الا النبي الطاهــر الميمــون

فقالوا « ان حق الكلام النصب : الا النبي الطاهر الميمونا » [117] .

وقال البحتري :

أبا غالب بالجود تذكر واجبي   اذا ما غني الباخلين تَـيهِ

فأسكن الياء نزولا على ما تقتضيه القافية ، وهي هاء مكسورة ، فعد ذلك لحنا ، الا ان ابن رشيق ، قال : « ولست أرى به بأسا ، هذا الشاعر أسكن الياء لما يقتضيه بناء القافية ، فاذا اسكن الياء وما قبلها مكسور ، لم

---

(115) تنظر ص155 من هذه الرسالة .
(116) تنظر ص 68 من هذه الرسالة .
(117) الموشح : 470 .

تكن الهاء الا مكسورة اتباعا لما قبلها ، لا سيما وهي طرف ، وقد فعلوا مثل هذا في وسط الكلمة ، وقال رؤبة :

كأن أيديهِن بالقاع القَرِق[118]

ولم يقل : أيديهن بالضم استثقالا ، وايضا فكأنه - أعني البحتري - نوى الوقوف ثم جرّ القافية كعادتهم في تحريك الساكن ابدا الى الجرّ »[119] .

ولا يخلو كلام ابن رشيق هنا من نزعة الى الدفاع عن اخطاء الشعراء ومخالفاتهم ، ومحاولة تسويغها ، والتماس ما يؤيد صدور أمثالها عن الشعراء القدامى .

التعريف والتنكير :

وخطىء ابو نواس لقوله :

كأنّ كبرى وصغرى من فواقعها   حصباء درّ على أرض من الذهب

وذلك لان (كبرى) و (صغرى) : « من قبيل ما لم تنكره العرب بحال ، ولا نطقت به الا معرّفا حيث وقع في الكلام ، والصواب ان يقال فيهما : هذه الكبرى ، وتلك الصغرى ، أو هذه كبرى اللآلىء ، وتلك صغرى الجوارى ... وطولى القصائد ، وقصرى الاراجيز » [120] . وبمعنى أن مؤنث (أفعل) لا تعرى من (لام التعريف) أو الاضافة ، ولم يشذ من ذلك الا (دنيا) و (أخرى) : « فانهما لكثرة مجالهما في الكلام ، ومدارهما فيه ، استعملتا نكرتين » [121] . وعلى هذا فان ابا نواس خالف المألوف من استعمال هذه الصيغة ، فأوردهما نكرتين ، فعد ذلك لحنا منه . الا ان ابا نواس ، لم يعدم من دافع عنه ، وتأول خطأه هذا ، فقد قالوا « جعل (من)

---

(١١٨) القرق : الاملس .
(١١٩) العمدة : ٢/٢٤٩ .
(١٢٠) درة الغواص : ٢٦ .
(١٢١) نفسه .

في البيت زائدة على ما اجازه ابو الحسن الاخفش من زيادتها في الكلام الواجب »[١٢٢] . وعلى هذا التأويل تكون الكلمتان معرّفتين بالاضافة ، وهو الاستعمال الصحيح لهما .

التعدي واللزوم :

وخطىء المتنبي لقوله :

فاجرك الاله على عليل   بعثت الى المسيح به طبيبا

وذلك « لان العرب تقول في ما يتصرف بنفسه : بعثته ، وارسلته ، كما قال تعالى : (ثم ارسلنا رسلنا) وتقول فيما يحمل : بعثت به وارسلت به ، كما قال سبحانه اخبارا عن بلقيس : (واني مرسلة اليهم بهدية) »[١٢٣] . وعلى هذا فان المتنبي لم يستعمل الفعل (بعث) على الوجه المعروف في استعماله ، وكان الصواب أن يقول : بعثت العليل ، لا أن يقول : بعثت به ، لان العليل متصرف بنفسه . ولم يعدم المتنبي من تأول استعماله هذا ، ودافع عنه ، فقد قيل « أراد به ان العليل لاستحواذ العلة على جسمه وحسه قد التحق بحيّز ما لا يتصرف بنفسه ، فلهذا عدى الفعل اليه بحرف الجر كما يعدّى الى ما لا حسّ له ولا عقل »[١٢٤] .

تلك هي بعض ضروب الخطأ التي وقع فيها الشعراء ، وقد أوردتها على سبيل التمثيل ، لا على سبيل الحصر والاحصاء . وواضح أن الاخطاء التي عرضنا لها مما أخذه النقاد على الشعراء خاصة ، اما الكتّاب فلم يقع لنا من اخطائهم ما نستطيع ان نمثل له ، أو نفيض في الحديث عنه . فكتب النقد التي بين ايدينا تخلو من الاشارة الى اخطاء الكتّاب وأوهامهم ، وقد كنت أظن أن كتب (لحن الخاصة) مصدر يمدنا باخطاء الكتاب ، ولكني سرعان ما تبينت أن هذه الكتب كانت كثيرا ما تعالج الاخطاء من غير ان تورد

---

(١٢٢) درة الغواص : ٢٧ .
(١٢٣) نفسه : ١٢ .
(١٢٤) درة الغواص : ١٢ .

النصوص التي وردت فيها تلك الاخطاء ، ومن غير أن تفصح عمن ارتكبها ، فلا ندري أهو شاعر أم ناثر ، وفي حالات قليلة كانت تنسب بعض الاخطاء الى هذا الشاعر او ذاك . وبذلك لا نستطيع ـ فيما عدا حالات التصريح القليلة التي اشرنا اليها ـ أن نجزم بأن ما فيها من أخطاء هو ممّا اجترحه الكتّاب وحدهم ، او تورط فيه الشعراء دون سواهم . كما ان هذه الكتب قد انطوت على كثير من الاخطاء التي لم ترد في شعر أو نثر ادبي ، وانما كانت تجرى على السن المثقفين ، وأرباب العلوم ، وهم يتحدثون في شؤون الحياة اليومية . وطبيعي ان هذا الضرب من الاخطاء لا يعنينا ونحن بصدد الكلام على لغة الادب .

ان امام الباحث ، اذن ، نوعين من الاخطاء : الاول ما اخذه العلماء على الشعراء ، ونسبوه اليهم بشكل صريح ، وقد عرضنا امثلة من هذا النوع . الثاني : ما أخذه العلماء على الخاصة ، وفيهم الشعراء والكتّاب والفقهاء والمؤلفون في صنوف من المعرفة شتى ، من غير أن يصرّحوا [١٢٥] بنسبته الى هذا الفريق أو ذاك من هؤلاء الخاصة . وفي هذا الصنف أيضا اخطاء لغوية يبدو أنها لم تجر في كلام ادبي نثرا كان ام شعرا ، بل كانت تجري في لغة التخاطب اليومية . ثم ان هذه الاخطاء ـ أعني التي لم يصرّح بنسبتها الى شاعر او كاتب ـ لا يخرج أكثرها في جوهره عن اخطاء الشعراء فهي أما كلمات عدل بها عن بنائها ، أو كلمات استعملت في غير ما وضعت له . وكذلك كانت اكثر الاخطاء التي نسبت صراحة الى الشعراء . ومعنى ذلك ان الخطأ ـ في غالب الاحيان ـ هو الخطأ ، سواء أكان عند الشاعر ام الناثر .

---

(١٢٥) وشذ ابو بكر الزبيدي في (لحن العوام) وابن مكي الصقلي في (تثقيف اللسان) وابن برى في (اغلاط الضعفاء من الفقهاء) فقد ذكر الاول خطاين نسبهما الى بعض الكتاب ، ونص الثاني على اخطاء الفقهاء والاطباء واصحاب الوثائق ، ونص الثالث على اخطاء الضعفاء من الفقهاء ، وهؤلاء جميعا ـ عدا من ذكر الزبيدي ـ غير كتاب النثر الادبي كما هو واضح . ونص هؤلاء المؤلفون كما نص غيرهم في حالات قليلة على اخطاء بعض الشعراء .

وعلى ذلك فان كتب النقد عامة ، والنقد اللغوي خاصة ؛ لا تمدنا صراحة بأمثلة من اخطاء الكتاب ، الامر الذي يجعلنا لا نستطيع أن نفرد اخطاء الكتّاب بالبحث ، على نحو ما فعلناه في اخطاء الشعراء .

وسبب خلوّ كتب النقد العامة من الاشارة الى اخطاء الكتّاب وأوهامهم هو ان النقاد وعلماء العربية لم يعنوا بلغة النثر عنايتهم بلغة الشعر ، وذلك أمر واضح لمن يدرس النقد العربي والبلاغة العربية ، فأكثر شواهد النقاد والبلاغيين مستمدة من الشعر ، وأكثر ابحاثهم وملاحظاتهم تدور حوله ، وكانوا قلما يعوجون على النثر ، او يحفلون بدرسه . وقد جاءت بعض الكتب تحمل عناوين تشير الى انها مؤلفة في نقد الشعر والنثر ، ككتاب (المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر) وكتاب (الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور) وكتاب (تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر) ولكنها في الواقع لم تعط النثر من العناية ما اعطت الشعر ، وكانت شواهدها من الشعر لا تقاس من حيث الكثرة بشواهدها من النثر .

الفصل الثاني

مقاييس الجودة والرداءة

(١)
في المفردات

١ ـ تأليف المفردة :

تتألف المفردة من وحدات صغيرة ، تسمى الوحدة حرفا ، أو صوتا لغويا . وقد عني علماء العربية منذ عهد مبكر بدراسة (الأصوات اللغوية) منفردة ، قبل أن تتآلف فتنشأ منها المفردات .

وكان الخليل بن أحمد أول من عرض لها بالدرس والبحث [١] ، ثم تتالى العلماء بعده على هذا الوجه من البحث [٢] : يولونه عنايتهم ، ويصرفون اليه اهتمامهم ؛ حتى كان لنا فيه مجموعة من المباحث القيمة ، أطلق عليها المحدثون اسم (الدرس الصوتي) .

فطن العلماء الى أن الهواء يخرج من الرئتين مع النفس ، فيجري في فراغ الفم مستطيلا غفلا « حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع اينما عرض له حرفا ، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها » [٣] ومعنى ذلك أن في الفم نقاط ارتكاز ؛ ينقطع عندها الهواء الجاري في فراغ الفم ، فيكتسب عند انقطاعه جرسا ما ؛ ويتكون الصوت اللغوي أو الحرف . ونقاط الارتكاز هذه

---

(١) عبقري من البصرة : ٥٠ .
(٢) سر صناعة الاعراب (مقدمة التحقيق) : ١/١٤ .
(٣) نفسه : ١/٦ .

مبثوثة في الفم من اقصى الحلق حتى الشفتين ، وحيث ينقطع الهواء عند احداها ، ينشأ صوت ذو جرس يختلف عن الصوت الذي ينشأ عندما ينقطع الهواء عند نقطة ارتكاز اخرى . يقول ابن جني : « الا ترى أنك تبتدىء الصوت من أقصى حلقك ثم تبلغ به أي المقاطع شئت ، فتجد له جرسا ما ، فان انتقلت عنه ، راجعا منه ، أو متجاوزا له ، ثم قطعت ، أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الاول ، وذلك نحو الكاف فانك اذا قطعت بها سمعت هنا صدى ما ، فان رجعت الى القاف سمعت غيره ، وان جزت الى الجيم سمعت غير ذينك الاولين » (٤) .

وقد شبّه بعضهم الحلق والفم بالناي « فان الصوت يخرج فيه مستطيلا املس ساذجا ، كما يجري الصوت في الألف غفلا بغير صنعة ، فاذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة ، وراوح بين أنامله ، اختلفت الاصوات ، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه ، فكذلك اذا قطع الصوت في الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الاصوات المختلفة » (٥) التي اصطلحنا على تسميتها بـ (الحروف) .

وبعد ان أدركوا حقيقة الصوت اللغوي ، وسبب منشئه ، شرعوا يتتبعون مخارجه ، وهي التي سماها بعض المحدثين (٦) « نقاط الارتكاز » ، وقلنا انها مبثوثة في الفم من اقصى الحلق حتى الشفتين ، فوجدوا ان عدد هذه المخارج ستة عشر مخرجا « ثلاثة حلقية وهي الهمزة والالف والهاء ، هذا على ترتيب سيبويه ، وأما على ترتيب ابي الحسن الاخفش فان الهاء مع الالف لا قبلها ولا بعدها ، ومخرجان يليان هذه الثلاثة المذكورة وهما العين والحاء ، ومخرجان آخران فوق ذينك من أول الفم وهما الغين والخاء وحرف من اقصى اللسان وهو القاف . واسفل من موضع القاف قليلا مخرج الكاف .

(٤) سر صناعة الاعراب : ٦/١ .
(٥) نفسه : ٩/١ .
(٦) ينظر : عبقري من البصرة : ٢٦ .

وهذان الحرفان ـ اعني القاف والكاف ـ يدعيان لهويين من اللهاة . وثلاثة أحرف من وسط اللسان : وهي الجيم والشين والياء ، وتسمى الشجرية . ومن أول حافة اللسان وما بينهما من الاضراس مخرج الضاد ، ويسمى المتفرد المستطيل . ومن حافة اللسان من أدناها الى منتهى طرفه ما بينها وبين مايليها من الحنك فويق الضاحك والناب والثنية والرباعية مخرج اللام ؛ ويسمى المنحرف . ومن طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا السفلى مخرج انون . ومن مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه الى اللام مخرج الراء . وهذه الاحرف الثلاثة اللام والراء والنون تسمى الذلقية . وقال سيبويه ان الاصول الخماسية لا تخلو من احدها البتة . وما بين طرف اللسان واصول الثنايا ثلاثة احرف هي الطاء والدال والتاء ؛ وتسمى النطعية. وثلاثة أحرف ما بين طرفي اللسان وفويق الثنايا وهي الصاد والسين والزاي وتسمى الاسلية . وثلاثة احرف ما بين طرف اللسان واطراف الثنايا وهي الظاء والذال والثاء وتسمى اللثوية . وحرف واحد ما بين باطن الشفة السفلى واطراف الثنايا العلى وهو الفاء . وثلاثة احرف ما بين الشفتين وهي الباء والميم والواو وتسمى الشفهية ، وحرف واحد من الخيشوم وهو النون ويسمى الخيشومي . فهذه جميع مخارج الحروف » (٧) .

ولم يكتفوا بتحديد مخارج الحروف ؛ ومعرفة أحيازها ، بل أخذوا يتعرفون طبائعها وصفاتها ؛ فوجدوها متباينة في ذلك ، فمنها ما يحصر الصوت فيجعله لا يجري فيه بسهولة كالدال والطاء والتاء والقاف ، ومنها ما ينفذ الصوت خلاله ؛ ويجري الهواء فيه ؛ فلا ينحبس او يتعثر كالصاد والسين والزاي ؛ ثم عادوا فصنفوها حسب صفاتها وطبائعها ، ووضعوا لكل مجموعة منها لقبا ينم على مالها من صفات وخصائص : فمنها المجهور والمهموس والشديد والرخو والمستعلي والمستفل والاذلق والمصمت والصحيح والمعتل (٨) .

(٧) الجامع الكبير : ٢٧ ، ٢٨ .
(٨) جمهرة اللغة : ٧/١ ، ٨ .

وبعد أن تمّ لهم درس الحروف منفردة ، والوقوف على ما لها من خصائص وأحوال ، شرعوا يراقبونها حين تتضامّ وتتجاور ، لتكون منها المفردات ، وكان الخليل أول من تنبه الى ان العرب لا تألف في كلامها تجاور الحروف المتقاربة في مخارجها ، فاذا تجاور حرفان متقاربان في المخرج في كلمة واحدة تنافرا ، ويزداد التنافر شدة اذا كانا من حيز صلب لا يؤدي عمله بسهولة ، كحيز الحلق ، فالهاء والعين وهما متقاربان في المخرج ، لا يأتلفان في العربية الا اذا تقدمت العين نحو (عهد) و (عهن) أو كانتا منفصلتين نحو (هرع) و (هلع) وعلى هذا الاساس أنكر (الهعخع) وقال : « سمعنا كلمة شنعاء فأنكرنا تأليفها » [9] . ورأى ان (القاف) و (الكاف) لا يأتلفان الا في كلمات معرّبة وكان يقول « تأليفهما معقوم في بناء العربية لقرب مخرجيهما » [10] . والضاد والكاف لا تجتمعان في بناء عربي الا اذا قدمت الضاد وفصل بينها وبين الكاف مثل (الضنك) و (الضحك) ولكنهما تأتيان في المضاعف متصلتين كالضكضكة والكضكضة ؛ وهما مشي في سرعة ؛ قال الخليل « وهو جائز في المضاعف نحو الضكضكة » [11] .

ومن المقاييس التي وضعها لبيان المهمل وتمييزه من غيره ما قاله عن الابنية الرباعية والخماسية ، فقد كان يرى ان هذه الأبنية لا تعرى من واحد أو أكثر من أحرف الذلاقة الستة وهي (ر ، ل ، ن ، ف ، ب ، م) . قال الخليل : « فان ورد عليك خماسي معرّى من الحروف الذلق والشفوية فاعلم انه مولد وليس من صحيح كلام العرب نحو الخضعثج والكشعطج واشباه ذلك ، وان أشبه لفظهم وتأليفهم ، فلا تقبلنّ منه شيئا فان النحارير ربما ادخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب ارادة التلبيس والتعنت »[12].

(٩) العين : ١/٦٣ .
(١٠) اللسان : حرف القاف .
(١١) العين : ١/٦٣ .
(١٢) تهذيب اللغة : ١/٤٤ .

ولكنه يستثني البناء الرباعي المجرد من هذه القاعدة ، فقد يخلو هذا البناء من أحد أحرف الذلاقة ، ويشترط عندئذ أن يقترن بحرفي الطلاقة (العين والقاف) أو بأحدهما ، فهما يحسنان جرسه ، ويخففانه على اللسان ، ويشترط ان يقترن ايضا بالسين أو الدال او بكليهما لانهما يحسنان جرس الابنية أيضا ، وكان يقول : « فمهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط معرّى من حروف الذلق والشفوية فانه لا يعرى من أحد حرفي الطلاقة أو كليهما ومن السين والدال او احداهما ولا يضره ما خالطه من سائر الحروف الصتم »[١٣].

وظلت هذه المقاييس التي اهتدى اليها الخليل بشأن بناء الكلمة العربية معترفا بها عند اللغويين [١٤] والنقاد الذين تأخروا عنه ، فقد طال تردادهم لها ، واتخذوها مرجعا في التمييز بين التأليف الحسن والتأليف الرديء للمفردات كما استطاعوا في ضوئها ان يفرقوا بين الدخيل والأصيل ، أو المصنوع المقحم في اللغة ، والصحيح الذي نطقت به العرب ، وجاءت به الرواية عنهم .

وكان ابن سنان الخفاجي قد عرض في كتابه (سر الفصاحة) لخصائص المفردة العربية ، ووضع ثمانية شروط لفصاحتها ، وكلما كانت اللفظة اكثر حيازة لهذه الشروط كانت ادخل في باب الفصاحة ، وعلى قدر ما تجمع من اضداد هذه الشروط تبعد عن الحسن او الفصاحة .

وكان الشرط الاول متعلقا بتأليفها وطريقة بنائها ، ولم يخرج ابن سنان في هذا الشرط عما قرره الخليل ، وهو ان تتركب المفردة الفصيحة من حروف متباعدة المخارج ، ثم ذكر ان الخليل « قسم تأليف الحروف ثلاثة أقسام : فالاول تأليف الحروف المتباعدة ، وهو الاحسن المختار ، والثاني تضعيف هذا الحرف نفسه ، وهو يلي هذا القسم في الحسن ، والثالث تأليف الحروف المتجاورة ، وهو اما قليل في كلامهم ، او منبوذ رأسا ، لما قدمناه ، والشاهد

(١٣) تهذيب اللغة : ١/٤٥ .
(١٤) ينظر مثلا من اللغويين ابن جني في الخصائص : ١/٥٤ ، ٥٥ .

على ما ذكرناه الحسّ ؛ فان الكلفة في تأليف المتجاور ظاهرة ، يجدها الانسان من نفسه حال التلفظ ، ومن الحروف التي لم يتركب في كلامهم بعضها مع بعض الصاد والسين والزاي ؛ ليس في كلام العرب مثل سصّ ولا صسّ ولا سزّ ولا زسّ ولا زص ولا صز ؛ والعلة في هذا كله واحدة » [١٥] .

ولم يفت ابن سنان ان يعلل القبح الناشيء من تجاور الحروف المتقاربة المخارج في كلمة واحدة ، فقال : « ان الحروف التي هي اصوات تجري من السمع مجرى الالوان من البصر ، ولا شك في ان الالوان المتباينة اذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الالوان المتقاربة ؛ ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب ما بينه وبين الاصفر ، وبعد ما بينه وبين الاسود » [١٦] .

وجاء ابن الاثير فلم يوافق ابن سنان على تشبيه أصوات الكلمة بالالوان، فكلما كانت الالوان المزوجة متباعدة قبلها البصر ، واستراح اليها ، وكلما كانت الحروف التي تركب منها الكلمة متباعدة في المخارج ، قبلها السمع ، وهشت لها الاذن ، لان السمع حاسة ، والبصر حاسة ، وقياس حاسة على حاسة مناسب ، كما تصور ابن سنان . لم يرض ابن الاثير عن قياس ابن سنان هذا ، فقال ـ مخاطبا ابن سنان ـ : « انما يستقيم لك ما ذكرته من هذا القياس ان لو توقف في عرفان جودة اللفظة على سماع اصوات مخارجها ، كما يتوقف في عرفان حسن الالوان على ابصارها ورؤيتها ، وانما قد يعلم جودة اللفظة ، ويعرف حسن تركيبها ، من غير ان يسمع لها صوت ، وذلك ان المتأمل للكلام مكتوبا ، من غير تصويت ولا نطق ، اذا عرضه على طبعه السليم ، وفكره المستقيم ، عرف جودة الفاظه ، وعلم حسن تركيبها من قبحه ، ولا خلطة للسمع في ذلك ولا مشاركة ، فقد ثبت بهذا الدليل

---

(١٥) سر الفصاحة : ٤٨ ، ٤٩ .

(١٦) نفسه : ٥٤ .

فساد ما ذكرته من قياس السمع على البصر ، واختلال ما أشرت اليه من ذلــك » (١٧) .

وأتى ابن الاثير بتعليل آخر لجمال اللفظ المؤلف من حروف متباعدة المخارج فقال : « وانما القول السديد في حسن اللفظ المتباعد المخارج ، وقبح اللفظ المتقارب المخارج ، ما سنورد هاهنا : وهو أن الفائدة في الاشياء المركبة انما هي اختلاف أجزائها وتباين مفرداتها ، ليؤثر التركيب عند ذلك شيئا لم يكن ، اما حسنا واما قبحا . فأما اذا كانت اجزاؤها مشابها بعضها البعض ، فانه لا يكون لتركيبها حينئذ كبير فائدة ، وهذا مما لا نزاع فيه لوضوحه وبيانه » (١٨) .

ثم جاء بعد ذلك بتفسير آخر لما نحسه من جمال في اللفظ المؤلف من حروف متباعدة المخارج ، وما نجده من ثقل وكراهة في اللفظ المركب من حروف متقاربة المخارج ، فقال : ان « النطق اذا أتى على مخارج حروف اللفظة ، وهي متباعدة ليجمعها ويؤلفها كان له في ذلك مهلة وأناة ، لان بين المخرج الى المخرج فسحة وبعدا ، فتجيء الحروف عند ذلــك متمكنة في مواضعها ، غير قلقة ولا مكدودة . واذا اتى النطق على مخارج حروف اللفظة وهي متقاربة ، ليجمعها ويركبها ، لم يخلص من مخرج الا وقد وقع في المخرج الذي يليه ، لقرب ما بينها ، فيكاد عند ذلك يعتبر أحدهما بالاخر ، فتجيء مخارج حروف اللفظة قلقة مكدودة غير مستقرة في اماكنها ، ولهذا لم ترد العين مع الحاء ولا الغين مع الخاء ولا الطاء مع التاء ولا القاف مع الكاف ولا الذال مع الثاء ولا مع الظاء ، وذلك لقرب مخارج هذه الحروف بعضها من بعض » (١٩) .

---

(١٧) الجامع الكبير : ٣٨ ، ٣٩ .
(١٨) نفســه : ٣٩ .
(١٩) نفســه : ٤٠ .

وواضح ان تعليل ابن الاثير الاول فلسفي نظري ، لا يصلح لتفسير حقيقة لغوية كهذه ، ومثله تعليل ابن سنان السابق الذي قاس فيه الحروف على الالوان ، والتعليل السديد لها هو ما أشار اليه ابن سنان ، حين ذهب الى ان الحس هو المرجع في معرفة الفرق بين تأليف حسن وآخر رديء ، يعني ان ما يستثقله اللسان ، ويتعثر بنطقه هو القبيح المستكره ، ولا يستثقل اللسان الا المفردة المؤلفة من أحرف متقاربة المخارج . وهذا ايضا ما فطن اليه ابن الاثير في تعليله الثاني .

غير ان ابن الاثير لم يوافق ابن سنان على تعليقه فصاحة الكلمة أو حسنها بالتباعد او التقارب في مخارج الاحرف المؤلفة لها ، ولم يجعل تباعد المخارج قاعدة ثابتة تؤدي الى الحسن في الكلمة ، كما لم ير تقارب المخارج مسؤولا عن قبح الكلمة ، وثقلها ، فقال : « قد يجيء في المتقارب المخارج ما هو حسن رائق الا ترى ان الجيم والشين والياء مخارج متقاربة ، وهي من وسط اللسان بينه وبين الحنك ، وتسمى ثلاثتها الشجرية ، واذا تركب منها شيء من الالفاظ جاء حسنا رائقا ، فان قيل : « جيش كانت لفظة محمودة ، او قدمت الشين على الجيم فقيل : (شجي) كانت أيضا لفظة محمودة . ومما هو أقرب مخرجا من ذلك : الباء والميم والفاء ، وثلاثتها من الشفة وتسمى الشفهية ، فاذا نظم منها شيء من الالفاظ ، كان جميلا حسنا كقولنا : (فم) ، فهذه اللفظة من حرفين هما الفاء والميم ، وكقولنا : ذقته (بفمي) وهذه اللفظة مؤلفة من الثلاثة بجملتها ، وكلاهما حسن لا عيب فيه » [٢٠] . ثم قال : « وقد ورد من المتباعد المخارج شيء قبيح أيضا ، ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح ، اذ هما ضدان لايجتمعان . فمن ذلك انه يقال : ملع: اذا عدا ، فالميم من الشفة والعين من حروف الحلق ، واللام من وسط اللسان، وكل ذلك متباعد ، ومع هذا فان هذه اللفظة مكروهة الاستعمال ، ينبو عنها الذوق السليم ، ولا يستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة » [٢١] .

---

(٢٠) المثل السائر : ١٥٣/١ ، ١٥٤ .
(٢١) نفسه : ١٥٤/١ .

وما قاله ابن الاثير حق ، فاللفظ المركب من أحرف متباعدة المخارج جميل ، يخف على اللسان ، ويعذب وقعه في السمع ، كما ان اللفظ المؤلف من حروف متقاربة المخارج ثقيل ، لا تستحليه الاذن ، ولكن لهاتين القاعدتين شواذ ، والذوق هو الفيصل في هذا الشأن . ولم يكن ابن سنان موفقا حين جعل تباعد المخارج وتقاربها سببا للحسن او القبح على وجه ثابت ، وبشكل مطلق .

ولكي نستوفي الاراء التي قيلت بشأن تأليف اللفظة من حروف دون حروف ، وما ينجم عن ذلك من جمال أو قبح ، لابد من الاشارة السريعة الى رأي عبدالقاهر الجرجاني بشأن الكلمة المفردة ، الذي أوردناه في فصل سابق [22] ؛ وهو رأي يخالف ابن سنان وابن الاثير وغيرهما من القائلين بأن اللفظة المفردة يمكن ان توصف بجمال او قبح ، وتنعت بجودة أو رداءة، ذلك لان عبدالقاهر لم يجعل للكلمة ، وهي خارج التأليف ، أي شأن أو قيمة ولم يرها تستحق ان توصف بجمال أو قبح ، بجودة او رداءة ، حتى تدخل في تركيب ، وتتآخر مع غيرها في سياق . فالفصاحة عند عبدالقاهر من خصائص (النظم) وليست من خصائص اللفظ ، أو هي « خصوصية في نظم الكلم وضم بعضها الى بعض على طريق مخصوصة » [23] . يقول عبدالقاهر : « وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة الا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لاخواتها ، وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافه قلقة ونابية ، ومستكرهة ، الا وغرضهم ان يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم » [24] .

وقد اعترضت عبدالقاهر الالفاظ التي يوردها انصار القول بفصاحة اللفظة المفردة ، أو القائلون بأن الخصائص الذاتية للفظة يمكن ان تؤدي الى

(٢٢) تنظر ص١٢٨ ، ١٢٩ من هذه الرسالة .
(٢٣) دلائل الاعجاز : ٣٠ .
(٢٤) دلائل الاعجاز : ٣٦ .

جمالها أو قبحها . وهذه الالفاظ نوعان : الفاظ حسنت بما فيها من خصائص ذاتية تتعلق بتباعد مخارج حروفها ، والفاظ أخرى قبحت ، واتصفت بالعسر والثقل على اللسان ؛ لخصائص ذاتية ايضا ، نجمت عن تقارب مخارج حروفها. لقد اعترضت عبدالقاهر مثل هذه الالفاظ فاضطر الى ان يقول : « وهذه شبهة اخرى ضعيفة عسى ان يتعلق بها متعلق ، ممن يقدم على القول من غير روية وهي ان يدعي ان لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي ، وتعديل مزاج الحروف ، حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان كالذي انشده الجاحظ من قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

... والذي يبطل هذه الشبهة ، ان ذهب اليها ذاهب ، انا ان قصرنا صفة الفصاحة على كون اللفظ كذلك ، وجعلناه المراد بها ؛ لزمنا ان نخرج الفصاحة من حيز البلاغة ؛ ومن ان تكون نظيرة لها ، واذا فعلنا ذلك لم نخل من أحد مرين : اما ان نجعله العمدة في المفاضلة بين العبارتين ولا نعرج على غيره ، واما ان نجعله أحد ما تفاضل به ، ووجها من الوجوه التي تقتضي تقديم كلام على كلام ، فان اخذنا بالاول لزمنا ان نقصر الفضيلة عليه حتى لا يكون الاعجاز الا به ، وفي ذلك ما لا يخفى من الشناعة ، لانه يؤدي الى ان لا يكون للمعاني التي ذكروها في حدود البلاغة من وضوح الدلالة وصواب الاشارة وتصحيح الاقسام وحسن الترتيب والنظام والابداع في طريقة التشبيه والتمثيل والاجمال ثم التفصيل ووضع الفصل والوصل موضعهما ... مدخل فيما له كان القرآن معجزا ... وان اخذنا بالثاني وهو ان يكون تلاؤم الحروف وجها من وجوه الفضيلة ، وداخلا في عداد ما يفاضل به بين كلام وكلام على الجملة لم يكن لهذا الخلاف ضرر علينا » (٢٥) .

---

(٢٥) دلائل الاعجاز : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

فالجرجاني لا يرى أن تنعت اللفظة المفردة بجمال او فصاحة ، وان خفّت على اللسان ، أو طاب وقعها في الاذن ، ولكنه يعترف بأن خفتها ، ورشاقة تأليفها ، وجه من وجوه فضيلتها ، وهو وجه لا يرقى بها الى الجمال أو الفصاحة ، لان الفصاحة عنده ليست نعتا للفظ ، بل هي نعت للتركيب .

وكانت نظرة الجرجاني للفظة نقطة ضعف في منهجه النقدي ، لم يرض عنها بعض النقاد المعاصرين ، ذلك لان لجرس اللفظة وخصائصها الصوتية الذاتية شأنا يجب الا يغفل عند البحث عن المقوّمات الفنية للعبارة ، كما ان التركيب ، او النظم كما سماه عبدالقاهر ، لا يستغني عن جرس الالفاظ وتكوينها الصوتي في نقل دقائق الشعور ، وخفايا التجربة ، مما يعجز التركيب، أو علاقات النظم عن نقله او ابرازه . قال محمد مندور : « ينكر عبدالقاهر كما رأينا كل مزية في اللفظ ، وهو في ذلك يناقض آراء الجاحظ في الفصاحة ، ولكن هذا في الحق انكار مسرف لا نقره ، ونحن لا ندّعي لرجلنا العصمة ، ولا نضرب دائما بعصاه ، والذي لا شك فيه ان لجرس الالفاظ كما قلنا وقعا ايجابيا كثيرا ما يعين الكاتب او الشاعر على استنفاد احساسه » [٢٦] .

فمن مقاييس الجودة في الكلمة : ان تكون متآلفة الحروف ، سهلة الجري على اللسان ، عذبة الوقع في السمع . ومن المحدثين من يرى ان لا داعي لان يضع النقاد العرب هذا المقياس ، اذ ليس بين الفاظ العربية ما هو متنافر الحروف ، أو غير متآلف الاصوات ، وان وجدت الفاظ هذه صفتها ، فهي قليلة ، مهجورة ، لا تذكر الا عند التمثيل للفظ الرديء التأليف [٢٧] .

٢ – وزنها :

ا – الطول والقصر :

ذكر علماء اللغة ان الاسم لا يبنى على أقل من ثلاثة أحرف ، وهذا البناء هو الاكثر في الكلام ، مزيدا او غير مزيد ، وقد يجيء الاسم على اربعة

(٢٦) في الميزان الجديد : ١٥٥ .
(٢٧) أسس النقد الادبي عند العرب : ٤٢٧ .

أحرف وهو أقل في الكلام من البناء الثلاثي ، ويجيء على خمسة أحرف وهو أقل من البناء الرباعي ، ولا يجاوز الاسم هذا البناء الا مزيدا « وأقصى ما ينتهي اليه الاسم الثلاثي والرباعي بالزيادة سبعة أحرف ، واما الخماسي فلا يبلغ بالزيادة أكثر من ستة احرف » (٢٨) . واما الافعال فأقل ما تبنى عليه ثلاثة أحرف ، وقد تجيء على أربعة احرف ، والافعال الرباعية اقل في الكلام من الافعال الثلاثية ، ولا يجاوز الفعل البناء الرباعي الا مزيدا « واقصى ما ينتهي اليه الفعل بالزيادة ستة احرف ثلاثيا كان او رباعيا » (٢٩) .

ومعنى ما ذكرناه ان الذوق العربي كان يستحلي اللفظ القليل الاحرف، فيديره في الكلام ، ويكثر منه في الاستعمال ، كما كان يستثقل اللفظ الطويل، وينفر منه . واللفظة العربية لا تزيد في اقصى حالات طولها عن سبعة أحرف، اما المفردات التي تزيد حروفها عن ذلك فقد عدوها دخيلة ، أو مقحمة مصنوعة ، لم تنطق بها العرب .

وقد نظر النقاد الى وزن الكلمة ، واتخذوه مقياسا من مقاييس المفاضلة بين الالفاظ ، فاشترط ابن سنان ان تكون الكلمة الفصيحة : « معتدلة غير كثيرة الحروف ، فانها متى زادت على الامثلة المعتادة المعروفة ، قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة » (٣٠) . وقد عاب ابن سنان على المتنبي قوله :

ان الكرام بلا كرام منهم ... مثل القلوب بلا سويداواتها

ذلك لانه استعمل كلمة (سويداواتها) وهي رديئة لطولها ، وكثرة حروفها . قال ابن سنان : « فسويداواتها كلمة طويلة جدا ، فلذلك لا أختارها » (٣١) .

---

(٢٨) الاستدراك على سيبويه : ٢ .
(٢٩) نفسه : ٣ .
(٣٠) سر الفصاحة : ٧٨ .
(٣١) نفسه .

وأنكر ابن الاثير ان يكون السبب في قبح (سويداواتها) راجعا الى طولها ، ورأى أن جمعها سبب ثقلها وقبحها ، فقال : « كانت وهي مفـردة حسنة ، فلما جمعت قبحت ، لا بسبب الطول » [٣٢] . وذهب الى ان الطول لا يوجب دائما قبح الكلمة ، واستدل على ذلك بأن في القرآن الكريم الفاظا طوالا ، وهي مع ذلك حسنة كقوله تعالى (فسيكفيكهم الله) وقوله (ليستخلفنهم في الارض) . وانتهى ابن الاثير بهذا الشأن الى مقياس آخر غير الذي ذكره ابن سنان . قال ابن الاثير : « ان الاصول من الالفاظ لاتحسن الا في الثلاثي وفي بعض الرباعي كقولنا : عذب وعسجد ، فان هاتين اللفظتين مجراهما ، وكان ينبغي على ما ذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان حسنتين ، ولا يكاد يوجد منه شيء حسن كقولنا جحمرش وصهصلق ، وما جـرى مجراهما ، وكان ينبغي على ماذكره ابن سنان ان تكون هاتان اللفظتان حسنتين ، واللفظتان الواردتان في القرآن قبيحتين لان تلك تسعة أحرف وعشرة ، وهاتان خمسة وخمسة ، ونرى الأمر بالضد مما ذكره » [٣٣] .

ومعنى ذلك ان الطول الناجم من الزيادة على الاصول غير قبيح في بعض الاحيان ، اما الطول الناجم عن كثرة الحروف الاصول فهو قبيح . وعلى هذا الاساس استنكر بن الاثير كلمة (جحمرش) و (صهصلق) وهما من الخماسي المجرد ، ولم يستقبح كلمة (فسيكفيكهم) وكلمة (ليستخلفنهم) لان الطول فيهما ليس اصلا ، انما هو طارىء عليهما بسبب حروف وضمائر لحقت بهما ، وهما اصلا من البناء الثلاثي .

على أن الطول ــ في رأي ابن الاثير ــ لا يؤدي وحده الى قبح اللفظة وثقلها ، فاذا اجتمع مع طول الكلمة تقارب مخارج حروفها ، قبحت وسمجت فكلمة (مستشزرات) لا يرجع قبحها الى طولها ، ولكن الى تجاور التاء والشين والزاي . ولو كان الطول سبب الثقل والقبح في هذه اللفظة لاستثقلنا

---

(٣٢) المثل السائر : ١٨٨/١ .
(٣٣) نفسه : ١٨٨/١ ، ١٨٩ .

كلمة (مستنكرات) او (مستنفرات) وهما على وزن (مستشزرات) • ولو كان الطول سبب القبح في (مستشزرات) لذهب قبحها ، بتقصيرها ؛ وحذفه الالف والتاء منها ، ولكن (مستشزر) قبيحة ايضا ، وان كانت اقصر من (مستشزرات) • ولكن اذا قلنا (مستشرف) لم نشعر بثقل او قبح ؛ اذ ليس في احرف هذه الكلمة ما يعسر النطق به [٣٤] •

ب ـ الحركات :

وكما ذاق العرب الحروف ، فاستثقلوا واستخفوا وألفوا تجاورا معينا بينها وكرهوا اخر ، كذلك ذاقوا الحركات فارتضوا ورفضوا ، ومالوا الى تجاور حركات مخصوصة ، ونفروا من توالي حركات أخرى • وعندهم ان السكون والفتحة أخف من الضمة والكسرة ، يدل على ذلك أن وزن (فَعْل) أكثر الابنية شيوعا في الاستعمال ؛ لانه أعدل الابنية ، والسبب في ذلك توالي الفتحة والسكون ، وهما حركتان خفيفتان ، لا تجد الالسن مشقة في الانطلاق بهما ، ولا تلقى عنتا من تجاورهما • ومما يدل على استثقالهم الضم والكسر ، انهم كانوا يهربون من كل منهما احيانا الى السكون• قال ابن جني : « ومنه اسكانهم نحو رسل وعجز وعضد ••• وكتف وكبد ••• واستمرار ذلك في المضموم والمكسور دون المفتوح أول دليل ـ بفصلهم بين الفتحة واختيها ـ على ذوقهم الحركات ، واستثقالهم بعضها واستخفافهم الاخر » [٣٥] •

ونظر النقاد الى حركات الكلمة ، واتخذوا منها مقياسا آخر يرجعون اليه في تقديم لفظ على لفظ ؛ فابن الاثير يرى ان « من اوصاف الكلمة ان تكون مبنية من حركات خفيفة ليخف النطق بها » [٣٦] ويقول : « اذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستثقل ، وبخلاف ذلك الحركات

(٣٤) المثل السائر : ١/١٨٩ ، ١٩٠ •
(٣٥) الخصائص : ١/٧٥ •
(٣٦) المثل السائر : ١/١٩١ •

الثقيلة فانه اذا توالى منها حركتان في كلمة واحدة استثقلت . ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو ، والكسرة على الياء ، لان الضمة من جنس الواو ، والكسرة من جنس الياء ، فتكون عند ذلك كأنهما حركتان ثقيلتان » [٣٧] .

ولايضاح مقياس الحركات ، وما له من أثر في جمال المفردة أو قبحها ، مثل ابن الاثير بكلمة (جزع) فقال : « فاذا جعلنا الجيم مفتوحة فقلنا الجزع، أو مكسورة فقلنا الجزع كان ذلك أحسن من أن لو جعلنا الجيم مضمومة فقلنا الجزع ، وكذلك اذا والينا حركة الفتح فقلنا الجزع كان ذلك أحسن من موالاة حركة الضم عند قولنا جزع . ومن المعلوم ان هذه اللفظة لم يكن اختلاف حركاتها مغيرا لمخارج حروفها ، حتى ينسب ذلك الى اختلاف تأليف المخارج ، بل وجدناها تارة تكتسي حسنا ، وتارة يسلب ذلك الحسن عنها ، فعلمنا ان ذلك حادث عن اختلاف تأليف حركاتها » [٣٨] .

واذا كان ابن الاثير قد قرر ان توالي الضم في كلمة واحدة ، يسبب لها القبح ، فانه عاد ليبين أن هذا المقياس كغيره من المقاييس المتعلقة بحسن الكلمات وقبحها ، ليس قياسا ثابتا مطردا ، وانما شذ منه كثير من الكلمات التي توالى فيها الضم ، فلم تفقد حسنها ، ولم تكتس بالثقل . قال ابن الاثير : « واعلم انه قد توالت حركة الضم في بعض الالفاظ ، ولم يحدث فيها كراهة ولا ثقلا ، كقوله تعالى (ولقد انذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) وكقوله تعالى (ان المجرمين في ضلال وسعر) وكقوله تعالى (وكل شيء فعلوه في الزبر) فحركة الضم في هذه الالفاظ متوالية ، وليس بها من ثقل ولا كراهة[٣٩] » . ثم قال : « وهذا لا ينقض ما اشرنا اليه لان الغالب ان يكون توالي حركة الضم مستثقلا ، فاذا شذ عن ذلك شيء يسير لا ينقض الاصل المقيس عليه[٤٠] » .

---

(٣٧) المثل السائر : ١٩١/١
(٣٨) نفسه .
(٣٩ ، ٤٠) نفسه : ١٩٢/١ .

جـ ـ الخروج من وزن الى وزن :

أدرك النقاد أن الكلمة اذا حسنت لم يكن كل ما يشتق منها حسنا[٤١] ، كما فطنوا الى ان العرب مالوا من بعض المواد اللغوية الى صيغ بعينها ، فاستعملوها ، وأداروها في كلامهم ، ونفروا من صيغ أخرى لتلك المواد ، فاستغنوا عنها ، واستعملوا بدلا منها الفاظا من مواد اخرى ، فنحن نجدهم مثلا يستعملون المصدر ثم نجدهم لا يستعملون الفعل منه[٤٢] ، ونرى في اقوالهم صيغة اسم المفعول ، ثم لا نرى انهم استعملوا فعله[٤٣] ، وقد أشار ابن جني الى هذه الحقيقة بقوله : « واعلم ان العرب قد تستغني بالشيء عن الشيء حتى يصير المستغنى عنه مسقطا من كلامهم البتة ، فمن ذلك استغناؤهم بـ (ترك) عن (ودع) و (وذر) ، فاما قراءة بعضهم (ما ودعك ربك وما قلى) وقول ابي الاسود (حتى ودعه) فلغة شاذة [٤٤] » وقوله « ومن ذلك استغناؤهم بلمحة عن ملمحة وعليها كثرت ملامح وبشبه عن مشبه وعليه جاء مشابه[٤٥] » ، وقوله : « ومن ذلك استغناؤهم بقولهم : ما أجود جوابه عن (هو أفعل منك) من الجواب ... ومنه ايضا استغناؤهم باشتد وافتقر عن قولهم فقر وشدد وعليه جاء »[٤٦] .

وبسبب هذا نصح النقاد للادباء بالا يستعملوا الصيغ المتروكة ، او المستغنى عنها بغيرها ، وذلك لقبحها . قال العسكري : « ومن الالفاظ ما يستعمل رباعيه وخماسيه دون ثلاثيه ، ومنها ما هو بخلاف ذلك ، فينبغي الا تعدل عن جهة الاستعمال فيها ، ولا يغرك أن أصولها مستعملة ، فالخروج عن الطريقة المشهورة ، والنهج المسلوك ، رديء على كل حال . الا ترى ان الناس يستعملون (التعاطي) فيكون منهم مقبولا ولو استعملوا (العطو)

---

(٤١) دروس في البلاغة : ١٤٩ ، ١٥٢ .

(٤٢ ، ٤٣) نفسه .

(٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦) الخصائص : ١/٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ .

وهو أصل هذه الكلمة ؛ وهو ثلاثي ، والثلاثي اكثر استعمالا لما كان مقبولا ولا حسنا مرضيا ، فقس على هذا[٤٧] » .

وأخذ ابن الاثير بهذا الرأى ، فذهب الى ان بعض الالفاظ « اذا نقلت من هيئة الى هيئة ، كنقلها مثلا من وزن من الاوزان الى وزن آخر ، وان كانت اللفظة واحدة ، او كنقلها من صيغة الاسم الى صيغة الفعل او من صيغة الفعل الى صيغة الاسم او كنقلها من الماضي الى المستقبل او من المستقبل الى الماضي او من الواحد الى التثنية او الى الجمع او الى النسب او الى غير ذلك انتقل قبحها فصار حسنا ، وحسنها صار قبحا[٤٨] » .

ثم عرض ابن الاثير لطائفة من الالفاظ حكم عليها بأنها قبيحة ، ولم يكن سبب قبحها الا العدول بها من صيغة الى صيغة ، او من وزن الى آخر من ذلك كلمة (يدع) بمعنى (يترك) وكلمة (دع) بمعنى (اترك) فان كلا منهما حسن ، ودائر في الاستعمال ، الا ان الفعل الماضي من هذه المادة لم يستعمل الا على قلة ، واستعمل بدلا منه فعل آخر بمعناه ، ولكنه ليس من مادته وهو (ترك) . وعندما استعمل ابو العتاهية الفعل الماضي من مادة (يدع) فقال :

أثروا فلم يدخلوا قبورهم ... شيئا من الثروة التي جمعوا
وكان ما قدموا لأنفسهم ... أعظم نفعا من الذى ودعوا

علق ابن الاثير على قول ابي العتاهية هذا بقوله : « وهذا غير حسن في الاستعمال ولا عليه من الطلاوة شيء ، وهذه لفظة واحدة لم يتغير من حالها شيء سوى أنها نقلت من المستقبل الى الماضي[٤٩] » .

وكما رأينا الفعل الواحد تحسن منه صيغة ، ولا تحسن الاخرى ، كذلك الاسماء منها مايحسن مفردا، فاذا جمعته أو ثنيته قبح واستحق الاطراح.

---

(٤٧) الصناعتين : ١٤٩ .
(٤٨) المثل السائر : ١/٢٨١ .
(٤٩) نفسه : ١/٢٨٢ .

ومن الامثلة على ذلك كلمة (أخدع) ؛ فانها وردت في بيتين ، فكانت في احدهما مستملحة رائقة ، وكانت في الاخر ثقيلة مستكرهة ، قال الصمة بن عبدالله :

تلفت نحو الحيّ حتى وجدتني   وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا

وقال ابو تمام :

يا دهر قوّم من اخدعيك فقد   أضججت هذا الانام من خرقك

فعلق ابن الاثير على البيتين بقوله : « الا ترى انه وجد لهذه اللفظة في بيت أبي تمام من الثقل على السمع والكراهية في النفس ، اضعاف ما وجد لها في بيت الصمة بن عبدالله من الروح والخفة والايناس والبهجة ، وليس سبب ذلك الا أنها جاءت موحدة في احدهما ، مثناة في الاخر ، وكانت حسنة في حالة الافراد ، مستكرهة في حالة التثنية ، والا فاللفظة واحدة ؛ وانما اختلاف صيغتها فعل بها ما ترى[٥٠] » .

وكلمة (لبّ) بمعنى العقل ، لا تحسن ـ عند ابن الاثير ـ الا مجموعة او مضافة ، فاذا استعملت في حال الافراد ، عريت من كل حسن . واستدل على ذلك بأن القرآن الكريم لم يستعملها الا مجموعة كقوله تعالى (وليتذكر أولو الالباب) وقوله (ان في ذلك لذكرى لاولي الالباب) . وقد وردت مضافة في قول النبي (ص) : « ما رأيت ناقصات عقل ودين اذهب للب الحازم من احداكن يا معشر النساء » . ووردت مضافا اليها في قول جرير :

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به   وهن اضعف خلق الله أركانا[٥١]

وقد فطن ابن الاثير الى ان بعض الكلمات من وزن واحد ، ومع ذلك فان منها ما يحسن ويخف عند جمعه ؛ ومنها ما يثقل ويقبح ، مما يشير الى

---

(٥٠) المثل السائر : ١/٢٨٤ .
(٥١) نفسه : ١/٢٨٤ ، ٢٨٥ .

ان الامر يرجع الى الذوق لا الى قاعدة تطرد ، وقياس لا يختلف . فكلمة (طيف) لم تستعمل الا مفردة ، أما جمعها فقبيح متروك ، ولكن كلمة (ضيف) وهي مثلها وزنا ، نراها حسنة رائقة في حال الجمع والافراد . وكلمتا (عرقوب) و (جمهور) نراهما حسنتين في الجمع والافراد ، أما كلمة (عرجون) وهي مثلهما وزنا ، وعدة حروف ، فنراها تسمج وتقبح اذا جمعناها وقلنا (عراجين)[٥٢] .

ونجد مثل هذا الامر في الافعال التي من باب (فعل) ، فبعضها يحسن منه اشتقاق ثلاثة أوزان هي (فاعل) و (فَعِل) و (فعلان) فنقول : حسد فهو حاسد وحسد وحسدان . وبعضها لا يحسن منه الا اشتقاق وزن واحد ، اما الوزنان الاخران فقبيحان وان كانا جائزين ، كالفعل (فرح) الذي لا يحسن منه الا (فرح) اما (فارح) و (فرحان) فغير حسنين ، وان كانا جائزين ، على ان (فرحان) أحسن من (فارح) . ومما يدل على قبح (فارح) و (فرحان) عدم ورودهما في القرآن الكريم ، ومجيء (فرح) بدلا منهما فيه كقوله تعالى (كل حزب بما لديهم فرحون) وقوله (ان الله لا يحب الفرحين) . وقد جاءت لفظة (فارح) في بيت لاحد شعراء الحماسة :

فما أنا من حزن وان جلّ فازع ولا بسرور بعد موتك فارح

فعلق عليه ابن الاثير بقوله : « وهذا غير حسن وان جاز استعماله[٥٣] » . واذا كان وزن (فعلان) المشتق من (فرح) غير مستحب فان هذا الوزن اذا اشتق من الفعل (غضب) كان حسنا وسائغا . بل ان (غضبان) أجمل من (غاضب)[٥٤] .

فهناك اذن صيغ ثقيلة مسجوجة ، ينبو عنها الذوق ويأباها ، وما على الاديب الا ان يتباعد عنها ، ويستعيض منها بما يؤدي مؤادها من الصيغ

(٥٢) المثل السائر : ١/٢٨٧ ، ٢٩٠ .
(٥٣) نفسه : ١/٢٩١ .
(٥٤) نفسه .

والالفاظ التي درج الفصحاء من العرب على استعمالها • وللادباء بهذا الصدد أسوة حسنة بالقرآن الكريم الذي تحامى الصيغ المستكرهة ، وعدل عنها الى المستحب المستملح من ذلك ان الحس العربي لا يألف جمع كلمة (أرض)، وعلى هذا جاء التنزيل العزيز ، فلم ترد فيه كلمة (أرض) الا مفردة ، وقد تجيء فيه كلمة (السماء) مجموعة ، الا ان كلمة (ارض) تأتي معها في حال الافراد • قال تعالى : (له ما في السموات وما في الارض) وقال : (تنزيلا ممن خلق الارض والسماوات العلى) • وقد عبّر القرآن الكريم عن الارض مجموعة ، ولكن الجمع لم يكن جمعا صريحا ، قال تعالى : (الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن)[٥٥] •

٣ ـ الغـرابة :

ان العربية لغة قديمة عريقة تمتد جذورها بعيدا في أعماق الزمن ، وهذا يعني أنها تشتمل على ألفاظ كثيرة ماتة ، جفاها المتكلمون وهجروها تبعا لتطور اللغة ونمائها وحيويتها • ومن هنا برزت في النقد اللغوي مسألة مهمة ، أولاها النقاد ما تستحقه من العناية ، تلك هي مسألة الغرابة في الالفاظ • ولم تبرز هذه المسألة في النقد اللغوي ، الا لان بعض الادباء تعمدوا الاغراب ، وقصدوا الى الالفاظ النادرة والمهجورة ، تحدوهم على ذلك أسباب شتى ، منها « الاقتداء بالاوائل »[٥٦] ، والجرى على أساليبهم ، ومنها الادلال بمعرفتهم اللغة ، واطلاعهم على شواردها ، ومنها ما ساد عند بعضهم من مفهوم خاطىء عن البلاغة ، فقد ظنوها في الاغراب ، وتوخي الوحشي من الالفاظ[٥٧] •

اما النقاد فقد فطنوا الى ان الغرابة في الالفاظ تحول بين الاديب والمتلقي ، وتجعل استجابة الاخير صعبة او ممتنعة ، فحاربوا الغرابة ، وعدوها مخلة بفصاحة الكلام •

---

(٥٥) المثل السائر : ٢٨٦/١ • وينظر : دروس في البلاغة : ١٥٩ •
(٥٦) الوساطة : ١٩ •
(٥٧) سر الفصاحة : ٦١ •

واذا استثنينا اللغويين الذين شجعوا الغريب[٥٨] ، وحفلوا بالشعر المشتمل عليه ، رغبة في جمع اللغة ، وبحثا عن الشاهد ، فان أكثر النقاد قد انحازوا الى السهولة وظل ذلك ديدنهم[٥٩] .

وكان عمر (رض) قد عدّ الغرابة مخلة بالجودة ، وجعل السهولة في اللفظ مقياسا يرجع اليه في تقديم شاعر على شاعر ، فقال معللا تقديمه زهيرا على غيره من الشعراء : « انه كان لا يتتبع حوشي الكلام[٦٠] » .

ونقرأ في البيان والتبيين للجاحظ اقولا كثيرة ، تنفّر من الوحشي ، وتحض الادباء على تركه ، من ذلك قول بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ هـ) في صحيفته : « واياك والتوعّر ، فان التوعّر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين الفاظك[٦١] » .

ويذهب الجاحظ نفسه الى السهولة في الكتابة ، ويميل الى مذهب الكتّاب لانهم آثروا اللفظ الانيس على الوحشي النافر ، فيقول : « أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب : فانهم قد التمسوا من الالفاظ مالم يكن متوعرا وحشيا[٦٢] » .

وذهب ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) الى مثل رأى الجاحظ ، فقال عن الكاتب : « ونستحب له ان يدع في كلامه التقعير والتعقيب ... » .[٦٣]

وجاء قدامة (ت ٣٣٧ هـ) فعدّد عيوب الشعر ، وجعل منها « أن يركب الشاعر فيه ما ليس بستعمل الا في الفرط ، ولا يتكلم به الا شاذا وذلك هو الحوشي الذي مدح عمر بن الخطاب زهيرا بمجانبته له ، وتنكّبه اياه ، فقال : كان لا يتبع حوشي الكلام »[٦٤] .

---

(٥٨) الموازنة : ٢٨٦/١ .
(٥٩) النقد الادبي في العصر المملوكي : ٢٨٢ .
(٦٠) الموازنة : ٢٨٢/١ .
(٦١) البيان والتبيين : ١٣٦/١ .
(٦٢) نفسه : ١٣٧/١ .
(٦٣) ادب الكاتب : ١٢ .
(٦٤) نقد الشعر : ١٧٠ .

وفطن قدامة لمسألة مهمة ، تبرز عند الكلام على الغريب وهي ان لكل عصر لغته ؛ وان ما يعد غريبا في عصر ، لا يعد كذلك في عصر سابق ، واذا استعمل القدماء الالفاظ الغريبة فان ذلك لا يقدح في لغتهم ، لان تلك الالفاظ لم تكن غريبة في عصرهم ، بل كانت مما يألفونه ، ويتداولونه . قال قدامة : « وهذا الباب (اي الغريب) مجوز للقدماء ، ليس من أجل أنه حسن ، ولكن من شعرائهم من كان اعرابيا قد غلبت عليه العجرفية ، ومست الحاجة الى الاستشهاد باشعارهم في الغريب ، ولان من كان يأتي منهم بالحوشي لم يكن يأتي به على جهة التطلب والتكلف لما استعمله منه ، لكن لعادته وعلى سجية لفظه . فأما اصحاب التكلف لذلك فهم يأتون منه بما ينافر الطبع ، وينبو عنه السمع ، مثل شعر ابي حزام غالب بن الحارث العكلي وكان في زمن المهدي[٦٥] » .

وعرض القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) للموضوع نفسه ، فذكر ان العربية لغة صحراوية ، وأنها من أجل ذلك حافلة بمادة كبيرة تتعلق بالصحراء ، وتعبّر عما فيها من ضروب الحياة ، وان تلك المادة لم تخل من الفاظ كثيرة اتسمت بالثقل ؛ وحين هجر الناس الصحراء ، ونزعوا الى الحواضر ، وأقاموا فيها ، اختاروا من المادة اللغوية الينها وأسهلها ؛« وعمدوا الى كل شيء ذي اسماء كثيرة ، اختاروا أحسنها سمعا ، وألطفها من القلب موقعا ، والى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على اسلسها وأشرفها ، كما رأيتم يختصرون اللفظ الطويل فأنهم وجدوا للعرب فيه نحوا من ستين لفظة اكثرها بشع شنع كالعشنط والعنطنط والعشنّق والجسرب والشوقب والسلهب والشوذب والطاط والطوط والقاق والقوق ؛ فنبذوا جميع ذلك وتركوه ، واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان ، وقلة نبو السمع عنه »[٦٦] .

(٦٥) نقد الشعر : ١٧٠ ، ١٧١ .
(٦٦) الوساطة : ١٨ .

والجرجاني بذلك يشير الى قانون لغوي عام ، تتعرض له كل لغة تطول بها الحياة ، وهو قانون ينظر الى اللغة على انها شجرة ، اوراقها الالفاظ ، وان هذه الالفاظ دائمة التجدد ، كلما سقط منها شيء ، نبت مكانه شيء آخر ، وكما ان الشجرة لا تظل جميع اوراقها دائمة النضرة ، وانما يسقط منها ما يسقط ، فكذلك اللغة لا تبقى جميع الفاظها حيّة مستعملة ، بل ان منها ما يدركه الهرم وتناله الشيخوخة ، فيسقط ، ويحل محله لفظ آخر •

فالقاضي الجرجاني اذن يدعو الى أن تجفى الالفاظ الغريبة التي إن صلحت للتعبير عن حاجات الاوائل فهي لا تصلح للتعبير عن اغراض قوم تحضروا ، وغلب عليهم اللين •

واذا جئنا الى أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) وجدناه يصرّح بأن « الاستعانة بالغريب عجز[٦٧] » • ووجدناه كذلك لا يرضى عن الرواة الذين أولعوا بالغريب ، ولم يرووا من الشعر الا ما كثر غريبه ، وقل تداول الرواة له ، فيقول : « وكان المفضل يختار من الشعر ما يقل تداول الرواة له ، ويكثر الغريب فيه ؛ وهذا خطأ من الاختيار لان الغريب لم يكثر في كلام الا أفسده ، وفيه دلالة الاستكراه والتكلف[٦٨] » •

وكان للامدي (ت ٣٧٠ هـ) في الغريب رأى آخر ، يختلف قليلا عن آراء من عرضنا لهم من النقاد السابقين ، فهو يوافقهم حينا فيعد الغريب هجنة ، وينعى على ابي تمام تورطه فيه ، وطلبه الشديد له ، فيقول : « وأما قول عمر رضي الله عنه في زهير : انه كان لا يتتبع حوشي الكلام ، فان ابا تمام كان لعمرى يتتبعه ويتطلبه ، ويتعمل لادخاله في شعره »[٦٩] • وهو يخالفهم حينا آخر ، فيهادن الغريب ، ويقلل من حملته عليه ، ويسمح لقدر معين منه بأن يتسرب الى الشعر ، ويأخذ مكانه من القصيد ، ولكن على شروط

---

(٦٧) الصناعتين : ٣ •
(٦٨) نفسه •
(٦٩) الموازنة : ٢٨٢/١ •

هي : الا يقع في ابتداء القصيدة ، والا يتجاور ويتلاحق بل يأتي متفرقا ، قد انفصل بعضه عن بعض بالفاظ سهلة واضحة ، وان يكون دون الوحشي ، والوحشي عنده هو ما غرب على البدو أنفسهم ، وقلّ تداولهم اياه . ويتضح لنا موقف الامدى هذا من تعليقه على الالفاظ الغريبة التي ضمها أحد مطالع ابي تمام وهو :

قـدك اتئـب أربيت في الغـلواء

قال الامدى : « وزاد هذه الالفاظ هجنة أنها ابتداء قصـيدة »[٧٠] . وقال في موضع آخر : « وأما قوله (قدكِ اتئب اربيت في الغلواء) فانها الفاظ صحيحة فصيحة ، من الفاظ العرب ، مستعملة في نظمهم ونثرهم ، وليسـت من متعسف الفاظهم ، ولا وحشي كلامهم ، ولكن العلماء بالشعر انكروا عليه ان جمعها في مصراع واحد ، وجعلها ابتداء قصيدة ، ولم يفرق بينها بفواصـل »[٧١] . وقال في موضع آخر : « فمن شأن الشاعر الحضري ان يأتي في شعره بالالفاظ العربية المستعملة في كلام الحاضرة ، فان اختار أن يأتي بما لا يستعمله اهل الحضر ، فمن سبيله ان يجعله من المستعمل في كـلام اهـل البـدو دون الوحشي الذي يقل استعمالهم اياه ، وان يجعله متفرقا في تضاعيف الفاظه ، ويضعه في مواضعه فيكون قد اتسع مجاله بالاستعانة به ، ودل على فصاحته وعلمه ، وتخلص من الهجنة »[٧٢] .

ولا ادري كيف جعل الامدي هنا استعمال الغريب دليلا على الفصاحة ، مع ان الفصاحة عند النقاد والبلاغيين تعني الظهور والوضوح . وقد رد ابن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ) على من زعم ان الفصاحة باستعمال الالفاظ التي يتعذر فهمها فقال : « وجرى بين اصحابنا في بعض الايام ذكر شيخنا ابي العلاء بن سليمان المعرى فوصفه واصف من الجماعة بالفصاحة، واستدل على

(٧٠) الموازنة : ٢٨٣/١ .
(٧١) نفسه : ٤٤٣/١ .
(٧٢) نفسه : ٤٤٣/١ ، ٤٤٤ .

ذلك بأن كلامه غير مفهوم للكثير من الادباء ، فعجبنا من دليله ، وان كنا لم نخالفه في المذهب ، وقلت له : ان كانت الفصاحة عندك بالالفاظ التي يتعذر فهمها فقد عدلت عن الاصل اولا في المقصود بالفصاحة التي هي البيان والظهور ، ووجب عندك ان يكون الاخرس افصح من المتكلم لان الفهم من اشاراته بعيد عسير وانت تقول كلما كان اغمض وأخفى كان أبلغ »[٧٣].

وخلاصة موقف الامدي من الغريب انه نوعان : الاول وهو ما غرب على اهل الحضر ، ولكن البدو يستعملونه ويتداولونه ، ولا بأس على الشاعر الحضري ان اودع شعره شيئا منه ، استعانة به ، واظهارا لثقافته اللغوية على الا يجعله في ابتداء القصيدة ، ولا يحشره او يراكمه . والثاني هو ما غرب على البدو انفسهم ، وقد سماه الامدي بالوحشي ، وهو قبيح يحسن بالشاعر الا يعرج عليه ، أو يأتي بشيء منه .

ولم يختلف موقف ابن سنان وعبدالقاهر الجرجاني عن موقف من سبقهما من النقاد ، فقد ذمّا الغريب وذهبا الى انه هجنة ، تقدح في الكلام ، وتسلبه صفة الفصاحة .

وكان لابن الاثير رأي خاص في الغريب . فقد أفاض في الكلام عليه ، وأشبعه بحثا وبيانا ، وذهب الى انه لا يقبح أبدا ، بل ان منه الحسن ومنه القبيح ، وذكر ان النقاد قد خفي عليهم امره ، فوصفوه بالقبح ، وفاتهم انه نوعان : غريب حسن ، وغريب قبيح . قال ابن الاثير : « وقد خفي الوحشي على جماعة من المتسمين الى صناعة النظم والنثر ، وظنوه المستقبح من الالفاظ وليس كذلك ، بل الوحشي ينقسم قسمين : أحدهما غريب حسن ، والآخر غريب قبيح ؛ وذلك انه منسوب الى اسم الوحش الذي يسكن القفار ، وليس بأنيس ، وكذلك الالفاظ التي لم تكن مانوسة الاستعمال ، وليس من شرط الوحش ان يكون مستقبحا ، بل أن يكون نافرا لا يألف الانس ، فتارة يكون حسنا ، وتارة يكون قبيحا ، وعلى هذا فان أحد قسمي الوحشي ، وهو

(٧٣) سر الفصاحة : ٦١ .

الغريب الحسن ، يختلف باختلاف النسب والاضافات واما القسم الاخر من الوحشي الذي هو قبيح فان الناس في استقباحه سواء ، ولا يختلف فيه عربي باد ، ولا قروى متحضر[٧٤] » .

وقد بنى ابن الاثير على هذا الاساس ان الالفاظ تنقسم على ثلاثة أقسام « قسمان حسنان ، وقسم قبيح . فالقسمان الحسنان احدهما ما تداول استعماله الاول والاخر من الزمن القديم الى زماننا هذا ، ولا يطلق عليه انه وحشي ، والاخر ما تداول استعماله الاول دون الاخر ، ويختلف في استعماله بالنسبة الى الزمن وأهله ، وهذا هو الذي لا يعاب استعماله عند العرب لانه لم يكن عندهم وحشيا وهو عندنا وحشي ، وقد تضمن القرآن الكريم منه كلمات معدودة ، وهي التي يطلق عليها غريب القرآن . وكذلك تضمن الحديث النبوى منه شيئا ، وهو الذي يطلق عليه غريب الحديث ... واما القبيح من الالفاظ الذي يعاب استعماله فلا يسمى وحشيا فقط ، بل يسمى الوحشي الغليظ[٧٥] » . ويوضح الوحشي الغليظ فيقول : « فلا تظن ان الوحشي من الالفاظ ما يكرهه سمعك ، ويثقل عليك النطق به ، وانما هو الغريب الذي يقل استعماله ، فتارة يخف على سمعك ولا تجد به كراهة ، وتارة يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة ، وذلك في اللفظ عيبان : احدهما انه غريب الاستعمال ، والاخر انه ثقيل على السمع ، كريه على الذوق . واذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته ، وهو الذي يسمى الوحشي الغليظ ، ويسمى ايضا المتوعر ، وليس وراءه في القبح درجة أخرى ولا يستعمله الا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله معرفة هذا الفن اصلا[٧٦] » .

ويستفاد من كلام ابن الاثير ان الغريب على درجتين : فمنه ما اتسم بخفاء المعنى ، وغموض الدلالة فقط ، وذلك بسبب غيابه عن الاستعمال ، وجفاء

---

(٧٤) المثل السائر : ١/١٥٥ ، ١٥٦ .
(٧٥) نفسه : ١/١٥٦ ، ١٥٧ .
(٧٦) نفسه : ١/١٦٢ .

الادباء له ، وقد سماه ابن الاثير (الغريب الحسن) ، ومنه ما جمع الى خفاء الدلالة وغموض المعنى ، عيوبا حسيّة أخرى كالثقل وتنافر الحروف ، وهذا هو ما سماه ابن الاثير (الغريب القبيح) أو (الوحشي الغليظ) ، وذهب الى انه قبيح تكرهه النفس ، وتمجه الاذن . ثم قال : ان العرب « لا تلام على استعمال الغريب الحسن من الالفاظ ، وانما تلام على الغريب القبيح ، وأما الحضري فانه يلام على استعمال القسمين معا ، وهو في أحدهما أشد ملامة من الاخر »[٧٧] .

وساق ابن الاثير بعد ذلك أمثلة للغريب الحسن ، استقى بعضها من كتاب بعث به النبي (ص) الى بني نهد جاء فيه : « من محمد رسول الله الى بني نهد ، السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة[٧٨] ، ولكم الفارض والفريش[٧٩] ، وذو العنان الركوب ، والفَلُوّ الضَّبيس[٨٠] ، لا يُمْنَع سرحكم[٨١] ، ولا يُعْضَد طلحكم[٨٢] ، ولا يُحبَس درّكم ، ولا يؤكل أكلكم ، مالم تضمروا الاماق[٨٣] ، وتأكلوا الرباق[٨٤] ، من أقرّ بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة ، ومن أبى فعليه[٨٥] الرّبوة[٨٦] » . ثم ساق امثلة للغريب القبيح منها قول أبي تمام :

---

(٧٧) المثل السائر : ١/١٦٥ . وانظر الجامع الكبير : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ .

(٧٨) لكم في الفريضة الوظيفة : اي لكم في فريضة الزكاة الهرمة المسنة . يريد انها تبقى لكم ولا تؤخذ منكم .

(٧٩) الفريض والفارض : المسن من الابل . والفريش : الناقة الحديثة النتاج كالنفساء من النساء .

(٨٠) الفلو الضبيس : المهر العسر الذي لم يرض .

(٨١) السرح : الماشية . يريد انها لا تصرف عن مرعى تريده .

(٨٢) يعضد طلحكم : يقطع شجركم .

(٨٣) الاماق : مصدر أماق الرجل الذي صار ذا حمية وانفة وقيل صار ذا حدة وجراة . والمراد هنا مالم تضمروا الغدر .

(٨٤) الرباق : جمع ربقة وهي عروة من حبل تجعل في عنق البهمة او في يدها تمسكها . وقد شبه مايلزم الاعناق من العهد بالرباق . واستعار الاكل لنقض العهد .

(٨٥) اي من امتنع عن الزكاة وجبت عليه الزيادة كعقوبة له .

(٨٦) المثل السائر : ١/١٦١ ، ١٦٢ .

قد قلت لما اطلخم الامر وانبعثت   عشواء تالية غُبْسا دهاريسا[٨٧]

وقد علق عليه قائلا : « فلفظة اطلخم من الالفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين في انها غريبة وانها غليظة في السمع كريهة على الذوق . وكذلك لفظة دهاريس ايضا[٨٨] » .

ومن الامثلة على الغريب القبيح قول المتنبي :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم   شيم على الحسب الاغر دلائل

وقد علق عليه ابن الاثير بقوله : « فان لفظة جفخ مرة الطعم ، واذا مرّت على السمع اقشعر منها[٨٩] » ثم لام المتنبي على استعماله اياها ، وقد كانت له عنها مندوحة ، لان معناها (فخرت) قال : « ولو استعمل عوضا عن (جفخت) فخرت لاستقام وزن البيت ، وحظي في استعماله بالاحسن[٩٠] » .

ولابن الاثير بشأن الغريب رأي آخر ، لم نقع عليه عند سابقيه ، وهو أن « الغريب الحسن يسوغ استعماله في الشعر ولا يسوغ في الخطب والمكاتبات[٩١] » وأحس ابن الاثير ان رأيه هذا قد يلقى معارضة فقال : « وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهي الى ما أوردته من الامثلة ، ولربما انكره بعد ذلك أما عنادا واما جهلا لعدم الذوق السليم عنده[٩٢] » .

واما الامثلة التي أوردها واستدل بها على ان الغريب الحسن يسوغ في الشعر دون النثر فهي كثيرة منها قول الفرزدق :

ولولا حياء زدتُ رأسَك شجّةً   اذا سُبرت ظلت جوانبها تغلي

شَرَ نبثةً شمطاء من يرتمي بها   تَشُبْهُ ولو بين الخُماسي والطّفل

---

(٨٧) اطلخم : اظلم . عشواء : مؤنث الاعشى وهو الذي لا يبصر ليلا . والغبس : جمع غبساء او اغبس وهي المظلمة . الدهاريس : الدواهي.
(٨٨) المثل السائر : ١٦٤/١ .
(٨٩) نفسه .
(٩٠) نفسه : ١٦٥/١ .
(٩١) نفسه :
(٩٢) نفسه .

وقد علق ابن الاثير عليه قائلا : « فقوله شرنبثة من الالفاظ الغريبة التي يسوغ استعمالها في الشعر وهي ههنا غير مستكرهة ، الا انها لو وردت في كلام منثور من كتاب ، أو خطبة لعيبت على مستعملها » [٩٣] .

وقول ابي تمام الذي جاءت فيه كلمة (الشدنيّة) :

يا مُوضعَ الشَدَنِيّة الوَجْناء

فان الشدنية « لا تعاب شعرا ، وتعاب لو وردت في كتاب أو خطبة » [٩٤] .

ولم يكن ابن الاثير ليذهب هذا المذهب ، ويقرر ان الغريب يسوغ أحيانا في الشعر ، ولا يسوغ بحال في النثر ، لو لم يدرك ان الشعر وظيفة غير وظيفة النثر ، فاذا كان النثر في أكثر أمره يهدف الى الافهام ونقل المعاني ، ويقتضي ان تشف كلماته في يسر عن القصد [٩٥] ، فان الشعر لا يكتفي بهذا ، بل يسعى الى التأثير والايحاء ، ولا يتم له ذلك الا اذا كانت الفاظه من غير المألوف المتداول ، الذي لاكته الالسن ، حتى فقد كل قدرة على التأثير والايحاء . وقد التقى ابن الاثير برأيه هذا ومن يقول من النقاد المحدثين بان الفاظ الشعر « أميل الى الاغراب والطرافة ، وأبعد عن الابتذال من الفاظ النثر » [٩٦] ذلك لان الفاظ الشعر من شأنها ان « تثير الخيال ، فهي أكثر ايحاء من الفاظ النثر ، فلفظة (سجا) في قول شوقي :

سجا الليل حتى هاج بي الشعر والهوى

لفظة شعرية لا تجاريها لفظة اخرى في هذا المقام » [٩٧] .

وقريب من رأي ابن الاثير ايضا ما ذهب اليه تشارلتن من ان الشعراء أحيانا اذا ارادوا التعبير عن تجارب مرّت بهم ، أو خواطر طافت بأذهانهم ،

---

(٩٣) المثل السائر : ١/١٦٥ ، ١٦٦ .
(٩٤) نفسه : ١/١٦٧ ، ١٦٨ .
(٩٥) المدخل الى النقد الادبي الحديث : ٢٤٦ .
(٩٦ ، ٩٧) النقد الجمالي : ١٠٠ .

اختاروا « للتعبير عما في نفوسهم الفاظا توحي بالمعاني ولا تحددها ، وذلك باستخدامهم كلمات لم يكثر دورانها على الالسنة ، ولم تألفها الاسماع ، فتكون غرابتها وندرتها سببا في ابهامها وعدم تحديدها ، لانها عندئذ تكون كالوعاء المليء بمادة مجهولة ، فلا ندري ، على وجه التحديد والدقة ، على أي شيء يحتوي » (٩٨) .

ولكن الشعراء ، كما يرى تشارلتن ، لا يلجأون الى اللفظ الغريب ، الا حين تكون التجارب التي يريدون التعبير عنها « مما لا يألفه الناس في الحياة الجارية ، فاذا رأيتهم يطلقون على الاشياء غير اسمائها ، فاعلم أنهم لا يفعلون ذلك عبثا ، ولو ارادوا الاسماء المعروفة للاشياء لاطلقوها » (٩٩) .

وعلى هذا فأن طبيعة التجربة ، والشعور الذي يستأثر بالشاعر ، ويطلق لسانه بالتعبير ، هو الذي يملي استعمال هذا ، وترك ذاك من الالفاظ ، فاذا اراد الشاعر « شيئا مألوفا ، فليطلق عليه اسمه المألوف ، اما ان أراد صورة فيها شيء من الغرابة لانه أحسها في نفسه غريبة ، فيجوز له ان يلجأ الى اللفظ الغريب المبهم » (١٠٠) .

وهكذا فان ابن الاثير لم يجانب الصواب حين قرر ان الغريب أحيانا يحسن في الشعر ، ولا يصلح ان يحل محله ما يرادفه من الالفاظ الشائعة والمألوفة ، ولكن ابن الاثير لم يعلل ذلك ، ولم يبسط اسبابه ، على نحو مافعل بعض المحدثين .

وقد يقال : ان الامدي أجاز أيضا للشاعر الحضري ان يصطنع الغريب، وبهذا فان ابن الاثير لم ينفرد بدعوى ان الغريب يحسن في الشعر دون النثر . فنقول : ان الامدى انما أجاز الغريب للشاعر ، لانه قصد بذلك ان يوسع عليه مجال اللغة ، ليتلافى ما يعترض طريقه من صعوبات الوزن والقافية ، كما

---

(٩٨) فنون الادب : ١٠ ، ١١ .
(٩٩) نفسه : ١١ .
(١٠٠) نفسه : ١٢ .

قصد ان يتيح للشاعر مجالا لاظهار ثقافته ، ومقدرته اللغوية ، اما ابن الاثير فقد صدر في رأيه عن فهم عميق لفطرة الشعر ، واحساس بما يتطلبه أحيانا من الفاظ تكون ندرتها وغرابتها عونا للشاعر على مزيد من الافصاح والتعبير، والتحريك والايحاء . واذا كان ابن الاثير لم يفصح عن ذلك صراحة ، فقد جعلنا نحسه ، حين وازن الشعر بالنثر ، وجعل النثر مما لا يحسن فيه الغريب. وهذا يعني ـ دون شك ـ ان النثر في نظره يرمي الى النقل والايضاح ، اما الشعر فما يرمي اليه أبعد من ذلك بكثير . واذا كان الغريب عند الامدي ينبع احيانا من حاجة شكلية ، هي اقامة الوزن ، وتصحيح القافية ، فان الغريب عند ابن الاثير لا ينبع الا من حاجة ملحة ، لانه عنصر مهم من عناصر التعبير عن نمط من التجارب والخواطر ، لا يصلح اللفظ المالوف او الشائع للتعبير عنها .

والحقيقة ان ابن الاثير كان قد ذهب في كتابه (الجامع الكبير) الى قريب مما ذهب اليه الامدي بشأن الغريب ، ولكنه رجع عنه في كتاب (المثل السائر) وهو متأخر في زمن تأليفه عن كتاب (الجامع الكبير) كما يرجح بعض الباحثين (١٠١) . لقد ذهب ابن الاثير الى ان الشاعر يجوز له ان يستعمل الوحشي من الكلام اذا اضطرته اليه ضرورات الوزن او القافية ، اما الناثر فلا يجوز له ذلك ، لان مجال القول امامه متسع وفسيح . قال : « واعلم ان الانكار على الناثر في استعمال الوحشي من الكلام أكثر من الانكار على الناظم ، وذلك لان الناثر واسع المجال ، مطلق العنان ، متصرف كيف شاء ، قادر على أن يقيم مكان اللفظة التي ذكرها لفظة أخرى مما هو في معناها . والناظم قد لا يمكنه ذلك لان مجال التأليف عليه حرج ، ونطاقه ضيق . واذا أراد ان يقيم لفظة مكان لفظة لا يتأتى له ذلك في جميع الحالات ، لانضاد الوزن عليه »(١٠٢) .

---

(١٠١) ضياءالدين بن الاثير وجهوده في النقد : ١١٠ .

(١٠٢) الجامع الكبير : ٤٨ .

وواضح ان الغريب هنا وليد حاجة شكلية ، يؤدي عدم تلبيتها الى الاخلال بالوزن او القافية ، اما الغريب كما يلمح في قول ابن الاثير الثاني ، فهو نابع من حاجة ملحة ، لانه مرتبط بتجربة معينة ، لا يصلح للابانة عنها الا اللفظ النادر او الغريب . وبعيد ما بين القولين .

ولكن ينبغي الا تنسى ان ابن الاثير كان كغيره من النقاد ، يجد في الغريب هجنة تقدح في الكلام ، شعرا او نثرا ، واذا كان قد رآه يسوغ أحيانا في الشعر دون النثر ، اذا اقتضته طبيعة التجربة ، ودفعت اليه ظروف القول ، فانه انكره ، وعده مما يسلب الكلام صفة الجمال والجودة ، اذا كان الدافع اليه تقليد الاوائل ، أو تكلف مناحيهم في التعبير . ولا شك في أن هذا يحدث في عصور ضعف الشعر ، كما يرى تشارلتن ، حيث يقل النوابغ ، ويكثر المتكلفون الذين « يقصدون الى اشياء معروفة مألوفة ولكنهم يلفونها في لفظ غريب ، فيبهموا الصور ويطمسوها ، وعندئذ تكون غرابة اللفظ ضعفا لا قوة » (١٠٣) .

٤ ــ العامية :

وكما كان النقاد العرب يكرهون الكلمة الحوشية ، فقد كانوا كذلك يكرهون الكلمة العامية ، المبتذلة ، وقد سماها بعضهم بالسوقية . قال الجاحظ : « كما لا ينبغي ان يكون اللفظ عاميا ، ولا ساقطا سوقيا ، فكذلك لا ينبغي ان يكون وحشيا » (١٠٤) . وعاب الامدي على ابي تمام استعماله كلمة (تفرعن) في قوله :

جليت والموت مبدٍ حرّ صفحته وقد تفرعن في افعاله الأجل

وذلك لان (تفرعن) من الفاظ العامة (١٠٥) .

(١٠٣) فنون الادب : ١١ ، ١٢ .
(١٠٤) العمدة : ١٣٣/١ .
(١٠٥) الموازنة : ٢٢٧/١ .

وكان العسكري يقول : « المختار من الكلام ما كان سهلا جزلا لايشوبه شيء من كلام العامة ، والفاظ الحشوية ، وما لم يخالف فيه وجه الاستعمال ، الا ترى إلى قول المتنبي :

اين البطاريقُ والحَلْفُ الذي حَلَفوا بمفرق الملْك والزعم الذي زعموا

هذا قبيح جدا ، وانما سمع قول العامة : حلف برأسه ، فاراد ان يقول مثله فلم يستو له فقال : بمفرق الملك ، ولو جاز هذا لجاز ان يقول : حلف بيافوخ ابيه وبقَمَحْدُوة سيده »(106) .

وجاء ابن سنان فجعل من شروط فصاحة الكلمة ان تكون « غير ساقطة عامية »(107) وأخذ على ابن نباتة استعماله لفظة (فطير) في قوله :

اقام قوام الدين زيغ قناته وانضج كي الجرح وهو فطير

قال ابن سنان : « فتأمل لفظة فطير تجدها عامية مبتذلة »(108) .

وانكر ابن سنان ايضا على المتنبي استعماله (عنب الثعلب) في قوله :

خلوقيــــة في خلوقيتهـــا سويداء من عنب الثعلب

فعلق ابن سنان عليه قائلا : « فان عنب الثعلب مما اقول ان العامة لو نظمت شعرا لترفعت عن ذكره » (109) .

ثم عاب ابن سنان الفاظا اخرى وردت عند بعض الشعراء ، بسبب كونها من الفاظ العوام ، وهي (أوجعتها) و (كيمياء) و (الجورب) ونعى على الشعراء استخدامهم اياها ، وعجب من ابقائهم عليها ، وكان يرى ان الاولى بهم ان يحذفوا الابيات التي جاءت فيها تلك الكلمات ، ان لم يكونوا قادرين على ابدالها بكلمات لم تمتهن ، أو تبتذل باستعمال العامة لها (110) .

---

(106) الصناعتين : 149 . والقمحدوة : مؤخر القذال .
(107) سر الفصاحة : 63 .
(108) نفسه .
(109) نفسه : 64 .
(110) سر الفصاحة : 65 .

أما ابن الاثير فقد اشترط أيضا لجودة الكلمة الا تكون مبتذلة بين العامة ، ثم جعل المبتذل العامي ، والساقط السوقي ضربين : الاول ما كان دالا على معنى ، ثم غيرته العامة وجعلته دالا على معنى آخر ، فاذا استخدمه الشاعر ، واراد به المعنى الذي تريده العامة ، عابه النقاد ، ورموه بالجهل بأصول اللغة ، وبالمعاني التي وضعت لها المفردات . ومن الامثلة على ذلك كلمة (ظريف) التي تطورت دلالتها على السنة العوام ، وصارت تطلق على الانسان « اذا كان دمث الاخلاق ، حسن الصورة او اللباس » على حين أن « الظرف في اصل اللغة مختص بالنطق فقط »[١١١]

وقد عاب ابن الاثير ابا نواس لاستعماله كلمة (ظريف) بالمعنى الذي اشتهر بين العوام ، فقال [١١٢] :

اختصم الجود والجمال	فيك فصارا الى جدال
فقال هذا : يمينه لي	للعرف والبذل والنوال
وقال هذاك : وجهك لي	للظرف والحسن والكمال
فافترقا فيك عن تراض	كلاهما صادق المقال

كما عاب ابا تمام لقوله :

لكَ هضبةُ الحِلمِ التي لو وازنتْ	أجأ اذن ثقلت وكان خفيفا
وحلاوةُ الشيَمِ التي لو مازجتْ	خُلُق الزمان الفَدْم عاد ظريفا

وقد علق ابن الاثير على هذين البيتين بقوله : « وابو تمام غلط في انه وصف الخلق بالظرف ، وهو من صفات النطق أيضا » [١١٣] . والذي أراه ان ابن الاثير قد وهم لان ابا تمام اراد بكلمة (ظريف) أصل معناها وهو

(١١١) المثل السائر : ١/١٨١ .
(١١٢) نفسه .
(١١٣) المثل السائر : ١/١٨١ ، ١٨٢ .

(الذرابة) و (جودة النطق) وذلك بقرينة (الفدم) التي تعني « العيي عن الكلام في ثقل ورخاوة » [114] .

والقسم الثاني من المبتذل العامي ، وهو ما لم تغيره العامة ، الا انها اختصت باستعماله ، فابتذل وامتهن لكثرة دورانه على الالسن ، وكثرة طرقه للاسماع .

وقد فطن ابن الاثير الى أن ما كثر استعمال العوام له ، ليس كله من المبتذل ، المنصوح بالتباعد عنه في اللغة الادبية ، بل ان من الالفاظ ما يتردد على السنة العوام دون ان يكون ذلك مما يفسده ، او يذهب بجماله وطرافته، كالفاظ السماء والارض والنار والماء والحجر والطين ، وأشباه ذلك . اما الالفاظ التي رآها ابن الاثير سمجة وثقيلة ، بسبب تداول العامة لها ، فهي الالفاظ التي سماها بـ « السخيفة الضعيفة » . وواضح ان مثل هذه الالفاظ لا يميز الا بالذوق فهو وحده المرجع في معرفتها . ومن الامثلة على هذا الضرب من الالفاظ كلمة (الشطار)التي وردت في قول البحتري :

وملحّة في العذل تحسب انني   بالجهل اترك صحبة الشطار

وكلمة (اللقالق) التي جاءت في قول المتنبي :

وملمومه سيفيةٌ رَبعِيَّة   يصيح الحصا فيها صياح اللقالق

ووصفها ابن الاثير بانها « مبتذلة بين العامة جدا » [115] .

ه ــ الجزالة والسهولة والرقة :

وقسم النقاد العرب الالفاظ على ضروب خمسة : هي الحوشي والسوقي والجزل والسهل والرقيق . وما ورد عندهم من صفات أخرى كالمتين والفخم والسمح والعذب لا يخرج عما ذكرناه ، ولا يضيف جديدا اليه . وقد تقدم

(١١٤) القاموس المحيط (فدم) .
(١١٥) المثل السائر : ١٨٢/١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ .

القول في الحوشي والسوقي ، ورأينا النقاد ينفرون منهما ، وينصحون للادباء بالتباعد عنهما ،فما كان موقفهم من الجزالة والسهولة والرقة ؟

اذا بحثنا عن (الجزل) في المعجم وجدناه يعني : « الحطب اليابس ، او الغليظ منه » ووجدنا في المعجم أيضا « والجزل خلاف الركيك من الالفاظ » [116] . فالكلمة في أصل وضعها اللغوي تعني القوة والمتانة ، ثم أخذ النقاد هذه الكلمة وصاروا ينعتون بها الالفاظ ، فاللفظ الجزل عندهم هو اللفظ القوي . ولما كان اللفظ الحوشي يتسم عادة بالجفاء والقوة ، كما يتسم بخفاء الدلالة ، وغموض المعنى ، فقد احتاط غير ناقد ، واشترطوا مع (الجزالة) صفة أخرى هي (السهولة) .

و (السهولة) عندهم مزدوجة الدلالة فهي تعني سلاسة الكلمة ، وعذوبة وقعها في السمع ، كما تعني وضوح المعنى وظهوره . يقول بعض الباحثين : « تطلق السهولة ويراد بها خفة اللفظ ، كما تطلق ويراد بها وضوح المعنى » [117] .

وواضح ان النقاد لم يشترطوا لجودة الكلمة ان تكون (جزلة) و (سهلة) الا ليبتعدوا بها عن ضربين من الالفاظ ، كانا موضع ازدرائهم ، وهما (الحوشي) أو (الوحشي) و (العامي) أو (السوقي) .

وهذا يعني ان الجيد من الالفاظ ما تحققت له منزلة بين منزلتين : فلا يكون وحشيا ، ثقيل الجرس ، مبهم الدلالة ، ولا يكون عاميا رخوا ، أو ضعيفا ركيكا . و لاتحقق للفظ هذه المنزلة الا اذا كان جزلا وسهلا ، لان الجزالة تكفل له مباينة الفاظ العامة وما اليها من الضعيف والسخيف كما ان السهولة بمفهومها المزدوج تخلصه من غلظة البدوي ، وغموض دلالته .

غير ان ثعلبا والعسكري قد صرحا بوجوب توافر هاتين الصفتين في اللفظ . قال ثعلب : « فاما جزالة اللفظ فما لم يكن بالمغرب المستغلق البدوي ،

---

(١١٦) القاموس المحيط : (جزل) .
(١١٧) النقد الادبي في العصر المملوكي : ٢٨٢ .

ولا السفساف العامي ، ولكن ما اشتد أسره وسهل لفظه ، ونأى واستصعب على غير المطبوعين مرامه ، وتوهم امكانه » [١١٨] . وقال العسكري « وأجود الكلام ما يكون جزلا سهلا ، لا ينغلق معناه ، ولا يستبهم مغزاه » [١١٩] .

كما ان هناك من اكتفى بوصف اللفظ الجيد بالسهولة ، ورآها بمفهومها المزدوج تحقق له المنزلة المطلوبة ، وهي التوسط بين الوحشي الغريب ، والعامي القريب ، كابن قتيبة الذي قال : « وفيما ذكرت منه (أي الشعر) ما دلك على ما أردت من اختيارك احسن الروى وأسهل الالفاظ ، وابعدها من التعقيد والاستكراه ، وأقربها من افهام العوام ، وكذلك اختار للخطيب اذا خطب والكاتب اذا كتب ، فانه يقال : أسير الشعر والكلام المطمع ، يراد الذي يطمع في مثله من سمعه ، وهو مكان النجم من يد المتناول » [١٢٠] . والقاضي الجرجاني الذي قال : « فلا تظنن أني اريد بالسمح السهل الضعيف الركيك ... بل اريد النمط الاوسط ما ارتفع عن الساقط السوقي ، وانحط عن البدوي الوحشي » [١٢١] .

ومن النقاد كذلك من لم ينعت اللفظ الجيد باحدى هاتين الكلمتين أو بهما معا ، ولكنه اكتفى بوصف حاله ، وتحديد منزلته المتفق عليها ، كالجاحظ الذي قال : « كما لا ينبغي ان يكون اللفظ عاميا ولا ساقطا سوقيا ، فكذلك لا ينبغي ان يكون وحشيا ، الا ان يكون المتكلم به بدويا اعرابيا ، فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقي رطانة السوقي » [١٢٢] . وابن رشيق الذي قال : « وليتجنب السوقي القريب ، والحوشي الغريب ، حتى يكون شعره حالا بين حالين » [١٢٣] .

---

(١١٨) قواعد الشعر : ٦٧ .
(١١٩) الصناعتين : ٦٧ .
(١٢٠) الشعر والشعراء : ١٠٣/١ .
(١٢١) الوساطة : ٢٤ .
(١٢٢) العمدة : ١٣٣/١ .
(١٢٣) نفسه : ١٩٩/١ .

أما ابن الاثير فقد اشترط في اللفظ الجيد التوسط أيضا ، ولكي يحقق ذلك اشترط فيه الجزالة والعذوبة ، بدلا من السهولة التي جعلها بعض النقاد قبله شرطا ضروريا يجب توافره مع الجزالة . قال ابن الاثير : « ونت أعني بالجزل من الالفاظ ان يكون وحشيا متوعرا ، عليه عنجهية البداوة ، بل أعني بالجزل ان يكون متينا على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع »(١٢٤). وقد قلنا ان السهولة مزدوجة الدلالة فهي صفة حسية للفظ تدل على عذوبة وقعه ، وخفة نطقه ، كما هي صفة معنوية تدل على قرب معناه ، وظهور مدلوله . وقد أكد ابن الاثير هنا على المدلول الحسي من السهولة ، وعبّر عنه بالعذوبة ، وأما اشتراطه وضوح المعنى في اللفظ الجزل فقد نهم من اشتراطه الابتعاد باللفظ عن عنجهية البداوة .

ولكن الالفاظ عند ابن الاثير حين تخرج من عداد الوحشي الغريب ، وترتفع عن السوقي العامي ، تكون على نوعين : جزلة ورقيقة . فأما الجزلة فقد بسطنا مفهومه لها ، واما الرقيقة عنده فهي « اللطيفة الرقيقة الحاشية الناعمة الملمس »(١٢٥) . وذهب الى ان لكل من الجزل والرقيق مواضع يحسن استعمالها فيها . قال : « فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، واما الرقيق منها فانه يستعمل في وصف الاشواق وذكر أيام البعاد ، وفي استجلاب المودات ، وملاينات الاستعطاف واشباه ذلك »(١٢٦) .

فاللفظ الجيد ، اذن ، هو اللفظ المتوسط ، الذي ارتفع عن العامي ، وانحط عن الوحشي ، ولا يتحقق له ذلك ـ بعد استكماله صفات التأليف الحسن ـ الا اذا توافرت فيه صفتان ، هما (الجزالة) و (السهولة) ، وقد رأينا انهم احبوا هذا الصنف من الالفاظ ، وعدوه من المطمع المؤنس ، أو

---

(١٢٤) المثل السائر : ١٦٨/١ .
(١٢٥) نفسه : ١٦٨/١ ، ١٦٩ .
(١٢٦) نفسه : ١٦٨/١ .

القريب البعيد ، الذي يصعب على غير المطبوعين ، وينأى عنهم . وقد رأوا أن الادب الذي هذه صفات الفاظه هو الادب المرضي : ترضى عنه العامة وتفهمه ، وتتقبله الخاصة وتعجب به . حتى ان البلاغة قد عرفت تعريفا مستنبطا منه ، وقائما عليه ، فقيل : « البلاغة ما فهمته العامة ، ورضيته الخاصة » [١٢٧] .

٦ ـ الايحاء والتخييل :

اللفظة الموحية تعبير حديث أدرك النقاد العرب الاقدمون « حقيقته وان لم يحددوا للافصاح عنه عبارة كالتي نستخدمها في عصرنا الحاضر »[١٢٨] . ونعني باللفظة الموحية أنها تثير الى جانب معناها المعروف معاني جانبية يكون لها وقع كبير في نفس القارىء ، منفردة ، أو متآلفة مع الالفاظ الاخرى .

ومن اللغويين المحدثين من يرى ان كل كلمة « ايا كانت توقظ دائما في الذهن صورة ما ، بهيجة أو حزينة ، رضية او كريهة ، كبيرة او صغيرة ، معجبة او مضحكة ، تفعل ذلك مستقلة عن المعنى الذي تعبر عنه ، وقبل ان يعرف هذا المعنى في غالب الاحيان . اذكر اسم انسان ما أمام شخص لم يره قط ، فانه يكوّن عنه فكرة في الحال ، فكرة زائفة على وجه العموم ، فاذا قدمت له هذا المجهول اجابك على الفور : أهو هذا ؟ ما كنت أظنه هكذا . مثل هذا الشيء نفسه يحصل بكلمات اللغة »[١٢٩] .

وقد يكون المعنى الايحائي للفظة أمرا مشتركا بين أفراد البيأة اللغوية كلهم ، يشتركون في الاحساس به ، وتنصرف اذهانهم اليه ، حال سماعهم الكلمة ، كما قد يكون المعنى الايحائي امرا خاصا بفرد دون فرد ، أو طائفة دون أخرى من الناس ، بمعنى أن لفظة ما قد تثير في نفس سامع معين ما لا تثيره من الظلال والايحاءات في نفس سامع آخر ، ولا شك في أن هذه اللفظة قد اكتسبت معناها الايحائي من تجارب ذلك الفرد ، أو من طبيعة مزاجه ،

---

(١٢٧) نهاية الارب : ٧/١٠ .
(١٢٨) اسس النقد الادبي عند العرب : ٤٢٤ .
(١٢٩) اللغة : ٢٣٧ .

فصارت تعني عنده ، بجانب معناها الاصلي ، ما لا تعني عند غيره ، ممن لا يسلكون مع تلك اللفظة ما يسلكه من تجارب(١٣٠) .

والمعنى الايحائي هو أحد المقاييس التي يرجع اليها في تقدير قيمة اللفظة، وهو المسؤول عن روعتها وجودتها ، أو قبحها ورداءتها ، كما ان النقاد يسعون دائما الى الكشف عن ذلك المعنى الايحائي ، وبمقدار ما يكتشفون منه يتفاوتون في القدرة والمهارة ، فأذكاهم ، واشدهم فطنة ، هو ذلك الذي يستوعب ما توحيه اللفظة ، ويتنبه لما تثيره حولها من الدلالات والمعاني .

واذا كان المنشيء يعمد الى لفظ دون لفظ ، ويؤثر كلمة ويصدف عن أخرى ترادفها ، وتؤدى مؤداها ، فانه بذلك يستغل « ما للالفاظ من قوة تعبيرية ، بحيث يؤدي بها فضلا عن معانيها العقلية ، كل ما تحمل في احشائها من صور مدخرة ، ومشاعر كامنة ، لتت تمسها لنا حول ذلك المعنى العقلي » (١٣١) . أو بمعنى آخر ان المنشيء حين يؤثر لفظا على لفظ يدرك « ان الالفاظ كالقماقم أغلقت سداداتها على شحنة من تجارب لا حصر لها ، اختزنها فيها الانسان على كرّ العصور » (١٣٢) والمنشيء البارع « هو الذي يعلم كيف يزيل عن تلك القماقم سداداتها ليفرغ المكنون المدخّر فيها » (١٣٣) .

والناقد البارع كالمنشيء البارع ، هو الذي يلتقط اصداء الالفاظ ، وما تضمنته من دلالات ، اما الوقوف في نقد اللفظة عند معناها المعجمي ، أو معناها العقلي المصطلح عليه ، فهو قصور يبرأ منه الناقد الكبير ، البصير بأسرار الالفاظ .

وقد تنبه غير واحد من نقادنا الى ما تثيره بعض الالفاظ من ايحاءات وظلال ، ومعان جانبية ، وحكموا لتلك الالفاظ بالجودة .

---

(١٣٠) دلالة الالفاظ : ١٠٢ .
(١٣١) فنون الادب : ٧٦ .
(١٣٢ ، ١٣٣) نفسه : ٧٦ ، ٧٧ .

فالزمخشري أبدى مهارة فائقة في استشفاف الفائل القرآن ، واستخراج ما تضمنته من دلالات جانبية (١٣٤) . والامثلة على ذلك كثيرة يجدها الدارس مبثوثة في (الكشاف) ومنها وقوفه عند كلمة (يصنعون) في قوله تعالى (لبئس ما كانوا يصنعون) تتحدث الاية عن صمت العلماء عن مرتكبي المناكير ، وتصفهم بأنهم - لتركهم النهي عن المنكر - آثم من مرتكبيه . واستدل الزمخشري على هذا بما توحيه كلمة (يصنعون) . قال الزمخشري : « كأنهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير ، لان كل عامل لا يسمى صانعا ، ولا كل عمل يسمى صناعة ، حتى يتمكن فيه ويتدرب ، وينسب اليه ، وكأن المعنى في ذلك ان مواقع المعصية معه الشهوة التي تدعوه اليها وتحمله على ارتكابها ، واما الذي ينهاه فلا شهوة معه في فعل غيره ، فاذا فرط في الانكار ، كان اشد حالا من المواقع » (١٣٥) . وعلى هذا فكلمة (يصنعون) أبلغ من (يعملون) لما توحيه من دلالة الارتكاس في الاثم ، فكان الاثم صناعة لهم وحرفة .

وكان ابن الاثير قد اهتم بالايحاء ، وجعله مسؤولا عن روعة الكلمة وجودتها ، يتضح ذلك من تعليقه على لفظتي « كل حاجة » في قول الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح

قال : « ان في قول هذا الشاعر : (كل حاجة) مما يستفيد منه أهل النسيب والرقة والاهواء والمقة ما لا يستفيده غيرهم ، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم الا ترى ان حوائج منى اشياء كثيرة ، فمنها التلاقي ومنها التشاكي ومنها التخلّي للاجتماع ، الى غير ذلك مما هو تال له ، ومعقود الكون بـه » (١٣٦) .

---

(١٣٤) منهج الزمخشري في تفسير القرآن : ٢٢٢ وما بعدها .
(١٣٥) الكشاف : ١/٦٥٤ .
(١٣٦) المثل السائر : ١/٣٥٣ ، ٣٥٤ .

وواضح ان ابن الاثير هنا قد ادرك ما يقول به المحدثون من أن اللفظة قد تثير في بعض النفوس ما لاتثيره في نفوس أخرى من ظلال وايحاءات ، وذلك بحسب ما للفرد او الافراد من تجارب مع تلك اللفظة .

وقد بلغ من احتفال ابن الاثير باللفظ الموحي ، وتقديمه اياه على غيره ، أنه سمّى هذا الضرب من الالفاظ بـ (جوامع الكلم) ، وقال عنها : انها « تتضمن من المعنى ما لا تتضمنه اخواتها مما يجوز ان يستعمل في مكانها »[١٣٧] . ومن هذه الالفاظ قول النبي (ص) : (بعثت في نَفَس الساعة) . قال ابن الاثير : « فقوله نفس الساعة من العبارة العجيبة ، التي لا يقوم غيرها مقامها ، لان المراد بذلك انه بعث والساعة قريبة منه ، لكن قربها منه لا يدل على مادل عليه النفس ، وذاك ان النفس يدل على ان الساعة منه بحيث يحس بها كما يحس الانسان بنفس من هو الى جانبه ... ولو قال : بعثت على قرب من الساعة ، أو والساعة قريبة مني ، لما دل ذلك على ما دل عليه نفس الساعة ، وهذا لا يحتاج الى الاطالة في بيانه ، لانه بيّن واضح »[١٣٨] .

وقد اعرب ابن الاثير عن أثر الالفاظ الموحية في نفسه فقال : « وكنت اذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين ، ويلوح لي فيه مثل هذه الالفاظ أجد لها نشوة كنشوة الخمر ، وطربا كطرب الالحان »[١٣٩] .

اما التخييل فهو مقياس اخر رجع اليه بعض النقاد في المفاضلة بين الالفاظ بمعنى أنهم استجادوا اللفظ الذي يثير الخيال ويحركه ، ويحمل سامعه على استحضار صورة معينة .

وفي ضوء هذا المقياس حكم الرماني بالجودة لكلمة (قدمنا) في قوله تعالى (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) . قال الرماني :

---

(١٣٧) المثل السائر : ٤٩/١ .
(١٣٨) المثل السائر : ٥٠/١ .
(١٣٩) نفسه .

« حقيقة (قدمنا) هنا : عمدنا . وقدمنا ابلغ منه ، لانه يدل على انه عاملهم معاملة القادم من سفر ، لانه من أجل امهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ، ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم ، وفي هذا تحذير من الاغترار بالامهال ، والمعنى الذي يجمعهما العدل ، لأن العمد الى ابطال الفاسد عدل ، والقدوم أبلغ لما بيّنا » (١٤٠) .

فالرماني فضل (قدمنا) على (عمدنا) ، لانها اثارت في خياله صورة معينة « وهي صورة المسافر الغائب الذي يأتي فيرى القوم على خلاف فيضرب ليعدل ، ويصلح الفاسد » (١٤١) .

وفي ضوء هذا المقياس أيضا فضل ابن الاثير صيغة (المضارع) على (الفعل الماضي) ، لان المضارع « أشد تخييلا ، لانه يستحضر صورة الفعل حتى كأن السامع ينظر الى فاعلها في حال وجود الفعل منه » (١٤٢) . واستدل على ذلك بقول تأبط شرا :

بأني قد لقيتُ الغولَ تهوي ... بسَهْبٍ كالصحيفة صَحْصَحَانِ
فأضربها بلا وهن فخرّت ... صريعا لليدين وللجران

« فانه قصد ان يصور لقومه الحال التي تشجع فيها على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم اياها مشاهدة ، للتعجب من جرأته على ذلك الهول ، ولو قال فضربتها عطفا على الاول لزالت هذه الفائدة المذكورة » (١٤٣) . ثم قال : «ألا ترى انه لما قال تأبط شرا (فأضربها) تخيّل السامع انه مباشر للفعل وأنه قائم بازاء الغول ، وقد رفع سيفه ليضربها ، وهذا لا يوجد في الفعل الماضي » (١٤٤) .

---

(١٤٠) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٧٩ ، ٨٠ .
(١٤١) اثر القرآن في تطور النقد العربي : ٢٤٠ .
(١٤٢) المثل السائر : ١٦/٢ ، ١٧ .
(١٤٣) نفسه : ١٦/٢ .
(١٤٤) نفسه : ١٧/٢ .

واستجاد ابن الاثير اللفظة (فوقهم) في قوله تعالى (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم ، واتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) ؛ وذلك لانها تثير الخيال ، وتبعث عليه . قال ابن الاثير : « ولذكر لفظة (فوقهم) فائدة لا توجد مع اسقاطها من هذا الكلام ، وانت تحس هذا من نفسك ، فانت اذا تلوت هذه الاية يخيل اليك ان سقفا خرّ على أولئك من فوقهم ، وحصل في نفسك من الرعب ما لا يحصل مع اسقاط تلك اللفظة » (١٤٥) .

لقد قاس ابن الاثير الالفاظ بمدى ايحائها ، واثارتها لخيال السامع ، ورأى ان الايحاء يتحقق للفظ الحقيقي ، كما يتحقق للفظ المجازي (١٤٦) ، الا ان استعمال الالفاظ في معان مجازية هو الذي يكسبها في الغالب تلك الايحاءات والظلال كما انه هو الذي يمنحها القدرة على تحريك خيال السامع، واثارة الاحاسيس والانفعالات المختلفة عنده . قال : « وأعجب ما في العبارة المجازية انها تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الاحوال حتى انها ليسمح بها البخيل ؛ ويشجع بها الجبان ؛ ويحكم بها الطائش المتسرع ، ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر ، حتى اذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق ، وندم على ما كان منه من بذل مال ؛ أو ترك عقوبة او اقدام على أمر مهول ، وهذا هو فحوى السحر الحلال » (١٤٧) .

وجلي ان النقاد العرب الذين قاسوا جودة الكلمة بما تثيره في ذهن السامع من صور وأخيلة وانفعالات مختلفة ، قد التقوا بالنقاد المحدثين الذين جعلوا هذه الامور سبب الروعة في اللفظة الشعرية . قال كولردج : « ان صدق الشعور هو هيكل الملكة الشعرية ، والتخييل لباسها ، والحركة

(١٤٥) المثل السائر : ١٣١/٢ .
(١٤٦) نفسه : ٤٩/١ .
(١٤٧) نفسه : ٦٢/١ .

حياتها ، والخيال روحها الذي يربط اينما كان كل شيء ويؤلف بينه جميعا في لطف وبراعة[١٤٨] » .

٧ ـ اسماء الثمار والمواضع والاعلام :

ان النقاد ، كما عرفنا ، يستجيدون من الالفاظ ما سلم من عيوب التأليف ، وتحققت له الطرافة التي تصونه من الابتذال وما ابتعد عن الحوشي وكان له ايحاء محبب . وهذا يعني أن للشعر عندهم الفاظا خاصة ليس ليس للشاعر ان يعدوها ، ويأتي بما لم تألفه لغة الشعر ، أو بما لم يستعمله المجيدون من الشعراء . وقد صرح ابن رشيق بذلك فقال : « وللشعراء الفاظ معروفة ، وامثلة مألوفة ، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها ، ولا ان يستعمل غيرها ، كما ان الكتّاب اصطلحوا على الفاظ بأعيانها ، سموها الكتابية ، لا يتجاوزونها الى سواها[١٤٩] » .

ونظرة النقاد هذه للالفاظ دعتهم الى ان يعيبوا بعض الالفاظ ، ويعدوها من الرديء الذي لم يخرج من فم شاعر محسن . من ذلك نفرتهم من الفاظ الفواكه وما اليها من صنوف الثمار ، وتهجينهم الشعر الذي ترد فيه ، فقد روي عن خلف الاحمر انه قال : « قال لي شيخ من أهل الكوفة : أما عجبت من الشاعر قال :

أنبت قيصوما وجثجاثا

فاحتمل له ، وقلت أنا :

أنبت اجاصا وتفاحا

فلم يحتمل لي .[١٥٠] » وأنشد ابن الرومي قصيدته التي اولها :

أجنت لك الوجود اغصان وكثبان فيهن نوعان : تفاح ورمان

---

(١٤٨) عن محمد زغلول سلام في كتاب (ضياءالدين بن الاثير) : ج ١ ص١٨٣.
(١٤٩) العمدة : ١/١٢٨ .
(١٥٠) الشعر والشعراء : ١/٧٧ .

أمام عبيدالله بن عبدالله بن طاهر فقال : « هي دار البطيخ • فضحك الجماعة[١٥١] » •

وأخذ الصاحب بن عباد على المتنبي استعماله كلمة (السكر) وبعض الالفاظ الدالة على بعض أنواع التسور • قال المتنبي •

تقضم الجمر والحديد الاعادى دونه قضم سكر الاهواز

فقال الصاحب : « وهذا السكر اذا جمع ال البرني والازاذ فيما تقدم من شعره تم الامر[١٥٢] » •

وأما نظرة النقاد لاسماء المواضع فلم تكن واحدة ، بل استجادوا بعضها ، وسمحوا للشعراء بتداوله ، واستقبحوا بعضها ، وقدحوا في الشعر الذي وردت فيه : « ولعل السر في ذلك يعود الى ان مثل هذه الاماكن خاصة بالشاعر وحده ، وعلى العكس من ذلك نجد أسماء بعض الاماكن شعرية ؛ لانها تثير في النفس ذكريات لا تقف عند شاعر وحده كنجد والرصافة[١٥٣] »•

قال الامدي : « ومن سبيل الشاعر ان لا يذكر الا ما حسن من أسماء المواضع ، وان يعتمد اسماء المواضع الغريبة المتكررة في اشعار الفصحاء ؛ الا ترى ان الفرزدق أنكر على مالك بن اسماء بن خارجة وقد أنشده :

حبذا ليلتي بتل بونا

فقال : أفسدت ابياتك بذكر (بونا) • فقال له : ففي (بونا) كان ذلك ؛ قال : وان كان[١٥٤] » •

وليست كل اسماء النساء التي ترد في الشعر بستجادة عند النقاد ؛ بل انهم استحلوا بعضها ، وطربوا له ، كليلى وهند وسلمى ودعد ولبنى وعزة وبثينة وغيرها ، ونفروا من بعضها ،وعدوه من الرديء الذي لايليق بلغة الشعر• والسبب في استجادتهم ما استجادوه من اسماء النساء هو السبب الذي

(١٥١) الموشح : ٥٤٥ •
(١٥٢) الكشف عن مساويء المتنبي (مطبوع مع الابانة) : ٢٤٨ •
(١٥٣) اسس النقد الادبي عند العرب : ٤٣١ •
(١٥٤) الموازنة : ٣٢٦/٢ •

دعاهم الى استجادة بعض اسماء المواضع ، ذلك هو تردد بعض تلك الاسماء ، وكثرة دورها في الشعر ، واقتران بعضها بقصة حب طاهر ، كان موضع اعجاب الناس على اختلاف العصور .

وبسبب هذه النظرة لاسماء النساء ، أنكر بعض ملوك بني أمية على جرير لفظة (بوزع) وقد جاء بها علما لامرأة فقال :

وتقول بوزع قد دببت على العصا   هلا هزئت بغيرنا يا بوزع[١٥٥]

ولعل جريرا معذور في ذكر (بوزع) لانه الاسم الحقيقي للمرأة التي عناها ، اما السيد الحميري الذي علم ثقل اللفظة ، ووقف على استنكار النقاد لها ، فغير معذور لايرادها في شعره ، خاصة وسياق بيته يشعر بأن الاسماء فيه ليست اسماء حقيقية لنساء معينات . قال السيد الحميري :

ولقد تكون بها أوانس كالدمى   هند وعبدة والرباب وبوزع

فقال ابن رشيق : انه « ثقيل من اجل بوزع[١٥٦] » .

وعلى الرغم من اعتقاد ابن رشيق بان بعض اسماء النساء مستقبح ، يحسن بالشاعر ان يصدف عنه ، ويستعيض منه باسم آخر يكون أشهى وأعذب ، فقد أجاز للشاعر ان يذكر الاسم القبيح ، اذا قصد الحقيقة ، واذا لم يجد عنه في الكنية مندوحة . قال ابن رشيق : « وكلما كانت اللفظة أحلى ، كان ذكرها في الشعر أشهى ، اللهم الا ان يكون الشاعر لم يزور الاسم ، وانما قصد الحقيقة لا اقامة الوزن ، فحينئذ لا ملامة عليه ، ما لم يجد في الكنية مندوحة[١٥٧] » .

ولم تتغير نظرة ابن سنان وابن الاثير بعده الى اسماء النساء ، بل ظلا يستجيدان من اسماء النساء ، تلك الاسماء التقليدية ، التي شاعت واشتهرت ،

---

(١٥٥) الصناعتين : ١٥٢ .
(١٥٦) العمدة : ١٢٢/٢ .
(١٥٧) نفسه .

وكثر ترددها في الغزل . ومعنى ذلك ان قائمة الأسماء المستملحة لم تزد ، بل ظلت ثابتة الى عهد متأخر(158) .

واذا كان ابن رشيق قد أجاز ان يذكر الشاعر الاسم القبيح اذا كان علما حقيقيا لامرأة معينة ، فان ابن سنان وابن الاثير لم يجيزا ذلك ، وانما اجازا ذكر القبيح من اسماء الاماكن فقط ، اذا اقتضى المعنى ذلك ، وكان المكان مسرحا لوقائع حقيقية يروم الشاعر وصفها ، والحديث عنها ، قال ابن سنان معلقا على قول البحترى :

وأنا الشجاع وقد رأيت مواقفي بعقرقس والمشرفية شُهَّدي

« فله في ذكر عقرقس عذر واضح ، لانه الموضع الذي شاهد الممدوح به قتاله وليس يحسن ان يذكر موضعا غيره ، ولم يحمد فيه . وهذا ليس بموجب حسن اللفظة ، ولكنه يبسط عذر ناظمها حسب(159) » وقال ابن الاثير : « وقد استثنى من ذلك ما كان اسم موضع تضمّن وقعة من الوقائع ، فان ذكره لا يكره ، وان كان في اسمه كراهة ، كما ذكر ابو تمام في شعره مواضع مكروهة الاسماء لضرورة ذكر الوقائع التي كانت بها كذكر الحشال وعقوقس وأمثالهما ، وكذلك ذكر أبو الطيب هنزيط وشميصاط ، وما جرى مجراهما ، وهذا لا عيب في ذكره لمكان الضرورة التي تدعو اليه(160) » .

ويبدو لي ان الاعلام التي تخص النساء والمواضع هي التي دار حولها النقد ، فعيب بعضها واستقبح ، واستجيد الاخر واستحسن ، أما اسماء الرجال فلم تتعرض للنقد ، وان كان العرب يستحسنون بعض اسماء الرجال لما توحيه من معاني الخير والجمال ، وينفرون من اسماء اخرى لما تثيره ، او تدل عليه من معان مكروهة(161) .

---

(158) سر الفصاحة : 58 . والمثل السائر : 2/240 .
(159) سر الفصاحة : 59 .
(160) المثل السائر : 2/240 .
(161) دروس في البلاغة : 199–205 .

فالنقاد ، اذن لم يحاسبوا الشعراء على ما أوردوا من اسماء الرجال ، كما نعلوا مع اسماء النساء والمواضع • ومن هنا استحسن النقاد ان تطرد اسماء الاعلام الخاصة بالرجال ،وتتلاحق في البيت الواحد ، اذا اقتضاها المعنى ، وعدوا ذلك دليل حذق ومهارة • قال ابن رشيق : « ومن حسن الصنعة ان تطرد الاسماء من غير كلفة ، ولا حشو فارغ ، فانها اذا اطردت دلت على قوة طبع الشاعر ، وقلة كلفته ، ومبالاته بالشعر ، وذلك نحو قول الاعشى :

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد   وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل

فأتى كالماء الجاري اطرادا وقلة كلفة ، وبين النسب حتى اخرجه عن مواضع اللبس والشبهة • ولما سمع عبدالملك بن مروان قول دريد بن الصمة :

قتلنا بعبدالله خير لداته   ذؤاب بن اسماء بن زيد بن قارب

قال كالمتعجب : لولا القافية لبلغ به آدم[١٦٢] » •

غير ان الصاحب بن عباد لم يستحسن جمع المتنبي لطائفة من أسماء الرجال في بعض شعره • قال الصاحب : « ولم تنفك مستحسنين لجمع الاسامي في الشعر كقول الشاعر :

ان يقتلوك فقد ثللت عروشهم   بقتيبة بن الحارث بن شهاب

فاحتذى هذا الفاضل ـ يعني المتنبي ـ على طرقهم فقال :

وانت أبو الهيجابن حمدان يا ابنه   تشابه مولود كريم ووالد

وحمدان حمدون وحمدون حارث   وحارث لقمان ولقمان راشد[١٦٣]

ثم سخر الصاحب من البيتين قائلا « وهذا من الحكمة التي ذخرها ارسطو طالس وافلاطون لهذا الخلف الصالح[١٦٤] » • فرد ابن فورّجة على الصاحب

---

(١٦٢) العمدة : ٢/٨٢ •
(١٦٣) الكشف عن مساويء المتنبي : ٢٢٦ ، ٢٢٧ •
(١٦٤) شرح الواحدي : ٤٦٦ •

بقوله : « أما سبك البيت فأحسن سبك . يريد أنك تشبه أباك ، وابوك يشبه اباه ، وأبوه أباه ، فانت ابوك ، اذ كان فيك اخلاقه ، وابوك ابوه الى آخر الاباء . فليت شعري ما الذي استقبحه . وقد جاراني بعض أهل العلم فقال : استقبح قوله : وحمدان حمدون ، وحمدون حارث ، وليس في حمدان ما يستقبح من حيث اللفظ ولا المعنى ولنسلّم له ان حمدان وحمدون لفظتان مستهجنتان فكيف تصنع والرجل اسمه هذا ، فهل نستعير له ابا غير أبيه ، أم يسميه بلفظة حسنة يخترعها . ولقد كان الذنب في ذلك للاباء لا للمتنبي[١٦٥] » .

وكما اشترط النقاد على الشاعر الا يذكر من اسماء النساء ما يوافق « بعض نساء الممدوح من أمة أو قرابة او غيرها[١٦٦] » ، كذلك اشترطوا عليه الا يذكر من اسماء الرجال ما يتصل بالممدوح ؛ وذلك ليكون الشاعر حرا ، فيسوق الاسم المساق الذي يقتضيه المعنى ، ويقيم بينه وبين غيره من الالفاظ ما يشاء من العلاقات . ذكر ابن طباطبا ان « أرطاة بن سهية الشاعر دخل على عبدالملك بن مروان ، فقال له : ما بقي من شعرك ؟ فقال : ما أطرب ولا أحزن يا أمير المؤمنين ، وانما يقال الشعر لاحدهما . ولكني قد قلت :

رأيت الدهر يأكل كل حيّ ... كأكل الارض ساقطة الحديد

وما تبغي المنية حين تغدو ... سوى نفس ابن آدم من مزيد

وأحسب انها ستكر يوما ... توفي نذرها بأبي الوليد

فقال له عبدالملك : ما تقول ثكلتك أمك ؟ فقال : انا أبو الوليد يا أمير المؤمنين . وكان عبدالملك يكنى أبا الوليد ايضا ، فلم يزل يعرف كراهة شعره في وجه عبدالملك الى ان مات ، فليجتنب الشاعر هذا وما شاكله مما سبيله كسبيله[١٦٧] » .

---

(١٦٥) الفتح على ابي الفتح : ١٠٢ .
(١٦٦) عيار الشعر : ١٢٣ .
(١٦٧) نفسه .

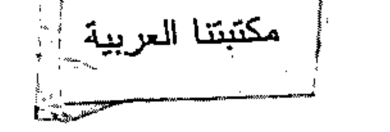
فالشاعر لم يكن حرا في تعامله مع الاسماء ، بل كان عليه ان يتقيد باسماء معينة ألفها النقاد ، وأحبوها ، وزعموا انها أجمل من غيرها ، واليق بلغة الشعر . كما كان عليه ان يتحاشى أسماء اخرى ، اما لقبحها واما لموافقتها اسماء تتصل بالممدوح . وفي موقف اكثر النقاد من الاسماء تحكم وتعنت ، بعث عليهما عزلهم الالفاظ عن تجربة الشاعر ، وعن طبيعة المعنى المراد كشفه ، والاعراب عنه . فالشاعر لا يلام على ذكر الاسم ، وان كان قبيحا ، اذا كان جزءا من التجربة ، او من الموقف الشعري المراد التعبير عنه . والشاعر اذا استغرقته التجربة ، فانه ينسى جمهوره ، ويسمى الاشياء باسمائها ، غير مكترث بما يكون لتلك الاسماء من وقع على قرائه . يقول محمد غنيمي هلال : « والشاعر يستغرق في تجربته ، والكشف عنها هو غايته ، ونظره الى جمهوره ثانوي[١٦٨] » . وحتى لا نعدو الانصاف ينبغي ان نشير الى ان بعض النقاد ذهب الى ان التجربة الشعرية ، او المعنى المراد تقديمه ، هو الذي يحدد جودة الاسم او رداءته . وليس على الشاعر حرج اذا اضطره المعنى الى ايراد اسم مستقبح .

٨ ـ التلاؤم بين اللفظ والمعنى :

يطلق النقاد كلمة (المعنى) ويريدون بها في الغالب (الغرض) او (المقصد) او ما يريد المتكلم ان يثبته او ينفيه من الكلام[١٦٩] . و (المعنى) بهذا الاستخدام يرادف عندهم (الفكرة) العامة المجردة ، التي يتفنن المنشىء في صياغتها ، ثم يستخلصها المتلقى من مجموع ما قاله المنشىء[١٧٠] .

وتبعا لفهمهم المعنى على هذا النحو ، وضعوا لجودة الكلمة مقياسا آخر هو ان تلائم (المعنى) الذي تكفلت هي وجاراتها بابرازه ، والاعراب عنه . وكان بشر بن المعتمر من اقدم من عرض لهذا المقياس ، فقال في صحيفته

(١٦٨) المدخل الى النقد الادبي الحديث : ٢٤٨ .
(١٦٩) الصورة الفنية : ٢٨١ .
(١٧٠) نفسه .



المشهورة « ومن اراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ؛ فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف[١٧١] » . وقرر الجاحظ ان المعاني ضروب ، ولكل ضرب منها الفاظه الخاصة به ؛ وقد اكد الجاحظ هذه الفكرة في اكثر من موضع ؛ فقال : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ؛ ولكل نوع من المعاني نوع من الاسماء ؛ فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل[١٧٢] » .

وقال : « ان سخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعاني ، وقد يحتاج الى السخيف في بعض المواضع ؛ وربما أمتع باكثر من امتاع الجزل الفخم من الالفاظ والشريف الكريم من المعاني[١٧٣] » .

وارتضى ابن طباطبا هذا المقياس من مقاييس جودة اللفظ ، وقرره في قوله : « وللمعاني الفاظ تشاكلها ، فتحسن فيها ، وتقبح في غيرها ، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء ، التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض ، وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه ، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح البسه[١٧٤] » .

ولم يخرج قدامة عما قرره سابقوه ، حين ذهب الى ان الالفاظ تتفاوت في الجزالة والرقة ، والدماثة والخشونة ؛ كما ان المواقف تختلف ، والاغراض التي تدفع الى القول تتباين ؛ وما على الشاعر الا ان يلتمس لكل غرض اللفظ الذي يلائمه ، ويكون أخص به ؛ وألزم له . يقول قدامة : « ولما كان المذهب في الغزل انما هو الرقة واللطافة ؛ والشكل والدماثة ، كان مما يحتاج فيه ان تكون الالفاظ لطيفة مستعذبة ؛ مقبولة غير مستكرهة ؛ فاذا كانت جاسية كان ذلك عيبا . الا انه لما لم يكن عيبا على الاطلاق امكن ان يكون

---

(١٧١) العمدة : ١/٢١٣ .
(١٧٢) الحيوان : ٣/٣٩ .
(١٧٣) البيان والتبيين : ١/١٤٥ .
(١٧٤) عيار الشعر : ٨ .

حسنا ، اذ كان قد يحتاج الى الخشونة في مواضع مثل ذكر البسالة والنجدة والبأس والرهبة[١٧٥] » .

ثم جاء ابن سنان نذهب الى ان من اسرار جودة الكلمة ان تضعها في موضعها ، وتعبر بها عن المعنى الذي جرى الادباء على التعبير بها عنه ، وهذا يعني ان على المنشىء « الا يعبر عن المدح بالالفاظ المستعملة في الذم ، ولا في الذم بالالفاظ المعروفة للمدح ، بل يستعمل في جميع الاغراض الالفاظ اللائقة بذلك الغرض ، في موضع الجد الفاظه ، وفي موضع الهزل الفاظه[١٧٦] » .

وذهب ابن الاثير الى مثل ما ذهب اليه هؤلاء النقاد فقال : « الالفاظ تنقسم في الاستعمال الى جزلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه . فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك . وأما الرقيق منها فانه يستعمل في وصف الاشواق ، وذكر ايام البعاد ، وفي استجلاب المودات ، وملاينات الاستعطاف ، وأشباه ذلك[١٧٧] » .

وهكذا أجمع النقاد على ان من مقاييس جودة اللفظ ، هو التلاؤم بينه وبين المعنى المراد تقديمه ، فاذا فقد اللفظ ملاءمته للمعنى ، كان ذلك سبب رداءته ، والقدح فيه . واذا شئنا امثلة للالفاظ التي فقدت هذا التلاؤم ، فنال منها النقاد ، وعدوها من الرديء ، فانها كثيرة . من ذلك لفظة (الطحال) التي استعملها الاعشى في الغزل ، فكانت لفظة نابية ، لم تنسجم والموضوع الذي سيقت له ، وقد روى ان يونس بن حبيب عابها ، ولم يسترح اليها . قال الاعشى :

فرميت غفلة عينه عن شاته   فأصبت حبة قلبها وطحالها

---

(١٧٥) نقد الشعر : ١٩٢ ، ١٩٣ .
(١٧٦) سر الفصاحة : ١٥٣ .
(١٧٧) المثل السائر : ١٦٨/١ .

فقال يونس : « والطحال لا يدخل في شيء الا أفسده[١٧٨] » .

وما عاب يونس لفظ (الطحال) الا لان الشاعر وضعه في غير موضعه ، وجاء به في سياق يقتضي غير هذا اللفظ ، ذلك لان الشعراء درجوا ـ عند ذكر اشواقهم ، وما يكابدون من آلام الحب ـ على ان يوردوا الفاظا اخرى هي : القلب والفؤاد والكبد وقد أفصح المرزباني عن سبب رداءة (الطحال) في بيت الاعشى فقال : « وقد عابه ـ يعني الاعشى ـ قوم بذلك لانهم رأوا ذكر القلب والفؤاد والكبد يتردد كثيراً في الشعر عند ذكر الهوى والمحبة والشوق ، وما يجده المغرم في هذه الاعضاء من الحرارة والكرب ، ولم يجدوا الطحال استعمل في هذه الحال ، اذ لا صنع له فيها ، ولا هو مما يكتسب حرارة وحركة في حزن ولا عشق ولا بردا وسكونا في فرح او ظفر فاستهجنوا ذكره[١٧٩] » .

وروى ان بشارا لم يرتض كلمة (عصا) التي شبه بها كثيّر قد معشوقته لان (العصا) لفظ لم يعهد في احاديث الغزل والتشبيب . قال الشاعر :

الا انما ليلي عصا خيزرانة اذا غمزوها بالاكف تلين

فقال بشار : « والله لو جعلها عصا مخ او عصا زبد لما كان الا مخطئا مع ذكر العصا ، الا قال كما قلت :

اذا قامت لصحبتها تثنت كأن عظامها من خيزران[١٧٩]»

وعاب النقاد الفاظا أخرى لانها نقلت من مجالها الذي تستعمل فيه وسيقت في مجال يستدعي الفاظا اخرى ، ألصق به ، وأكثر تآلفا معه . فلفظا (يهذي) و (محموم) اللذان وردا في مدح ابي تمام :

ما زال يهذي بالمكارم دائبا حتى ظننا أنه محموم

(١٧٨) الموشح : ٧٥ .
(١٧٩) نفسه : ٧٦ .
(١٨٠) نفسه ، ط جمعية نشر الكتب العربية : ١٥٦ .

مجالها الذم ، فاذا استعملها ابو تمام في معرض المدح ، ونعت بهما من يمدحه ، فقد صدم بذلك الذوق العام ، وخرج عما ألف هذا الذوق من الفاظ كريمة تناسب المديح ، وتنسجم مع شعور المادح ، وهو شعور اعجاب واكبار في الغالب[181] .

كما ان كلمة (شيطان) لا موضع لها بين الكلمات التي درج الشعراء على أن ينعتوا بها ممدوحيهم ، فاذا انتزعها ابو تمام من المجال الذي هي الصق به ، واستعملها صفة لاحد ممدوحيه ، فقال :

وتشفى الحرب منه حين تغلي   مراجلها بشيطان رجيم

فانه يعاب بذلك ، ويعد مجانبا للفظ الجيد او المختار[182] .

٩ ـ الدقـة :

وهذا مقياس آخر من مقاييس نقد الالفاظ . فاللفظ الدقيق عند النقاد هو اللفظ الذي يؤدي المعنى المراد ، ولا يصلح غيره لان يوضع موضعه ، ولا شك في ان الوقوع على اللفظ الدقيق ، الذي ينقل ما في نفس المنشىء ، مهمة صعبة ، لا يقدر عليها الا من عرف اللغة معرفة واسعة ، ووقف على ما بين الالفاظ من فروق دقيقة .

وقد أحس اللغويون منذ وقت مبكّر ، بصعوبة هذا الامر ، فندبوا انفسهم لتأليف الكتب الخاصة بالالفاظ ، وأودعوا تلك الكتب ما بين الالفاظ المتقاربة من فروق ، كالالفاظ الكتابية للهمذاني ، والفروق اللغوية للعسكري وفقه اللغة للثعالبي ، وغير ذلك[183] .

---

(١٨١) سر الفصاحة : ١٥٢ .

(١٨٢) نفسه .

(١٨٣) الالفاظ اللغوية : ٧٤ ، ٧٥ .

ويكون اللفظ غير دقيق في الحالات الاتية :

١ ـ حين لا يستعمل في المعنى الذي وضع له في اصل اللغة ، وانما يستعمل في معنى جديد لحق به ، وطرأ عليه ، خلال تداول الناس اياه على مرّ العصور . وقد مرّ بنا ان اللغويين ، ومعهم النقاد[١٨٤] ، يعدون استعمال اللفظ بمعناه الجديد ، او المولد ، ضربا من اللحن او الخطأ . وهو لهذا لا يدخل في موضوع (الجودة والرداءة) ، بل يدخل في موضوع (الخطأ والصواب) ، وقد عالجناه في الفصل الماضي .

٢ ـ حين يكون للفظ مرادف ، ولكنه ادق منه في الدلالة على المعنى المقصود ، ثم لا يأتي المنشيء بذلك المرادف . ولا شك في ان المنشيء اذا اختار من المترادفين أدقهما دلالة ، واكشفهما عن المعنى المطلوب ، كان ما يختاره أجود ، وكان كلامه أبلغ وأدل على قدرته ، وسعة ثقافته اللغوية .

وقد فطن ابن الاثير الى هذه الحقيقة فقال : « ومن عجيب ذلك انك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن في الاستعمال ، وهما على وزن واحد وعدة واحدة ، الا انه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يفرق بينهما في مواضع السبك . وهذا لا يدركه الا من دق فهمه وجلّ نظره[١٨٥] » .

ومن الامثلة على ذلك ان (الجوف) و (البطن) سواء في الدلالة ، الا ان الله تعالى قال « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » وقال « ربي اني نذرت لك ما في بطني محرّرا » « فاستعمل الجوف في الاولى ، والبطن في الثانية ، ولم يستعمل الجوف موضع البطن ولا البطن موضع الجوف[١٨٦] » .

---

(١٨٤) تنظر ص ١٨٢ من هذه الرسالة .
(١٨٥) المثل السائر : ١٤٣/١ .
(١٨٦) نفسه : ١٤٣/١ .

ومنه ان (الثرى) لا يقال له (ثرى) « الا اذا كان نديًا والا فهو تراب[187] » وعلى ذلك فان ابا تمام لم يختر اللفظ الدقيق حين قال :

ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب

ذلك لان (الثرى لا يستغيث بالديمة ولا يتلهف الى مائها ، الا اذا كان جافا يابسا ، واذا كان كذلك فهو ليس (ثرى) وانما هو (تراب)[188] .

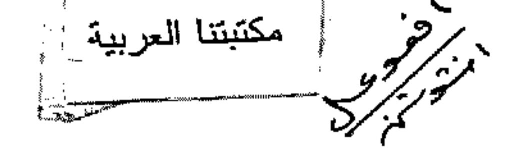
ومن ذلك ايضا ان (المائدة) لا يقال لها (مائدة) حتى يكون عليها طعام ؛ لانها من (مادني يميدني) اذا اعطاني ، والا فاسمها (خوان) . وكذلك (الكأس) لا تكون كأسا حتى يكون فيها شراب ، والا فهي (قدح) أو (كوب) . واذا كان الامر كذلك فان بديع الزمان لم يختر اللفظ الدقيق الذي يعبر عن غرضه حين قال :

أذهب الكأس فعرف الفجر قد كاد يلوح

« ذلك لان اذهاب الكأس هنا معناه تمويهها بالذهب ؛ وهو يريد ملأها بالخمر التي تصير لون زجاجها كلون الذهب ؛ ولو ان البديع نظر الى ان الكأس لا تسمى كأسا حتى يكون فيها شراب ما قال هذا[189] » .

٣ – حين يستعمل اللفظ المجرد للدلالة على المعنى الكثير ، او القوى ، ويترك اللفظ المزيد الذي هو أدل على ما في المعنى من زيادة او قوة او مبالغة . وقد نبه ابن جني على ذلك في كتاب (الخصائص) ، وعقد له بابا سماه « باب في قوة اللفظ لقوة المعنى » جاء فيه « هذا فصل من العربية حسن ؛ منه قولهم : خشن واخشوشن ؛ فمعنى خشن دون معنى اخشوشن ؛ لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو . ومنه قول عمر رضي الله عنه : اخشوشنوا وتمعددوا اي اصلبوا وتناهوا في

(١٨٧) المزهر : ١/٤٥١ .
(١٨٨) مجلة مجمع اللغة العربية : ١/٢٣٠ .
(١٨٩) نفسه : ١/٢٢٨ ، ٢٢٩ .



الخشنة . وكذلك قولهم : أعشب المكان ، فاذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا : اعشوشب[190] » .

ثم اشار ابن جني الى ان القرآن الكريم قد راعى هذا الجانب ، فعبّر عن بعض المعاني بكلمات مزيدة ، للدلالة على ما في تلك المعاني من قوة ومبالغة لا يظهرها اللفظ المجرد . قال ابن جني : « فاقتدر اقوى معنى من قولهم : قدر . كذلك قال ابو العباس : وهو محض القياس . قال الله سبحانه (أخذ عزيز مقتدر) فمقتدر هنا اوفق من قادر ، من حيث كان الموضع لتفخيم الامر وشدة الاخذ[191] » .

وقد أخذ ابن الاثير بهذا المبدأ في اختيار اللفظ ، فاستجاد اللفظ المزيد ، اذا كان المعنى يقتضيه ، وعده ادق في الدلالة على المعنى الكثير من اللفظ المجرد ، فقال : « ومما يجرى هذا المجرى قولنا فعل وافتعل ، فان لفظة فعل لها موضع تستعمل فيه ، الا ترى انك تقول : قعدت الى فلان احدثه ، ولا تقول : اقتعدت اليه ، وكذلك تقول : اقتعدت غارب الجمل ولا تقول : قعدت على غارب الجمل ، وان جاز ذلك لكن الاول احسن ، وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم ، فانه لا يمكن ان يقام عليه دليل . وأما فعل وافعوعل فانا نقول : أعشب المكان ، فاذا كثر عشبه قلنا : اعشوشب ، فلفظة افعوعل للتكثير[192] » .

وذهب ابن الاثير الى ان اللفظة اذا جاز حملها على التضعيف الذي هو طريق المبالغة ، وحملها على غيره ، وجب ان ينظر فيها ، فان اقتضى المعنى حملها على المبالغة فهو الوجه . وضرب على ذلك مثلا قول البحتري :

تألفتهم من بعد ما شرّدت بهم　　حفائظ أخلاق بطيء رجوعها

(١٩٠) الخصائص : ٢/٢٦٤ .
(١٩١) نفسه : ٢/٢٦٤ ، ٢٦٥ .
(١٩٢) المثل السائر : ١/٢٩١ ، ٢٩٢ .

« فقوله شردت بهم يجوز ان تخفف لفظة شـــردت ويجوز ان تثقل والتثقيل هو الوجه لانه في مقام الاصلاح بين قوم تنازعوا واختلفوا وتباينت قلوبهم وآراؤهم » [193] وتثقيل الكلمة هو الذي يصور تلك الحالـــة ، ويعبر عنهـــا .

فمن أوجه دقة اللفظ ان يكون مزيدا اذا كان في المعنى فضل قـــوة وكثرة ، او اثارة من مبالغة ، فكسب غير اكتـــب وجهد غير اجتهد ، واخذ غير اتخذ وكسر غير كسّر ، وهكذا ، وما على المنشيء الا ان يلتمس المزيد من اللفظ للتعبير عن المبالغ فيه من المعاني .

٤ ـ ويكون اللفظ غير دقيق حين لا يكون المعنى مقتضيا له اصلا ، ويكون غيره أولى منه بالاستعمال . ومعنى ذلك ان بعض المنشئين يخطيء اللفظ المطلوب ، ويأتي بغيره ، فيؤدي ذلك الى ان يفسد المعنى الذي قصده ، أو ينجم بدلا منه معنى آخر لم يكن قد أراده .

ومن الامثلة على ذلك ان ابن أحمر لم يوفق الى الكلمة المناسبة ، وجاء بدلا منها بكلمة لا يقتضيها المعنى ، فقال :

غادرني سـيـفه أعشـــى وغـــادره   سيف ابن أحمر يشكو الرأس والكبدا

« أراد : غادرني سيفه أعور فلم يمكنه ، فقال : اعشى » [194] ولم يوفق الاعشى الى الكلمة المطلوبة في قوله :

استأثر الله بالوفاء وبالعـــد   ل وولى الملامـــة الرجـــلا

لان الذي يلام هو الانسان رجلا كان أو امـــرأة ، وليس الرجـــل وحـــده [195] .

---

(١٩٣) المثل السائر : ٦٢/٢ .
(١٩٤) الموشح : ١٢٦ .
(١٩٥) نفسه : ٧١ .

واخطأ ابو تمام اللفظ الدقيق في قوله :

ضعفت جوانح من اذاقته النوى   طعم الفراق فذم طعم العلقم

قال الامدي : « قوله : ضعف دعاء عليها ، أي أضعف الله جوانح من اذاقته النوى طعم الفراق ، فذم طعم العلقم . والجوانح هي الاضلاع الصغار في الصدر ، التي تلي الفؤاد ، الواحدة جانحة ، فكأنه يدعو عليها بأن تضعف عن حمل حرارة الشوق ، وحرق الفراق ، ان كان صاحبها قد ذاق طعم الفراق ، وعلم مرارته ، فذم طعم العلقم . وضعفت كلام ضعيف في هذا الغرض جدا و (اضعف الله) لو كان استوى له ان يقولها ، احسن وابلغ من (ضعفت) . وعلى انه كلام لا يشبه بعضه بعضا ، و (حواس) ههنا أحسن وأليق ، واشبه من (جوانح) لانه ذكر الطعم ، فكانت الحواس مع الطعم لفظا يشبه لفظا ومعنى يشبه معنى » [196] . ثم قال الأمدي : « والله لو استوى له ذكر الحواس في البيت لما عدل عنه » [197] .

ولم تكن الخد هي الكلمة الملائمة في قول ابي تمام :

لو صحح الدمع لي أو ناصَحَ الكبد   لقلنا صحباك الخد والكبد

وقد علق الامدي عليه قائلا : « وهذا بيت صالح وليس بالجيد ، ولم يستو له ان يقول : العين والكبد ، لانها مؤنثتان فكان يقول صحباك ، فجعل مكان (العين) (الخد) لانه مذكر ، ولان كثرة البكاء تؤثر فيه ، وتذهب بلحمه ، وذهاب العين بالبكاء أخص من ذهاب الخد . ولو قال : صحباك العين والكبد ، لكان ذلك سائغا وان كانتا مؤنثتين ، لان هذا يجوز فيما ليس لتأنيثه حقيقة » [198] .

ولم تكن (الفته) هي اللفظة الدقيقة في قول ابي تمام أيضا [199] :

ملكته الصبا الولوع فألـ   ـفته تعود البلى وسؤر الخطوب

---

(١٩٦) الموازنة : ٢/٥٤ .
(١٩٧) نفسه : ٢/٥٥ .
(١٩٨) ٢/٦٦ .
(١٩٩) اخذ الامدي على ابي تمام الفاظا اخرى لعدم دقتها .

قال الامدي : « وقوله (ألفته) ليس هذا موضع (ألفته) لان معنى (ألفته) : صادفته ، واذا كانت الريح هي التي فعلت بالربع ، فوجه الكلام : جعلته لو استوى له ، لا (ألفته) ، واذا لم يستقم له (جعلته) ، ولا ما هو في معناها نقض البيت بأسره ، وبناه بألفاظ أخر ، وكأنه أراد ان يقول : قعود البلى ، وهدفا للخطوب ، أو غرضا للخطوب ، أي تقع به ابدا وتصيبه ، فلم ينتظم له الوزن »[200] .

نخرج من ذلك بأن (الدقة) مقياس من مقاييس النقد اللغوي ، فاذا كان اللفظ دقيقا ، شديد الابانة عما في نفس المنشيء ، قبله النقاد ، ووصفوه بالجودة .

١٠ ـ الافـادة :

والافادة مقياس آخر من مقاييس نقد الالفاظ ، نرجع اليه لمعرفة جودة الكلمة أو رداءتها . ونعني بالافادة ان تفيد الكلمة معنى جديدا لم تفده الكلمات الاخرى ، فيكون لها تبعا لذلك ، قيمة واضحة في السياق ، لا ان تكون مقحمة فيه ، لا تسهم في اغنائه ، ولا تحمل جديدا اليه . والكلمة المفيدة هي التي تكون مع ما يجاورها معادلا صحيحا لما في نفس المنشيء ، يطابقه ، فلا يزيد عليه ، ولا يقصر عنه .

لقد فطن النقاد العرب الى ذلك ، ومن أجله عابوا الكلمة الزائدة : أو المرادفة ، التي تأتي حشوا لاغناء فيه . كما عقد البلاغيون فصولا ضافية ، تعالج هذا الجانب ، فتكلموا في الايجاز والاطناب والمساواة ، وتحدثوا عن التكرير والترديد وغيرهما ، وأوضحوا مزايا كل نمط من هذه الانماط التعبيرية ، ووضعوا لها المقاييس التي تضبط الجيد منها والرديء .

لقد اشترطوا اذن لجودة الكلمة ان تكون مفيدة ، وبهذا المقياس كانوا يحكمون على بعض الالفاظ بأنها زائدة ، أو حشو يمكن اسقاطه من الكلام ،

(٢٠٠) الموازنة : ٤٦٦/١ .

دون ان يخل ذلك بمعناه . ويبدو انهم فرّقوا بين الكلمات المقحمة في الشعر، فسمّوا ما يقع منها في اثناء البيت (حشوا) ، وسمّوا ما يقع منها قافية (استدعاء) ، وهما من عيوب الشعر .

قال قدامة في تعريف (الحشو) : « وهو ان يحشى البيت بلفظ لايحتاج اليه لاقامة الوزن » [٢٠١] . وقال عند كلامه على عيوب القافية : ان من هذه العيوب « ان تكون القافية مستدعاة ، قد تكلف في طلبها فاشتغل معنى سائر البيت بها » [٢٠٢] .

والى مثل هذا ذهب العسكري [٢٠٣] ، اما ابن رشيق فلم يخرج عن ذلك في التفريق بين الكلمات التي تأتي زائدة ، لا فائدة منها في السياق ، سوى انه ذكر اصطلاحا آخر للحشو هو (الاتكاء) فقال عن الحشو : « وسماه قوم الاتكاء وذلك ان يكون في داخل البيت من الشعر لفظ لا يفيد معنى ، وانما ادخله الشاعر لاقامة الوزن ، فان كان ذلك في القافية فهو (استدعاء) » [٢٠٤].

ومن الامثلة على الكلمة التي تأتي (حشوا) قول الشاعر :

نحن الرؤوس وما الرؤوس اذا سمت ... في المجد للاقوام كالأذناب

فقوله « للاقوام حشو لا منفعة فيه » [٢٠٥] .

ومنها قول ابي تمام :

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى ... والليل اسود حالك الجلباب

فقوله « الدجى حشو لان في القسم الثاني ما يدل عليه » [٢٠٦] .

---

(٢٠١) نقد الشعر : ٢١٤ .
(٢٠٢) نفسه : ٢١٨ .
(٢٠٣) الصناعتين : ٤٥٠ .
(٢٠٤) العمدة : ٢/٦٩ .
(٢٠٥) نقد الشعر : ٢١٤ .
(٢٠٦) العمدة : ٢/٧٠ .

وأما الامثلة على (الاستدعاء) فكثيرة منها قول ابي تمام :

كالظبية الأدماء صافت فارتعت   زهر العرار الغض والجثجاثا

وقد نقده العسكري فقال : « ليس في وصف الظبية انها ترتعي اجثجاث فائدة ؛ وسواء رعت الجثجاث او الثلام او غير ذلك من النبت ؛ واذا قصد لنعت الظبية بزيادة حسن قيل انها تعطو الشجر لانها حينئذ ترفع رأسها فيطول جيدها وتظهر محاسنها » (٢٠٧) وكان قدامة قد عرض لهذا البيت أيضا ؛ فعابه ؛ لورود كلمة الجثجاث فيه زائدة ؛ استدعتها القافية(٢٠٨) .

والحشو عند ابن سنان ضروب ؛ منها ما يستجاد ؛ ومنها ما يلحق بالرديء فأما المستجاد فهو الذي يفيد ـ بجانب تصحيح الوزن ـ فائدة مختارة، كقول المتنبي :

وتحتقر الدنيا احتقار مجرّب   يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا

« لان حاشاك ها هنا لفظة لم تدخل الا لكمال الوزن ؛ لانك اذا قلت : احتقار مجرّب يرى كل ما فيها فانيا ؛ كان كلاما صحيحا مستقيا ؛ فقد افادت مع اصلاح الوزن دعاء حسنا للممدوح في موضعه » (٢٠٩) .

واما الحشو المعيب فهو ضربان : ضرب « يؤثر في المعنى نقصا وفي الغرض فسادا » (٢١٠) كقول المتنبي :

فلا فضل فيها للشجاعة والندى   وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

« فان الندى ها هنا حشو يفسد المعنى ؛ وذلك ان مقصوده ان الدنيا لا فضل فيها للشجاعة والصبر لولا الموت ؛ لان الشجاع اذا علم أنه يخلد فأي فضل لشجاعته ؟ وكذلك الصابر ؛ فاما الندى فمخالف لذلك ؛ لان

(٢٠٧) الصناعتين : ٥٠ .
(٢٠٨) نقد الشعر : ٢١٨ ؛ ٢١٩ .
(٢٠٩) سر الفصاحة : ١٢٨ .
(٢١٠) نفسه : ١٤٠ .

الانسان اذا علم انه يموت هان عليه بذل ماله ... واما اذا كان الانسان خالدا في الدنيا ثم جاء بماله فلعمري ان كرمه يكون أفضل ، وبذله لماله أشد » [٢١١] .

وقد حاول الشريف المرتضى ان يتاول كلمة (الندى) في بيت المتنبي ، لينفي عنها صفة الحشو ، فقال انها بمعنى بذل النفس ، لا بذل المال كما قال مسلم بن الوليد :

يجود بالنفس اذ ضن البخيل بها والجود بالنفس اقصى غاية الجود

ثم قال المرتضى : « واذا جاز ان يسمى بذل النفس جودا جاز ان يسميه (ندى) أيضا ، وكرما وسخاء » [٢١٢] . ولكن ابن سنان رد على المرتضى بقوله : « ثم اذا سوّغنا ما ذهب اليه على بعده ، كان لفظ (الندى) حشوا لان الشجاعة قد أغنت عنه » [٢١٣] .

وأما الضرب الاخر من الحشو المعيب فهو الذي لا يؤثر في الكلام نقصا ، بل يكون دخوله فيه كخروجه منه ، كقول ابي تمام :

جذبت نداه غدوة السبت جذبة فخرّ صريعا بين ايدي القصائد

« لان قوله (غدوة السبت) حشو لا يحتاج اليه ، ولا تقع فائدة بذكره ، ومن ذا الذي يؤثر ان يعلم اليوم الذي اعطى الممدوح فيه ابا تمام ؟ » [٢١٤].

وهذا تجن من ابن سنان ، فاذا كان لا يهمه اليوم الذي قابل فيه الشاعر الممدوح ، فان ذلك اليوم بالقياس الى الشاعر ، قد يكون يوما مشهودا ، لا ينساه ، لانه حظي فيه بلقاء كان قد عقد عليه آمالا ، وحدث به النفس طويلا . واذا علمنا ان الشعراء كانوا يحجبون بابواب الممدوحين أياما ،

(٢١١) سر الفصاحة : ١٤١ ، ١٤٢ .
(٢١٢) نفسه : ١٤٢ .
(٢١٣) نفسه .
(٢١٤) نفسه ١٤٣ .

يتعرضـون فيها لآلام شتى [٢١٥] ، أدركنا مبلغ أهمية اليوم الذي يؤذن فيه للشاعر بلقاء ممدوحه •

وشاء النقاد ان يدلوا الشعراء على الكلمات التي لا تغني السياق ، ولا تضيف جديدا اليه ، وانما تكون حشوا يؤتى به لتصحيح الوزن فحسب •

فقدامة يعد اللفظ المرادف لما قبله ، او المساوى له في المعنى لفظا معيبا من شأنه ان يخل بما ينبغي للغة الشعر من ايجاز • فيقول : ان من عيوب اللفظ تكرير لفظين متساويين في المعنى ، مثل قول هذيل الاشجعي :

فما برحت تومي الي بطرفها ‏ ‏ ‏ وتومض احيانا اذا خصمها غفل

« لان تومض وتوميء بطرفها متساويان في المعنى » [٢١٦] • ومثل قوله أمية بن ابي الصلت :

لله نعمتنا تبارك ربنا ‏ ‏ ‏ رب الأنام ورب من يتأبد

فـ (يتأبد) و (الانام) متساويان في المعنى وليس « يجوز أن يكون أمية اراد بقوله من (يتأبد) الوحش ، وذلك ان (من) لا تقع على الحيوان غير الناطق واذا كان الامر على هذا فمن يتوحش داخل في الانام ، أو يكون اراد بقوله (يتأبد) أي يتقوت من الابد وذلك داخل في الانام » [٢١٧] •

والقاضي الجرجاني يرى ان كلمتي (وجرة) و (جاسم) يتكيء عليهما الشعراء ، ويأتون بهما لتصحيح الوزن ، فهما لذلك زائدتان حيثما وردتا ، يمكن الاستغناء عنهما ، ويستقيم الكلام بدونهما • وقد ساق الجرجاني رأيه هذا في تعليق له على بيتين ، الاول لامريء القيس وهو :

تصد وتبدى عن أسيل وتتقي ‏ ‏ ‏ بناظرة من وحش وجرة مطفل

---

(٢١٥) ينظر في ذلك : طراز المجالس : ٧٨ وما بعدها •
(٢١٦) نقد الشعر : ١٩٤ •
(٢١٧) نفسه : ١٩٤ ، ١٩٥ •

والثاني لعدي بن الرقاع وهو :

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم

قال الجرجاني : « هذا وقد تخلل كل واحد منهما من حشو الكلام ما لو حذف لاستغني عنه ، وما لا فائدة في ذكره ، لان امرأ القيس قال (من وحش وجرة) ، وعديا قال (من جآذر جاسم) ولم يذكرا هذين الموضعين الا استعانة بهما في اتمام النظم واقامة الوزن . ولا تلتفتن الى ما يتوله المعنويون في (وجرة) و (جاسم) فانما يطلب به بعضهم الاغراب على بعض، وقد رأيت ظباء جاسم فلم ارها الا كغيرها من الظباء ،وسألت من لا احصي من الاعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلا على وحش ضَرِيّة وغزلان بِشَيْطة » (٢١٨) .

والجرجاني في نقده هذا لم يستطع ان يدرك الايحاء الذي يدل عليه المكان . وقد فاته ان الشعراء الذين يذكرون (وجرة) و (جاسم) لايريدون الاخبار بفضل ما فيهما من وحش أو ظباء ، وانما يذكرون هذين المكانين لما كانوا يجدونه فيهما من اجواء خاصة ، وظلال مستعذبة ، ولانهم يثيرون بهما خيال السامع ، ويبعثونه على التحليق في مرابع وعوالم ترسمها هاتان الكلمتان . لقد كان الجرجاني منطقيا أكثر مما يجب حين كلف نفسه مؤونة السؤال عن وحش وجرة وظباء جاسم ، وعالهما من خصائص جعلت الشعراء يطيلون ذكرهما ، ويكثرون من ترديدها ، وما درى أن الشعراء لم يفعلوا ذلك الا لان هاتين الكلمتين مستعذبتان ، شاعت حولهما ظلال ، وتعلقت بهما ذكريات ، وأصبحتا اشبه بنغمة تتشوف اليها الاذان ، وتجد في سماعها لذة ونشوة . وقد أشار بعض المحدثين الى ان معنى اللفظة في الشعر لا يقتصر على الموضوع المقابل لها في المعجم « بل يشمل جميع الارتباطات التي تبعثها اللفظة مفردة ومجتمعة مع غيرها . فوظيفة اللغة في الشعر ليست مجرد الاشارة

(٢١٨) الوساطة : ٣١ ، ٣٢ .

الى الشيء ، وانما للغة في الشعر مكونات ثنائية وثلاثية ورباعية كما يقول كولردج » [٢١٩] .

وذكر ابن رشيق الفاظا اخرى ، وعدها من الحشو ، فقال « ومما يكثر به حشو الكلام اضحى وبات وظل وغدا وقد ويوما واشباهها ، وكان ابو تمام كثيرا ما ياتي بها » [٢٢٠] . ثم قال « ووجدت الحذاق يعيبون قول ابن الحدادية ، وهي أمه ، واسمه قيس بن منقذ :

ان الفؤاد قد امسى هائما كلفا　　　قد شفه ذكر سلمى اليوم فاتكما

لحشوه بـ (قد) في موضعين من البيت ، ثم بـ (أمسى) وبـ (اليوم) على تناقضهما » [٢٢١] .

وذهب ابن سنان الى ان (أمسى واصبح واخواتها) مما يؤخذ على الشعراء استعماله ، ان لم يكن لذكرها فائدة [٢٢٢] .

أما ابن الاثير فقد أورد بعض هذه الالفاظ ، وأضاف اليها أخرى ، وذهب الى انها ترد في الشعر « فتارة تجيء لفائدة ، وذلك قليل ، وتارة تجيء لغير فائدة ، وذلك كثير ، وأكثر ما ترد في الاشعار ليوزن بها الابيات الشعرية ، وذلك نحو قولهم : ولعمرك ونحو أصبح وأمسى وظل وأضحى وبات واشباه ذلك ، ونحو يا صاحبي ويا خليلي وما يجري هذا المجرى » [٢٢٣] .

ثم ضرب ابن الاثير بعض الامثلة على ما جاء من الكلمات التي ذكرها حشوا ، لا تنع فيه الا اقامة الوزن ، منها قول ابي تمام :

اقروا لعمري لحكم السيوف　　　وكانت أحق بفصل القضاء

---

(٢١٩) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٢٢٠) العمدة : ٢/٧١ .

(٢٢١) نفسه .

(٢٢٢) سر الفصاحة : ١٤٣ .

(٢٢٣) المثل السائر : ٢/٧٥ .

وقد علق عليه ابن الاثير قائلا : « فان قوله لعمري زيادة لا حاجة للمعنى اليها ، وهي حشو في هذا البيت ، لا فائدة فيه الا اصلاح الوزن لا غير . الا ترى انها من باب القسم ، وانما يرد القسم في موضع يؤكد به المعنى المراد ، اما لانه مما يشك فيه ، او مما يعزّ وجوده ، او ما جرى هذا المجرى ، وهذا البيت الشعري لا يفتقر معناه الى توكيد قسميّ ، اذ لا شك في ان السيوف حاكمة ، وان كل أحد يقر لحكمها ، ويذعن لطاعتها » (٢٢٤) .

غير ان ابن الاثير عاد فذكر ان الكلمة التي يؤتى بها لاقامة الوزن ، أو تصحيحه لا تعاب ، ولا تؤخذ على الشاعر « لأنا لو عبناها على الشعراء لحجّرنا عليهم ، وضيقنا ، والوزن يضطر في بعض الاحوال الى مثل ذلك ، لكن اذا وردت في الكلام المنثور ، فانها ان وردت حشوا ، ولم تر لفائدة ، كانت عيبا » (٢٢٥) .

وهو بهذا يختلف عن سابقيه الذين لم يروا ان الوزن يبيح للشاعر الحشو ، او الفضول ، بل رأوا ان من عيوب الشعر ان يضطر الشاعر فيه ، بسبب الوزن او القافية الى كلمات لا تفيد المعنى ، ولا تضيف جديدا اليه . من هؤلاء النقاد قدامة الذي قال في باب ائتلاف اللفظ مع الوزن « ومن هذا الباب أيضا الا يكون الوزن قد اضطر الى ادخال معنى ليس الغرض فيالشعر محتاجا اليه ، حتى اذا حذف لم تنقص الدلالة لحذفه ، أو اسقاط معنى لا يتم الغرض المقصود الا به » (٢٢٦) .

على أن القول بزيادة لفظ في العبارة ، ينبغي ان يسبقه درس دقيق لها ، وتفكير طويل عن معاني كلماتها ، وما يمكن ان تؤديه من وظيفة في التركيب ، فقد نحكم على كلمة ما بأنها زائدة ، ولكن التدقيق في التركيب يثبت ان الكلام يحتاج اليها ، وان خروجها منه يخل بمعناه . واذا كان الناقد مطالبا

(٢٢٤) المثل السائر : ٧٦/٢ .
(٢٢٥) نفسه : ٧٦/٢ .
(٢٢٦) نقد الشعر : ١٦٤ ، ١٦٥ .

بالتدقيق في معاني التراكيب قبل اصدار الحكم على ما فيها من حشو أو فضول ، فأنه يكون ملزما بهذا التدقيق اذا كان الكلام الذي ينقده كلاما مشهودا له بالفصاحة والبلاغة • يقول ابن الاثير : « فائدة وضع الالفاظ ان تكون ادلة على المعاني فاذا وردت لفظة من الالفاظ في كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة ، فالاولى ان تحمل تلك اللفظة على معنى ، فان لم يوجد لها معنى بعد التنقيب والتنقير ، والبحث الطويل ، قيل : هذه زائدة ، دخولها في الكلام كخروجها منه » (٢٢٧) •

غير ان النحاة لم يبنوا كثيرا من اقوالهم على درس دقيق لمعاني التراكيب، ووظائف الكلم فيها ، بل تعجلوا الاحكام وابتسروها ، وقالوا بزيادة بعض الحروف ، ولو انهم درسوا التراكيب ، وفحصوا معاني تلك الحروف ، لرأوا ان الكلام بغيرها غير الكلام بها ، وان اسقاطها منه ، يؤدي الى تجريده من معان خاصة ، تحدثها تلك الحروف فيه •

قال ابن الاثير : « وجرت بيني وبين رجل من النحويين مفاوضة في هذه الاية ـ يعني قوله تعالى (فلما ان اراد ان يبطش) ـ فقال : ان (أن) الاولى زائدة ، ولو حذفت فقيل : فلما اراد ان يبطش ، لكان المعنى سواء ، الا ترى ان قوله تعالى (فلما ان جاء البشير القاه على وجهه) وقد اتفق النحاة على أن (أن) الواردة بعد (لما) وقبل الفعل زائدة • فقلت له : النحاة لا فتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة ، ولا عندهم معرفة باسرارهما ، من حيث انهم نحاة ، ولا شك انهم وجدوا (أن) ترد بعد (لما) وقبل الفعل في القرآن الكريم وفي كلام فصحاء العرب فظنوا ان المعنى بوجودها كالمعنى اذا اسقطت فقالوا : هذه زائدة • وليس الامر كذلك ، بل اذا وردت (لما) وورد الفعل بعدها باسقاط (ان) دل ذلك على الفور ، واذا لم تسقط لم يدلنا ذلك على أن الفعل كان على الفور وانما كان فيه تراخ وابطاء ••• واذا كانت دالة على معنى، فكيف يسوغ ان يقال انها زائدة » (٢٢٨) •

---

(٢٢٧) المثل السائر : ١٦٤/٢ •
(٢٢٨) المثل السائر : ١٦٤/٢ •

واستدل ابن الاثير على أن (ان) لا تذكر بعد (لما) الا اذا اريد الاشعار بما رافق حدوث الفعل بعدها من تراخ وابطاء بقوله تعالى في قصة يوسف : (فلما ان جاء البشير القاه على وجهه) فقال : « اذا نظر في قصة يوسف عليه السلام مع اخوته منذ القوه في الجب والى ان جاء البشير الى أبيه عليه السلام وجد انه كان ثم ابطاء بعيد ، وقد اختلف المفسرون في طول تلك المدة ، ولو لم يكن ثم مدة بعيدة ، وأمد متطاول لما جيء بأن بعد لما وقبل الفعل بل كانت تكون الاية : فلما جاء البشير القاه على وجهه . وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة ، لانها ليست من شأنهم[٢٢٩] » .

وعلى هذا فالافادة مقياس مهم ، رجع اليه النقاد اللغويون ، وقرروا في ضوئه جودة الكلمة أو رداءتها . وقد انتهوا الى ان الكلمة لابد ان تغني التركيب ، وتضيف جديدا اليه ؛ فان اقحمت عليه ، او لم تكن لها فائدة فيه ، سقطت وعدت من الرديء . كما انهم لم يعدوا الكلمة التي تجيء لاتمام النظم ، واقامة الوزن ، كلمة مفيدة ، وشذ منهم ابن الاثير فعدها مفيدة .

١١ ـ الاشتراك :

نظر النقاد العرب الى المفردات في ضوء مقياس آخر ، فقرروا ان الكلمة المشتركة المعنى ـ اى التي تدل على عدة معان ـ لا تكون جيدة الا اذا صاحبتها قرينة ، توضح المقصود بها . ذهب الى ذلك ابن رشيق[٢٣٠] . وعلق ابن الاثير على قوله تعالى (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون) : « الا ترى ان لفظه التعزير مشتركة تطلق على التعظيم والاكرام ، وعلى الضرب الذي هو دون الحد ، وذلك نوع من الهوان ، وهما معنيان ضدان ، فحيث وردت في هذه الآية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها ، فخصت معناها بالحسن ، وميزته عن القبيح ولو وردت مهملة بغير قرينة واريد بها المعنى الحسن ، لسبق الى الوهم ، ما اشتملت عليه

(٢٢٩) المثل السائر : ٢/١٦٥ .
(٢٣٠) العمدة : ٢/٩٦ .

من المعنى القبيح / مثال ذلك لو قال قائل : لقيت فلانا فعزرته ، لسبق الى الفهم انه ضربه واهانه ، ولوقال : لقيت فلانا فاكرمته وعزرته ، لزال ذلك اللبس[٢٣١] » ٠

واستحسن ابن رشيق استخدام كثيّر لكلمة (قصيرة) وهي مشتركة ، تعني المرأة المحجبة كما تعني المرأة القصيرة ، الا ان كثيرا نفى هذا الاشتراك عن الكلمة فاردفها بما حدد مراده منها ، قال :

لعمري لقد حبّبت كل قصيرة   الي وما تدري بذاك القصائر
عنيت قصيرات الحجال ولم أرد   قصار الخطا شرّ النساء البحاتر[٢٣٢]

وقول كثير ، عند ابن ابي الاصبع ، لم يبلغ مرتبة الجودة ، كما لم يهبط الى درك القبح ، وانما بقي في منزلة بين منزلتين ، لان كثيرا لم يحدد المراد بكلمة قصيرة الا في البيت الثاني ٠ واحتياج البيت الى الذي يليه ، أمر مذموم ، اصطلحوا عليه بـ (التضمين) ٠ جاء في (تحرير التحبير) : « فان لفظة قصيرة مشتركة فلو اقتصر على البيت الاول كان الاشتراك معيبا ، لكنه لما اتى بالبيت الثاني زال العيب فبقي الاشتراك ليس بمعيب ولا بحسن ، والذي منعه ان يعد حسنا ما في البيتين من التضمين ، فان ذلك جعل له منزلة بين منزلتين[٢٣٣] » ٠

ولكلمة (عقل) معنيان : احدهما معروف ، والاخر الدية ، الا ان استعمالها بالمعنى الثاني قليل ، واليه قصد ابو تمام في قوله :

اعطيت لي دية القتيل وليس لي   عقل ولا حق عليك قديم

وقد عاب ابن الاثير على ابي تمام استعمال كلمة (عقل) دون قرينة

---

(٢٣١) المثل السائر : ١/١٨٥ ٠
(٢٣٢) العمدة : ٢/٩٦ ، ٩٧ ٠
(٢٣٣) تحرير التحبير : ٢٣٩ ٠

تحدد المراد بها . قال : « فقوله ليس لي عقل يظن انه من عقل الشيء اذا علمه ، ولو قال ليس لي عليك عقل لزال اللبس[٢٣٤] » .

غير ان اكثر الشعراء فطنوا الى ما توجبه الالفاظ المشتركة من قرائن ، فاستعملوا ما استعملوه من تلك الالفاظ مشفوعا بقرائن تبدد اللبس عنها ، وتحدد المقصود بها . فهذا جرير مثلا استعمل كلمة (الطرب) بمعنى (الحزن) ولكنه جاء بما يدل على انه لم يرد بها المعنى الاخر وهو (الفرح) فقال :

قد كنت في الاثر الاظعان ذا طرب   مروّعا عن حذار البين محزانا

فالفاظ البيت « في جملتها تاخذ بذهن السامع الى الحزن ، وتقطع الصلة بينه وبين المعنى الاخر[٢٣٥] » .

وهناك ضرب آخر من الالفاظ المشتركة ، وهي التي اكتسبت مع مرور الزمن دلالات قبيحة ، واصبح النطق بتلك الالفاظ مثيرا لتلك الدلالات في نفوس سامعيها .

وقد عاب النقاد هذه الالفاظ ، ونصحوا بالتباعد عنها ، ومن الامثلة عليها (الغائط) التي وردت في قول عمرو بن معد يكرب :

وكم من غائط من دون سلمى   قليل الانس ليس به كتيع

ذلك لانها كانت تعني (البطن من الارض) ثم صارت تطلق على الحدث[٢٣٦] . وواضح ان عمرو بن معد يكرب غير ملوم على استعمال هذه اللفظة ، لانها لم تكن في عصره مستعملة بالمعنى المستقبح الذي ذكرناه .

وكلمة (الادبار) التي جاءت في قول ابي تمام :

وعزائما في الروع معتصمية   ميمونة الادبار والاقبال

(٢٣٤) المثل السائر : ١/١٨٧ .
(٢٣٥) دروس في البلاغة : ١٨٧ .
(٢٣٦) سر الفصاحة : ٧٦ ، ٧٧ .

كلمة غير مرضيّة لأنها اقترنت بمعنى مكروه[٢٣٧]. ومثلها كلمة (جنابة) التي وردت في قول الرضيّ :

سلام على الاطلال لا عن جنابة ولكن يأسا حين لم يبق مطمع

لانها اصبحت مشتركة ، واحد مدلوليها هو المدلول العامي المعروف[٢٣٨] . ومثل هذه الالفاظ كلمة (الصرم) التي جاءت في قول المتنبي :

اذاق الغواني حسنه ما أذقنني وعف فجازاهن عني بالصرم

وقد علق ابن الاثير عليها قائلا : « فانّ لفظة الصرم في وضع اللغة هو القطع يقال: صرمه اذا قطعه ، فغيرتها العامة ، وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره ، فابدلوا السين صادا ، ومن اجل ذلك استكره استعمال هذه اللفظة وما جرى مجراها ، ولكن المكروه منها ما يستعمل على صيغة الاسمية ، كما جاءت في هذه البيت ، واما اذا استعملت على صيغة الفعل كقولنا : صرمه ، وصرمته وتصرمه فانها لا تكون كريهة لان استعمال العامة لا يدخل في ذلك[٢٣٩] » .

فالالفاظ المشتركة ضربان : الاول الالفاظ التي تدل على معنيين او اكثر ليس بينها معنى قبيح ، وهذه لا عيب فيها ، اذا قيد المراد منها بقرينة . والثاني الالفاظ التي تدل على معنيين او اكثر ، بينها معنى قبيح ، وهذه غير مرضيّة ، ولا يجوز للاديب استعمالها ، وان عرف مراده منها .

١٢ - التكرار :

التكرار في نظر النقاد المحدثين هو « الحاح على جهة مهمة في العبارة يعني بها الشاعر اكثر من عنايته بسواها[٢٤٠] » . فالتكرار على هذا « يسلط

(٢٣٧) سر الفصاحة : ٧٦ ، ٧٧ .
(٢٣٨) نفسه .
(٢٣٩) المثل السائر : ١/١٨٠ .
(٢٤٠) قضايا الشعر المعاصر : ٢٤٢ .

الضوء على نقطة حساسة في العبارة ، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها ، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة ، تفيد الناقد الادبي الذي يدرس الاثر ، ويحلل نفسية كاتبه[٢٤١] » .

هكذا فهم النقاد المحدثون التكرار ، وعدوه مفتاحا للفكرة المتسلطة على المنشئ ، او أحد الاضواء التي تنير لنا جانبا من اعماقه ، فعنوا به وصرفوا اليه اهتمامهم ، فخرجوا من درسه بنتائج مهمة ، يتعلق بعضها بالفن ، وبعضها بالمنشئ . ولعل السبب في عنايتهم به ، هو انه اسلوب شاع في هذا العصر ، وبرز بروزا استدعى النظر فيه ، والوقوف عنده .

اما النقاد القدامى فلم يولوه هذا الاهتمام ، ولم يقفوا عنده الا وقفات عابرة ، ظهرت عند ابي هلال وابن رشيق وابن الاثير ، كما ظهرت عند بعض كتّاب الاعجاز كالخطابي . وقد عدّه « أهل البديع فرعا ثانويا من فروع البديع لا يقفون عنده الا لماما[٢٤٢] » .

وللقدامى عذرهم في ذلك ، لان التكرار لم يشع آنذاك شيوعه في هذا العصر ، ولا كان نمطا تعبيريا يتكثر منه الشعراء ، كما تكثر منه المحدثون ، وغالى بعضهم فيه فعدّه تجديدا في الاسلوب الشعري[٢٤٣] .

وواضح ان النقد يتبع الادب ، ويدور في فلكه ، فاذا برزت ظاهرة ادبية بروزا كبيرا ، استرعت نظر النقاد ، ودعتهم الى مراقبتها ، ووضع المقاييس لها ، وتفصيل القول في المقبول والمرذول من عناصرها . ولما لم تشع ظاهرة التكرار لدى القدامى ، قلت عناية النقاد بها ، وكان حديثهم عنها عابرا .

والواقع ان كلام النقاد العرب على التكرار يمكن ان يوصف بالقلة والاقتضاب اذا قيس بما للمحدثين من تفصيلات بشأنه ، واستنتاجات قيمة .

(٢٤١) قضايا الشعر المعاصر : ٢٤٣ .
(٢٤٢) نفســه : ٢٤١ .
(٢٤٣) نفســه : ٢٣٠ .

ويظهر ان المحدثين قد انتفعوا في درسهم للتكرار ، وفي استنباطهم ما استنبطوه منه ، بما توصل اليه علم النفس في هذا العصر .

لقد وقف النقاد العرب عند التكرار ، وأجمعوا على استقباح اللفظ المكرر ، اذا لم تكن وراء تكراره علة تسوغه ، وتجعله لفظا مقبولا ومفيدا . وقسموا التكرار على قسمين : معيب وحسن . فالمعيب عند الخطابي « هو ما كان مستغنى عنه ، غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الاول ، لانه حينئذ يكون فضلا من القول ولغوا ، وليس في القرآن شيء من هذا النوع »(٢٤٤) . والحسن « ما كان بخلاف هذه الصفة ، فان ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه ، وتدعو الحاجة اليه فيه ، بازاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة الى الحذف والاختصار ، وانما يحتاج اليه ، ويحسن استعماله في الامور المهمة التي قد تعظم العناية بها ، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها(٢٤٥) » .

وذهب ابن رشيق الى قريب من ذلك فقال : « وللتكرار مواضع يحسن فيها ، ومواضع يقبح فيها ، فاكثر ما يقع التكرار في الالفاظ دون المعاني ، وهو في المعاني دون الالفاظ اقل ، فاذا تكرر اللفظ والمعنى جميعا فذلك الخذلان بعينه(٢٤٦) » .

فهو هنا يحدد المقبول من اللفظ المكرر ، ويجعله ما أفاد معنى لم يفده اللفظ الاول ، فاذا لم يفد معنى جديدا ، او لم يوح لنا تكراره بفكرة ما ، عد لغوا وفضولا .

واللفظ المكرر الجيد عند ابن رشيق ما كان الباعث عليه واحد من أمور سبعة هي(٢٤٧) :

---

(٢٤٤) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٤٨ .

(٢٤٥) نفسه .

(٢٤٦) العمدة : ٧٣/٢ ، ٧٤ .

(٢٤٧) نفسه : ٧٥/٢ ، ٧٦ .

١ - التشوق والاستعذاب للفظ المكرر ، ولا يكون هذا الا في الغزل كقول قيس بن ذريح :

الا ليت لبنى لم تكن لي خلة ولم تلقني لبنى ولم أدر ما هيا

٢ - التنويه باللفظ المكرر ، واظهار الاهتمام به كقول الخنساء :

وان صخرا لمولانا وسيدنا وان صخرا اذا نشتو لنحار

٣ - التوبيخ والتقرير كقول بعضهم :

الى كم وكم اشياء منكم تريبني اغمض عنها لست عنها بذي عمى

٤ - الوعيد والتهديد كقول الاعشى يزيد بن مهر الشيباني :

ابا ثابت لا تعلقنك رماحنا ابا ثابت أقصر وعرضك سالم
وذرنا وقوما ان هم عمدوا لنا ابا ثابت واقعد فانك طاعم

٥ - اظهار التوجع اذا كان الشاعر في موقف رثاء ، كما فعل مالك بن الريب حين كرر لفظ (الغضا) مظهرا بذلك جزعه على مفارقته وكما فعل متمم ابن نويرة حين كرر كلمة (قبر) في رثاء اخيه .

٦ - الاستغاثة ، ويظهر هذا اللون من التكرار في قصائد المديح ، كقول الشاعر :

بني مسمع لولا الاله وانتم بني مسمع لم ينكر الناس منكرا

والاستغاثة لا تكون في المديح فحسب ، كما زعم ابن رشيق ، بل قد تظهر في مواقف اخرى غيره .

٧ - الرغبة في الحط من المهجو ، والوضع من قدره كما صنع جرير في قصيدته (الدماغة) التي هجا بها راعي الابل فكرر بني نمير في كثير من ابياتها .

وتلاحظ في انواع التكرار الحسن التي ذكرها ابن رشيق ، ومثل لها ، ان الشاعر لايكرر اللفظ إلا اذا قصد من تكراره معنى، او ايحاء بشعور خاص،

وابن رشيق هنا يلتقي بالمحدثين الذين وصفوا التكرار بانه الحاح من المنشىء على جهة معينة من العبارة ، لاظهار الاهتمام بها • وقد فصّل لنا ابن رشيق بواعث الاهتمام باللفظ المكرر ، والدوافع الى الالحاح عليه ، واعادته • وهي التفاتة طيبة ، تحمد للنقاد العرب ، وتجعل ضمن ما اهتدوا اليه من اسرار التعبير الادبي ، وليس ما اهتدوا اليه بقليل • غير ان ما كشفه ابن رشيق من اسرار التكرار ، وان كان مهما ، يبقى دون ما للمحدثين في هذا الشأن •

ولم يخرج ابن الاثير ، عندما عرض للتكرار ، عن هذه القاعدة الاولية ، التي وضعها ابن رشيق وغيره للفظ المكرر ، وهي ان يفيد معنى ، كان يأتي تاكيدا لما قبله ، وتشييدا من أمره ، او مبالغة في مدحه أو ذمه او غير ذلك[٢٤٨] •

اما اللفظ المكرر المعيب فهو ما لم يفد معنى جديدا ، وما لم يكن وثيق الارتباط بحالة نفسية خاصة تسيطر على المنشىء • وقد سقط في هذا العيب بعض الشعراء ، ومن الامثلة عليه قول الشاعر :

فما للنوى جذ النوى قطع النوى ... كذاك النوى قطاعة لوصال

فلما سمعه الاصمعي قال : « لو سلط الله تعالى على هذا البيت شاة ، فأكلت هذا النوى كله[٢٤٩] » • وقول المتنبي :

عظمت فلما تكلم مهابة ... تواضعت وهو العظم عظما عن العظم

ولما وقف الصاحب بن عباد على هذا البيت قال : « ما اكثر عظام هذا البيت[٢٥٠] » •

ولم يجز ابن الاثير للشاعر ان يكثر من ذكر اللفظ ، بحجة الاستعذاب له وعد ذلك ضعفا ، ولفظية لا سبيل الى قبولها • قال مروان الاصغر :

سقى الله نجدا والسلام على نجد ... ويا حبذا نجد على النأى والبعد
نظرت الى نجد وبغداد دونها ... لعلي أرى نجدا وهيهات من نجد

---

(٢٤٨) المثل السائر : ١٥٨/٢ •
(٢٤٩) يتيمة الدهر : ١٨١/١ •
(٢٥٠) العمدة : ٧٥/٢ •

فعلق ابن الاثير على هذين البيتين قائلا : « وهذا من العي الضعيف ، فانه كرر ذكر نجد في البيت الاول ثلاثا ، وفي البيت الثاني ثلاثا ؛ ومراده في الاول الثناء على نجد ؛ وفي الثاني انه تلفّت اليها ناظرا من بغداد ، وذلك مرمى بعيد ، وهذا المعنى لا يحتاج الى مثل هذا التكرير ، اما البيت الاول فيحمل على الجائز من التكرير ، لانه مقام تشوق وتحرق وموجدة بفراق نجد ، ولما كان كذلك أجيز فيه التكرير ، على انه قد كان يمكنه ان يصوغ هذا المعنى الوارد في البيتين معا من غير ان يأتي بهذا التكرير المتابع ست مرات[٢٥١] » .

ونبه ابن الاثير على نوع من التكرار الحسن ، قد خفي على بعض النقاد فظنوه من التكرار المعيب ، وهو ان يكرر المنشىء اللفظ بعد اضافته الى لفظ آخر ، وكأن الاضافة تبعد عنه الرتابة من جهة وتمنحه قوة لم تكن له عند ذكره أول مرة . ومن الامثلة على هذا النوع من التكرار قول البحتري :

ويوم تثنت للوداع وسلمت بعينين موصول بلحظهما السحر
توهمتها الوى باجفانها الكرى كرى النوم او مالت بأعطافها الخمر

وقد علق ابن الاثير على هذين البيتين قائلا : « وربما أشكل هذا الموضع على كثير من متعاطي هذه الصناعة وظنوه مما لا فائدة فيه ، وليس كذلك ... واما بيت البحتري فانه اراد ان يشبه طرفها لفتوره بالنائم ، فكرر المعنى فيه على طريق المضاف والمضاف اليه ، تأكيدا له ، وزيادة في بيانه[٢٥٢] » .

كما نبه ابن الاثير على ان النقاد ربما ادخلوا في التكرار ما ليس منه ، وهو ان يعيد المنشىء اللفظ اذا بعد عن معمولاته ومتعلقاته وما يرتبط به من الفاظ « لاسيما في ان واخواتها ، فاذا وردت (ان) وكان بين اسمها وخبرها

(٢٥١) المثل السائر : ٢/١٧١ .

(٢٥٢) نفسه : ٢/١٦٦ .

فسحة طويلة من الكلام ، فاعادة (ان) احسن في حكم البلاغة والفصاحة[٢٥٣] » .

وعلى هذا ورد قول بعضهم :

وان امرأ دامت مواثيق عهده   على مثل هذا انه لكريم

« فانه لما طال الكلام بين اسم ان وخبرها اعيدت ان مرة ثانية ، لان تقدير الكلام : وان امرأ دامت مواثيق عهده على مثل هذا لكريم ، لكن بين الاسم والخبر مدى طويل ، فاذا لم تعد (ان) مرة ثانية لم يأت على الكلام بهجة ولا رونق ، وهذا لا يتنبه لاستعماله الا الفصحاء اما طبعا واما علما[٢٥٤] » .

وقد فطن ابو هلال العسكري الى ضرب من تكرار الالفاظ سمّاه (المجاورة) ثم عرفها قائلا : « المجاورة تردد لفظتين في البيت ، ووقوع كل واحدة منهما بجنب الاخرى ، أو قريبا منها ، من غير ان تكون احداهما لغوا لا يحتاج اليها ، وذلك كقول علقمة :

ومطعم الغُنْم يوم الغُنْم مُطعمهُ   أنّى توجّه والمحروم محرومُ

فقوله (الغنم يوم الغنم) مجاورة و (المحروم محروم) مثله . وقول الاخر : « وتندق منها في الصدور صدورها[٢٥٥] » .

وسمى ابن رشيق هذا الضرب من التكرار بـ (الترديد) وهو مستحسن عنده ايضا ، قال في تعريفه : « هو ان يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى ، ثم يردها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه ، او في قسيم منه ، وذلك نحو قول زهير :

من يلق يوما على عِلاته هَرِما   يلق السماحةَ منه والندى خلقا

فعلق (يلق) بهرم ثم علقها بالسماحة[٢٥٦] » .

---

(٢٥٣) المثل السائر : ٢/١٦٧ .
(٢٥٤) نفسه .
(٢٥٥) الصناعتين : ٤١٣ .
(٢٥٦) العمدة : ١/٢٣٢ .

ويبدو ان المتنبي لم يوفق في استخدام (الترديد) في قوله :

أسد فرائسها الاسود يقودها   أسد تكون له الاسود ثعالبا

وقد عابه ابن رشيق قائلا : « فما ادري كيف تخلص من هذه الغابة المملوءة اسودا ؟ ولا أقول انه بيت شعر[٢٥٧] » . الا ان عبدالرحمن شعيب دافع عن تكرار المتنبي لكلمة (أسد) في هذا البيت ، فقال : « وبالرغم من ان المتنبي كرر كلمة (الاسد) في هذا البيت تكريرا لم يرق القيرواني ، فانا نجد الكلمة في كل مرة من مرات ذكرها في البيت ، وفت المعنى المسوقة له احسن توفية ، واختلف اطلاقها في كل مرة اختلافا يجعل لتكريرها سندا مقبولا ، وعلة مستساغة ، وبذلك فانا لا نقر القيرواني في رده للبيت ، وعدّه ضمن الساقط من شعر المتنبي للتكرير المقوت[٢٥٨] » .

وأرى ان ابن رشيق على حق في ذمه (الترديد) في بيت المتنبي ، ذلك لان الشعراء الذين نجحوا في هذا الضرب من التكرار ، لم يوغلوا فيه ايغال المتنبي ، ولم يتكلفوا له تكلفه ، ولم يكرروا اللفظة اكثر من مرة في البيت الواحد ، اما المتنبي فيبدو انه وضع كلمة (أسد) نصب عينيه ، ثم صار يحتال لتكرارها ، ويخلق لها المتلعقات التي تسوّغ هذا التكرار ، وهذا هو التعمل الذي يفسد الفن ، ويسلبه رونقه .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان بعض النقاد جهل دوافع التكرار في بعض العبارات ، ولم يفطن لما وراءه من حالات نفسية ، تسوّغه ، وتجعله مقبولا ، ولم ينظر اليه بعين الناقد الذي يلتمس ما وراء اللفظ ، ويتسقط الاصداء التي تتناثر من الكلمة ، فوصف بعض الالفاظ المكررة بانها حشو او فضول ، لا غناء له ، ولا نفع فيه . ومن الامثلة على التكرار الذي جهل بعض النقاد حقيقته ، قول ابي سعد المخزومي ، الذي يبدو ان الشيب بكر اليه ، فراح

---

(٢٥٧) العمدة : ٣٣٥/١ .

(٢٥٨) المتنبي بين ناقديه : ١٠٨ .

يكرّر لفظة (الشباب) كمن ينذر بفقد شيء فيحرص عليه ، ويتشبث به . قال المخزومي :

أشيب ولم أقض الشباب حقوقه ولم يمض من عهد الشباب قديم

الا ان الصولي لم يرقه تكرار لفظ (الشباب) ورأى ان الشاعر لو استعاض من الثاني بضمير يعود على الاول لكان الكلام أشبه بكلام الحذاق . قال : « وكان يجب ان يغير الاول أو الثاني ، وتغيير الثاني أشبه لان قوله : ولم يمض من عهد الشباب قول من لم يذكر الشباب في صدر بيته . ولم يتكلم الحذاق في هذا الا برد ضمير عليه فيقال : ولم يمض منه اوله او عليه ، فلو قال : من عهد عليه قديم كان أشبه[٢٥٩] » .

لقد جهل الصولي دوافع التكرار في هذا البيت ، واساء فهمه ، ونصح للشاعر بالاستعاضة منه بضمير يغني عنه ، وكأن الشاعر في نظر الصولي مجرد مخبر ، همه النقل والايصال ، وان علاقته باللغة يحددها هذا الغرض القريب الساذج ، بمعنى ان اى لفظ يجزئه ، ويبلغه مقصوده ، وفات الصولي ان التكرار عنصر بياني ، لا يستغني الشاعر عنه ، وان اللفظ المكرر الناجح ، يقوم مقام كلام طويل .

ولم يفطن المرزباني ايضا لحقيقة التكرار ودوافعه في قول البحترى :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس

ورأى ان الضمير يغني عن كلمة (نفس) الثانية ، بمعنى ان البحترى لو قال (صنت نفسي عما يدنسها) لكان ذلك احسن عند المرزباني[٢٦٠] . ولا حاجة بي الى التعليق على ما في هذا الرأى من خطل ، ومجانبة للفهم الصحيح لاسلوب الشعر ، ووظيفة الالفاظ فيه ، فالالفاظ عند الشاعر الحاذق ليست رموزا لمعان فحسب ، بل ان لها وظائف أخرى لا يدركها الا ناقد فطن ، والضمير

---

(٢٥٩) الموشح : ٥٢٠ .
(٢٦٠) نفسه .

الذي اشار اليه المرزباني قد يصلح لو قصد البحتري الى مجرّد الاخبار في كلام منثور .

١٣ - موقع الكلمة :

نبه ابن الاثير على مقياس آخر من المقاييس التي تعرض عليها المفردة ، وهو موقعها من العبارة . فبعض الكلمات - عند ابن الاثير - تحسن اذا اكتنفتها الالفاظ ، واشتملت عليها العبارة ، وتقبح اذا وقعت طرفا ، ولم يتبعها شيء ، لان الكلام ينقطع عندها ، فتبدو كأنها منفردة ، لم يضمها سياق ، ولم تجاورها الفاظ . وبعض الكلمات لذلك لا تحسن اذا وقعت نهاية لصدر بيت ، أو جاءت قافية فيه . وأشار ابن الاثير الى أن احدا لم يسبقه الى هذا الرأي ، ثم ضرب لذلك عدة أمثلة منها كلمة (تؤذى) التي وردت في تركيبين فكانت في احدهما جيدة ، وكانت في الاخر رديئة ، اما الاول فقوله تعالى « فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق » .

والثاني قول المتنبي :

تلذ له المروءة وهي تؤذى   ومن يعشق يلذ له الغرام

قال ابن الاثير معلقا على الآية والبيت :« وهذه اللفظة التي هي تؤذى اذا جاءت في الكلام فينبغي ان تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها ، متعلقة به كقوله تعالى (ان ذلكم كان يؤذى النبي) وقد جاءت في قول المتنبي منقطعة ، الا ترى انه قال : (تلذ له المروءة وهي تؤذى) ثم قال (ومن يعشق يلذ له الغرام) فجاء بكلام مستأنف[٢٦١] » .

ومن ذلك كلمة (القمل) التي وردت في قوله تعالى « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات » وجاءت في قول الفرزدق :

---

(٢٦١) المثل السائر : ١/١٤٦ .

من عزه احتجزت كليب عنده زربا كأنهم لديه القمّل
فحسنت في الآية ، وقبحت في البيت « لانها جاءت في الاية مندرجة في ضمن كلام ولم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت في الشعر قافية ، اي آخرا انقطع الكلام عندها[٢٦٢] » .

ونبه ابن الاثير على ان في الآية الكريمة سرا آخر من أسرار الجمال ، وهو ان خمسة الالفاظ التي فيها متفاوتة في الحسن ، فجعلت « لفظة القمل والضفادع في الوسط ليطرق السمع اولا الحسن من الالفاظ الخمسة ، وينتهي اليه آخرا ، ثم لفظة الدم احسن من لفظتي الطوفان والجراد وأخف في الاستعمال ، ومن أجل ذلك جيء بها آخرا ، ومراعاة مثل هذه الاسرار والدقائق في استعمال الالفاظ ليس من القدرة البشرية[٢٦٣] » .

١٤ ـ اسماء الاشارة والموصول والضمائر :

وقد عاب النقاد الاكثار من هذه المفردات وكادوا يجعلونها مما يتوكأ عليه الشاعر لاقامة الوزن او تصحيحه . قال القاضي الجرجاني عن المتنبي : « وهو اكثر الشعراء استعمالا لـ (ذا) التي هي للاشارة ، وهي ضعيفة في صنعة الشعر ، دالة على التكلف ، وربما وافقت موضعا يليق بها[٢٦٤] » .

وعلى عادة النقاد العرب في الاحتكام الى الشعر الجاهلي ، واستمداد اكثر مقاييس الجودة والرداءة منه ، استدل القاضي الجرجاني على قبح اسماء الاشارة بأن الشعر الجاهلي يكاد يخلو منها ؛ فقال « وانت لا تجد منها في عدة دواوين جاهلية حرفا[٢٦٥] » . وعلى الرغم من ان اسماء الاشارة لم تظهر كثيرا الا في الشعر العباسي ، فان الشعراء استعملوها « في الفرط والندرة او على سبيل الغلط والفلتة [٢٦٦] . أما المتنبي فقد افرط في استخدامها ،

(٢٦٢) المثل السائر : ١/١٤٨ .
(٢٦٣) نفسه : ١/١٤٨ .
(٢٦٤) الوساطة : ٩٥ .
(٢٦٥) نفسه : ٩٧ .
(٢٦٦) نفسه .

فكان ذلك من العيوب التي أخذت عليه . قال ابن جني : « قلت لابي الطيب المتنبي : انك تكرر في شعرك (ذا)و (ذى) كثيرا، ففكر ساعة ثم قال : ان هذا الشعر لم يعمل كله في وقت واحد ، فقلت : صدقت الا ان المادة واحدة ؛ فامسك[٢٦٧] » .

وقال ابن رشيق «ويكره للشاعر استعمال (ذا) و (ذى) و (الذي) و (هو) و (هذا) و (هذى) وكان ابو الطيب مولعا بها ، مكثرا منها في شعره ؛ حتى حمله حبه فيها على استعمال الشاذ وركوب الضرورة في قوله :

لو لم تكن من ذا الورى الّذْ منكَ هُوْ
عَقِمَت بمولـدِ نسلِها حوّاءُ » [٢٦٨]

وان عدد النقاد اسماء الاشارة خاصة « معيبة كأنها حشو واستعانة على الكلام » [٢٦٩] فقد فرقوا بين ما يأتي منها كذلك وما يأتي « شطارة وعبثا » [٢٧٠] كقول ابي نواس :

قال ابراهيم بالما ل كـذا غربا وشرقا

أو ما يأتي منها « بيانا وتثقيفا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عمرو بن العاص : « وكيف بك اذا بقيت في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا وشبك بين اصابع يديه » ولا أحد افصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبعد كلاما منه من الحشو والتكلف »[٢٧١] او كما قال احد الخطباء في حضرة معاوية : « هذا أمير المؤمنين واشار بيده الى معاوية فان مات فهذا ، واشار الى يزيد ، فمن أبى فهذا ، واشار الى السيف » [٢٧٢] .

---

(٢٦٧) سر الفصاحة : ٩٦ .
(٢٦٨) العمدة : ٧١/٢ .
(٢٦٩) نفسه : ٣٠٩/١ .
(٢٧٠) نفسه .
(٢٧١) نفسه .
(٢٧٢) العمدة : ٣١٠/١ .

فأسماء الاشارة لا تحسن ابدا ، ولا تقبح دائما ، انما تحسن وتقبح . ويتوقف ذلك على موقعها من التركيب ، وعلى حاجة المعنى اليها . وقد صدق الجرجاني حين قال « وربما وافقت موضعا يليق بها » (٢٧٣) .

١٥ ـ كاف الخطاب :

ولهذا الضمير أيضا ، مواضع يحسن فيها ويجود ، وأخرى يقبح فيها ويرد ، وقد عني النقاد به ، وأوضحوا مواقع حسنه ، وشروط استخدامه . ووجد النقاد ان الشعراء يوردونه للتعبير عن معان تكره مواجهة المخاطبين بها ، وان كان الشعراء يخاطبون انفسهم بتلك المعاني . ولما كان المدح والرثاء يشغلان الشعراء ، ويذهبان باكثر شعرهم ، فقد اتجهت عناية النقاد الى هذين الغرضين ، ووضعوا لهما كثيرا من التقاليد التي تضمن للشاعر رضا واستحسان من يتوجه اليه بمدح وتعزية ، ثم جعلوا الخروج على هذه التقاليد ، أو عدم مراعاتها سببا في تأخر الشاعر وتعريضه للوم والعقاب احيانا » (٢٧٤) .

وطبيعي ان تشمل تلك التقاليد الشكل والمضمون ، أو الالفاظ والمعاني، وما حديثهم عن الاستهلال وحسن التخلص والختام ، وكلامهم على كاف الخطاب الا امثلة من تلك التقاليد الموضوعة لهذين الغرضين ، والمستنبط أكثرها من احسن ما قيل فيهما من شعر . قال ابن طباطبا متحدثا عن الشاعر : « واذا مرّ له معنى يستبشع اللفظ به ، لطف في الكناية عنه ، وأجل المخاطب عن استقباله بما يتكرهه منه ، وعدل اللفظ عن كاف المخاطبة الى ياء الاضافة الى نفسه ، ان لم ينكر الشعر ، أو احتال في ذلك بما يحترز به مما ذممناه ، ويوقف به على أرب نفسه ، ولطف فهمه كقول القائل :

ولا تحسبن الحزن يبقى فانه ... شهاب حريق واقد ثم خامد

سآلف فقدان الذي قد فقدته ... كالفك وجدان الذي انت واجد

---

(٢٧٣) الوساطة : ٩٥ .

(٢٧٤) الاسس الجمالية في النقد العربي : ١٩٦ .

وانما اراد الشاعر : ستألف فقدان الذي قد فقدته كالفك وجدان الذي قد وجدته ، أي تعزى عن مصيبتك بالسلو ، فانظر اليه كيف لطف في اضافة ذكر المفقود الذي يتطير منه الى نفسه ، وما يتفاءل اليه من الوجدان الى المخاطب ، فجعل الموجود المألوف للمعزّى ، والمفقود لنفسه » (٢٧٥) .

وكان ذو الرمة قد استخدم (كاف الخطاب) في مستهل قصيدته التي مدح بها عبدالملك ، فاستثقل الخليفة ان يوجه الخطاب اليه ، وغضب على ذي الرمة ونحاه ، قال ذو الرمة :

ما بال عينك منهـا الماء ينسكبُ كأنـه من كُلى مفريـة سربُ

« وكانت عينا عبدالملك تسيلان ماء ، فقيل له : ويحك انما دهاك عنده قولك :

ما بال عينك منهـا الماء ينسكب

فاقلب كلامك . قال : فصبر حتى دخل الثانية فقال له : انشد فأنشد :

ما بال عيني منها المـاء ينسكب

حتى أتى على آخرها فأجازه واكرمه » (٢٧٦) .

واستعمل جرير (كاف الخطاب) في قصيدته التي مدح بها عبدالملك أيضا فقال :

أتصحو ام فـؤادك غير صاح

فقال عبدالملك : « بل فؤادك يا ابن الفاعلة . كأنه استثقل هذه المواجهة، والا فقد علم ان الشاعر انما خاطب نفسه » (٢٧٧) .

وعيب المتنبي أيضا لاستعماله الضمير المذكور في احدى مدائحه لكافور قـال :

---

(٢٧٥) عيار الشعر : ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٢٧٦) الموشح : ٢٧٤ .
(٢٧٧) العمـدة : ١/٢٢٢ .

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا   وحسب المنايا ان يكن أمانيا

فلم يرض النقاد عن ذلك ، وأخذوه عليه ، ورأوا أنه لا ينسجم مع ما يلزم الشعراء من « التأدب للملوك وحسن السياسة » [٢٧٨] .

١٦ ـ حروف الصلات :

ونقصد بها الحروف التي تصل بين الجمل ، وتربط بعض المفردات ببعض ، أو توصل معنى الفعل او ما هو في حكمه الى ما بعده من الكلمات . وقد وقف النقاد عند هذا النوع من المفردات ، يقننون لها ، ويضعون القواعد لاستخدامها . ذلك لانهم وجدوا « ان من اهم وسائل التعبير الدقيق اتقان استعمال الحروف ، ولا سيما حروف الجر ، فان لها معاني يتميز بعضها عن بعض بحيث تؤدى أدق المعاني لو جاء الحرف في موضعه » [٢٧٩] .

ولا شك في أن عبارة القرآن كانت المثل اللافت للنقاد في هذا الشأن ، اذ انهم وجدوا القرآن قد استخدم الحروف بدقة ، ووضع كلا منها الموضع الذي يلائمه ، فراعهم ذلك ، ونشدوا أن يحتذيه المنشئون .

فحروف العطف مثلا يختص كل منها بمعنى معين ، ويؤتى به في موضع لا يصلح له غيره ، وقد نبه النحاة على ذلك ، الا أن قلة من المنشئين كانوا يراعونه ، ويضعون الحروف في مواضعها ، ومثل حرف العطف حروف الجر . قال ابن الاثير : « ان أكثر الناس يضعون هذه الحروف في غير مواضعها ، فيجعلون ما ينبغي ان يجر بعلى بفي في حروف الجر » [٢٨٠] . وقد يحسب المنشيء الذي لم ترسخ قدمه في اللغة ان حرفا من حروف العطف يغني عن غيره ، فيأتي به ، فلا يكون كلامه سديدا .

ومن الامثلة على الاستخدام الدقيق لحروف العطف قوله تعالى : « والذي هو يطعمني ويسقيني واذا مرضت فهو يشفيني ، والذي يميتني ثم يحييني » .

---

(٢٧٨) العمدة : ١/٢٢٢ .
(٢٧٩) نحو القرآن : ٥٠ .
(٢٨٠) المثل السائر : ٢/٥٠ .

فعطف الاسقاء على الاطعام بالواو لان المقصود هنا مطلق الجمع ، وهـو ما تفيده (الواو) ولكنه عطف الشفاء على المرض بالفاء ، لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من احدهما ، و (الفاء) تفيد الفور ، ثم عطف الاحياء على الموت بـ (ثم) لان الاحياء يكون بعد الموت بزمان و (ثم) تفيد التراخي [٢٨١] . قال ابن الاثير : ولو قال قائل في موضع هذه الاية : الذي يطعمني ويسقيني ويمرضني ويشفيني ويميتني ويحييني لكان للكلام معنى تام الا انه لا يكون كمعنى الاية ، اذ كل شيء منها قد عطف بما يناسبه ، ويقع موقع السداد منه » [٢٨٢] .

وقد استعمل القرآن حروف الجر استعمالا دقيقا ، فاورد كلا منها في الموضع الذي يقتضيه . قال تعالى : « قل من يرزقكم من السماوات والارض قل الله وانا واياكم لعلى هدى او في ضلال مبين » . وقد علق ابن الاثير على هذه الاية الكريمة بقوله : « الا ترى الى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرفي الجر ههنا ، فانه انما خولف بينهما ، في الدخول على الحق والباطل ، لان صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركض به حيث شاء ، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض فيه ، لا يدري اين يتوجه ، وهذا معنى دقيق قلما يراعى مثله في الكلام ، وكثيرا ما سمعت اذا كان الرجل يلوم اخاه أو يعاتب صديقه على أمر من الامور فيقول له : انت على ضلالك القديم كما اعهدك فيأتي بعلى في موضع في ، وان كان هذا جائزا الا ان استعمال في ههنا اولى لما أشرنا اليه ، الا ترى الى قوله تعالى في سورة يوسف : (قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم) » [٢٨٣] .

فمن شروط الجودة في حروف الصلات ان يراعى عند استخدامها المعنى الذي استعملها فيه العرب ، وايدته النصوص الادبية الرفيعة ، وعلى رأسها القرآن الكريم .

---

(٢٨١) المثل السائر : ٢/٥٠ .
(٢٨٢) نفسه : ٢/٥٢ .
(٢٨٣) نفسه : ٢/٥٣ ، ٥٤ .

(ولم يعجب النقاد ان تتوالى حروف الصلات في العبارة ، بحيث لا يفصل بينها فاصل ، لان ذلك يؤدي الى التعقيد ، وتعمية المعنى المقصود . وفي ذلك قال العسكري : « وينبغي ان تتجنب اعادة حروف الصلات والرباطات في موضع واحد اذا كتبت ، مثل قول القائل : منه له عليه ، أو عليه فيه ، أو به له منه . وأخفها : له عليه . فسبيله أن تداويه حتى تزيله ، بأن تفصل ما بين الحرفين مثل ان تقول : اقمت به شهيدا عليه » (٢٨٤) .

وكان هذا العيب أحد ما نعي على المتنبي ، اذ كان يكثر من حروف الصلات على نحو تغمض العبارة معه ، ويخفي المراد منها . قال العسكري : « ولا اعرف أحدا كان يتتبع العيوب فيأتيها غير مكترث الا المتنبي فانه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ، ما أعدمه شيئا منها ، حتى تخطى الى هذا النوع فقال :

ويسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح له منها عليها شواهد

فأتى من الاستكراه بما لا يطار غرابه »(٢٨٥) .

ومما أنكره النقاد لهذا السبب قول المتنبي أيضا :

ولكنك الدنيا الي حبيبة فما عنك لي الا اليك ذهاب

فان الثعالبي يراه أشد بيت قاله تعقيدا والتواء (٢٨٦) .

والنقاد على حق في استهجان هذا البيت وأضرابه ، لان تتابع هذا العدد من حروف الجر : عنك لي اليك ، في شطر واحد ، من شأنه ان يعقد التركيب، ويعمّي معناه ، ويصرف المتلقي عن الاستمتاع به . والتلذذ بقراءته .

١٧ ـ التصغير :

وجعل ابن سنان من شروط جودة الكلمة ان تكون « مصغرة في موضع

(٢٨٤) الصناعتين : ١٦٠ .
(٢٨٥) نفسه .
(٢٨٦) يتيمة الدهر : ١٨٨/١ .

عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي او قليل او ما يجري مجرى ذلك »[٢٨٧]. لان تصغير الكلمة المعبرة عن أحد هذه الامور وسيلة من وسائل الايجاز . فاذا اراد الشاعر مثلا ان يصف لنا لطف نسمة الفجر ، ووهن هبوبها اكتفى بتصغيرها ، فقال :

يولع الطل بردينا وقـد سـمت رويحة الفجر بين الضال والسلم

ولو لم يختر الشاعر وسيلة التصغير لاتبع (الريح) بكلمات تصف ضعفها ، وعذوبة مسراها . وكانت كلمة (قمير) في قول ابن ابي ربيعة :

وغاب قمير كنت ارجو طلوعه وروّح رعيان ونوّم سمّر

كلمة جميلة ، بسبب انها دلت على أن القمر الذي غاب كان هلالا ، وهو لهذا صغرها . قال ابن سنان : « فانما جعله قميرا لانه كان هلالا غير كامل ، ويمكن الدلالة على ذلك بقوله : انه غاب في أول الليل ، وقت نوم السمر . والقمر اذا كان هلالا غاب في ذلك الوقت بلا شك ، وهذا تصغير مختار في موضعه » [٢٨٨] .

واذا كانت كلمة (قمير) جميلة عند ابن سنان بسبب تصغيرها ، فانها لم تنل اعجاب سعيد بن المسيب الذي سمع رجلا يتمثل ببيت ابن ابي ربيعة السابق فقال : « ماله قاتله الله ، لقد صغر ما عظمه الله عز وجل ، قال (والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) ... وقال : كان يقال : لا تقولوا : مسيجد ولا مصيحف ، وما كان لله عز وجل فهو عظيم حسن جميل » [٢٨٩]

والتصغير عند النحاة يفيد التحقير والتمليح والتعظيم [٢٩٠] ، الا أن ابن سنان كان يرى التصغير لا يكون سببا في جودة الكلمة الا اذا عبر بها عن

---

(٢٨٧) سر الفصاحة : ٧٩ .
(٢٨٨) نفسه : ٨٠ .
(٢٨٩) الموشح : ٣٢٢ .
(٢٩٠) ينظر هامش ٢٩١

أمر فيه ضؤولة أو حقارة أو خفاء ، ولهذا لم يرتض للمتنبي ان يصغر كلمة (ليلة) مريدا تعظيمها ، والدلالة على طولها ، حين قال :

أحاد أم سداس في أحاد ليلتنا المنوطة بالتناد

قال ابن سنان : « فليس التصغير عندي وجها من وجوه الفصاحة الا في الموضع الذي ذكرته دون ما يسمونه تصغيرا في التعظيم ، وعلى هذا احمل قول المتنبي : احاد ام سداس في أحاد ... البيت فلا اختار التصغير في — ليلتنا — لانه تصغير تعظيم » (٢٩١) .

ولم ير ابن الاثير ان تصغير الكلمة اذا اريد التعبير بها عن أمر لطيف أو خفي أو حقير مما يستحق ان ينبه عليه شاعر أو كاتب ، ذلك لان المعنى يقتضيه ويسوق اليه ، كما ذهب الى ان التعبير عن الحقارة والضؤولة والخفاء، قد يتم بالتصغير وقد يتم بما يظهر هذه المعاني من الفاظ وعبارات ، الا ان الاسلوب الثاني ابلغ في الدلالة ، وأكشف عن مراد المنشيء . واستدل ابن الاثير على هذا الرأي بقول الشاعر :

لو كان يخفى على الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو لبد

ثم قال : « فهل كان يمكن هذا الشاعر ان يصغر من هؤلاء القوم ويحقر

---

(٢٩١) واستدل من جعل التصغير يفيد التعظيم بقول الشاعر :

وكل اناس سوف يدخل بينهم دويهية تصفر منها الانامل

قال ابو سنان : « حكي ان ابا العباس المبرد كان ينكره ويزعم ان التصغير في كلام العرب لم يدخل الا لنفي التعظيم ، ويتاول دويهية وما يجرى مجراها بان يقول : اراد خفاءها في الدخول فصغرها لهذا الوجه وهو ضد التعظيم المذكور . ويقوي عندي ما ذهب اليه ابو العباس المبرد انهم اذا وضعوا التصغير امارة للتحقير والتعظيم معا ، فقد زالت الفائدة به ولم يكن دليلا على واحد منهما بل يرجع الى المقصود باللفظة ، ويتلمس بيان ذلك من جهة المعنى دون اللفظ ، فليس للتصغير تاثير» . سر الفصاحة : ٨١ .

من شأنهم بالفاظ التصغير ، ويجيء هكذا كما جاء بيته هذا ؟ فالوصية به ـ يعني التصغير ـ اذن ملغاة لا حاجة اليها » [٢٩٢] .

وأرى ان وصية ابن سنان بالتصغير لم تكن عبثا ، لانه قد رمى منها الى ان يضع تحت يد المنشيء ما في اللغة من امكانات ليستغلها ، ويصل منها الى ما يريده . فاذا كانت اللفظة الواحدة تنيله قصده ، وتؤدي ما تؤديه العبارة الطويلة ، فان اختيار اللفظة دليل على حذق المنشيء ، وفقهه باسرار اللغة التي يصوغ بها افكاره وعواطفه .

ولكن هذا الرأي لا يمنع من قبول الرأي القائل بان العبارة احيانا تؤدي ما تعجز عنه اللفظة الواحدة ، كما في البيت الذي ساقه ابن الاثير ، والاديب هو الذي يحدد الاداة التي تكون ادق من غيرها نقلا لما يريد ، وما على الناقد الا ان يبصره بجميع الادوات التي يمكن ان يستغلها ، وبمزايا كل اداة .

١٨ ـ الاصطلاحات :

ونعني بها الالفاظ التي اصطنعها اهل العلوم المختلفة للدلالة على معانيهم ، وهي الفاظ جازوا بها معانيها المعروفة ، وصاروا يطلقونها على ما استنبطوه من معان ، ووقفوا عليه من حقائق .

وعلى هذا فان (المصطلح) هو كلمة « لها معنى لغوي يفهمه الناس عامة ، ومعنى آخر لا يفهمه الا أهل ذلك العلم » [٢٩٣] الذي استعملت فيه الكلمة . فاذا قلنا مثلا (فاعل) فان هذه الكلمة « تدل بمعناها اللغوي على من قام بفعل من الافعال على حين هي في عرف النحويين الاسم المرفوع المسند اليه فعل على طريقة فعل او شبهه ، ولفظة (الخبر) معروفة بمعناها اللغوي

(٢٩٢) المثل السائر : ١/١٥٥ .
(٢٩٣) دروس في البلاغة : ٢٢٠ .

وهي في عرف النحويين الجزء المنتظم منه مع المبتدأ جملة ، وهكذا الامر في الفاظ العلوم الاخرى » [٢٩٤] .

وحين نشطت حركة العلوم في العصر العباسي ، ووضعت اعداد كبيرة من المصطلحات في مختلف العلوم ، تسرّبت بعض تلك المصطلحات الى لغة الادب ، وجرت على اقلام المنشئين وألسنة الخطباء ، فتصدى النقاد لهذه الظاهرة ، وعابوا غزو الفاظ العلم للغة الأدب .

وكان الجاحظ ــ على صلته بالمتكلمين ، واحاطته باوضاعهم ومصطلحهم ــ قد دعا الى استبعاد الفاظ العلم من لغة الادب ، ونعى على بعض الخطباء تورطهم في شيء منها ، فقال : « وقبيح بالخطيب ان يقوم بخطبة العيد او يوم السماطين او على منبر جماعة او في سدة دار الخلافة او في يوم جمع وحفل اما في اصلاح بين العشائر واحتمال دماء القبائل ، واستلال تلك الضغائن والسخائم فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم الشأن رفيع المكان: (ثم ان الله ، عز وجل ، بعد ان أنشأ الخلق وسوّاهم ومكّن لهم ، لاشاهم فتلاشوا) ...وخطب آخر في وسط دار الخلافة فقال في خطبته : (وأخرجه الله من باب الليسية فأدخله في باب الايسية) » [٢٩٥] وواضح ان (لاشاهم فتلاشوا) و (الليسية والايسية) هي موضع نقد الجاحظ لانها من الفاظ المتكلمين والفلاسفة .

وشكا ابن قتيبة من غزو المصطلحات العلمية للغة الادب ، وطلب من المنشئين الابتعاد عنها ، لئلا تذهب برونق أدبهم [٢٩٦] .

والى مثل هذا ذهب ابو هلال العسكري فقال : « واعلم ان المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ، فان كنت متكلما ، أو احتجت الى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب ، أو قصيدة لبعض ما يراد له

(٢٩٤) دروس في البلاغة وتطورها : ٢٢٠ .
(٢٩٥) البيان والتبيين : ١/١٤٠ .
(٢٩٦) أدب الكاتب : ٤٤٣ .

القصيد فتخط الفاظ المتكلمين مثل الجسم والعرض والكون والتاليف والجوهر فان ذلك هجنة » [٢٩٧] • ثم قال « وخطب بعضهم فقال : ان الله انشأ الخلق وسواهم ومكنهم ثم لا شاهم فضحكوا منه • وقال بعض المتأخرين :

نور تبيّن فيه لاهوتيه فيكاد يعلم علم ما لن يعلما

فاتى من الهجنة بما لا كفاء له » [٢٩٨] •

وتبع ابن سنان هؤلاء النقاد فقال : « ومن وضع الالفاظ موضعها الا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب الفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم والالفاظ التي تختص بها اهل المهن والعلوم، لان الانسان اذا خاض في علم ، وتكلم في صناعة ، وجب عليه ان يستعمل الفاظ اهل ذلك العلم ، وكلام اصحاب تلك الصناعة ، وبهذا شرف كلام ابي عثمان الجاحظ ، وذلك انه اذا كتب لم يعدل عن الفاظ الكتاب ، واذا صنف في الكلام لم يخرج عن عبارات المتكلمين ، فكأنه في كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ، ولا يحسن غيره » [٢٩٩] •

وهذا يعني ان لكل صناعة الفاظها الخاصة بها ، ولا يجوز للاديب ان يعدو الفاظ صناعته ، ويستعيض منها بالفاظ اهل العلوم والصنائع الاخرى ، وقد كان من اسباب براعة الجاحظ ـ عند ابن سنان ـ انه على كثرة ما نهل من العلوم ، وتبحر في مصطلحاتها ، لم يجعل تلك المصطلحات تغزو ادبه اذا كتب او ترسل فاذا جادل وناظر ، او صنف في كلام أو فلسفة ، ظهرت تلك المصطلحات في كتابته ، حتى كانه لا يحسن غيرها ، ولا يعرف سواها •

وكان حازم القرطاجني قد عرض لهذا الموضوع فانضم الى النقاد الذين يدعون الى تنقية لغة الادب من المصطلحات العلمية ، فقال : « ان البصراء بهذه الصناعة كابي الفرج قدامة وأضرابه قد نص جميعهم على قبح ايراد

---

(٢٩٧) الصناعتين : ١٣٥ •
(٢٩٨) نفسه : ١٣٦ •
(٢٩٩) سر الفصاحة : ١٥٨ ، ١٥٩ •

المعاني العلمية والصناعية والعبارات المصطلح عليها في جميع ذلك ، ونهوا عن ايراد جميع ذلك في الشعر » [٣٠٠] . وقال : « ان مستعمل هذه المعاني العلمية في شعره يسيء الاختيار » [٣٠١] .

وأشار حازم الى ان عددا من الشعراء كانوا قد اودعوا شعرهم شيئا من الفاظ العلوم ليدللوا على انهم شعراء وعلماء في آن واحد ، وفات هؤلاء ان عملهم هذا لا يثبت لهم انهم من العلماء ، اذ ليس كل من لاك المصطلحات بعالم ، كما أنه لا يسلكهم في عداد الشعراء ، الا عند من لا علم له بالشعر . قال حازم : « وانما يورد المعاني العلمية في كلامه من يريد التمويه بانه شاعر عالم وقد بينا انه فعل نقيض ما يجب في الشعر ، فلم يثبت له انه قال شعرا الا عند من لا علم له ، واما العلم فلا يثبت أيضا للشاعر بأن يودع شعره معاني منه » [٣٠٢] .

ذلك هو موقف النقاد من الفاظ العلوم ، ولاجله عابوا الشعر الذي ضم شيئا منها . فهذا ابن سنان مثلا يعيب ابا تمام لقوله :

مودة ذهب اثمارها شبه وهمة جوهر معروفها عرض

« لان الجوهر والعرض من الفاظ اهل الكلام الخاصة بهم » [٣٠٣] . ويعيب أيضا قوله ـ وفيه من الفاظ النحويين ـ :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلعب الافعال بالاسماء [٣٠٤]

ويعيب قول المتنبي لما فيه من مصطلح النحاة أيضا [٣٠٥] :

اذا كان ما تنويه فعلا مضارعا مضى قبل ان تلقى عليه الجوازم

---

(٣٠٠) منهاج البلغاء : ٢٥ .
(٣٠١) نفسه : ٣١ .
(٣٠٢) نفسه : ٣٠ .
(٣٠٣) سر الفصاحة : ١٥٦ .
(٣٠٤) نفسه .
(٣٠٥) نفسه .

غير ان ابن الاثير خالف النقاد القائلين باستبعاد الفاظ العلوم من لغة الادب ، وقبل ما ردّه ابن سنان وغيره من تلك الالفاظ ، قال رادا على ابن سنان : « شذ عنه ان صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم وكل صناعة ، لانها موضوعة على الخوض في كل معنى ، وهذا لا ضابط له يضبطه، ولا حاصر يحصره ، فاذا اخذ مؤلف الشعر او الكلام المنثور في صوغ معنى من المعاني ، وأداه ذلك الى استعمال معنى فقهي او نحوي او حسابي أو غير ذلك فليس له أن يتركه ويحيد عنه ، لانه من مقتضيات هذا المعنى الذي قصده ، الا ترى الى قول ابي تمام في الاعتذار :

فان يك جرم عن أو تك هفوة　　على خطأ مني فعذري على عمد

فان هذا من أحسن ما يجيء في باب الاعتذار من الذنب ، وكان ينبغي له على ما ذكره ابن سنان ان يترك ذلك ولا يستعمله ، حيث فيه لفظتا (الخطأ والعمد) اللتان هما من اخص الفاظ الفقهاء . وكذلك قول ابي الطيب المتنبي :

ولقيت كل الفاضلين كأنما　　رد الاله نفوسهم والاعصرا

نسقوا لنا نسق الحساب مقدما　　وأتى فذلك اذ أتيت مؤخرا

وهذا من المعاني البديعة وما كان ينبغي لابي الطيب أن يأتي في مثل هذا الموضع بلفظة (فذلك) التي هي من الفاظ الحساب ، بل كان يترك هذا المعنى الشريف الذي لا يتم الا بتلك اللفظة موافقة لابن سنان فيما رآه وذهب اليه ، وهذا محض الخطأ وعين الغلط » [٣٠٦] .

ونحن نوافق ابن الاثير على أن الشاهدين اللذين ذكرهما ليسا من الشعر المردود ولكنا لا نوافقه على إن فيهما شيئا مما حظره النقاد من الفاظ العلم ومصطلحاته ، وذلك لان الالفاظ التي ذكرها على انها من المصطلحات ليست الفاظا علمية بحتة ، اختص بها العلماء ، وانفردوا بتداولها ، وانما هي

---

(٣٠٦) المثل السائر : ٢/٢٥٦ ، ٢٥٧

من الالفاظ ـ العامة التي يتوارد عليها العلماء وغيرهم ، ويحتاج اليها كل متكلم، فكلمة (الخطأ) و (العمد) وكلمة (فذلك) و (الحساب) وان استعملتها هذه الفئة او تلك الطائفة من العلماء ، ليست من المصطلحات الصرف التي لا تتردد الا في الكتابات العلمية ، ولا تجري الا على السنة العلماء ، والنقاد لم يحظروا مثل هذه الالفاظ ، وانما عابوا ما هو أدخل منها في باب العلم ، مما لا يفهمه الا المتخصص كقول الشاعر :

عوامل رزق اعربت لغة الردى ـ فجسم له خفض ورأس له نصب

ففي هذا البيت أكثر من مصطلح نحوي هي (عوامل) و (الاعراب) و (الخفض) و (النصب) . وهذه الالفاظ لا يفهمها الا من الم بالنحو ، وأحاط بطرف من معارفه وقول الاخر :

وفتى من مازن فاق أهل البصره
أمه معرفة وأبوه نكره

وفيه من الفاظ النحاة كلمتا (معرفة) و (نكرة) . وكان ابن الاثير قد استحسن البيتين ورأى أن سر جمالها ما فيهما من الفاظ العلم ومصطلحاته[٣٠٧] . وليس ابن الاثير على حق فيما ذهب اليه ، لان التكلف باد عليهما وانهما اشبه بنظم العلماء منهما بشعر الشعراء .

ويبدو ان شعراء العصور المتأخرة اخذوا يستغلون المصطلحات النحوية خاصة ليحققوا بها ما أولعوا به من فنون البديع كالطباق والتورية وغيرهما ، فعد بعض النقاد عليهم هذا « الغاية المثلى في البلاغة » [٣٠٨] .

وهكذا تفاوتت نظرة النقاد الى استخدام المصطلحات . ففي عصور الازدهار الادبي عد ايرادها مما يقدح في الشعر ، ويذهب بجماله ، وفي عصور الصناعة عدها بعض النقاد المثل الاعلى في البلاغة .

---

(٣٠٧) المثل السائر : ٣٥٨/٢
(٣٠٨) اسس النقد الادبي عند العرب : ٤٣٧ .

واذا كان لنا من تعليق على ما قدمناه من آراء النقاد ، فاننا نرى ان المصطلحات كغيرها من الفاظ اللغة ، وان من حق الاديب ان يستعمل منهــا ما يحتاج اليه ليحدد الفكرة التي يريد التعبير عنها ، ويوضح التجربة التي انفعل بها ، واذا احتاج الاديب الى اللفظة لم يصرفه عنها ارتباطها بمجال معين، أو اتساؤها لطائفة معينة وليس من حق الناقد ان يرد اللفظة لمجرد انها من الفاظ الفلاسفة او اوضاع العلماء ، وانما عليه ان ينظر لها في ضوء حاجة المنشيء اليها ، وعلاقتها بتجربته ، وصلتها بالفكرة المراد ايضاحها والتعبير عنها ، فاذا كان الباعث عليها الرغبة في الاغراب ، أو اظهار المعرفة بهذا العلم، أو ذاك ، او التلاعب بالالفاظ ، والجري وراء نكت البديع وأفانينه ، رفضها الناقد وزيفها ، واذا كانت عنصرا تعبيريا لا غنى للاديب عنه قبلها وأقرها ، ولم يعبها عنده كونها من الفاظ الفلاسفة او المتصوفة او غيرهم من أهل العلوم .

(٢)

في التراكيب

١ – الانسياب :

ونعني به ان تكون الالفاظ منسجمة غير متنافرة (٣٠٩) ، ينطلق بهــا اللســان في يسر وسهولة . واذا كان النقاد قد اشترطوا في اللفظة خفتهــا وسلاستها ، وعدم تنافر حروفها ، فانهم اشترطوا في العبارة ان تنساب كلماتها بسهولة ، فلا يشعر اللسان بثقل ، وهو ينتقل من لفظ الى لفظ ، وذموا التركيب الذي تتنافر الفاظه ، ويتعثر اللســان بنطقها ، وسمّوا ثقل العبارة ، وصعوبة التلفظ بها (المعاظلة اللفظية) ، لان المعاظلة عندهم « تراكب الالفاظ وتداخلها » (٣١٠) . ووجدوا ان مبعث الثقل في العبارة ما يأتي :

---

(٣٠٩) ينظر النقد الجمالي : ١٢٢ .
(٣١٠) المثل السائر : ١/٢٩٢ وما بعدها .

أ ـ اجتماع الكلمات التي يتكرر فيها حرف معين ، كقول اسحاق الموصلي :

يا سرحة الماء قد سدت موارده   اما اليك طريق غير مسدود
لحائم حام حتى لا حيام له   محلأ عن طريق الماء مطرود

الذي سمعه الاصمعي فقال : « ان هذه الحاءات لو اجتمعت في آية الكرسي لعابتها »(٢١١) . وقول ابي تمام :

فالمجد لا يرضى بان ترضى بأن   يرضى المؤمل منك الا بالرضا

فتكرر (الضاد) في أكثر كلمات البيت ، سلبه الانسياب السهل ، وجعله يثقل على اللسان . وحين سمع اسحاق الموصلي هذا البيت قال : « لقد شققت على نفسك يا ابا تمام ، والشعر أسهل من هذا » (٢١٢) .

وقول الاخر :

مللت مطال مولود مفدى   مليح مانع مني مرادي

فهذه « الميمات كأنها عقد متصلة بعضها ببعض »(٢١٣) .

ب ـ اجتماع الكلمات التي تتقارب بعض حروفها في المخارج ، كقول ابن يسير :

لم يضرها ـ والحمد لله ـ شيء   وانثنت نحو عزف نفس ذهول

الذي علق عليه الجاحظ بقوله : « فتفقد النصف الاخير من هذا البيت فانك ستجد بعض الفاظه تتبرأ من بعض » (٢١٤) . وعلق عليه ابن رشيق أيضا

---

(٢١١) الموشح : ٤٦٠ .
(٢١٢) سر الفصاحة : ٨٧ .
(٢١٣) المثل السائر : ١/٢٩٨ .
(٢١٤) دلائل الاعجاز : ٤٦ .

فقال : « فان القسيم الاخر من هذا البيت ثقيل ، لقرب الحاء من العين ، وقرب الزاي من السين » [٣١٥] .

وذهب مصطفى مندور الى « ان جزءا كبيرا مما يعاب على البيت الاخير يتبدد مع حسن القراءة ، فلو تلبّث النفس قليلا بعد قول الشاعر : واثنت نحو عزف ، ثم نستأنف القراءة : نفس ذهول ، لهان الثقل الصوتي ، وبان للف مطمور في موج الخبب » [٣١٦] .

جـ ـ ان تتوالى في العبارة أو البيت افعال متحدة في الزمن أو مختلفة ، فمن امثلة اجتماع الافعال المتحدة الزمن قول ابي الطيب :

اقل أنل أقطع أحمل عل سل أعـد   زد هش بش تفضّل أدن سـر صـل

« فهذه الفاظ جاءت على صيغة واحدة ، وهي صيغة الامر ، كأنه قال : افعل افعل ، هكذا الى آخر البيت ، وهذا تكرير للصيغة وان لم يكن تكريرا للحرف ، الا انه أخوه ، ولا أقول ابن عمه ، وهذه الفاظ متراكبة متداخلة ، ولو عطفها بالواو لكانت أقرب حالا » [٣١٧] .

ومن امثلة اجتماع الافعال المختلفة في الزمن قول الارجاني على لسان الشمع :

بالنار فرقت الحوادث بيننـا   وبها نذرت أعـود اقتل روحي

« فقوله : نذرت اعود اقتل من المماثلة المشار اليها » [٣١٨] .

د ـ أن تتابع الالفاظ المضافة في العبارة كقول الشاعر [٣١٩] :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعي   فانت بمرأى من سـعاد ومسمع

---

(٣١٥) العمـدة : ١/٢٦١ .
(٣١٦) اللغـة والحضارة : ٥٨ .
(٣١٧) المثل السـائر : ١/٣٠٠ .
(٣١٨) نفسـه : ١/٢٩٩ .
(٣١٩) نفسـه : ١/٣٠١ .

هـ ـ ان تتابع الصفات في العبارة كقول ابي تمام :

اليك عن سيل عــارض خضل الشؤبوب يأتي الحمام من نشده
مـــغه ثـــرة مححــه وابلـــه مستهلّه جـــرده

الذي علق ابن الاثير عليه قائلا : « ولو لم يكن لابي تمام من القبيح الشنيع الا هذه الابيات لحطت من قدره » [٣٢٠] • وليس من شك في أن البيت الثاني مما يعسر التلفظ به ، لتراكب الصفات فيه ، وتواليها •

ويبدو ان هذا العيب ، أعني ثقل العبارة وتراكب كلماتها ، من العيوب النادرة ، بمعنى ان « من النادر ان يكون اجتماع الكلمات مسببا للثقل » [٣٢١]• ولذا قلّت الشواهد على هذا العيب ، وكادت تنحصر في ابيات قليلة تكررت عند اكثر النقاد والبلاغين •

٢ ـ الموسيقى والايقاع :

شغف العرب بموسيقى الالفاظ وجمال وقعها ، وما الاعلال والابدال والادغام وعدم جواز الابتداء بالساكن الا مظاهر لاهتمام العرب المفــرط بجعل الكلمة وحدة منسجمة ، تخف عـلى اللســان ، ويعـذب وقعهـا في السمــع [٣٢٢] •

وكما شغفوا بموسيقى اللفظة ، واجتهدوا في تخليصها مما يفقدها التلاؤم أو التكافؤ بين حروفها وحركاتها ، كذلك حرصوا على موسيقى العبارات ، واهتموا بأن تنسجم الكلمات في داخلها من الناحية الصوتية ، بحيث تؤلف بمجموعها نغما تطرب له الاذن ، وتقبل عليه النفس • وقد اتبعوا لتحقيق هذه الغاية وسائل شتى ، وسلكوا سبلا مختلفة •

وكان البيان القرآني قد اهتم بموسيقى العبارة ، وحرص أشد الحرص على تحقيقها ، فوافق ذلك هوى في نفوس العرب ، وهم المولعون بســحر

(٣٢٠) المثل السائر : ٣٠٢/١ •
(٣٢١) اسس النقد الادبي عند العرب : ٤٣٩ •
(٣٢٢) النقد الجمالي : ١٣٢ •

الكلمة ، الناشدون لخفتها وعذوبة وقعها . وحين مرنوا على صناعة النثر ، ورسخت اقدامهم فيها ، كان أحب شيء الى نفوسهم ان تصدر عنهم العبارات المتناغمة التي تعادل وحداتها الصوتية وتتوافق من حيث الاوزان .

وكما تأثر المنشئون بالقرآن ، وعملوا على محاكاته في تحقيق التوازن والانسجام الصوتي ، بين اللفظة واختها ، والعبارة وجارتها ، كذلك تأثر النقاد بهذا النمط من الاداء ، واعجبوا به ايما اعجاب ، فنصحوا للادباء ، كتابا وشعراء ، بأن يراعوا التوافق الصوتي بين وحدات العبارة نفسها ، وبين العبارات المتجاورة ايضا .

وقد بحث النقاد موسيقى العبارة في أبواب عدة ، وتحت عناوين مختلفة كالازدواج والتوازن والسجع والترصيع . وما جاءوا به في هذه الابواب يشهد بأنهم اولعوا بموسيقى التركيب ، وعدوها ــ في الكلام المنثور خاصة ــ مقياسا مقدما على سائر ما يقاس به الكلام المنثور من مقاييس [٣٢٣] .

ورأى النقاد ان المنشيء يستطيع تحقيق الموسيقى لتراكيبه وعباراته اذا اعتمد على (الازدواج) ، وهو « ان يراعي الوزن في جميع كلمات القرينتين او في أكثرها وهو احسنها واعلاها كقوله تعالى (وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم) » [٣٢٤] . فكل كلمة في الجزء الاول توافق من حيث الوزن الكلمة المقابلة لها في الجزء الثاني .

لقد فضل النقاد هذا النمط من التراكيب ، حتى قال العسكري : « لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا ، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن ، لانه في نظمه خارج من كلام الخلق ، وقد كثر الازدواج فيه » [٣٢٥] .

---

(٣٢٣) ابو هلال العسكري : ١٤٣ .
(٣٢٤) صبح لاعشى : ٢/٢٨٣ . وينظر تطور الاساليب النثرية : ١٤٣ .
(٣٢٥) الصناعتين : ٢٦٠ .

واشترط ابو هلال الازدواج في الرسائل والخطب ، ولم ير السجع لازما فيهما ، وان كان يرى السجع غير المستكره او المعقد مما يزيدها جمالا . قال : « واعلم ان الذي يلزمك في تاليف الرسائل والخطب هو ان تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع ، فان جعلتها مسجوعة كان احسن ، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد » (٣٢٦) .

واذا لم يستطع المنشيء ان يحقق التوافق الصوتي أو الوزني بين مفردات العبارات المتوالية ، فلا أقلّ من ان يحققه في الفواصل ، وهي الكلمات الاخيرة من العبارات . وقد سموا هذا النمط من الاداء بـ (التوازن) أو (الموازنة) قال ابن الاثير في تعريف الموازنة : « وهي ان تكون الفاظ الفواصل في الكلام المنثور متساوية في الوزن » (٣٢٧) . ثم قال : « وللكلام بذلك طلاوة وروتق وسببه الاعتدال لانه مطلوب في جميع الاشياء ، واذا كانت مقاطع الكلام معتدلة ، وقعت من النفس موقع الاستحسان » (٣٢٨) . ومن الامثلة على (الموازنة) كما عرفها ابن الاثير ، قوله تعالى (ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة) حيث تقابلت الفاصلتان (مصفوفة) و (مبثوثة) وتعادلتا من حيث الوزن .

ويبدو ان (الموازنة) لا تحقق أحسن صورة للتوافق الصوتي المنشود في العبارات ، ولهذا ذهب ابوهلال الى ان هناك صورة احسن واكمل للموازنة، وهي التي تتحد فيها الفواصل في الوزن وفي الحرف الاخير ، ولا يتحقق ذلك الا في الاسلوب المسجوع . وقد أورد العسكري قول بعض الكتاب « اذا كنت لا تؤتى من نقص كرم ، وكنت لا أوتى من ضعف سبب ، فكيف اخاف منك خيبة أمل ... » ثم قال « فهذا الكلام جيد التوازن ولو كان بدل (ضعف سبب) كلمة آخرها (ميم) ليكون مشاهيا لقوله (نقص كرم)

(٣٢٦) الصناعتين : ١٥٩ .
(٣٢٧) المثل السائر : ٢٧٨/١ .
(٣٢٨) نفسه : ٢٧٨/١ ، ٢٧٩ .

لكان أجود[٣٢٩] » . فالصورة المكتملة للموازنة او التوازن هي السجع ، لان الفواصل فيه تكون على زنة واحدة ، وحرف واحد .

وقد اوضح العسكري ما يجلبه (التوازن) للكلام من حسن ، وما يضفيه عليه من رونق ، وذلك بأن عمد الى عبارة : « اصبر على حر اللقاء ومضض النزال ، وشدة المصاع ، ومداومة المراس » فغير فواصل هذه العبارات وجعل (الحرب) بدل (اللقاء) و (المنازلة) بدل (النزال) ، فاصبحت العبارة : « اصبر على حر الحرب ، ومضض المنازلة ، ومداومة المراس » وهي في صورتها هذه تفتقر الى ما في صورتها الاولى من عذوبة الجرس ، وتوافق النغم ، وحسن التعادل[٣٣٠] .

واستدل العسكري على شغف البلغاء بالتوازن او الموازنة ، بأن النبي (ص) « ربما غيّر الكلمة عن وجهها للموازنة بين الالفاظ ، واتباع الكلمة اخواتها كقوله (ص) : (أعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة) وانما أراد (ملمة) وقوله عليه السلام (ارجعن مازورات غير مأجورات) ، وانما أراد (موزورات) من (الوزر) ، فقال : مازورات لمكان مأجورات ، قصدا للتوازن وصحة التسجيع[٣٣١] » .

وقد يسلك المنشىء لتحقيق الموسيقى لعباراته سبيلا أخرى ، سماها النقاد (الترصيع) ، وهو يحدث في الشعر ، كما يحدث في النثر . قال قدامة في تعريفه : « وهو ان يتوخى فيه تصيير مقاطع الاجزاء في البيت على سجع او شبيه به ، او جنس واحد في التصريف كما يوجد ذلك في اشعار كثير من القدماء المجيدين من الفحول وغيرهم ، وفي أشعار المحدثين المحسنين منهم[٣٣٢] » ومن الامثلة عليه في الشعر قول بعضهم :

فمكارم أوليتها متبرعا وجرائم ألغيتها متورعا

---

(٣٢٩) الصناعتين : ٢٦٣ .
(٣٣٠) نفسه : ٢٦٤ .
(٣٣١) نفسه : ٢٦١ .
(٣٣٢) نقد الشعر : ٢٢ .

« فكارم بازاء جرائم ، وأوليتها بازاء الغيتها ، ومتبرعا بازاء متورعا[٣٣٣] » .
ومن الامثلة عليه في النثر قول الحريري : « فهو يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الاسماع بزواجر وعظه » فجعل « الفاظ الفصل الاول مساوية لالفاظ الفصل الثاني وزنا وقافية ، فجعل يطبع بازاء يقرع ، والاسجاع بازاء الاسماع ، وجواهر بازاء زواجر ، ولفظه بازاء وعظه[٣٣٤] »

و (الترصيع) قريب من (الازدواج) ، والفرق بينهما أن الاول يحدث في الشعر والنثر ، اما الثاني فلا يحدث الا في النثر . والترصيع يشترط فيه التزام تساوى الكلمات في جزأى العبارة ، او البيت ، من حيث الوزن والقافية ، اما الازدواج فيشترط فيه التوافق الوزني فقط في كل الكلمات او في اكثرها . ومعنى ذلك ان الترصيع تجميل مبالغ فيه ، وتقيد صارم بنظام (السيمترية) ، وهو لذلك يعوق من يقصد اليه عن التدفق والانسياب في تصوير التجربة ، والاعراب عن الانفعال .

ووجه الخطر في مثل هذا الاداء ، فوق ما ينزل بالمنشىء من عنت ومشقة هوان اللغة تكون فيه سببا للتجربة ، وليست التجربة سببا للغة ، وبتعبير آخر ، ان التعامل مع اللغة ، في اسلوب الترصيع ، لا يتم على اساس التجربة ، وطبيعة المعنى المراد تقديمه بقدر ما يتم على اساس الحاجة الى التلوين الصوتي ، او القيم الموسيقية التي يرغب المنشىء في تحقيقها لكلامه ، او اضفائها على عبارته . وتحت تأثير هذا الدافع في اختيار الالفاظ ، كثيرا ما يضطر المنشىء الى ان يعاف لفظا تقتضيه التجربة ، لان المجيء به يحدث نشازا في التوافق النغمي المنشود بين المفردات .

ونستطيع ان نعد اعجاب النقاد بالترصيع ، دليلا على تعلق شديد بالصنعة ، وحب ظاهر للتعمل . وعلى الرغم من استحسان النقاد إياه ، فان المنشئين لم يكثروا منه ، وما قاله قدامة من ان الترصيع كثير في شعر القدماء ،

(٣٣٣) المثل السائر : ٢٦٤/١ .
(٣٣٤) نفسه : ٢٦٤/١ ، ٢٦٥ .

ليس بصحيح ، لان ابن الاثير قال : « ولم أجده في اشعار العرب[٢٣٥] » . وقال : « ثم اني عثرت عليه في شعر المحدثين ، ولكنه قليل[٢٣٦] » . ولا شك في ان قلة الشواهد عليه دليل على وعورته وعلى ما فيه « من تعسق الصنعة ، وتعسف الكلفة[٢٣٧] » .

٣ ـ الوضوح والغموض :

ونعني بالوضوح ان يكون المراد من الكلام واضحا . وقد جعل النقاد الوضوح شرطا لجودة العبارة ، وذلك لان الكلام اذا وضح استطاع ان يصل الى المتلقي ، ويحدث الاثر المطلوب فيه . قال ابن الاثير : « المقصود من الكلام انما هو الايضاح والابانة وانهام المعنى ، فاذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به ، ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرها[٢٣٨] » .

واذا كان النقاد قد اشترطوا لجودة العبارة ان تدل على معناها بوضوح ، فانهم عدوا العبارة المعقدة ، التي لا تفصح عن معناها ، عبارة نازلة ورديئة .

غير ان النقاد فرقوا بين نوعين من الغموض : الاول وهو ما كان راجعا الى الالفاظ ، والثاني وهو ما كان راجعا الى المعاني ، وقد ذهبوا الى ذم الاول وكراهته ، وتتابعوا على ايصاء رجال الادب بتحاميه ، وتبرئة كلامهم منه .

وتكون الالفاظ سببا للغموض ، اذا كانت من الغريب الذي بعد العهد به ، وقل تداوله ، وقد مثل القاضي الجرجاني لهذا اللون من الالفاظ بقول الشاعر :

يا دار سلمى خلاء لا أكلفها   الا المرانة حتى تعرف الدينا

---

(٢٣٥) المثل السائر : ١/٢٦٤ .

(٢٣٦) نفسه ..

(٢٣٧) نفسه .

(٢٣٨) نفسه : ٢/٤٦ .

ثم علق عليه قائلا : « فان الذي خالف بين اتاويلهم فيها هو انهم لم يعرفوا المرانة ، فقال قائل : هي ناقته ، وقال آخر : هي موضع دار صاحبته وقال آخر : انما اراد الدوام والمرونة[٣٣٩] » .

كما تكون الالفاظ سببا للغموض اذا أخل بترتيبها ، ولم توضع في المكان الصحيح الذي يجب ان توضع فيه كان ينأى الخبر عن مبتداه ، ويتأخر الفاعل عن فعله ، ويفصل بين المضاف والمضاف اليه ، ويفرق بين الصفة وموصوفها ، ويتأخر جواب الشرط فلا يلازم فعله ، او لا يكون قريبا منه . ولا شك في ان عدم ترتيب المفردات الترتيب الذي ترضى عنه قواعد النحو ، يؤدى الى خفاء المعنى واستتار مرمى العبارة . وقد سمى ابن الاثير الاختلال في ترتيب المفردات بـ (المعاظلة المعنوية)[٣٤٠] .

لم يعجب النقاد اذن ان تكره الكلمة على النزول في غير مكانها ، لان ذلك يغمض العبارة ، ويطمس معناها . وفي كتب النقد شواهد كثيرة تؤيد مبدأهم هذا ، فقد عيب الاعشى لتقديم المفعول به في قوله :

اني الطوف خفت علي الردى   وكم من رد اهله لم يرم

أراد : لم يرم اهله[٣٤١] . وانكروا على الشماخ الفصل بين الصفة وموصوفها في قوله :

تخامص عن برد الوشاح اذا مشت   تخامص حافي الخيل في الامعز الوجي

« يريد : تخامص حافي الخيل الوجي في الامعز ، فقدم وأخر[٣٤٢] » . وعندما قال الفرزدق بيته المشهور في مدح ابراهيم بن هشام خال هشام بن عبدالملك :

وما مثله في الناس الا مملكا   ابو امه حي ابوه يقاربه

(٣٣٩) الوساطة : ٤١٧ .
(٣٤٠) المثل السائر : ٢/٤٤ .
(٣٤١) الموشح : ٧٠ .
(٣٤٢) نفسه : ٦٩ .

وأراد : وما مثله في الناس حي يقاربه الا مملك ابو امه ـ ام الملك ـ أبوه ـ ابو ابراهيم ـ ، ظل بيته هذا غرضا لسهام النقاد في مختلف العصور ، لما فيه من غموض سببه التقديم والتأخير[٢٤٣] .

وظل النقاد يحاربون الكلام المعقد ، الذي يؤلف التأليف الواضح ، ويوصون بأن توضع اللفظة « مع أختها المشاكلة لها ، التي تقتضي ان تجاورها لمعناها[٢٤٤] .

فأبو تمام كان قد أفسد تأليف بعض عباراته ، وذهب فيها الى « نحو من التركيب لا يهتدي النحو الى اصلاحه[٢٤٥] » فجرّ ذلك عليه النقد . كما أخل المتنبي ايضا بترتيب المفردات في بعض شعره ، فتعقد كلامه ، وخفي المراد منه ، فعاب النقاد ذلك عليه ، وجعلوه « أحد مراكبه الخشنة التي يتسنمها ، ويأخذ عليها في الطرق الوعرة ، فيضل ويضل ، ويتعب ويتعب ، ولا ينجح[٢٤٦] » .

وينجم الغموض عن الالفاظ في حال تداخلها ، واتصال بعضها ببعض اتصالا يعمّي الفكرة ، ويحول دون فهمها ، وكان ابو تمام قد سقط في هذا العيب ، فأخذه الامدي عليه ، قال ابو تمام :

خان الصفاء أخ خان الزمان أخا عنه فلم يتخون جسمه الكمد

فقال الامدي : « فانظر الى اكثر الفاظ هذا البيت ، وهي سبع كلمات ، آخرها قوله (عنه) ، ما أشد تشبث بعضها ببعض ، وما أقبح ما اعتمده من ادخال الفاظ في البيت من أجل ما يشبهها ، وهي قوله : (خان) و (خان) . (يتخون) وقوله (أخ) و (أخا) »[٢٤٧] .

---

(٢٤٣) الموشح : ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢٤٤) الموازنة : ١/٢٨٠ .
(٢٤٥) اسرار البلاغة : ١٢٠ .
(٢٤٦) يتيمة الدهر : ١/١٦٩ .
(٢٤٧) الموازنة : ١/٢٧٨ .

وينجم الغموض عن الالفاظ ايضا ، اذا حذف المنشىء منها ما كان الكلام محتاجا اليه . وقد وقع في هذا العيب ابو تمام ايضا ، عندما قال :

هن عوادى يوسف وصواحبه فعزما فقدما أدرك النأى طالبه

وكان هذا البيت سببا في نقد كثير توجه اليه ، كما كان سببا في السؤال المشهور الذي جبهه به ابو العميثل وابو سعيد الضرير حين قالا له : « لم لا تقول ما يفهم » فقال : « ولم لا تفهمان ما يقال[٣٤٨] » . وقد عرض الامدى لهذا البيت فقال : « وانما جعله رديئا قوله (هن) فابتدأ بالكناية عن النساء ولم يجر لهن ذكر بعد ، ثم قال (عوادى يوسف) ومعناه : صوارف . يقال : عداني عنك كذا اى صرفني . أراد : هن صوارف يوسف وصوارف ههنا لفظة ليست قائمة بنفسها لانه يحتاج ان يعلم صوارفه عن ماذا ، واللفظة القائمة بنفسها ان لو قال : فواتن يوسف ، او شواغف يوسف ، او نحو ذلك . وكأنه أراد : صوارف يوسف عن تقاه ، او عن هداه ، أو عن صحيح عزمه ، حتى هم بالمعصية ، وانما يتم معنى الكلمة بمثل هذه الالفاظ[٣٤٩] » .

وقد لا يعود الغموض الناجم عن الالفاظ الى التقديم والتأخير ، او تداخل الكلام وشدة اتصال بعض الفاظه ببعض ، او حذف ما بالكلام حاجة اليه ، وانما يعود الى استعمال الفاظ لا تدل على المعنى المراد خاصة « بل تشترك معه فيها معان أخر ، فلا يعرف السامع ايها اراد ، وربما استبهم الكلام في نوع من هذا الجنس ، حتى لا يوقف على معناه الا بالتوهم[٣٥٠] » . ومن الامثلة على هذا قول جرير :

لو كنت أعلم ان آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

وقد علق عليه العسكري قائلا : « ان السامع لا يدري الى اى شيء اشار من افعاله في قوله : فعلت ما لم افعل . اراد ان يبكي اذا رحلوا ، او يهيم على

---

(٣٤٨) الموازنة : ١٩/٢ .
(٣٤٩) نفسه : ١٧/٢ ، ١٨ .
(٣٥٠) الصناعتين : ٣٢ ، ٣٣

وجهه من الغم الذي لحقه ، او يتبعهم اذا ساروا ، او يمنعهم من المضي على عزمة الرحيل ، أو يأخذ منهم شيئا يتذكرهم به ، أو يدفع اليهم شيئا يتذكرونه به او غير ذلك ، مما يجوز ان يفعله العاشق عند فراق أحبته ، فلم يبن غرضه ، وأحوج السامع الى ان يسأله عما اراد فعله عند رحيلهم . وليس هذا كقولهم : لو رأيت عليا بين الصفين ، لان دليل البسالة والنكاية في هذا الكلام بين ، وأمارة النقصان في بيت جرير واضحة ، فمن يسمعه ، وان لم يكن من أهل البلاغة ، يستبرده ويستغثه(٣٥١) » .

والنقاد وان ذهبوا الى ذم التعقيد ، او الغموض الناجم عن غرابة الالفاظ ، وسوء تاليفها ، فان عددا منهم صرّحوا باحتمال الكلام المعقد ، وامكان الرضا عنه ، اذا انطوى على معنى شريف يكافىء التعب المبذول في استخراجه ، والوصول اليه . قال الامدى في تعليق له على قول ابي تمام المعقد :

خان الصفاء اخ خان الزمان اخا   عنه فلم يتخون جسمه الكمد

« واذا تاملت المعنى مع ما أفسده من اللفظ ، لم تجد له حلاوة ، ولا فيه كبير فائدة . لانه يريد : خان الصفاء اخ الزمان اخا من اجله ، اذ لم يتخون جسمه الكمد (٣٥٢) » .

وقال صاحب الوساطة عن المتنبي : « كيف يحتمل له اللفظ المعقد ، والترتيب المتعسف لغير معنى بديع ، يفي شرفه وغرابته بالتعب في استخراجه ، وتقوم فائدة الانتفاع بازاء التأذى باستماعه ، كقوله :

وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمه   بان تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

ومن يرى هذه الالفاظ الهائلة ، والتعقيد المفرط ، فيشك ان وراءها كنزا من الحكمة ، وان في طيها الغنيمة الباردة ، حتى اذا فتشها ، وكشف عن

---

(٣٥١) الصناعتين : ٣٢ .
(٣٥٢) الموازنة : ٢٧٨/١ .

سترها ، وسهر ليالي متوالية فيها ، حصل على ان : وفاءكما يا عاذلي بأن تسعداني ، اذا درس شجاي ، وكلما ازداد تدارسا ازددت له شجوا ، كما ان الربع أشجاه دراسه . فما هذا من المعاني التي يضيع لها حلاوة اللفظ وبهاء الطبع ورونق الاستهلال ، ويشح عليها حتى يهلهل لاجلها النسج ويفسد النظم ، ويفصل بين الباء ومتعلقها بخبر الابتداء قبل تمامه ، ويقدم ويؤخر ، ويعمي ويعوّص[٣٥٣] » .

وتكررت هذه النظرة عند عبدالقاهر ايضا ، فقد ذهب الى ان الكلام المعقد أصناف ، وأن أحق هذه الاصناف بالذم « ما يتعبك ثم لا يجدى عليك ، ويؤرقك ثم لا يورق لك[٣٥٤] » . وشبّه قارىء هذا اللون من الكلام بـ « الغائص في البحر ، يحتمل المشقة العظيمة ، ويخاطر بالروح ثم يخرج الخرز[٣٥٥] » . ومعنى ذلك ان عبدالقاهر ، كالامدى والقاضي الجرجاني ، يحتمل الكلام المعقد ، ويغضي عنه اذا انطوى على مضمون جيد .

وليس هؤلاء النقاد على صواب في هذا الرأى ، لان عمق الفكرة ، او جلال المعنى ، لا يغفر للمنشىء ان يعقد التأليف ، ويعوّص الاسلوب . والاسلوب المعقد معيب ، ولا يقلل من عيبه ما وراءه من فكر مشرق ، او رأى عميق . ذلك لان الغاية من الادب التأثير ، ولا يتم التأثير الا بعد الفهم ، فاذا أشاك الاديب الطريق الى معناه ، وأحال الكلام متنا يحوج قارئه الى من يشرحه له ويقفه على معناه ، هبطت قيمة العمل الادبي ، وقعد به غموضه عن الاثارة والتأثير ، وعدّ في جملة الردىء النازل ، ولم ينظر عندئذ الى ما حوى من فكر ، او ضمه من معنى .

لم يعجب النقاد ، اذن ، الغموض الذي يرجع الى الالفاظ ، ولكنهم اعجبوا بالمعاني الدقيقة ، التي تحتاج الى الريث في فهمها ، وتقتضي بعض

---

(٣٥٣) الوساطة : ٩٨ .

(٣٥٤) اسرار البلاغة : ١٢٠ .

(٣٥٥) نفسه .

الجهد للوصول اليها . ومعنى ذلك انهم ذموا الغموض الذي يحدث بسبب غرابة بعض الالفاظ ، او بسبب التواء العبارة وسوء تأليفها ، وعدم وضوح العلاقات القائمة بين اجزائها . ولكنهم لم يذموا صعوبة المعاني ، وطرافتها ، وتحريكها الذهن من اجل استنباطها ، والوقوف عليها . وهم بذلك على حق لانهم لا يريدون ان يجعلوا القارئ مشغولا بشكلتين ، او متحدى من وجهين : من العبارة ومضمونها . فالمفروض في العبارة ان تكون سليمة ، لا عيب يشوب تأليفها ، ولا تعقيد يباعد بين اجزائها ، والمفروض في المعنى ان يكون من الحقائق الانسانية العامة التي تحرك الذهن ، وتثير في المتلقي « غريزة السيطرة في حل المعضلات[٣٥٦] » . ولكن ليس معنى هذا ان يكون المعنى من الصعوبة بحيث يدق عن الفهم ، ولا يوصل اليه الا بالكد والكدح .

ادرك النقاد العرب هذه الحقيقة ، فضاقوا بالادب الذي لا يستدعي جهدا ، ولا يتطلب فهمه وذوقه شيئا من معاناة . قال العسكري : « ما كان لفظه سهلا ومعناه مكشوفا بيّنا فهو من جملة الرديء المردود[٣٥٧] » . وكان الصابي قد جعل الغموض ميزة الشعر الاولى عندما قال : « الترسل هو ما وضح معناه ، واعطاك سماعه في اول وهلة ما تضمنته الفاظه وأفخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه الا بعد مماطلة[٣٥٨] » . وقال عبدالقاهر : « ومن المركوز في الطبع ان الشيء اذا نيل بعد الطلب له ، او الاشتياق اليه ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله احلى ، وبالمزية اولى ، فكان موقعه من النفس أجل والطف ، وكانت به أضن وأشغف . وكذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ ... فان قلت : فيجب على هذا ان يكون التعقيد والتعمية ، وتعمد ما يكسب المعنى غموضا مشرفا له ، وزائدا في فضله ، وهذا خلاف ما عليه الناس ، الا تراهم قالوا : ان خير الكلام ما كان معناه الى قلبك اسبق

(٣٥٦) من الوجهة النفسية : ٤٠ .
(٣٥٧) الصناعتين : ٦٤ .
(٣٥٨) المثل السائر ٢/٤١٤ .

من لفظه الى سمعك ، فالجواب أني لم ارد هذا الحد من الفكر والتعب ، وانما اردت القدر الذي يحتاج اليه في نحو قوله :

فان المسك بعض دم الغزال

وقول النابغة :

فانك كالليل الذي هو مدركي   وان خلت ان المنتاىعنك واسع[٣٥٩] »

وقارىء القولين اللذين استشهد بهما عبدالقاهر ، يجد اللغة واضحة ، غير ان المعاني التي وراءها تحتاج منه الى الريث ، لكي ينالها ، ويستمتع بها .

ومما يؤيد استحسانهم الصعوبة والغموض ، انهم استجادوا الكلام المشتمل على المجاز والتشبيه والكناية ، وفضلوه على الكلام العارى من هذه الفنون ، وصرّحوا بأن المجاز اقوى من الحقيقة لخفائه ووضوحها . وكان الفخر الرازى ممن ذهب الى ذلك ، ورأى ان التكلم بالمجاز من شأنه « تلطيف الكلام » ثم شرح ذلك قائلا : « واما تلطيف الكلام فهو ان النفس اذا وقفت على تمام المقصود لم يبق لها شوق اليه اصلا ، لان تحصيل الحاصل محال . وان لم تقف على شيء منه اصلا لم يحصل لها شوق اليه . فاما اذا عرفته من بعض الوجوه دون البعض فان القدر المعلوم يشوقها الى تحصيل العلم بما ليس بمعلوم ، فيحصل لها – بسبب علمها بالقدر الذي علمته – لذة ، وبسبب حرمانها من الباقي الم . فتحصل هناك لذات والام متعاقبة . واللذة اذا حصلت عقيب الالم كانت أقوى ، وشعور النفس بها أتم ، واذا عرفت هذا ، فنقول : اذا عبر عن الشيء باللفظ الدال عليه على سبيل الحقيقة، حصل كمال العلم به ، فلا تحصل اللذة القوية ، اما اذا عبر عنه بلوازمه الخارجية عرف لا على سبيل الكمال ، فتحصل الحالة المذكورة التي هي

(٣٥٩) اسرار البلاغة : ١٢٦ ، ١٢٧ .

كالدغدغة النفسانية ، فلاجل هذا كان التعبير عن المعاني بالعبارات المجازية الذ من التعبير عنها بالالفاظ الحقيقية » (٣٦٠) .

ويفهم من كلام الرازي ان العبارات المجازية لا تفصح للمتلقي عن المعنى بسهولة ، كما تفعل العبارات الحقيقية ، وانما تبرز له جانبا من المعنى ، وتخفي جانبا آخر ، فتبعث بذلك فضوله ، وتثير شوقه ، فيقبل المتلقي على العبارة : يتأملها ، ويستنبط منها ، فتتيح له هذه العملية نوعا من اللذة سماها الفخر الرازي « الدغدغة النفسانية » .

وعلق ابن ابي الاصبع المصري على قول الاصمعي : « خير الشعر ما اعطاك معناه بعد مطاولة » قائلا : « وقد غلط بعض الناس في تفسير هذا الكلام ، وغلّط الاصمعي فيه لسوء تفسيره ، لانه توهم ان الاصمعي اراد الشعر الذي ركب من وحشي الالفاظ ، أو وقع فيه من تعقيد التركيب ما أوجب له غموض معناه ولو كان كذلك كان ذلك شرا للشعر ، وانما اراد الاصمعي الشعر القوي الذي يحتمل مع فصاحته ، وكثرة استعمال الفاظه ، وسهولة تركيبه ، وجودة سبكه ، معاني شتى يحتاج الناظر فيه الى تأويلات عدة ، وترجيح ما يترجح منها بالدليل » (٣٦١) .

وعبارة ابن ابي الاصبع السابقة ، تمثل اتجاه النقاد العرب في لغة الادب ومضمونه ، فهم ــ كما قلنا ــ يكرهون الغموض الذي سببه غرابة اللفظ ، وتعقيد التركيب ويستسيغون الغموض الذي سببه قدرة الشاعر ، وتمكنه من فنه تمكنا يجعله لا يقنع من اللغة بتلك القوالب التي تقابلها معان معروفة ومحددة ، لا تحوج الناظر فيها الى فضل تأمل ، وترداد نظر ، بل يأتي من الالفاظ والتعابير بما لا ينقضي ايحاؤه ، ويتعدد ما يستخرج منه من

---

(٣٦٠) تنظر الصورة الفنية : ٢٩٦ .
(٣٦١) تحرير التحبير : ٤٥٥ .

معان وافكار ، فتكون العبارة امام ناظرها « كالنسيج الجيد يكون له أكثر من لون ويمكن ان يستعمل على أي وجه » [٣٦٢] .

وما باب (الاتساع) الذي نجده في بعض كتب النقد والبلاغة الا دليل على احتفاء النقاد العرب بالتركيب الغامض الموحي ، الذي يحترمه قارئه ، ويتوجه اليه بما يستحقه من يقظة وأناة ، ولا يقنع منه بما يتراءى له من المعاني الظاهرة المكشوفة ، بل يظل ينقب فيه عما استكن وراءه من معان أخرى . وكلما زاده نظرا وقع منه على معنى لم يكن قد فطن اليه في النظرة الاولى ، أو القراءة السابقة . قال ابن رشيق في باب (الاتساع) : « وذلك ان يقول الشاعر بيتا يتسع فيه التأويل ، فيأتي كل واحد بمعنى ، وانما يقع ذلك لاحتمال اللفظ ، وقوته ، واتساع المعنى » [٣٦٣] . وقال ابن ابي الاصبع في باب (الاتساع) أيضا : « وهو أن يأتي الشاعر ببيت يتسع فيه التأويل على قدرة قوى الناظر فيه ، وبحسب ما تحتمل الفاظه » [٣٦٤] .

ومن الامثلة على هذا الضرب من الشعر قول الفرزدق الذي انشده المفضل بين يدي الرشيد :

أخذنا بآفاق السماء عليكم   لنا قمراها والنجوم الطوالع

فسأل الرشيد الامين والمأمون فقالا : اراد بـ (قمراها) الشمس والقمر ، من باب تغليب المستعمل عندهم لان القمر أكثر استعمالا عند العرب من الشمس ، فقال المفضل : « بل مراده بالقمرين جداك ابراهيم ومحمد صلى الله عليهما ، وبالنجوم الطوالع انت وآباؤك الطيبون . فاعجب الرشيد بذلك ووصله » [٣٦٥] قال ابن رشيق : « والفرزدق ما قصد الى شيء من ذلك ولا اراده ، ولا علم ان الرشيد بعده يكون أمير المؤمنين ، وانما اراد ان كل

---

(٣٦٢) النقد الادبي في العصر المملوكي : ٢٣١ .
(٣٦٣) العمدة : ٩٣/٢ .
(٣٦٤) تحرير التحبير : ٤٥٤ .
(٣٦٥) العمدة : ٩٤/٢ .

مشهور فاضل فهو لنا عليكم ؛ ومنا لا منكم ؛ فنحن أشرف بيتا ، وأظهر فضلا ، وابعد صوتا » (٣٦٦) .

وقول أمريء القيس :

اذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

الذي اتسع النقاد في تأويله ، فمن قائل : تضوع مثل المسك نسيم الصبا منهما . ومن قائل : تضوع المسك منهما تضوع نسيم الصبا . ومن قائل : تضوع المسك منهما ـ بفتح الميم يعني الجلد ـ بنسيم الصبا . قال ابن ابي الاصبع : « هذا ولم تخطر هذه المعاني بخاطر الشاعر في وقت العمل ، وانما الكلام اذا كان قويا من مثل هذا الفحل احتمل لقوته وجوها من التأويل بحسب ما تحتمل الفاظه ، وعلى مقدار قوى المتكلمين فيه » (٣٦٧) .

وتبغي الاشارة هنا الى ان العرب قد التقوا في استحسان الغموض مع النقدة المحدثين الذين يرون ان « الايحاء ميزة الفنون جميعا ، وانها تثير الحلم ، وتترك لمتذوقها مجال التفكير والاستنتاج » (٣٦٨) . واذا كان النقاد العرب قد اشترطوا في الشعر الاثارة ، وتحريك الذهن ، فمعنى ذلك انهم ادركوا طبيعة الادب ، وفطنوا الى أن أشد عيوبه ان يسمي الاشياء بأسمائها ، ويقدم لك ما يجب ان تستنتجه بنفسك . ولا شك في ان المتعة التي يجدها متلقي الفنون عامة ، والادب خاصة ، مبعثها ما فيها من خفاء يجعل المتلقي يشعر بأنه يشارك في عملية الخلق الفني عن طريق حل المعضل ، ومعالجة الخفي ، والاهتداء للتفصيلات ، التي يتركها الفنان ، ويدع للمتلقي مجال التفكير فيها ، واستنتاجها . ولعل الذي يجعل الناس يستقبحون الشعر التعليمي هو انه يفصح لهم عن كل شيء ، ويحرمهم لذة الاضافة اليه ، والاستنتاج منه .

---

(٣٦٦) العمدة : ٢/٩٤ ، ٩٥ .
(٣٦٧) تحرير التحبير : ٥٤ ، ٥٥ .
(٣٦٨) النقد الجمالي : ٩٧ .

٤ ــ وحدة النسج :

وهذا مقياس آخر من مقاييس جودة العبارة ، ونعني به ان تتآخى الالفاظ في التركيب وتنسجم وتأتي على صفة واحدة ، فلا تتفاوت بين الرقة والجزالة ، والوعورة والسهولة ، والابتذال والطرافة . قال ابن طباطبا : « وكذلك الشاعر اذا اسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي الفصيح لم يخلط به الحضري المولد ، واذا اتى بلفظة غريبة اتبعها اخواتها ، وكذلك اذا سهل الفاظه لم يخلط بها الالفاظ الوحشية النافرة ، الصعبة القيادة »[٣٦٩]. واذا فعل الشاعر هذا كان « كناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق ، ولا يشين عقوده بان يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها »[٣٧٠] .

لقد اعجب النقاد ، اذن ، بأن يختار المنشيء لمعناه الفاظا متجانسة ، ويدع من الكلم ما لا تنسجم مع ما قبلها وما بعدها . ولا شك في ان العربية تسعف بذلك وتعين عليه ، لكثرة مفرداتها ، ولوجود ظاهرة الترادف فيها ، فاذا كان المنشيء في معرض فخر عمد الى الجزل القوي ، وترك ما يرادفه من الالفاظ السهلة الرقيقة ، فاختار (الحيزوم) وترك (الصدر) وأخذ (الصمصام) وعاف (السيف) واذا كان في موقف غزل وجد امامه للتعبير عن بعض المعاني ، عددا من الالفاظ المترادفة بعضها الدمث الشاف ، وبعضها الضخم القوي ، فاذا اخطأ الاختيار وجاء باللفظ الجزل يضعه بجوار الرقيق ، فقدت العبارة انسجامها ، واضاعت حسن جرسها ، وروعة تأثيرها[٣٧١] .

وظلت الملاءمة بين الفاظ العبارة شرطا مهما من شروط جودتها ، وبقي النقاد في مختلف العصور يوصون المنشئين بأن « تكون الفاظ المعنى المراد

---

(٣٦٩) عيار الشعر : ٦ .

(٣٧٠) نفسه .

(٣٧١) مجلة مجمع اللغة العربية : ٢١١ ، ٢١٢ .

يلائم بعضها بعضا ، ليس فيها لفظة نافرة عن اخواتها ، غير لائقة بمكانها ، كلها موصوف بحسن الجوار » (٣٧٢) .

وكانت العبارة القرآنية معينا ثرا يمدهم بالشواهد الرفيعة على هذا المبدأ ، ومن الشواهد على تلاؤم الفاظ العبارة ، وتجانسها قوله تعالى « قالوا تالله تفتا تذكر يوسف حتى تكون حرضا » . وقد علق ابن ابي الاصبع على هذه الاية بقوله : « فانه سبحانه لما أتى باغرب الفاظ القسم بالنسبة الى اخواتها، فان التاء اقل استعمالا وابعد من افهام العامة والباء والواو اعرف عند الكافة، وهي أكثر دورانا على الالسنة ، واستعمالا في الكلام ، اتى سبحانه بأغرب صيغ الافعال التي ترفع الاسماء وتنصب الاخبار بالنسبة الى أخواتها ، فان (كان) وما قاربها اعرف عند الكافة من (تفتأ) وهم لـ (كان) وما قاربها أكثر استعمالا منها ، وكذلك لفظ (حرضا) اغرب من جميع اخواتها من الفاظ الهلاك ، فاقتضى حسن الوضع في النظم ان تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها ، في الغرابة او الاستعمال ، توخيا لحسن الجوار .... ، ولتتعادل الالفاظ في الوضع ، وتتناسب في النظم ، الا ترى انه عز وجل قال في غير هذا المكان (وأقسموا بالله جهد ايمانهم) لما كانت جميع الفاظ هذا الكلام المجاورة لهذا القسم كلها مستعملة متداولة ، لم تأت فيها لفظة غريبة تفتقر الى مجاورة ما يشاكلها في الغرابة ويلائمها » (٣٧٣) .

وكان النقاد قد ذهبوا الى انه كما ينبغي للمنشيء ان يوائم بين مفردات التركيب ، من حيث السهولة والوعورة ، والرقة والجزالة ، فكذلك ينبغي له ان يجانس بينها من حيث الافراد والجمع ليكون النسيج واحدا . وقد عابوا بعض التراكيب لافتقارها الى هذا الضرب من التجانس بين المفردات من ذلك قول الاعشى :

تقول بنتي وقد قرّبت مرتحلا　　　يا رب جنّب أبي الأتلاف والوجعا

(٣٧٢) بديع القرآن : ٧٧ .
(٣٧٣) نفسه : ٧٧ ، ٧٨ .

قالوا فيه : « والذي يوجبه نسج الشعر ان يقول : يا رب جنّب أبي الأتلاف والاوجاع او التلف والوجع » [٢٧٤] .

وجاء ابن الاثير فتابع سابقيه اولا ، وعاب عددا من التراكيب لم يراع قائلوها هذا المقياس . منها قول مسلم بن الوليد :

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة ... يثني عليها السهل والأوعار

الذي علق عليه ابن الاثير قائلا : « والاحسن ان يقال : السهل والوعر ، او السهول والاوعار ، ليكون البناء اللفظي واحدا ، أي أن يكون اللفظان واردين على صيغة الجمع او الافراد ، ولا يكون احدهما مجموعا ، والاخر مفردا » [٢٧٥] . وذهب ابن الاثير الى ان الناثر مطالب بمراعاة هذا اللون من التناسب بين الالفاظ أكثر من الشاعر ، لحرية الناثر ، وسعة مجال القول أمامه [٢٧٦] ، ثم عاد ابن الاثير فقرر ان التناسب بين المفردات من حيث الجمع والافراد ليس واجبا في الاستعمال شعرا كان ام نثرا ، لانه وجد ان القرآن لا يلتزمه ، ولو كان الاخذ به هو الاحسن ، لما حاد عنه الاسلوب القرآني . قال : « وقد كنت ارى هذا الضرب من الكلام واجبا في الاستعمال، وانه لا يحسن المحيد عنه ، حتى مر بي في القرآن الكريم ما يخالفه كقوله تعالى في سورة النحل : « أو لم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل » ولو كان الاحسن لزوم البناء اللفظي على سنن واحد لجمع اليمين كما جمع الشمال او افرد الشمال كما افرد اليمين » [٢٧٧] . ثم قال : « ولو كان هذا معتبرا في الاستعمال لورد في كلام الله تعالى الذي هو افصح من كل كلام ، والاخذ في مقام الفصاحة انما يكون منه ، والمعول عليه » [٢٧٨] . وما فعله ابن الاثير هنا يؤيد ما ذهبنا اليه من ان النقاد

---

(٢٧٤) الموشح : ٦٩ .
(٢٧٥) المثل السائر : ٢/٢٩٥ .
(٢٧٦) نفسه ٢/٢٩٧ .
(٢٧٧) نفسه .
(٢٧٨) نفسه .

اتخذوا من اسلوب القرآن نموذجا للفصاحة والبلاغة ، واستمدوا منه أكثر مقاييسهم البيانية ، وجعلوه مرجعهم الاخير اذا أشكل عليهم الامر •

ولم يكتف النقاد باشتراط وحدة النسج في العبارة الواحدة ، بل اشترطوه في القطعة كلها ، ولم يرتضوا ان يتفاوت الاسلوب في القصيدة الواحدة ، كأن يعلو في بعض أجزائها وينحط في بعضها ، او يسلس في موضع ويخشوشن في غيره • قال الجرجاني : « ان احدهم بينا هو مسترسل في طريقته ، وجار على عادته ، يختلجه الطبع الحضري ، فيعدل به متسهلا ، ويرمي بالبيت الخنث ، فاذا انشد في خلال القصيدة ، وجد قلقا بينها ، نافرا عنها ، واذا اضيف الى ما وراءه وامامه ،تضاعفت سهولته ، فصارت ركاكة، وربما افتتح الكلمة وهو يجري مع طبعه فينظم احسن عقد ، ويختال في مثل الروضة الانيقة ، حتى تعارضه تلك العادة السيئة ، فيتسنم اوعر طريق ، ويتعسف أخشن مركب ، فيطمس تلك المحاسن ، ويمحو طلاوة ما قدم ، كما فعل ابو تمام في كثير من شعره » (٣٧٩) •

واختلاف النسيج أحد ما نعي على المتنبي ، فقد وصفه الصاحب بأنه « ربما يأتي بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء » (٣٨٠) • واورد الثعالبي للمتنبي اربع قصائد قال عنها : ان المتنبي لم يستطع ان يخرجها متحدة النسج ، متجانسة السبك ، ووصف احداهن بأن المتنبي « جمع فيها الشذرة والبعرة ، والدرة والآجرة »(٣٨١) •

والحقيقة ان اختلاف النسج عند الشاعر يكون احيانا دليل اقتدار وأمارة حذق ، ذلك لان القصيدة العربية غالبا ما تكون مؤلفة من مقاطع نفسية وفكرية يتلو بعضها بعضا ، والشاعر البارع هو الذي يعطي كل مقطع الصفة الفنية التي تناسبه ، ويأتي له بالاسلوب الذي يجانسه ويوائمه ، فاذا استفتح بالغزل

---

(٣٧٩) الوساطة : ٢٢ •

(٣٨٠) الكشف عن مساوىء المتنبي : ٢٢٢ •

(٣٨١) يتيمة الدهر : ١/١٦٥ •

رقق اللغة ، والان التراكيب ، واذا انتقل الى وصف الحرب او تصوير المعارك، ترك الرقة والسهولة ، وعمد الى الجزالة والصرامة . والشاعر الذي يتنوع نسجه بتنوع مشاعره ، واختلاف الافكار المسيطرة عليه ، هو شاعر بارع يعطي كل انفعال اللغة التي تناسبه . فاختلاف النسج في القصيدة الواحدة لا يعد عيبا اذا كان الداعي اليه تنوع المقاطع ، وتعدد الاغراض داخل القصيدة .

ولكن اختلاف النسج في القصيدة انما يكون معيبا اذا نجم عن كلال خاطر وفتور طبع ، بمعنى أن الشاعر يبدأها وهو في ذروة انفعاله ، وأوج اقباله على التعبير ، فيجود نظمه ، ويعلو اسلوبه ، ثم ما يلبث ان يفتر طبعه، وتزايله الرغبة في الاستمرار على النظم ، فلا يستجيب لطبعه ، بل يعنف به ، ويحمل عليه ، فتهي عبارته ، ويسف اسلوبه . وقد فطن الجرجاني الى هذا السبب في تفاوت نسج بعض القصائد فقال : « ولابد لكل صانع من فترة ، والخاطر لا تستمر به الاوقات على حال ، ولا يدوم في الاحوال على نهج »[٣٨٢].

ويكون اختلاف النسج في القصيدة الواحدة معيبا ايضا اذا كان الذي يدفع اليه ، ويورط الشاعر فيه ، ميله الى الخروج عن طبعه ، ومفارقة ما ادرج عليه من طريقة في النسج والتعبير ، وذلك بتقليد شاعر آخر ، او احتذاء طريقة أخرى يصعب عليه تقليدها [٣٨٣] .

وقد نصح بعض النقاد للادباء بأن يعيدوا النظر في انتاجهم ، ليهذبوه ، ويستبعدوا منه ما كان ثمرة لتلك اللحظات التي ضعفت فيها دوافع القول عندهم ، او غلبت عليهم فيها شهوة التقليد ، ليخرج نتاجهم سويا ، متحد النسج . وقد كان بعض الادباء يعمل بهذه النصيحة ، كأبي نواس والبحتري « لذا كثر في ديوانيهما الجياد والقصار » [٣٨٤] . وكان بعضهم يضن بنتاجه

(٣٨٢) الوساطة : ٤١٥ .
(٣٨٣) نفسه : ٥٢ .
(٣٨٤) اسس النقد الادبي عند العرب : ٤٥٩ .

فلا يحذف شيئا منه ، كأبي تمام الذي عرف بتفاوت النسج ، والجمع بين الغث والسمين [٣٨٥] .

وعد بعض النقاد اختلاف النسج في شعر الشاعر كله عيبا ، فقد روي عن الفرزدق انه عاب النابغة الجعدي بذلك فقال : « مثله مثل صاحب الخلقان : يرى عنده ثوب عصب وثوب خز والى جنبه سحل كساء » [٣٨٦] .

وكان استواء النسج وتشابهه في جميع شعر البحتري أحد الاسباب التي فضله بها بعض النقاد على ابي تمام ، قال المبرد [٣٨٧] : « وشعر البحتري احسن استواء ، وابو تمام يقول النادر والبارد ، وهو المذهب الذي اعجب الى الاصمعي ، وما اشبه ابا تمام الا بغائص يخرج الدر والمخشلبة » .

ويعلل الجرجاني ظاهرة اختلاف النسج في انتاج الشاعر كله ، فيردها الى تفاضل القرائح ، واختلاف الافكار والهواجس [٣٨٨] . بمعنى ان القرائح تختلف : « فمنها ما يجيد فنا دون آخر ، فاذا نظم الشاعر في فن لم يوهب النظم فيه بدا فيه القصور والضعف » [٣٨٩] ، كما ان الافكار تتفاوت : « فمنها القوي يملأ القلب ويملك النفس فيتدفق الشعر على اللسان في قوة آخذة ، ومنها الضعيف لا يمس شغاف قلب الشاعر ولا يملك عليه نفسه ، فيخرج قريضه فاترا لا يؤثر في نفس سامعه ، ومن الافكار ما هو غزير يجد الشاعر فيه مجال القول واسعا ، ويزودنا كذلك باحساسات متنوعة ، وخواطر كثيرة ، تملك علينا المشاعر ، وقد تكون الافكار قليلة او ضيقة محدودة لايجد فيها الشاعر مجالا للقول ولا وسيلة للابداع فيأتي شعره لذلك ضعيفا مقصرا » [٣٩٠] .

---

(٣٨٥) الموشح : ٤٩٣ .
(٣٨٦) طبقات فحول الشعراء : ١٠٥ .
(٣٨٧) اخبار ابي تمام : ٩٧ .
(٣٨٨) الوساطة : ١٦٢ .
(٣٨٩) أسس النقد الادبي عند العرب : ٤٥٩ .
(٣٩٠) نفسه .

ويرى بعض الباحثين المعاصرين ان اختلاف النسج في شعر الشاعر كله أمر متوقع ، ولا يمكن ان يسلم منه شاعر ، ذلك ان « معالم الجمال ومقومات الحسن أكثر من ان يحصيها شاعر ، واذا صح لشاعر ان يعيها كلها فمن العسير عليه ان يلتزمها كلها ويفي بها جميعها في كل ما انتج من شعر على مدى الحياة وعلى اختلاف الاغراض والظروف والاحوال والمقامات »[٢٩١].

---

(٢٩١) المتنبي بين ناقديه : ١٠٢ .

الباب الثالث

فوائد النقد اللغوي وعيوبه

الفصـــل الاول

فوائد النقد اللغوي

١ ــ حماية اللغــة :

حين اتسع النقد اللغوي في العصر الاموي ، بعد أن ظهرت بـــوادر اللحن ، كان الباعث الاول عليه ، هو درء الخطر عن اللغة ، وحمايتها من التحريف والفســاد . وظل هذا الهدف ملازما له ، وباعثا لرجاله على أن يلاحقوا المنشئين ، ويحصوا عليهم زلاتهم ، ليعودوا بها الى اللفظ الصحيح ، والتركيب الذي ترضى عنه قواعد اللغة ، وقوانينها .

أحب العرب لغتهم ، وأخلصوا لها ، وتفننوا في ابتغاء الوسائل الى اعزازها ، وكان النقد اللغوي احدى تلك الوسائل . وما كثرة الكتب المؤلفة في بعض قضايا النقد اللغوي الا دليل على ما كان يخالج القوم من حب عميق للغتهم ، ورغبة راسخة في حمايتها ، وذود عوامل الفساد عنها . وكأن كل جيل قد عاهد نفســه على أن يدفع باللغة الى الجيل الذي يتلوه ، كما ورثهــا ، صحيحة ونقية .

لقد وقر في نفوس المتقدمين من النقاد بوجه خاص ان العربية لغة استوفت حظها من النضــج ، وبلغت اعلى مراتب الكمال ، فلم يبق من واجب على أهلها ، والمتكلمين بها ، الا حمايتها والدفاع عنها ، وتخليصها من كل ما يندس فيها ، أو يطرأ عليها . وعلى الرغم مما في هذا الاتجاه من تأثير سيء في اللغـــة احيانا [١] ، فانه كان عاملا مهما من عوامل ثبات العربية ، في وجه ما تعرضت له من موجات اللحن ذلك لان النقاد اللغويين رسموا للناس السبيل القويمة ،

---

(١) تنظر ص٢٨٦ وما بعدها من هذه الرسالة .

ودعوهم الى سلوكها ، ونبهوهم على ما اكتنف تلك السبل من مزالق واخطار، ليتحاموها ، ويتباعدوا منها .

لم يلن النقاد اللغويون ، ولم يهادنوا ، ولم يخدعهم ما كان يتظاهر به بعض المنشئين من مراعاة العصر ، أو الاخذ باسباب التطور ، بل راحوا يزيفون كل مظهر من مظاهر البعد من العربية الفصيحة ، ويصمون بالخطأ كل خروج عن سنتها الذي ورثوه عن عصور النقاء والسلامة اللغوية .

ولولا النقد اللغوي ، لما كان للعربية ان تنجو مما حاق بها من ظروف ، تضافرت على اضعافها ، وطمس معالمها ، ولما بقيت محافظة على أخص ميزاتها ، وأهم سماتها . ولو أن النقاد اللغويين تركوا المنشئين وهواهم ، ولم يحاسبوهم على ما فرط منهم ، أو ندّ عن اقلامهم من اوهام وهفوات لسارت تلك الاخطاء وعمت وورثها الخالف عن السالف ، وفي ذلك ما فيه من تغيير لوجه اللغة الاصيل ، وازهاق لحقائقها الثابتة . ولو حدث هذا لانتهت الينا اللغة ، وهي امشاج من لغات متنافرة متدابرة ، ينكر بعضها بعضا : « ولم تكن الموجة التي سموها بشيوع اللحن في صدر الاسلام الا واحدة من هذه الموجات التي التقى العرب فيها بالمتكلمين بلغات اجنبية ، وأغلب الظن أن هذه الموجة لو لم تدفع العرب الى دراسة اللغة في ذلك العصر ، لكانت اللغة العربية التي ندرسها الان على صورة أخرى أحدث عهدا في التاريخ »[٢] .

واذا علمنا ان النشاط اللغوي محكوم بقوتين : « تدفع احداهما الى احترام القاعدة ، وتدفع الاخرى لنكرانها ، والخروج عليها » [٣] ، ادركنا أهمية النقد اللغوي ، كما ادركنا ما تدمه النقاد في هذا المجال من خدمة كبرى للغة ، اذ انهم كانوا الرصد الذي ذاد عن قواعدها ، وحمى أصولها من أن تمتد اليها نزعة التغيير .

---

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية : ٧٢ .

(٣) اللغة بين الفرد والمجتمع : ١٢٧ .

ولا نعدم من ينكر على النقاد اللغويين ما سعوا اليه من المحافظة على استقرار اللغة ، ويرى في عملهم هذا ضربا من عرقلة تطورها والحيلولة بينها وبين النمو لان نزعة المحافظة على اللغة قد طغت على عدد من نقادنا ، حتى أركبتهم متن الشطط ، وجاوزت بهم الحد المعقول الذي كان يحسن بهم ان يقفوا عنده ، وينتهوا اليه ، وحتى لم يفرقوا بين ما هو خطأ وانحراف ، وما هو تطور تسمح به طبيعة اللغة ، وترضى عنه روحها ونظامها ، ولكن هذا لا يعني ان نزعة المحافظة كانت شرا ، وأنهم بسببها يستحقون اللوم والتجريح، وانما الذي يؤخذ عليهم هو تطرفهم ، ورفضهم كل ما طرأ على اللغة من مظاهر، كان بعضها ، دون شك ، مما ينفع اللغة ، ولا يضيرها أن تأخذ به ، وتصير اليه . أما ما اضطلعوا به من محافظة على اللغة ، وما نصبوا أنفسهم له من دفاع عنها ، ففيه الخير كل الخير ، فكما يذم الجمود فكذلك تكره الفوضى ، ويرفض الاجتهاد في غير موضعه .

ان في استقرار اللغة ، وثبات صيغتها ، قيمة عظمى ، ونفعا محسودا ، وذلك في أكثر من وجه . فبعض الصيغ الموروثة ، والتراكيب المتداولة ، تؤدي المراد منها بدقة لانها اكتسبت دلالة خاصة تعارف عليها الناس ، واصبح من العسير ان تقوم مقامها ، او تؤدي مؤداها عبارات اخرى ، قد يبتدعها اهل اللغة ، ويحلونها محل تلك العبارات .

وفي ادبنا القديم عبارات استراح المنشئون اليها ، واطمأنوا الى تأديتها عنهم ما يريدون ، فتتابعوا على استعمالها ، ولم يروا ان عليهم من ذلك بأسا ، ولم يرمهم احد بجمود أو عجز [٤] .

ففي اللغة ، وفي كل عصر من عصورها ، تبرز عبارات ثم تظل ثابتة تتعاقب الاجيال على استخدامها ، وهذه ظاهرة لغوية تتفق مع طبيعة اللغة ، وطبيعة الحياة العامة : « لان اللغة تقوم على الاخذ والمحاكاة » [٥] . فاذا

---

(٤) ينظر : من قضايا اللغة والنحو : ٥٢ وما بعدها .
(٥) نفسه : ٥٤ .

وجد أهلها في عبارة ، أو تركيب ما فضلا من شأن ، أو أثارة من امتياز استحيوه ، وغلبوه ، ولم يجشموا نفوسهم مشقة ابتكار غيره ، أو ابتداع سواه .

ثم ان الابتكار لا يتوافر عند الناس جميعا ، بل هو مما يتاح لافراد قلائل منهم ، وعلى هذا فان السواد الاعظم من ابناء الجماعة اللغوية ، يجدون في ثبات اللغة ، واستقرار بعض صيغها ، ما يساعدهم على تادية المعاني ، والتعبير عما يجول في نفوسهم ، ويغنيهم من بذل الجهود في ابتكار الصيغ التي تؤدي عنهم ما يريدون . وفي هذا يرى بعض اللغويين المحدثين : « ان الغالبية العظمى منهم ـ يعني افراد الجماعة اللغوية ـ ليسوا من ذوي الابتكار والتجديد ، ولا يعدو نشاطهم اللغوي ان يكون اعادة وتكرارا لنشاط غيرهم » [٦] .

واللغة بعد هذا شركة بين الفرد وابناء جماعته اللغوية ، وهو لذلك ملزم بأن يأخذها عنهم كما هي ، ويتبادلها واياهم على علاتها ، وليس له مهما علا فهمه وارتفعت مداركه ان يخل بنظامها ، او ينفرد عنهم بوجوه من الاستخدام لا يتقبلونها ، ولا يستجيبون لها ، وهو ان فعل ذلك ، وركب هواه في الاستعمال اللغوي ، لم يتحقق له الاتصال بجماعته ، ولم يجد لما يحدثه ، ويخاطبهم به ، صدى او استجابة .

وأهم من هذا كله ، وأولى منه بالتقدمة ، عندما نريد احصاء وجود الخير في ثبات اللغة ، واستقرار اعرافها ، ان اللغة وعاء التراث ، وسجل لفكر الجماعة اللغوية في مختلف عصورها ، فاذا لم يتح لها قدر كبير من الاستقرار والثبات ، تبدد ما في الوعاء من فكر ، ولم تستطع الاجيال الخالفة ان ترث شيئا من فكر السالفين . وهناك من يرى ان « الابداع والابتكار اذا تميز

(٦) اللغة بين الفرد والمجتمع : ١٤١ .

بالطرافة والجدة ، فان في الاحتفاظ بالتراث الثقافي الانساني الميزة الهامة التي تعلو بالانسان على مرتبة العجماوات » [٧] .

لم يغفل أهل اللغة عن هذه الحقائق ، أو عن بعضها في الاقل ، فهبوا ينعون اللغة ، منذ ان شعروا بتصدعها ، ودبيب الوهن في صوغها وتركيبها ، وذلك حين خرجت من الجزيرة ، وزحفت مع الاف من اهلها الذين ندبوا نفوسهم لنشر الدين الحنيف ، واقامة دولة الاسلام ، فخالطت اللغى ، وصارعت الالسن ، ثم خرجت من الصراع وعليها آثار وندوب ، اقلقت النقاد ، فغدا كل وكدهم ان يعيدوا اليها صفاءها وسلامتها .

وكان وراء النقاد اللغويين سند عظيم ، فقد حمى القرآن الكريم اللغة ، وحافظ عليها وخلدها في العالمين . كما كان العرب قد ادركوا ان لا سبيل الى فهمه ، والوصول الى المراد منه ، الا اذا بقيت العربية محتفظة بجوهرها الاصيل ، ومعدنها الصافي ، ونفي عنها ما بدأ يظهر عليها من أعراض التخلخل والتحلل .

فلعناية العرب بعقيدتهم ، ولتفطنهم لما لثبات اللغة من أثر في حياة الجماعة وفكرها وتراثها : « هبوا يحاولون ان يحفظوا على العربية تماسكها ، ويوقوها التخلخل والتحلل ... ورأوا ان التماس ذلك لا يكون الا عند من بقي من اهلها بموطنها ، فلا سبيل الى شيء من هذه السلامة عند من ديف بالعجمة ، وذوّب في الاختلاط الا ان يكون شيء يسير لا يقاس بما عند الخلص الذين على فطرتهم » [٨] . فخرجوا الى البادية ، حيث البقية الباقية من العرب الخلص ، وجمعوا ما استطاعوا جمعه من اللغة ، او وفد عليهم من البادية من وفد ، فاخذوا عنهم ، وبعد ان امسكوا من اللغة بما امسكوا وند عنهم منها ما ند ، وعادوا ليستخلصوا مما جمعوه ، ووقفوا عليه ، صيغه اساسية للغة ، ثم انتهوا الى تلك الصيغة ، فالزموا المنشئين بها ، واتخذوها

---

(٧) اللغة بين الفرد والمجتمع : ١٤١ .
(٨) مشكلات حياتنا اللغوية : ١١ ، ١٢ .

اساسا للكثير من النقد اللغوي الذي صدر عنهم . لقد اصبح من اول واجبات هذا النقد وفوائده : « محافظته على وضعية اللغة ، وتثبيته لاصولها ، واخذه الشعراء بها ... ولم يقتصر هذا الاتجاه على فترة من الفترات او عصر من العصور [9] » ، بل « امتد الى ما بعد ارساء قواعد العربية واصولها بكثير » [10] .

٢ ـ تهذيب اللغـة :

وهذه فائدة اخرى من فوائد النقد اللغوي ، فهو يعمل على تهذيب اللغة ، وتصفية متنها مما يشوبه ، أو يفسده من اخطاء وأوهام ، تجعل ذلك المتن غير صالح لان يبنى عليه ، او يستنبط منه شيء من الحقائق اللغوية .

واذا علمنا ان المادة اللغوية قد خالطها الخلل والفساد عبر العصور ، واندس فيها ما لم تقله العرب ، ادركنا مبلغ أهمية النقد اللغوي في تهذيبها ، وتشخيص ما اثقلها من تشويه ، لتنحيته ، وتخليصها منه .

وقد اوضحنا عند الكلام على الرواية ما قام به النقد اللغوي من اصلاح المحرّف ، وتصحيح المصحف ، والتنبيه على المختلق او المشكوك فيه [11] .

على أن تهذيب اللغة لا يقتصر على اصلاح متنها واستبعاد ما يشوبه ، ويندس فيه من أوهام واخطاء ، بل يتعدى ذلك الى غربلتها ، ونفي ما اصبح قليل الفائدة من الفاظها ، أو ما ليس بالحي ولا المستعمل من لهجاتها .

واذا استثنينا الرواة واللغويين المتقدمين ، الذين نشدوا الغريب ولم يرووا من الشعر الا ما اشتمل عليه ، فان النقاد من غير هؤلاء ، ومنذ اوائل العصر العباسي ، ادركوا تغير وجه الحياة ، وانتقال الناس من طور حضاري الى آخر ، فالحوا على ضرورة تهذيب اللغة مما كان اللغويون الاوائل قد جمعوه من الفاظ ، انعدمت الحاجة اليها ، واصبح التشبث بها ، والابقاء

---

(٩) الاسس الجمالية في النقد العربي : ٢٣٨ .

(١٠) نفسه .

(١١) تنظر ص٤٥ و ص٤٦ وما يعادلها من هذه الرسالة .

عليها في لغة الادب ، أمرا يغاير نواميس اللغات • وقد مرت بنا في غـير هذا الموضع [١٢] ، أقوال النقاد التي تذم الغريب ، وتحض المنشئين عـلى تحاشيه ، والتباعد منه •

اما اللغويون واصحاب المعجمات فيبدو انهم لم يفطنوا الى هذه الحقيقة، الا في القرن الرابع ، حيث مالوا الى تخليص معجماتهم من كثير من الالفاظ التي اصبحت بعيدة من الاستعمال ، ومن الالفاظ التي لم تثبت صحتها ، والتي ضمتها المعجمات المبكرة ، التي كانت تهدف الى الجمع ، أكثر مما تهدف الى الاختيار ، والدليل على ذلك ما جاء من معجمات في القرن الرابع : « اتخذت اسماء توحي بالحرص على تنقية اللغة من الغريب والحوشي مثل تهذيب اللغة للازهري ، والصحاح للجوهري » [١٣] •

وهكذا فان الغريب قبل القرن الرابع كان مختلفا فيه ، فاللغويـون يميلون اليه ، ويحرصون على روايته ، والنقاد من الادباء يعيبونه ، ويوصون رجال الادب ، بتبرئة كلامهم منه ، اما في القرن الرابع فقد اجتمعت كلمة النقاد واللغويين على نبذه ، وتخليص متن اللغة منه •

ان اشتداد الحملة على استعمال الغريب في القرن الرابع شيء طبيعي ، دفع اليه ايغال المجتمع في الحضارة ، وانسلاخه من حياة البداوة ، وما يمثلها ويعبر عنها من الفاظ •

ولم يشأ بعض نقدة القرن الرابع ان يثقف الادباء شيئا من الغريب ، فضلا عن ان يستخدموه فيما صدر عنهم من نتاج • يتضح لنا ذلك من رد ابي حيان التوحيدي على الصاحب بن عباد ، وكان هذا الاخير قد ذهب الى ان معرفة غريب اللغة امر لا مناص منه للشاعر [١٤] ، فقال ابو حيان :

---

(١٢) تنظر ص٢١٢ و ص٢١٣ من هذه الرسالة .
(١٣) المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة : ٢٣ .
(١٤) اخلاق الوزيرين : ٤٨٢ .

« فما بين الشاعر وبين هذا الضرب ؟ الشاعر يطلب لفظا حرا ، ومعنى بديعا ، ونظما حلوا ، وكلمة رشيقة ، ومثالا سهلا ، ووزنا مقبولا »[15] .

وكما استنكر النقاد الغريب ، وعملوا على ابعاده ، وتخليص متن اللغة منه ، فكذلك لم يرتضوا للمنشئين ان يستعملوا اللغات الرديئة والمذمومة ، التي جفاها الذوق العربي العام ، وخلا منها الادب الرفيع .

وحرص النقاد وبعض اللغويين على أن يسود الفصيح المليح ، ويندثر المستبشع والمستقبح من الالفاظ والصيغ ، هو الذي جعلهم ينعتون العنعنة والكشكشة والكسكسة والطمطمانية والعجعجة وما الى ذلك من الوان اللهجات باللغات المذمومة[16] .

فمن فوائد النقد اللغوي تطويع اللغة للعصر بحدود روحها وتقاليدها العامة ، وجعلها ملائمة لما يجد من ظروف ، وينشأ من احوال ، وهو بهذا يخدمها ، ويعمل على تهذيبها ، واستبعاد ما تضت الحياة بموته من الفاظها ولهجاتها . ولولا استنكار النقاد هذا اللون من الالفاظ واللهجات ، وتشديدهم النكير على متعاطيه من المنشئين ، لظلت العربية تنوء بما ليس حيا من مادتها ، وفي هذا ما فيه من اضرار باللغة ، واعنات لاهلها .

وقد يقال : ان نبذ الغريب ، والمستقبح من اللهجات ، شيء طبيعي ، تصير اللغة اليه ، من غير حاجة الى تنبيه الناقد ، فنقول : ان هذا صحيح ، ولكن تنبيه الناقد مطلوب ، لكي تمشي اللغة في سبيلها الطبيعية ، دون ان يحرفها تقعّر منشيء ، أو اغراب متحذلق .

٣ ـ تنمية اللغـة :

ونقصد بها ان تكون اللغة اوفر مادة ، وان تقبل الجديد الجيد الذي يأتي به المتكلمون . والحقيقة ان اكثر علماء اللغة قد احاطوا العربية بسياج ،

---

(١٥) اخلاق الوزيرين : ٨٧ .
(١٦) الشعر والشعراء ١/١٠١ ، ١٠٢ والصاحبي : ٥٣ والمزهر : ١/٢٢١ وما بعدها .

ارداوا منه ان يصد عنها كل جديد ، فهم وصفوا بالفصاحة عربية الجاهليين ، وشطرا من عربية العصر الاسلامي ، أو بعبارة اخرى لم يقبلوا ما جد من ضروب الاستعمال التي نشأت بعد نهاية القرن الثاني ، ومن هنا نشأ عندهم ما يسمى بـ (المولد) او (المحدث) ويريدون به الصيغ والاستعمالات التي لم ترد بها النصوص القديمة ، الموثوق بفصاحة قائليها من عرب الجاهلية، أو عرب القرنين الاول والثاني (١٧) ، وقد فرضت هذه النظرة الضيقة على بعضهم ان يجعل (المولد) شيئا آخر غير (العربي) ، حتى انه ليقرر : « هذه عربية وهذه مولدة »(١٨) ، وكأن المولد غير عربي ، ومن شأنه ان يشخص ويشار اليه كما يشار الى الاعجمي الوافد ، او الاجنبي الدخيل ، ولو أنهم رموا من تشخيصه ، وفرزه من العربي ، الى تاريخ ظهور اللفظة ، أو تحديد الزمن التي استعملت فيه اول مرة ، لكان امرا محمودا ، ولكنهم رموا من ذلك الى توهين (المولد) ، وصد الناس عن استعماله ،

وطبيعي ان تؤدي مثل هذه النظرة احيانا الى ان تجمد اللغة ، وتتوقف عن مسايرة الزمن ، وتعجز عن التعبير عما يجد من ظروف ، ومتطلبات حضارية مختلفة ،

وقد آمن بكمال اللغة كثير من اللغويين ، الا ان ذلك تجلى عند ابن فارس الذي قرر ان العربية قد استوفت حظها من النضج والنماء ولم تعد بها حاجة الى ان يزاد فيها ، أو يضاف اليها ، قال :« ولعل ظانا يظن ان اللغة التي دللنا على أنها توقيف انما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد ، وليس الامر كذا ، بل وقف الله جل وعز آدم عليه السلام على ما شاء ان يعلمه اياه مما احتاج الى علمه في زمانه ، وانتشر من ذلك ما شاء الله ثم علم بعد آدم عليه السلام من عرب الانبياء صلوات الله عليهم نبيا نبيا ما شاء الله ان يعلمه حتى انتهى الامر الى نبينا محمد (صلعم) فآتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته

(١٧) المزهر : ٣٠٤/١ ،
(١٨) نفسه ،

أحدا قبله ، تماما على ما احسنه من اللغة المتقدمة ، ثم قرّ الامر قراره ، فلا نعلم لغة من بعده حدثت ، فأن تعسل اليوم لذلك متعمل ، وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده » (١٩) . وواضح ان نظرية (التوقيف) التي آمن بها ابن فارس هي التي قادته الى انكار كل جديد .

اما اللغويون الآخرون الذين دانوا بانكار الجديد ، ووقفوا بوجه المستحدث ، فلم يكن الباعث لهم على ذلك نظرية التوقيف ، وانما دفعتهم اليه عوامل عدة ، لعل اهمها غيرتهم على اللغة ، ومحاولتهم الابقاء عليها كما ورثوها ، نقية وصحيحة .

الا ان هذه النظرة لم تحل بين ذلك الجديد ، وبين أن يستقر احيانا في الاستعمال ، وتجرى به الالسن والاقلام (٢٠) . وقد مكن لهذا الجديد ، وأتاح له ان يستقر في النصوص الادبية طائفة من اللغويين والنقاد لم يكونوا على ما كان عليه غيرهم من ضيق النظرة ، والتعصب للقديم ، وما الفاظ العلماء ومصطلحاتهم التي عبروا بها عما نقلوه، أو توصلوا اليه من العلوم ،الا دليل على ان العربية لم تقف عند الحدود التي رسمها لها علماء القرنين الثاني والثالث ، ومن تبعهم من علماء القرون التالية كابن فارس وغيره .

وليس من هدفي هنا ان اخوض فيما تم وضعه في اللغة من مصطلحات وما جدّ فيها من صيغ واستعمالات ، وانما اريد ان اتبين اثر النقد اللغوي في تنمية اللغة ، واغنائها ، والسبيل التي سلكها الى تحقيق ذلك .

فقد تميز بعض اللغويين ، ومعهم بعض النقاد ، برأي متحرر وميل الى توسيع نطاق الفصيح ، وفتح الابواب التي سدها غيرهم أمام كثير من الكلمات. وكان من نتائج ذلك ان غنيت العربية ، وزادت سعة على سعتها . اما السبل التي اتبعوها لاغناء اللغة فتمثلت في الامور التالية :

---

(١٩) الصاحبي : ٢٣ .

(٢٠) البيان والتبيين : ١/١٣٩ ، ١٤٠ .

أ ـ توسيع القياس :

القياس : « استنباط مجهول من معلوم ، فاذا اشتق اللغوي صيغة من مادة من مواد اللغة على نسق صيغة مألوفة في مادة اخرى سمي عمله هذا قياسا » [٢١] . وعلى هذا فالقياس : « هو مقارنة كلمات بكلمات ، أو صيغ بصيغ ، أو استعمال باستعمال رغبة في التوسع اللغوي » [٢٢] . ولهذا عد اللغويون المحدثون القياس أحد : « المنابع او الروافد التي تمد اللغة بكل جديد مستحدث من الكلمات والاساليب » [٢٣] .

فالذي عليه اللغويون المحدثون ان اللغة ، مهما بلغت من الثراء ، لا تكفي لمواجهة مواقف الاستعمال المتجددة على الدوام ، ما لم يرفدها المتكلمون بها ، بالصيغ الجديدة ، والجمل المستحدثة التي لم تعرفها اللغة من قبل : « وهذه الصيغ والجمل لا تأتي كيفما اتفق بل تأتي مقيسة على ما اختزنه المتكلم في ذاكرته من نظم البيأة اللغوية في صيغها وجملها » [٢٤] .

غير ان اللغويين العرب كانوا فريقين : الاول « حاول قصر الناس على السماع ، والتزامه والجمود عليه » [٢٥] ، بمعنى انه لم يجز لاحد ان يستغل القياس ، فينسج صيغة على صيغة ، أو ينطق بما لم يرد قياسا على ما ورد . وواضح ان هذا الرأي لا يخدم مبدأ (تنمية اللغة) ، والاخذ به يحرم العربية من مواد كثيرة ويقيم حولها سورا ، يمنع تدفق الجديد عليها .

وكان ابن قتيبة والامدي وابن فارس ممن اخذوا بهذا الرأي ، فقد ذهب الاول الى انه ليس لمتأخر الشعراء : « ان يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا » [٢٦] . وقال الثاني « وانما ينبغي ان ينتهي في اللغة الى حيث

---

(٢١) من اسرار اللغة : ٩ .
(٢٢) نفسه .
(٢٣) نفسه : ٧ .
(٢٤) اصول النحو العربي : ١٠٨ .
(٢٥) في اصول النحو : ٧٩ .
(٢٦) الشعر والشعراء : ١/٧٧ .

اتهوا ، ولا يتعدى الى غيره ، فان اللغة لا يقاس عليها »[٢٧] . وقال الاخير : « ليس لنا اليوم ان نخترع ، ولا ان نقول غير ما قالوه ، ولا ان نقيس قياسا لم يقيسوه ، لان في ذلك فساد اللغة ، وبطلان حقائقها »[٢٨] .

وبمقتضى رأي هذا الفريق ، من الخطأ أن نقول مثلا (حابّ) من الفعل (حبّ) لانها لم تسمع عن العرب ، فلا يجوز ان ننطق بها قياسا على نظائر لها كثيرة كقولهم (سابّ) من (سبّ) و (عادّ) من (عدّ) و (رادّ) من (ردّ) ، الى غير ذلك من الكلمات التي تبيح لنا كثرتها ان نحتذيها ، ونشتق ما يماثلها . وبمقتضى هذا الرأي ايضا ليس لنا ان نقول (منفوع) من الفعل (نفع) ، لان العرب لم تنطق باسم المفعول من هذا الفعل .

ويبدو ان هذا المذهب لم يكتب له البقاء : « لمخالفته طبائع الاشياء ، ولان من غير المعقول ان يكون كلامنا كله بمفرداته وتراكيبه واردا عن العرب »[٢٩] .

اما الفريق الثاني فيمثلهم ابو علي الفارسي وتلميذه ابن جني الذي كان يقول : « ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، الا ترى انك لم تسمع انت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول ، وانما سمعت البعض فقست عليه غيره »[٣٠] .

والى هذا الفريق يرجع الفضل في نماء اللغة ، واستمرار الحياة فيها ، فقد امدوها بالجديد الذي يلائم نظامها ، ويوائق روحها وقوانينها ، وأتاحوا لها ان تساير الحياة وتتسع لمطالبها المتجددة .

لقد اجاز أصحاب هذا الرأي النطق بمفردات لم ترد عن العرب ، قياسا على نظائرها ، فاذا وردت المادة اشتقوا منها ما تسمح طبيعة اللغة

---

(٢٧) الموازنة : ٢١٦/١ .
(٢٨) الصاحبي : ٦٧ .
(٢٩) في اصول النحو : ٧٩ .
(٣٠) الخصائص : ٣٥٧/١ .

باشتقاقه ، ولم يمنعهم من استعمال الصيغ التي يجيزها القياس انها لم ترد عن العرب . قال ابن جني : « وحكى ابو زيد رجل مدرهم ، قال :ولم يقولوا منه درهم ، الا انه اذا جاء اسم المفعول فالفعل نفسه حاصل في الكف . ولهذا أشباه » (٣١) . فابن جني هنا يعترف بصيغة على الرغم من انها لم تؤثر عن العرب ، لان القياس يحتمها ، ويبيح الاخذ بها .

وما جعل (القياسيين) أو الذين يقولون بفتح باب القياس يطمئنون الى مذهبهم امران : الاول سعة العربية وانتشارها ، وعجز العلماء والرواة عن الاحاطة بها ، والوقوف على كلّ ما ورد عن العرب منها . والدليل على ذلك قول ابي عمرو بن العلاء المشهور « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » (٣٢) . واذا كان الامر كذلك فمن الجائز ان يكون الذي يبيحه القياس قد نطقت به العرب فعلا ، الا انه لم يصل الينا . ومما يقوى هذا الرأي ان سيبويه تعجل فزعم ان العرب لم تتكلم ببعض الابنية او الصيغ ، ثم اثبت البحث بعده ان العرب تكلمت بها (٣٣) . الثاني : ان العرب الاوائل انفسهم كانوا قد تصرّفوا في اللغة ، وتوسعوا في طرد قياسها وتصريفها واشتقاقها ، وجاء بعضهم بما لم يسبق اليه ، فقبله العلماء ، ودونوه(٣٤) . وفي هذا يقول ابن جني : « فان الاعرابي اذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته تصرّف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به ، فقد حكى عن رؤبة وأبيه انهما كانا يرتجلان الفاظا لم يسمعاها ، ولا سبقا اليها » (٣٥) . ويقول أيضا عن رؤبة والعجاج : « انهما قاسا اللغة وتصرفا فيها ، وأقدما على ما لم يأت به من قبلهما » (٣٦) .

---

(٣١) الخصائص : ٣٥٨/١ .
(٣٢) طبقات فحول الشعراء : ٢٣ .
(٣٣) ابو بكر الزبيدي الاندلسي : ٣١٨ .
(٣٤) الخصائص : ٤٢/٢ .
(٣٥) نفسه : ٢٥/٢ .
(٣٦) الخصائص : ٣٦٩/١ .

ومهما تكن الحجة التي استند اليها القياسيون في فتح باب القياس ، والتوسع في تطبيقه ، فانهم أعطوا الحق للعربي المتأخر في ان يبتكر من المفردات ما يسمح به الاشتقاق ، وتجيزه طبيعة العربية ، ويتلاءم مع روحها ونظامها • وفي هذا يقول ابن جني : « للانسان ان يرتجل من المذاهب ما يدعو اليه القياس ، ما لم يلو بنص ، او ينتهك حرمة شرع[٣٧] » • وكان ابن جني في رأيه هذا متابعا لشيخه ابي علي الفارسي الذي كان يقول : « لو شاء شاعر او ساجع او متسع ان يبني بالحاق اللام اسما وفعلا وصفة لجاز له ، ولكان ذلك من كلام العرب ، وذلك نحو قولك : خرجج اكرم من دخلل ، وضربب زيدا وعمرا ، ومررت برجل ضربب وكرمم ونحو ذلك[٣٨] » • وحين سأله ابن جني قائلا : « افترتجل اللغة ارتجالا ؟ » قال : « ليس بارتجال ، ولكنه مقيس على كلامهم فهو اذن من كلامهم[٣٩] » •

ومعنى ما ذكره ابو علي الفارسي ان من حق العربي ان يبتكر ويجدد كما يشاء ، شريطة ان يكون الذي يبتكره على هيأة الفصحى وقياسها • وبمثل هذا التجديد والابتكار تنمو اللغة ، وترتقي ، وتكون وافية بمطالب الحياة •

وقد اعترض اصحاب النزعة المحافظة على (القياسيين) ، او الذين يقولون بفتح باب القياس ، بان الخليل قال : « انشدنا رجل :

ترافع العز بنا فارفنععا

فقلت : هذا لا يكون • فقال : كيف جاز للعجاج أن يقول :

تقاعس العز بنا فاقعنسسا [٤٠] »

---

(٣٧) الخصائص : ١٨٩/١ •
(٣٨) نفسه : ٣٥٨/١ ، ٣٥٩ •
(٣٩) نفسه : ٣٥٩/١ •
(٤٠) نفسه : ٣٦٠/١ ، ٣٦١ •

لقد فهم هؤلاء من كلام الخليل انه منع ان تقيس على كلام العرب ما لم يقيسوه ، او لم ينتطوا به ، فرد عليهم ابن جني بان الخليل « انما انكر ذلك لانه بناه مما لامه حرف حلقي ، والعرب لم تبن هذا المثال مما لامه أحد حروف الحلق ، انما هو مما لامه حرف قوى وذلك نحو اقعنسس واسحنكك واكلندد واعثنجج • فلما قال الرجل للخليل (فارفنعما) انكر ذلك من حيث أرينا[٤١] » ثم قال ابن جني : « اذا تركت العرب امرا من الامور لعلة داعية الى تركه وجب اتباعها عليه ، ولم يسع أحدا بعد ذلك العدول عنه[٤٢] » •

فالخليل لم ينكر القياس ، وانما انكر الكلمة المقيسة ، لانها لم تجر على سنن العربية ، ولم تتفق مع طريقة العرب في بناء المفردات ، والتأليف بين الحروف •

وكما أساء بعض القدامى فهم رأي الخليل فعل بعض المحدثين ، وفهم منه أنه ، كغيره من الاقدمين ، يغض النظر عن العيب اذا ظهر عند قديم ، فاذا ظهر عند محدث حاسبه عليه ، وأخذه به[٤٣] •

وبمقتضى التوسع في القياس ، سمح بعض النقاد ببعض الصيغ والمفردات التي قاسها بعض الشعراء ، ولم تكن مما ورد عن العرب ، فكان قبولهم لها ما يؤدي الى نماء اللغة ، وزيادة مادتها • من ذلك ان القاضي الجرجاني قبل كلمة (جائد) التي اشتقها المتنبي من (جاد) فقال :

فدى من على الغبراء أولهم أنا ◦ لهذا الأبي الماجد الجائد القرم

في حين ان بعض اللغويين انكرها ، لانها لم تحك عن العرب ، وانما حكي عنهم : رجل جواد وفرس جواد •

لقد كان الجرجاني ممن يميل الى اعطاء الشاعر الحق في ان يستغل القياس للتوصل الى ما يشاء من صيغ ومفردات ، وقد رد على من انكر كلمة

---

(٤١) الخصائص : ١/٣٦٢ •
(٤٢) نفسه •
(٤٣) الاسس الجمالية في النقد العربي : ١٩٠ •

(جائد) بقوله : « هذا الباب يستغنى فيه بالقياس عن السماع لاطراده، واتساق امره على الاعتدال فكل فعل في الكلام يقتضي التصريف الى فاعل، ومفعول ، وكل فعل فله مفعل ومفعل ولسنا نحتاج في مثل هذا الى التوقف. واتباع المسموع ، وهذا أشبه بمذاهب القياس ، والاصل الذي عليه اهل، اللغة[٤٤] » .

فلا وجه لرفض كلمة (جائد) ، كما يرى الجرجاني ، وحرمان اللغة. منها ، لانها اسم فاعل من فعل ثلاثي هو (جاد يجود) من باب (قال يقول) ، واسم الفاعل من الثلاثي المجرد يأتي بكثرة على (فاعل) ، ولما كانت (عين) الفعل (واوا) أنقلبت في الماضي الى الالف لتحركها وانفتاح ما قبلها ، وانقلبت في اسم الفاعل الى (همزة) ، نحو (قائل) و (بائع) . وعلى ذلك فكلمة (جائد) اسم فاعل قياسي ، وقد خضعت لكل ما يتطلبه القياس في امثالها من حيث التصريف والابدال . ولا شك ان من اغناء اللغة ان نتقبل كلمة سندها القياس ، وان لم ترد عن العرب ، لعدم توقف قبول امثالها على السماع .

وكان القزاز القيرواني يعترف ايضا بما يعطيه القياس من صيغ ومفردات ، من ذلك انه اعترف بكلمة (سداس) التي جاءت في قول المتنبي :

أحاد أم سداس في احاد   لييلتنا المنوطة بالتناد

في حين ان اللغويين انكروها ، لانهم ادعوا ان العرب لم تجاوز (رباع) في العدد . قال القزاز :« وأما قولهم ان العرب لم تجاوز في العدد رباع ، ادعاء منهم ، لان القياس لا يمنعه ، وانما جاء في القرآن الى (رباع) (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) فاما في الكلام فلا أرى مانعا يمنعه على انه قد أتى في الشعر (عشار) وهو قول الكميت :

فلم يستريثوك حتى جمعت   فوق الرجال خصالا عشارا

---

(٤٤) الوساطة : ٤٧٠ .

فاذا كان القياس يعطيه ، وقد جاء في الشعر ما يجاوز (رباع) دل على ان قوله (سداس) جائز[٤٥] » .

لقد ظهر في النقد اللغوي نزعتان : الاولى متحررة ، تؤمن بالقياس رافدا من روافد اللغة ، يغنيها بالجديد ، ويمدها بالمستحدث من الصيغ والاساليب ، فتوسعت في تطبيقه والاستفادة منه والثانية نزعة محافظة كانت تقف عند المسموع ، ولا تحاول ان تزيد عليه . فاذا ابتكر المنشىء كلمة خاضعة لما خضعت له امثالها من شروط الاشتقاق والتصريف ، أبوها وحاسبوا المنشىء عليها . من ذلك انهم رفضوا قول المتنبي :

العارض الهتن بن العارض الهتن   بن العارض الهتن بن العارض الهتن

فقال العكبري : « قال ابن القطاع : غلط المتنبي في هذا البيت وكرر غلطه أربع مرات وقد اجمع العلماء ان اسم الفاعل من هتن : هاتن ، ولا جاء عن أحد من العلماء (الهتن) ولم يذكره أحد من جميع الرواة ، حتى نبهت عليه[٤٦] » .

والحقيقة ان المتنبي لم يخطىء ، فان (الهتن) التي كررها اربع مرات ، لم يأت بها على خلاف ما تسمح به مقاييس اللغة ، بل انه صاغها صوغا قياسيا موافقا لاشهر اوزان اللغة ، واشيعها ذكرا ، فلفظ (هتن) بوزن (فعل) ، وهو أحد اوزان المبالغة المعروفة ، التي يؤتى بها للدلالة على ان الموصوف مكثر من فعل مدلولها . وما دامت المادة موجودة في اللغة ، والصيغة مقررة في استعمالاتها ، فان الشاعر لم يخطىء فيما قاله .

يتضح مما قدمناه ان بامكان النقد اللغوي ان يستغل امكانات اللغة ، ويستفيد من خصائصها ، والروح التي تحكمها ، وتصرّف شؤونها فيعود ذلك عليها بالخير والنماء ، كما ان العكس قد يحدث ، اى يمتنع النقد من

---

(٤٥) ضرائر الشعر : ٣٧ ، ٣٨ .
(٤٦) شرح العكبري : ٤/٢١٧ .

استغلال طواعية اللغة ومرونتها ، ويسد المنافذ امام الجديد الموافق لطبيعتها ، والجاري على سننها ، فيؤدي ذلك الى جمودها ، وضمور مادتها .

ب ـ توسيع المقيس عليه :

اختلف اللغويون في الكلام الذي يبنون عليه قواعد العربية ويستنبطون منه أحكامها وقوانينها ، فتشدد فريق منهم ، وهم البصريون ، فقصروا القياس على طائفة من كلام العرب ، وهو كلام القبائل التي وثقوا بفصاحتها ، لسكناها كبد الجزيرة ، ونأيها عن التخوم ، والاقاليم المجاورة للامم الاخرى . وتسمّح الكوفيون ، فكانوا أسلس خطة ، وابعد من التشدد ، فقبلوا كلام القبائل التي قدح البصريون في فصاحتها ، وأباحوا احتذاءه ، والنسج على منواله . فالبصريون ضيقوا المادة التي يصح القياس عليها ، اما الكوفيون فوسعوها ، وفتح مذهبهم للعربية طرقا تزداد بها مادتها واساليبها سعة على سعتها .

فالبصريون ، اذن كانوا ينظرون الى القبائل على انها ليست على حظ واحد من الفصاحة ، بل ان بعضها أفصح وأجمل بيانا . وفاتهم ان تأخر القبيلة في مراتب الفصاحة عن قبيلة أخرى لا يقدح في عروبة القبيلة المتأخرة او المفضولة ، ولا يعني ان كلامها محظور ، ومجاراته محرّمة . ثم ان الفصاحة او جمال البيان مسألة نسبية ، فما تتجافى عنه قبيلة ، وتعده قبيحا ، قد يكون مليحا مقبولا عند قبيلة اخرى ، بل الامر كذلك على وجه التحقيق ، والا لما استعملته هذه القبيلة ، واطمأنت اليه .

وقد فطن بعض اللغويين ، ومعهم بعض النقاد الى ذلك ، فساووا بين القبائل في صحة القول ، وسلامة اللغة ، ورأوا ان ليس من المقبول تفضيل لهجة على لهجة ، والحكم على النظير بالتخلف عن نظيره . وكانوا كذلك قد اغنوا اللغة ، وزادوها ثروة على ثرواتها في المفردات والاساليب . وكان ابن جني في مقدمة القائلين بمبدأ تساوى اللغات ، فقد عقد لذلك بابا في الخصائص جعل عنوانه (اختلاف اللغات وكلها حجة) قال فيه : « اعلم ان سعة القياس

تبيح لهم ذلك ، ولا تحظره عليهم ، الا ترى ان لغة التميميين في ترك اعمال (ما) يقبلها القياس ، ولغة الحجازيين في اعمالها كذلك ، لان لكل واحد من القومين ضربا من القياس يؤخذ به ، ويخلد الى مثله . وليس لك ان ترد احدى اللغتين بصاحبتها ، لانها ليست أحق بذلك من رسيلتها ، لكن غاية مالك في ذلك ان تتخير احداهما ، فتقويها على اختها ، وتعتقد ان اقوى القياسين اقبل لها ، وأشد انسابها . فاما رد احداهما بالاخرى فلا . او لا ترى الى قول النبي صلى الله عليه وسلم : نزل القرآن بسبع لغات كلها كاف شاف . هذا حكم اللغتين اذا كانتا في الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين او كالمتراسلتين ، فاما ان تقل احداهما جدا ، وتكثر الاخرى جدا ، فانك تأخذ باوسعهما رواية ، وأقواهما قياسا ، الا تراك لا تقول : مررت بَكَ ، ولا المال لِكَ ، قياسا على قول قضاعة : المال لِه ، ومررت بِه ، ولا تقول : اكرمتكش ، ولا أكرمتكس ، قياسا على لغة من قال مررت بكش ، وعجبت منكس ...[47] » . وسرد امثلة لبعض اللهجات العربية ثم قال : « فاذا كان الامر في اللغة المعول عليها هكذا ، وعلى هذا ، فيجب ان يقل استعمالها ، وان يتخير ماهو اقوى واشيع منها ، الا ان انسانا لو استعملها لم يكن مخطئا لكلام العرب ، لكنه كان يكون مخطئا لاجود اللغتين . فاما ان احتاج الى ذلك في شعر أو سجع فانه مقبول منه ، غير منعي عليه . وكذلك ان قال : يقول على قياس من لغته كذا وكذا ، ويقول على مذهب من قال كذا كذا . وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء ، وان كان غير ما جاء به خيرا منه[48] » .

ودخل هذا الرأى ميدان النقد ، فأخذ به بعض النقاد ، كالقاضي الجوجاني الذي كان يأخذ بمبدأ التوسع على المنشىء ، ويبيح له مجاراة ما يشاء من لغات ، اذا رواها الثقات ، دون ان يحفل باستضعاف النحاة لها .

(٤٧) الخصائص : ١٠/٢ .

(٤٨) الخصائص : ١٢/٢ .

وما فعله الجرجاني من شأنه ان يزيد في ثروة اللغة ، ويوسع مادتها ، ويجعل مضطرب التعبير بها فسيحا .

وقد أفصح القاضي الجرجاني عن هذا الرأى في اكثر من موضع من كتابه فقال مرة : « وأنا ارى الا يطالب الشاعر اكثر من اسناد قوله الى شعر عربي منقول عن ثقة[٤٩] » . وقال اخرى : « ليس على الشاعر عيب في اتباع اللفظة النادرة ، اذا رواها الثقات ، ومتى وجدت الرواية عن ثقة لم يحظر على الشاعر قبولها والعمل بها لاجل اختلاف النحويين[٥٠] » .

وكنا قد عرضنا لابن السيد البطليوسي ، وابن هشام اللخمي وقررنا انهما كانا يحترمان لغات القبائل ، ولا يردان شيئا منها[٥١] .

وكما تنمو اللغة ، وتتعدد اساليب التعبير بها ، اذا احترمنا لغات القبائل ، وابحنا مجاراتها ، والطبع على قوالبها ، فكذلك تنزر اذا قبلنا ما ينفرد به العربي الفصيح ، فلا يسمح من غيره ، وهو مبدأ قال به اللغويون ، على ما ذكره ابن جني ، كما تقدم[٥٢] ، ومال اليه القاضي الجرجاني ايضا . وكان الجرجاني قد افصح عن ميله الى احترام كل ما ورد عن العرب دون الالتفات الى درجته من الشيوع ، وحظه من الانتشار ، وذلك لانه جعل ما يقوله الفرد العربي بمنزلة ما تقوله القبيلة ، وما تقوله القبيلة بمنزلة ما تقوله الامة ، وهذا مبدأ محمود ، لا يفرّط في شيء مما وعته اللغة ، ولا يجفو عن نمط من انماطها التعبيرية ، بحجة قلته ، او شذوذه او انفراد قائله به . على ان القاضي الجرجاني لا يقبل مثل هذه القوالب والمفردات فحسب ، بل يبيح للشاعر مجاراتها ، والطبع على غرارها ، وكأنه اذا قبل صيغة او تعبيرا قبل مجاراته ايضا . قال : « فأما الالفاظ التي زعم ان الشعراء تفردوا بها ، فانها موجودة عن ائمة اللغة ، وعمن ينتهي السند اليهم ، ويعتمد في اللسان عليهم .

---

(٤٩) الوساطة : ٤٥٧ .
(٥٠) نفسه : ٤٦٣ .
(٥١) ص٧٨ من هذه الرسالة .
(٥٢) ص٢٢١ من هذه الرسالة .

وانما تتكلم بما تكلموا به ، وواحد كالجميع ، والنفر كالقبيلة ، والقبيلة كالامة ، فاذا سمعنا من العربي الفصيح الذي يعتد حجة كلمة ، اتبعناه فيها ، ثم ان لم تبلغنا عن غيره ، ولم نسمع بها الا في كلامه لم نزعم انه اخترعها[٥٣] » . وهذا كلام نفيس ، تفيد اللغة منه ، وتزداد نماء وسعة .

ج ـ قبول المعرب والدخيل :

وهذه سبيل اخرى من سبل تنمية اللغة . فمن الثابت : « أن اللغات منذ القدم يستعين بعضها بالفاظ بعض ، حدث هذا بين اللغات القديمة ، وما يزال يحدث بين اللغات الحديثة[٥٤] » . واستعانة اللغة بالفاظ لغة أخرى تكون في بعض حالاتها وليدة الحاجة ، وتكون احيانا بسبب الاعجاب بتلك الالفاظ . والفرد في كلتا الحالتين ، ينظر الى لغته « على أنها شيء ملك له ، ومن حقه ان يزيد عليها ما يشاء من الفاظ اللغات الاخرى[٥٥] » .

والمرء حين يقبس لفظا اجنبيا يحرص على ان يجعل ذلك اللفظ مشاكلا لالفاظ لغته ، من ناحية الاصوات ومن ناحية الاوزان ، بمعنى أنه يغير من اصوات الكلمة الاجنبية ما لا يسهل عليه النطق به ، ويحذف منها او يزيد عليها لتوافق في بنيتها ووزنها الفاظ لغته : « ويساعد مثل هذا الصنيع على شيوع اللفظ الاجنبي بين افراد البيأة لسهولة تناوله حينئذ والنطق به[٥٦] » .

وقد يحدث في حالات قليلة ان يبقى اللفظ المستعار على حاله من غير تغيير في اصواته او صيغته . ومهما يكن فان اقتباس اللغة الفاظ لغة أخرى ، من شأنه ان يزيد في ثروتها ، ويجعلها قادرة على الوفاء بالتعبير عما يجد من مواقف استعمالية ، ليس فيها ما يصلح للتعبير عنها .

---

(٥٣) الوساطة : ٤٥٤ ، ٤٥٥ .
(٥٤) من اسرار اللغة : ١٠٢ .
(٥٥) نفسه : ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٥٦) نفسه : ١٠٣ .

ولم تكن العربية بدعا من غيرها من اللغات ، فقد اقتبست قبل الاسلام وبعده الفاظا اجنبية كثيرة ، ولم يجد اهلها فيهذا غضاضة او ضيرا على لغتهم. وسلك العرب في اقتباسهم الفاظ الامم الاخرى السبيلين المشار اليهما ، بمعنى انهم غيروا طائفة من تلك الالفاظ ، وجعلوها على صور شبيهة بالكلمات العربية ، وابقوا طائفة أخرى على ما كانت عليه في لغاتها الاصلية ، وسموا النوع الأول من الالفاظ الاجنبية بالمعرّب ، كما سموا النوع الثاني بالدخيل[٥٧] . ووردت تلك الالفاظ الاجنبية في شعر الجاهليين وشعر الاسلاميين ، ثم زادت نسبة شيوعها في شعر العباسيين .

غير ان اللغويين المتزمتين وقفوا بالتعريب عند عصور الاحتجاج ؛ بمعنى أنهم قبلوا ما دخل اللغة من الاجنبي في العصر الجاهلي وصدر الاسلام وعصر بني امية ، ثم أوصدوا الباب بوجهه فلم يقبلوا ما دخل اللغة منه في العصر العباسي [٥٨] . وواضح ان هذا المنطق لا يخدم مبدأ تنمية اللغة ، ولا يتيح للغة ان تساير الحياة ، وتفي بالتعبير عن مطالبها المتجددة . وواضح ايضا ان فتح الباب امام السيول المنهمرة على اللغة من اللغات الاخرى أمر يودي باللغة ، ويقضي عليها . ومعنى هذا أن كلا السبيلين بعيدة من الصواب ؛ وان المعقول ان يقبل النقاد واللغويون من الفاظ الامم الاخرى ما تدفع اليه الحاجة، وما لا يوجد له مقابل في العربية وبهذا تنمو اللغة ، وتساير مواقف الاستعمال المتجددة على الدوام .

وقد وجد هذا الرأي طريقة في نقدنا اللغوي ، فكان احدى وسائله في تنمية العربية ، وجعل مادتها اوفى وأوفر . وأخذ به عدد من النقاد واللغويين فما « لم يجدوا له مرادفا بالعربية اقتادوه بلفظه الاعجمي عناللغات التي نقلوا

---

(٥٧) من اسرار اللغة : ١١٠ . ولعلي عبدالواحد وافي راي اخر مفاده انالدخيل نوعان : معرب وهو ما استعمله فصحاء العرب في عصور الاحتجاج، والاعجمي المولد وهو ما استعمله المولدون ، فقه اللغة : ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٥٨) فصول في فقه العربية : ٢٢٠ ، ٢٢١ وينظر : فقه اللغة : ١٨١ .

عنها ، وربما استعاروا للمعنى الواحد لفظين من لغتين اعجميتين ، لا يأنفون من ذلك ، ولا يجدون فيه نكيرا[٥٩] » .

وكان القاضي الجرجاني ممن قبل المعرب ، وأباح للشاعر المتأخر ان يقتبس ما يحتاج اليه من الفاظ اجنبية ، لا يوجد في العربية ما يقوم مقامها ، او يغني عنها . وقد صرّح برأيه هذا عندما ذكر اعتراض اللغويين على المتنبي بسبب استعماله كلمة (مخشلب) في قوله :

بياض وجه يريك الشمس حالكة ودرّ لفظ يريك الدر مخشلبا

فذهب الجرجاني الى ان العرب استعملت من الفاظ العجم ما كانت تحتاج اليه لعدم مقابل له في الفاظها ، وما لم تحتج اليه لوجود ما يقابله عندها ، واذا كان الامر كذلك : « فليس بمحظور على الشاعر الاقتداء بهم في امثال ذلك اذا احتاج اليه [٦٠] » . ثم قال : « فان كانت اللفظة ـ يعني مخشلب ـ مسموعة عن العرب على ما حكاه ابو الطيب فقد زالت الكلفة ، وان لم تكن محفوظة فما رويناه من امثالها عن العرب والمحدثين يعتذر عنه ، ويقوم بحجته[٦١] » .

ونظرة الجرجاني هذه ذات شأن ، وفائدة كبيرة ، لانه رمى منها الى تنمية اللغة ، وامدادها بما تفتقر اليه من الفاظ .

فمن اوجه اهمية النقد اللغوي ، ومما أسداه الى العربية من فوائد ، أنه اشتمل على نظريات نقدية صائبة ، توخت تنمية العربية ، وسعت الى جعلها مسايرة للحضارة ، ووافية بمطالب الحياة المتجددة ، بما اقرّته تلك النظرات من توسيع القياس ، واحترام لغات القبائل جميعا ، واقتباس ما لا غنى للعربية عنه من الفاظ الامم الاخرى .

---

(٥٩) اللغة العربية في ماضيها وحاضرها : ٩٢ .
(٦٠) الوساطة : ٤٦٢ .
(٦١) نفسه .

ولولا هذه النظرات لما اتسعت العربية ولعجزت عن مسايرة الحياة ؛ بفعل المواقف النقدية الاخرى التي كانت حربا على كل تنمية وتجديد ؛ والتي سنعرض لها في فصل قابل ؛ عندما تتحدث عن النظرات الضارة التي انطوى عليها نقدنا اللغوي ايضا •

٤ ـ رصد بعض الظواهر اللغوية :

ومن فوائد النقد اللغوي رصد بعض الظواهر اللغوية ؛ ونعني بالظواهر ما يبرز في اللغة من خصائص واتجاهات تلفت نظر الناقد ؛ وتسترعي انتباهه • فالمعروف مثلا ان لكل لفظ معنى محددا تواضع الناس عليه ؛ واستعملوا ذلك اللفظ فيه ؛ فاذا عثر الناقد اللغوى على لفظ لم يعرف له معنى ؛ او لم يعرف له اشتقاقا ؛ عدّ ذلك اللفظ من الغريب ؛ او المجهول الذي يستحق ان يذكر • واذا صادف الناقد لفظا لحقه بعض التغيير ؛ اوأريد به معنى غير معناه ؛ استرعى ذلك انتباهه ؛ ووقف عنده •

وهذا يعني ان من فوائد النقد اللغوى رصد ما يعرض لمسيرة اللغة ؛ أو يطرأ عليها ؛ ويبرز فيها ؛ ليشير اليه ؛ ويقدمه لمن يريد ان يدرس اللغة ؛ ويبحث عن خصائصها والسمات المميزة لها ؛ فالناقد ليس دارسا للغة ؛ ولا هو معني بالبحث عن طبيعة الظواهر التي تبرز فيها ؛ والاسباب التي ادت الى بروزها ؛ لان ذلك من شأن عالم اللغة ؛ ولكنه مطالب بالوقوف عند كل ما يرى من ظواهر تند عن المألوف ؛ ليلفت اليها ؛ ويدل عليها • وهو مطالب ايضا ؛ في بعض الحالات ؛ بأن يبدى الرأى في بعض الظواهر ؛ فيقبلها ؛ او ينهى عنها ؛ مستندا في ذلك الى ما تسلح به من ثقافة لغوية ؛ وخبرة واسعة باللغة واساليبها وتاريخها •

وقد فعل النقاد العرب ذلك ؛ واولوه عنايتهم ؛ وسجلوا لنا كل ما وقفوا عليه من ظواهر واتجاهات ؛ استرعت انظارهم ؛ واثارت انتباههم • فكان صنيعهم هذا من أجل فوائد النقد اللغوي ؛ اذ عليه قامت قواعد فقه اللغة ؛ وبه استطاع العلماء ان يرسموا لنا ما دق وجل من سمات العربية وملامحها •

ومن الظواهر التي رصدها النقد اللغوي ما يلي :

١ ـ الغريب :

تقدمنا ان الغريب هو الغامض من المفردات ، وقد استرعى هذا اللون في مرحلة جمع اللغة وتدوينها ، نظر الناقد اللغوي ، فعني بـه ، وحرص على تسجيله ، فكان عمله هذا خدمة جليلة للغة ، لانه حفظ عليها شطرا مهما من مادتها ، التي اوشكت في تلك الحقبة ان تضيع ، لقلة تداولها ، وتجافي الالسن عنها .

وقد بلغ من حرص النقاد على الغريب ، انهم افردوا له الكتب ، وصنفوا فيه المؤلفات[٦٢] . وعنوا بنمط خاص من الالفاظ يمكن ان نعده لاحقا بالغريب ، هو الذي انفرد باستعماله شاعر معين ، ولم يسمع من غيره . ومن الامثلة عليه قولهم : « وقد أتى ابن احمر في شعره باربعة الفاظ لا تعرف في كلام العرب ، سمى النار (ماموسة) ولا يعرف ذلك ، قال :

تطايح الطل عن اعطافها صعدا   كما تطايح عن ماموسة الشرر

وسمى حوار الناقة (بابوسا) ولا يعرف ذلك ، فقال :

حنّت قلوصي الى بابوسها جزعا   فما حنينك ، ام ما أنت والذّكر

وفي بيت آخر يذكر فيه البقرة :

طلٌ وبنّس عنها فرقدٌ خَصِرُ

أي تأخر . ولا يعرف التبنّس . وقال :

وتَقَنّعَ الحرباءُ أُرْنَتَهُ   مُتشاوِساً لوريدِه نَقْرُ

قال : الأرنة : ما لف على الرأس . ولا يعرف ذلك في غير شعره[٦٣] » .

وقولهم عن امية بن ابي الصلت انه كان « ياتي بالفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، ياخذها من الكتب المتقدمة ، وباحاديث من احاديث اهل

---

(٦٢) رواية اللغة : ٩٠ وما بعدها .
(٦٣) الشعر والشعراء : ٢٥٧/١ ، ٢٥٨ .

الكتاب[٦٤] » . ومن تلك الالفاظ تسميته السماء بـ (صاقورة) و (حاقورة) و (برقع) ومنها لفظه (الساهور) في قوله :

قمر وساهور يسلّ ويغمد

« والساهور فيما يذكر اهل الكتاب غلاف القمر يدخل فيه اذا كسف[٦٥] » .

وقالوا عن الاخطل : « جاء الاخطل بكلمة لم يتكلم بها عربي سمّى الذئب (تيانا) ، ولم يسمع الا في شعره[٦٦] » .

فلعناية النقد اللغوي ، في مرحلة مبكرة من مراحله ، بهذا اللون من المفردات ، تهيأ لنا ان نقرر : ان من أجلى فوائده انه حفظ على اللغة جزءا كبيرا من مادتها التاريخية .

ولا يغض من اهتمام النقاد بالغريب ، في مرحلة جمع اللغة وتدوينها ، ما دخل العربية من المختلق ، الذي لم تتكلم به العرب ، بل صنعه الرواة ، حين كانت رواية الغريب ، مجدا يتسابقون الى احرازه . قال ابن سلام عن يونس : « قال لي رؤبة : حتى متى تسألني عن هذه الاباطيل وازوتها لك . اما ترى الشيب قد بلغ في رأسك ولحيتك[٦٧] » . اقول : لا يغض هذا من الاهتمام بالغريب ، لان اللغويين المحققين جهدوا في تمحيص الغريب ، ونفوا عنه المختلق ، والمشكوك فيه .

ولا يغض من اهتمام النقاد بالغريب ، في مرحلة الجمع والتدوين ، ان عددا من الشعراء تعمدوه واستكثروا منه ، ارضاء لاولئك النقاد ، فالمسؤول عن ذلك الشعراء لا النقاد .

---

(٦٤) الشعر والشعراء : ٥٩/١ .
(٦٥) نفسه : ٦٠/١ .
(٦٦) التنبيه على حدوث التصحيف : ١٧٠ .
(٦٧) الشعر والشعراء : ٥٩٥/٢

كما لا يتناقض اهتمام النقاد الاوائل بالغريب ، مع ما كان عليه النقاد المتأخرون من كراهة له ، وحرص على تهذيب اللغة منه ، ذلك لان الاهتمام به في مرحلة الجمع كان حاجة حضارية ، لم يسع النقاد الاوائل اغفالها .

ب ـ النوادر :

النوادر جمع نادر ونادرة . قال صاحب اللسان : « ندر الشيء يندر ندورا سقط وشذ ... ونوادر الكلام ما شذ وخرج من الجمهور[٦٨] » . فالنادر اذن مصطلح يتردد كثيرا في كتب اللغة ومعاجيمها ، ويراد به خلاف الفصيح المألوف ، على الاغلب .

واذا كان الغريب يعني عندهم اللفظ الذي غمضت دلالته ، وخفي معناه، فأن النادر أعم من ذلك ، اى انه يشمل اللفظ الغريب ، والتعبير الغريب ، كما يشمل المفردات التي لا ترجع ندرتها الى غموض معانيها ، ولكن الى خروجها عن المألوف من حيث الهيأة والبنية .

وقد وضع ابن هشام ، فيما نقله السيوطي عنه ، قاعدة لتمييز النادر ، وتعيين مرتبته من الفصاحة فقال : « اعلم انهم يستعملون غالبا وكثيرا ونادرا وقليلا ومطردا . فالمطرد لا يتخلف . والغالب أكثر الاشياء ، ولكنه يتخلف ، والكثير دونه . والقليل دون الكثير . والنادر اقل من القليل . فالعشرون بالنسبة الى ثلاثة وعشرين غالبها ، والخمسة عشر بالنسبة اليها كثير لا غالب ، والثلاثة قليل ، والواحد نادر . فعرف بهذا مراتب ما يقال فيه ذلك[٦٩] » .

وجاء في نوادر ابي مسحل : « ذهب ذهابا وذُهوبا وكسد كسادا وكسودا وفسد فسادا وفسودا .. وصلح صلاحا وصلوحا[٧٠]» . فالمشهور

---

(٦٨) اللسان (ندر) .
(٦٩) المزهر : ٢٣٤/١ .
(٧٠) كتاب النوادر : ٢٢٦/١ .

المستعمل من هذه المصادر هو (ذهاب وكساد وفساد) أما (ذُهُوب وكُسُود وفسود وصُلُوح) فلم يكثر استعمالها ، فسقطت لذلك وعدت من النوادر ٠

وفي الكتاب نفسه : « ويقال ان فلانا لذو شرفة ، وما اعظم شرفته ، يعني شرفه[71] » ٠ فلفظة (شرفة) بمعنى (الشرف) قليلة الاستعمال ، ولم تشهر اشتهار (الشرف) فسقطت لذلك ، ودخلت في النوادر ٠

وفي المزهر : « قال يونس في نوادره : اهل الحجاز : خمس عشرة خفيفة ، لا يحركون الشين ، وتميم تثقل وتكسر الشين ، ومنهم من يفتحها ٠٠ تميم : هيهات واهل الحجاز : أيهات ٠ اهل الحجاز : مِرْية : وتميم مرية (بالضم)[72] » ٠

وفي اللسان : « وتقول في مستقبله : اخال بكسر الالف وهو الافصح ٠ وبنو أسد يقولون : أخال بالفتح وهو القياس ٠ والكسر اكثر استعمالا[73] » ٠

وجميع هذه الامثلة تدلنا على ان المراد بالنادر : « ما قل استعماله في السنة العرب[74] » ٠ فكلما شاع استعمال اللفظة ، كانت اجود وأفصح وكلما قل استعمالها وجفت عنها الالسن ، وعرفتها قلة من الناس ، كانت نادرة ٠

ومن اللغويين من رأى في النوادر أنها الفاظ مخالفة للقياس ، قال ابن السكيت : « وما كان على فعل يفعُل فان مصدره اذا جاء على (مَفْعَل) مفتوح العين ، وكذلك الموضع مفتوح ، نحو قولك : دخل يدخل مَدخَلا وهذا مَدخَلُه وخرج يخرج مَخْرَجا وهذا مَخْرَجه٠ الا أحرفا جاءت نوادر بكسر العين وهي مَفرِق الرأس ، وكان القياس مَفْرَق ومَطْلِع ومَشْرِقه

(71) كتاب النوادر : ١/٢٢٥ ٠
(72) المزهر : ٢/٢٧٥ ، ٢٧٦ ٠
(73) اللسان : (خيل) ٠
(74) كتاب النوادر (مقدمة المحقق) : ٢١ ٠

ومَغْرب ومَسْقِط ومَسْكِن ؛ وقد يقال مَسْكَن ومَنْبِت ومَحْشِر وقد يقال مَحْشَر ومَسْجِد ومَنْسِك ومَجْزِر ، فان هذه جاءت على غير القياس ومنها ما يقال بالفتح ومنها ما لا يُفْتَح (٧٥) .

غير ان تعريف النادر بانه اللفظ المخالف للقياس ، وان اكدته الامثلة الكثيرة المبثوثة في كتب اللغة ، لا يحل لنا مشكلة النوادر ، ولا يعرفها تعريفا تاما : « لاننا نجد كثيرا من الالفاظ جاءت مخالفة للقياس وهي مع ذلك فصيحة مشهورة ، لا تعد من النوادر في حال من الاحوال » (٧٦) .

ولذا لا بد لنا من جعل الاستعمال هو الفيصل بشان النادر وغيره ، فما كثر استعماله ، وتداولته الالسن فهو الفصيح المشهور ، وما هجرته العرب ، ولم تعرفه الا قلة منهم فهو النادر ، سواء أخالف القياس ام وافقه .

فالنوادر اذن مادة لغوية : خالفت السمت العام للغة فاسترعت نظر النقاد، فتتبعوها ، وجهدوا في جمعها ، فحفظوا في عملهم هذا مادة لغوية مهمة ، كانت مهددة بالضياع ، لشذوذها ، وندرتها ، وقلة من يعرفها من الناس .

فاذا استعمل الكميت لفظة (خجل) بمعنى (البطر الاشر) ، استرعى استعماله هذا نظر الناقد اللغوي . قال الكميت :

ولم يَدقَعوا عندما نابَهُم　　لصرفَي زمان ولم يَخْجَلوا

« ورجل خَجِل : اذا كان بَطِرا أشِرا . ورجل دقع اذا كان مستكينا خاشعا ... وحكى الاموي عبدالله بن سعيد في حديث رواه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (النساءُ دَقِعات خَجِلات يستكنّ عند الشدة ، ويَبْطَرن عند الرخاء) » (٧٧) .

---

(٧٥) اصلاح المنطق : ٢١٩ ، ٢٢٠ .

(٧٦) كتاب النوادر (مقدمة المحقق) : ٢٠ .

(٧٧) كتاب النوادر : ١/٥٥ ، ٥٦ .

والخيال مذكر ، فاذا استعمله الشاعر مؤنثا ، لفت ذلك نظر الناقد . قال الشاعر : (٧٨)

الا طرقت خيالة أم كـرز   واصحابي بعيثهم من تبالـه

وجمع شابة وقبة ولصة وحلبة وحاجة على شبائب وقبائب ولصائص وحلائب وحوائج ، جمع نادر غير مألوف (٧٩) ، يستوقف نظر الناقد . قال الشاعر (٨٠) :

عجائز يذكرن شيئا ذاهبا
يخضبن بالحناء شيبا شائبا
يقلن : كنا مرة شبائبا

وظل النقاد يتحرون اللفظ النادر الذي يقل تداوله ، ويعز وقوعه في شعر أو نثر ، الا ان مفهوم اللفظ النادر قد تغير عند بعض النقاد المتأخرين ، فصار يعني ذلك اللفظ الذي يغير الاديب مجال استعماله ، ويضعه موضعا خاصا ، يلفت اليه الانظار . فابن ابي الاصبع يجعل مثل هذا اللفظ نمطا من أنماط (البديع) ، ويسميه (الفرائد) فيقول : « هذا باب مختص بالفصاحة دون البلاغة ، لان مفهومه اتيان المتكلم بلفظة تتنزل من كلامه منزلة الفريدة من حب العقد ، تدل على عظم فصاحته ، وقوة عارضته ، وشدة عربيته ، حتى ان هذه اللفظة لو سقطت من الكلام لعز على الفصحاء غرامتها وهي كقول ابي نواس :

وكأن سعدى إذ تودعنا   وقد اشرأب الدمع أن يكفا

فلفظة (اشرأب من الفرائد التي لا نظير لها في فصيح الكلام ، ولا يقع مثلها الا على سبيل الندور ... وكذلك قول ابي تمام :

وقدما كنت معسول الاماني   ومأدوم القوافي بالسداد

---

(٧٨) كتاب النوادر : ٢٢٤/١ .
(٧٩) نفسه : ٢٣٩/١ .
(٨٠) نفسه : ٢٤٠/١ .

فلفظة (مأدوم) من الفرائد التي لا يقدر على نظيرها ، ولا يعثر على شبيهها . وكقول البحتري في المعتز بالله :

لابس" حلة الوفاء ومن أبهة السيف ان يكون مُحلّى

فقوله (أبّهة) من الفرائد الغريبة في مكانها التي يعجز الفصحاء عن الاتيان بها . وقد جاء في الكتاب العزيز من ذلك غرائب يعز حصرها منها قوله سبحانه وتعالى (فلما استيأسوا منه خَلَصُوا نَجيًا) فالفاظ هذه الجملة كلها فرائد معدومة النظائر »[٨١] .

ان تنقيب النقاد في لغة الادب ، وجعلهم اياها محور عملهم النقدي ، قد أدى الى ان يقفوا على جملة صالحة من الالفاظ والتراكيب : كان بعضها نادر الوقوع في الكلام ، وجمع بعضها الى ذلك مخالفة الشائع والمألوف من قواعد الاستعمال ، فنصوا عليها ، وأودعها بعضهم في كتب خاصة ، فقدموا بذلك مادة لا يستغنى عنها الباحث في اللغة ، أو من يريد ان ينظر اليها نظرة تاريخية .

جـ ـ التطور اللغوي للمفردات :

يرى الدارسون المحدثون ان اللغة كائن حي ، تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته ونموه وتطوره [٨٢] . وهي كأية ظاهرة اجتماعية : « عرضة للتطور المطرد في مختلف عناصرها : اصواتها وقواعدها ومتنها ودلالاتها . وان تطورها هذا لا يجري تبعا للاهواء والمصادفات ، أو وفقا لارادة الافراد ، وانما يخضع في سيره لقوانين جبرية ثابتة ، مطردة النتائج ، واضحة المعالم ، محققة الاثار ، لا يد لاحد على وقف عملها ، او تغيير ما تؤدي اليه . فليس في قدرة الافراد ان يقفوا تطور لغة ما ، أو يجعلوها

(٨١) تحرير التحبير : ٥٧٦ ، ٥٧٧ .
(٨٢) لحن العامة والتطور اللغوي : ٣٠ .

تجمد على وضع خاص او يسيروا بها في سبيل غير السبيل التي رسمتها لها سنن التطور الطبيعي » (٨٣) .

وليست العربية في هذا الشأن بدعا من غيرها من اللغات ، ولذا عرض لها التطور ، فتناول مفرداتها وتراكيبها . ولم تكن لغة الحياة اليومية وحدها هي التي تطورت ، وابتعدت قليلا أو كثيرا عن الفصحى ، وانما ادرك التطور لغة الادب أيضا . ولابد من الاشارة هنا الى ان التطور الذي اصاب لغة الحياة العامة كان كبيرا ولافتا للنظر ، فعني به النقاد اللغويون ، وبذلوا جهودا جبارة في سبيل وقفه ، ومنع فشوه ، والفوا العديد من الكتب التي عرفت بكتب (لحن العامة) ، والتي توخت اصلاح اللغة الدارجة ، والعودة بالالسن الى الاستعمالات الصحيحة والمأثورة . اما لغة الادب فقد ظهرت عليها اعراض التطور ، الا انها لم تبلغ ما بلغته العامية من بعد عن الفصيح ، واخلال تام بقواعد الاستعمال . ولكن النقاد اللغويين لم يتركوا هذا القدر اليسير من التطور يتسرب الى لغة الادب دون تنبيه عليه ، أو تصحيح له .

ومن يتأمل ملاحظات النقاد ، ويرجع الى كتب (لحن العامة والخاصة) يجد ان التطور الذي لحق بعض المفردات لا يعدو ان يكون تغيرا في بعض حروفها ، أو تغيرا في صيغها وأوزانها ، أو تغيرا في دلالاتها . وقد استوقفت الكلمات المتطورة نظر النقاد ، فاهتموا بها ، ونبهوا عليها ، وارشدوا الى اصولها التي تطورت عنها ، لانهم عدوا استعمالها على الوجه الذي آلت اليه لحنا ، او تجافيا عن الفصيح المليح .

فمن الامثلة على الالفاظ التي عرض التطور لبعض اصواتها ما ورد في اصلاح المنطق : « ويقال هم الأسْد أسْدُ شَنُوءَة ، وهي افصح من الازد » (٨٤) . نرى ان الاصل في هذه الكلمة هو النطق الاول ثم تغير (السين) فيها الى (زاي) .

---

(٨٣) اللغة والمجتمع : ٩١ .
(٨٤) اصلاح المنطق : ١٨٥ .

ومن ذلك ما جاء في (أدب الكاتب) في باب (ما جاء بالصاد وهم يقولونه بالسين) : « ونبيذ قارص ولبن قارص ، أي يقرص اللسان ، والبرد قارس والقرّس البرد ، وسمك قريس ... وهي صنجة الميزان ولا يقال (سنجة) وهي اعجمية معربة ، وهو الصاخ ولا يقال (الساخ) وهو الصندوق بالصاد ... ولا يقال بسق الا في الطول ، وقد أصاخ فهو مصيخ اذا استمع ولا يقال : أساخ » (٨٥) .

وسجل الزبيدي في كتابه (لحن العامة) ما سمعه على السنة معاصريه من الفاظ تطورت بعض أصواتها ، فعد ذلك من اللحن الذي يؤاخذ عليه المنشيء . فكلمة (الجُخْدُب) وهي دويّبة تألف المياه ، كان العوام في عصر الزبيدي ، وتبعهم في ذلك بعض الادباء ، ينطقونها (جخطب) بابدال (الدال) (طاء) . قال الزبيدي : « ورد كتاب من بعض الكتّاب كتب فيه الجخطب بالطاء ، فانكرت ذلك فلم يصغ الي حتى عدوت اليه ببعض كتب اللغة فأريته الحرف مقيدا فيه » (٨٦) .

وعني الحريري بهذا النمط من التطور الذي عرض لبعض المفردات فسجل ما كان دائرا على الالسنة والاقلام في عصره من كلمات تطورت بعض حروفها . من ذلك قوله : « ويقولون لما يجمد من فرط البرد قريص بالصاد . فيوهمون فيه كما وهم بعض المحدثين فيما كتب الى صديق له يدعوه :

عندنا قبج مصوص ولنا جدى قريص

والصواب ان يقال فيه قريس لاشتقاقه من القرّس وهو البرد » (٨٧) .

---

(٨٥) ادب الكاتب : ٣٠٠ .

(٨٦) لحن العوام : ٨ وتنظر ص ٥٩ .

(٨٧) درة الغواص : ١١٢ ، ١١٣ . والقبج بقاف مفتوحة وباء موحدة ساكنة نوع من الطير ومصوص طعام من لحم يطبخ وينقع في الخل (شرح الدرة : ٢٣٠) .

وكما عني النقاد اللغويون بالالفاظ التي تطورت بعض اصواتها فسجلوها، كذلك استوقفتهم الالفاظ التي تطورت صيغها واوزانها ، فنبهوا عليها ، وأرشدوا الى المأثور من لفظها . والامثلة على هذا النمط من الالفاظ المتطورة كثيرة يجدها الدارس مبثوثة في كتب النقد اللغوي أو في كتب النقد العامة ، كقول ابن السكيت : « وهذا شيء مصون ولا يقال مصان . وهذا شيء معيب ولا يقال معاب » [(٨٨)] . وقوله « تقول ما له دار ولا عَقار ولا تقل عِقار ... وتقول : هو جَفْن السيف وجَفْن العين ولا تقل : جِفن . وهو الرَصاص ولا تقل الرصاص (بالكسر) » [(٨٨أ)] .

وقول ابن قتيبة : « واعجبت الكتاب ولا يقال : عجبته . وأحبست الفرس في سبيل الله ولا يقال : حبسته . وأغلقت الباب وأقفلته ولا يقال : غلقته ولا قفلته » [(٨٩)] .

وعني الزبيدي بهذا الضرب من المفردات المتطورة ، فسجل في كتابه (لحن العامة) ما وجده منها في شعر ونثر معاصريه ، من ذلك قوله : « ورأيت لبعض متقدمي الكتاب (ايكاف) بالياء ، يعني (أكافا) وذلك مما ذكرناه من ولوعهم بالحاق الياء في هذا المثال »[(٩١)] . ويعني ما كان على وزن (فعال) كلحاف وطراز وشارة قد تطور الى (فيعال) على السنة معاصريه . وقوله : « ويقولون للحديدة التي يقطع بها ويحلق (موس) ويعودون فيجمعونها (أمواسا) حتى قال بعض شعرائهم :

بريت من نجم ومن فلوسه وحلقت لحيته بموسه

قال محمد : والصواب (موسى) تقول : « هذه موسى حديدة » [(٩١)] .

---

(٨٨) اصلاح المنطق : ٣١٩ .
(٨٨أ) نفسه : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٨٩) ادب الكاتب : ٢٨٦ .
(٩٠) لحن العوام : ٧٨ وتنظر ص : ٧٦ .
(٩١) نفسه : ٧٨ ، ٧٩ .

ولم يغفل الحريري النص على ما كان دائرا على ألسنة معاصريه من الفاظ تطورت أوزانها ، من ذلك قوله : « ويقولون : مطرد ومبرد ومبضع ومنجل كما يقولون : مقرعة ومقنعة ومنطقة ومطرقة ، فيفتحون الميم من جميع هذه الاسماء ، وهو من أقبح الاوهام ، وأشنع معايب الكلام ، لان كل ماجاء على (مفعل) و (مفعلة) من الالات المستعملة المتداولة فهو بكسر الميم ، كالاسماء المذكورة ونظائرها » (٩٢) .

واستوقف النقاد ضرب آخر من الالفاظ المتطورة ، وهي الالفاظ التي تغيرت دلالاتها ، فاستعملت لغير ما وضعت له من معان . وقد مرّت بنا في فصل (الخطأ والصواب) امثلة من هذه الالفاظ ، وفي الفصل القابل أمثلة أخـــرى .

فمن فوائد النقد اللغوي انه سجل المفردات المتطورة ، ونبّه على نوع التطور الذي حدث فيها ، فسدّ بذلك نقصا موجودا في المعجمات العربية التي لم تعن بما اصاب المفردات على مرور الزمن من تطور صوتي او دلالي ، وانما سجلت الفاظ اللغة ومعانيها كما استعملها العرب الاوائل ، وظلت هذه المعجمات : « يعتمد المتأخر منها على المتقدم ، ويحاول ان يفسر اللفظ بالمعاني التي كان يستعملها الجاهليون والاسلاميون الاول وحدهم » (٩٣) .

وعلى هذا فكتب (النقد اللغوي) ومباحثه ، ذات فائدة جليلة لمن اراد ان ينظر في العربية نظرة تاريخية ، ويسجل مراحل تطورها ، ويقف على ما اعتور مفرداتها من تغير في الصيغة والمدلول . اما المعجمات وكتب اللغة فلا تغني عن كتب النقد اللغوي ومباحثه في هذا الوجه من وجوه البحث لان « كتب اللغة لا تشير الى اللفظة المفردة وطرائق استعمالها عبر العصور » (٩٤).

---

(٩٢) درة الغواص : ٩٧ .
(٩٣) المعجم العربي : ١/١١٤ .
(٩٤) مباحث لغوية : ٩١ .

ولكن ، ان كان النقاد اللغويون قد أفادوا البحث اللغوي التاريخي بتسجيلهم المفردات المتطورة ، فانهم قد كدّروا هذا الصنيع بحكمهم على تلك الكلمات بالخطأ ، دون مراعاة لسبب التطور ونوعه ، ودون تفريق بين ما كان منه خطأ وانحرافا عن قوانين اللغة وطبيعتها ، وبين ما كان جاريا على تلك الطبيعة ، وموافقا لتلك القوانين [٩٥] .

د ـ المعرب والدخيل :

ومن الظواهر اللغوية التي يرجع الى النقد اللغوي فضل تشخيصها والتنبيه عليها ، ظاهرة المعرب والدخيل . وقد مرّ بنا فرق ما بينهما [٩٦] . فاذ يقوم الناقد اللغوي بفحص الاساليب ، وترداد النظر في لغة النصوص ، تلفته الكلمات الدخيلة او المعربة ، فيقف عندها ، وينبه عليها . وذاك من فوائد النقد اللغوي ، لانه يقدم للباحث في تاريخ اللغة مادة مهمة ، وعونا أكيدا .

لقد قام النقاد واللغويون ، منذ وقت مبكر ، بتشخيص الدخيل ، وميزه من الاصيل ، وظلوا يقومون بذلك في مختلف العصور ، بحكم صلتهم بالادب وعلاقتهم الوثيقة بما يبدع منه . والشواهد على اهتمامهم بالدخيل وعنايتهم بحصره وتمييزه ، كثيرة حفلت بها كتب النقد واللغة .

هـ ـ المولد :

وهو ظاهرة لغوية أخرى ، كان للنقد اللغوي فضل كشفها ، والتنبيه عليها . والمولد : « هو ما أحدثه المولدون الذين لا يحتج بالفاظهم » [٩٧] . وقد دأب النقاد واللغويون على تسجيل المولد ، والنص عليه . من ذلك أن الاصمعي كان يقول : « التحرير ليس من كلام العرب ، وهي كلمة

---

(٩٥) تنظر ص٣٩٤ من هذه الرسالة .
(٩٦) تنظر ص٢٤٠ من هذه الرسالة .
(٩٧) المزهر : ١/٣٠٤ .

مولدة » [٩٨] . وقال ابن دريد : « تسميتهم الانثى من الترود منة مولد »[٩٩]
وقال القاضي الجرجاني معقبا على قول ابي تمام :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسر

« على أن لفظة يتكسر حضرية مولدة » [١٠٠] .

ولنص النقاد واللغويين على المولد قيمة كبيرة لانهم حفظوا لنا بعملهم هذا جانبا مهما من جوانب التطور التاريخي للغة : « فلولا هذا الاهتمام بتسجيل المولد ، والنص على الناطق لشاع تحديد معالم هذا التطور في خضم المفردات اللغوية الكثيرة ، ولاصبحت هذه المولدات جزءا من اللغة القديمة ، وخسر الباحث في التطور اللغوي معالم مهمة في هذا الميدان » [١٠١] .

٥ ـ تصحيح الخطأ :

اهتم النقد اللغوي بأخطاء المنشئين ، وهدف الى تصحيحها ، فكان ذلك من الفوائد الجليلة التي أسداها للعربية من جانب ، وللناطقين بها من جانب آخر . فالمنشيء ، لهذا العامل او ذاك ، قد يقع في الخطأ وقد يخرج بتعبيره عن الصيغة المقبولة ، فاذا لم يجد من يصحح خطأه ، ويرشده الى الصواب ، تكرر منه ذلك ، وربما قلده فيه غيره . وكلما كان المنشيء عظيما ، او ذا منزلة مرموقة في عصره ، كانت مراقبة لغته ألزم ، لان أخطاءه المنطوقة او المكتوبة ، قد تنتقل الى غيره ، ممن لا علم له باللغة ، او ممن يعتقد في ذلك المنشيء الاحاطة باللغة ، والوقوف على ما لم يقف عليه غيره من وجوه الاستعمال فيها . وليس الاديب الكبير وحده هو الذي يخشى ان تنتقل اخطاؤه ، وتسير ، ويقع فيها المعجبون به ، بل ان اصحاب النفوذ السياسي والاجتماعي أيضا ، تنتقل اخطاؤهم اللغوية ، الى جماهيرهم ، ومؤيدي

---

(٩٨) المزهر : ١/٣٠٤ .
(٩٩) نفسه : ١/٣٠٥ .
(١٠٠) الوساطة : ٣٦ .
(١٠١) الاضداد في اللغة : ٣٩ .

مواقفهم ؛ فتسير تلك الاخطاء ، وربما تؤثر في اللغة ، ان لم تجد من ينبه عليها ، ويمنع تفشيها .

وقد فطن الدرس اللغوي الحديث الى هذه الحقيقة ؛ فدعا الى ضرورة تنقية لغة المشهورين واصحاب النفوذ من كل خطأ او انحراف ؛ لئلا تنتقل اخطاؤهم الى الاخرين . قال تمام حسان : « ان اللغة مما يتعلمه الناس بالمحاكاة، والناس مولعون بالتقليد ، ولا سيما تقليد ذي النفوذ او الهيبة او السلطان . واذا علمنا ان الاجنبي الفاتح قد يترك شيئا من عاداته النطقية في لغة البلد المفتوح ، كما فعل الاتراك في (الظاء) العربية ، استطعنا ان نقدر خطر العيب النطقي الذي يوجد في صاحب النفوذ على تطور اللغة » [١٠٢] .

واذا قلنا ، ان مراقبة لغة المشهورين ضرورة ، لمكانهم من الحياة الادبية، ولكثرة قرائهم ، فاننا لا نعني ان يترك الناقد اللغوي لغة غير المشهورين ، أو لغة المبتدئين ، لان تقويم هؤلاء ، وتبصيرهم بمواقع زللهم ، يدفعهم الى استكمال اداتهم اللغوية ، ويجعلهم يتهيبون النشر السريع لاعمالهم .

فنقد لغة المبتديء ، والتنبيه على ما فيها من اوهام ، قد يدفعه الى ان يعيد النظر في ثقافته اللغوية ، ويسعى الى ان ينال اوفى نصيب منها . وليس ببعيد عنا ما حدث للكسائي الذي كان سبب تخصصه في اللغة ، ذلك الخطأ اللغوي الذي أخذه عليه بعض جلسائه . روى الفراء ان الكسائي انما تعلم النحو على الكبر : « وكان سبب تعلمه انه جاء يوما وقد مشى حتى اعيى ، فجلس الى قوم فيهم فضل ، وكان يجالسهم كثيرا فقال : قد عييت ، فقالوا له : اتجالسنا وانت تلحن . فقال : كيف لحنت ! فقالوا له : ان كنت اردت من التعب فقل : أعييت . وان كنت اردت من انقطاع الحيلة والتحير في الامر فقل : عييت مخففة . فأنف من هذه الكلمة وقام من فوره نسال عن يعلم النحو » [١٠٣] .

---

(١٠٢) ينظر : اللغة بين المعيارية والوصفية : ٨٥ ، ٨٦ .
(١٠٣) نزهة الالباء : ٥٩ .

فالنقد يحمل المبتديء على اعادة النظر في بنائه الثقافي ويجعله يستصعب من الامر ما استسهل ، ويلقى في روعه ان الطريق مأخوذة عليه ، محفوفة بمن يراقب خطوه ، ويحصي أخطاءه • فلتصحيح الخطأ ، ومنع سيرورته فائدة كبيرة ، لا يمكن تجاهلها عند الكلام على فوائد النقد اللغوي •

لقد شغل النقاد العرب باخطاء المنشئين ، وهدفوا الى تقويمها ، والارشاد الى وجه الصواب فيها • ولكن ماذا كان موقف المنشئين من هذا التصحيح ؟ أكانوا راضين عنه ، آخذين به ؟ أم كانوا كارهين له ، ساخطين عليه ؟

لم يكن المنشئون سواء من حيث قبول التصحيح ، والاستجابة للتنبيه على الخطأ • فبعضهم كان يأخذ بالتصحيح ، ويقر النقاد عليه ، ويغير كلامه فيجعله متفقا مع قواعد اللغة ، وقوانين استعمالها ، بل ان من هذا الفريق من كان لا ينقح شعره ، ولا يعيد النظر فيه ، اعتمادا على تنقيح النقاد له ، وتهذيبهم اياه من الخطأ • قال ابن مقبل : « اني لارسل البيوت عوجا فتأتي الرواة بها قد أقامتها » [١٠٤] • وبعضهم كان يتأبى على النقاد ، ويأنف من ان يأخذ بملاحظاتهم • والفرزدق وبشار اوضح مثال لهذا الفريق من المنشئين • فالفرزدق كان يأبى الاخذ بتصحيح ابن ابي اسحاق الحضرمي ، ويطالبه بأن يجد لاخطائه تأويلا او تخريجا • وبشار ـ كالفرزدق ـ كان يقسو على ناقديه ، ويقع في اعراضهم ، فحين بلغه ان سيبويه يستضعف لغته ، ويمتنع من الاحتجاج بشعره ، هجاه قائلا [١٠٥] :

أسيبوه يا ابن الفارسية ما الذي	تحدثت من شتمي وما كنت تنبذ
أظلت تغنّى سادرا بمساءتي	وامك بالمصرين تعطي وتأخذ

واذا كنا نستطيع ان نلتمس للفرزدق وبشار ، ومن كان في منبتهما أو في منزلتهما ، بعض العذر في التأبي على النقاد ، وعدم الاخذ بتصويباتهم ،

---

(١٠٤) مجالس ثعلب : ٤٨١ •
(١٠٥) الموشح : ٣٨٥ •

لما كانوا يستشعرونه من احاطة باللغة ، وعلم تام بوجوه استعمالها ، فاننا لا نعذر الشعراء المتأخرين الذين لم يكن لهم من العلم باللغة ما يسمح لهم بالاستهانة بتصويبات النقاد ، او الترفع عن الاخذ بها . وقد شكا ابن رشيق من امثال هؤلاء الشعراء ، وقال : ان احدهم اذا : « عورض في شعره بسؤال عن معنى فاسد أو متهم ، أو طولب بحجة في لحنة او شاذ ، أو نوظر في كلمة من الفاظ العرب مصحفة او نادرة قال : هكذا اعرف ، وكأنما أعطي جوامع الكلم ، حاش لله ، واستغفر الله ، بل هو العمى الاكبر ، والموت الاصغر ، وبأي امام يرضى ، أو الى أي كتاب يرجع ، وعنده ان الناس اجمعين بشمة منه ، بل فضلة عنه ... » [106] .

وكان جزاء هذا الفريق المغرور من الادباء ان يضرب ابن رشيق عن قراءتهم ونقدهم ، والتنبيه على اخطائهم وزلاتهم ، حرصا منه على الا يخلد لهم ذكر في كتابه . قال : « وكم في بلدنا هذا من الحفاث [107] قد صاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين ، ان البغاث بأرضنا يستنسر ، ولولا ان يعرفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم في هذا الكتاب ، ويدخلوا في جملة من يعد خطله ، ويحصى زلله ، لذكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيفه ، وفساد معانيه ، وركاكة لفظه ، ما يدلك على مرتبته من هذه الصناعة ، التي ادعوها باطلا ، واتسبوا اليها انتحالا » [108] .

وواضح من الموقف الذي اتخذه ابن رشيق من هؤلاء الادباء المغرورين فيه انفعال وقسوة لا تتفق ومهمة الناقد ، وهي مهمة تملي عليه ان يقول كلمته في النصوص الادبية ، ولا يهمه بعد ذلك ما يترتب على تلك الكلمة من اعراض عنها ، ونفور منها ، أو اذعان لها ، وتسليم بها .

وبعد ان شكا ابن رشيق من عدد من شعراء عصره ، لعدم استجابتهم للنقد ، وعزوفهم عن الاخذ بالتصحيح ، عاد فدعا المنشئين الى ان يضعوا في

---

(١٠٦) العمدة : ٢/٢٢٩ .
(١٠٧) حية تنفخ ولا تؤذي .
(١٠٨) العمدة : ٢/٢٢٩ .

تتوسهم ان العصمة من الخطأ ممتنعة ، وان المنشيء مهما بلغ من العلم باللغة ، عرضة لان يزل فيها ، وما عليه الا ان يرجع عن الخطأ ، ويأخذ بالتصحيح ... قال ابن رشيق : « ولابد ان يؤتى على الشاعر المفلق ، والعالم المتقن ، لما بني عليه الانسان من النقص والتقصير ، وخير ما في ذلك ان يرجع المرء الى الحق اذا سمعه ، ولا يتمادى على الباطل لجاجة ، وأنفة من الخطأ ، فان تماديه زيادة في الخطأ الذي أنف منه » (١٠٩) .

واذا كان غرور بعض المنشئين ، أو حسن ظنهم بثقافتهم اللغوية ، هو الذي منعهم من الاخذ بملاحظات النقاد ، فان الخجل كان يمنع بعضهم من الاسترشاد بالنقاد ، أو سؤالهم عما يشكل عليه من مسائل اللغة . قال علي ابن محمد العلوي الكوفي ، وهو شاعر عباسي : « ربما جاءني المعنى المليح في اللفظ الخشن فاشك في لغته ، وفي اعرابه ، فاعدل عنه ، ولا أسأل عن ذلك من يعلمه كراهة ان اسأل بعد ما كبرت ، وتركي لعلم ذلك حدثا » (١١٠) .

فلمنع الخطأ ، أو التنبيه عليه ، فائدة كبرى ، لان الخطأ اذا ترك قد يعم ويفشو ، ثم يؤثر في حياة اللغة . كما ان المحاسبة على الخطأ ، تحفز المنشيء الى استكمال اداته اللغوية ، وتجعله يحرص على تهذيب عمله ، وتنقيته ، قبل نشره واذاعته .

٦ ـ الارشاد الى الحسن والاحسن :

بعد ان يطمئن الناقد اللغوي الى سلامة التركيب ، وموافقته لقوانين اللغة ، وقواعد استعمالها ، يأخذ في النظر الى النص مرة ثانية ، وعلى هدي آخر ، فيستعين بذوقه ، وخبرته الواسعة بالاساليب ، بعد ان كان قد اعتمد على ما عرفه من قواعد اللغة ، ووعاه من اصولها واحكامها . واذا كانت النظرة الاولى للنص تسفر عن الحكم بالخطأ والصواب ، فان النظرة الثانية تؤدي الى الحكم بالجودة او الرداءة ، والاستحسان او الاستهجان . وكما ان الناقد

---

(١٠٩) العمدة : ٢/٢٤٥ .
(١١٠) الموشح : ٥٢٩ .

اللغوي ، لا يكتفي بالحكم بالخطأ ، بل يرشد الى الصحيح الذي يجب أن يجري عليه الاستعمال ، فانه لا يقتصر احيانا على بيان الرديء او المستهجن ، بل قد يضع امام المنشيء ما هو احسن وارفع ، وأقطع لالسنة العائبين .

وقد مرّ بنا في الباب السابق (١١١) كيف ان المنشيء قد يستعمل احيانا اللفظ المعيب لغرابته وشذوذه ، أو لقبح ايحائه أو عدم موافقته ما يجاوره من الفاظ ، أو ما يعبر عنه من موضوع ، أو لغير هذه العوامل ، كما فصلناه ، فيأتي الناقد ليبصره برداءة لفظه ، والوجه الذي يعاب منه ذلك اللفظ وقد يكتفي بهذا ، تاركا للمنشيء أمر تبديل اللفظ ، والبحث عن غيره ، وقد يرشده الى اللفظ الامثل . وكما يقف الناقد اللغوي عند اللفظ المعيب ، كذلك يقف عند التركيب المستهجن ، فيبصر المنشيء بسبب استهجانه ، ثم يكتفي بذلك ، أو يقترح عليه ما هو أولى بالاستعمال ، فيشارك في الخلق الادبي ويسهم في انضاج العمل الفني ، ويجعله مستكملا ابعاده ، ومصيبا ما اراد المنشيء اصابته فلم يصبه ، أو رغب في الظفر به ، فحام حوله ، ولم يقع عليه . وأفصح أبو نواس عما يعرض للمنشيء احيانا من ذهاب عن الاحسن وعدم بصر بالملائم أو الموافق حين انشد قصيدته في الخصيب ، أمام الرشيد ، فلما بلغ قوله :

فان يك باقي افك فرعون فيكم فان عصا موسى بكف خصيب

قال الرشيد : « الا قلت : فباقي عصا موسى بكف خصيب . فقال له : هذا أحسن ، ولم يقع لي » (١١٢) .

ومن التكرار الذي لا غناء فيه ان نضرب الامثلة على الجهد الكبير الذي قام به النقاد اللغويون في تعقب الفاظ المنشئين وتراكيبهم ، وبيان ما فيها من جيد مستملح ، وارشادهم احيانا الى اللفظ الموافق ، أو التعبير الحسن .

---

(١١١) تنظر ص١٩٣ من هذه الرسالة .
(١١٢) الموشح : ٤٢٦ .

٧ ـ الدفاع عن المنشيء :

وقد يظلم المنشيء فيرمى بالخطأ ، أو يوصف كلامه بالرداءة ، فكان الناقد اللغوي يقف معه ، لينفي عنه الخطأ ، أو يثبت لكلامه صفة الجودة . ولابد من الاشارة الى أن هناك ضربا من الدفاع لم يرد به احقاق حق ، أو أزهاق باطل ، وانما اريد به اسناد الباطل ، وتسويغ الخطأ الصريح ، وهذا الضرب من الدفاع لا يعنينا هنا ، ونحن نتحدث عن اهمية النقد اللغوي وفوائده ، وسنخصه بوقفة اخرى عند الكلام على عيوب النقد اللغوي واضراره . وبروز ظاهرة الدفاع عن المنشئين يعود الى أمور :

ا ـ التعجل في الحكم بالخطا او الرداءة :

من أظهر خصائص العربية سعتها ، أي تعدد لهجاتها ، وتنوع اساليب التعبير بها ، الامر الذي جعل اللغويين يعجزون عن الاحاطة : « بكل الكنز اللفظي الحي الذي كان مستعملا اذ ذاك في عالم البادية » [١١٣] . فأبو عبيدة مثلا جهل الكلمات التي وصفت بها ام الهيثم الاعرابية مرضها فسألته عما اذا كان للناس لغتان يتفاهمون بهما [١١٤] . وابن الاعرابي « اكدى بصورة مزرية حينما طلب اليه ان يشرح كلمات غريبة في شعر الطرماح » [١١٥] .

واذا كانت العربية على هذه الحال من السعة ، وصعوبة الاحاطة بالمستعمل من مفرداتها وتراكيبها ، فقد كان المفروض في النقاد اللغويين ان يتثبتوا من (شرعية) الاستعمال ، وروده ، قبل ان يحكموا عليه بالخطأ او الرداءة . ولكن الذي حدث غير هذا ، فقد كان بعض النقاد يتعجلون ، فيرمون هذا المنشيء أو ذاك بالخطأ ، ويصفون هذا الاستعمال او ذاك بالرداءة . ولو انهم انعموا النظر ، وأمعنوا في الاستقصاء ، لوجدوا في كلام العرب ، وفي الرفيع منه احيانا ، ما يسند الاستعمال الذي خطأوه ، أو استهجنوه . وقد أشار الجرجاني الى سعة العربية ، ودعا الى ضرورة التريث في الحكم على

---

(١١٣) العربية : ٨٨ .
(١١٤) ذيل الامالي : ٦٦ .
(١١٥) العربية : ٨٨ .

المنشيء بمخالفة اللغة ، فقال : « ولم استحسن ما يتسرع اليه اصحابنا من التصريح بمخالفة اللغة » [116] .

وازاء تعجل النقاد ، واصدارهم احكاما سريعة ، كان لابد من الدفاع عن المنشئين ، وقد تولى المنشئون انفسهم هذا الدفاع احيانا ، كما تولاه عنهم غيرهم احيانا .

ومن الامثلة على تخطئة بعض الاستعمالات ، من غير تتبع لكلام العرب، واستقصاء للرفيع من اساليبهم ، ما ذهب اليه البصريون ـ على ما رواه ابو حاتم عنهم ـ من ان (الاخوان) تطلق على الاصدقاء ، و (الاخوة) تقال لمن كانوا لاب واحد . لم يحمل البصريين على هذا القول الا تعجلهم في الحكم، وتقصيرهم الشديد في الاستقصاء ، وقد احتاج هذا الحكم الى من ينقضه ، ويدافع عن المنشئين الذين يستعملون (الاخوة) او (الاخوان) على غير الوجه الذي قرره البصريون . وكان ذلك المدافع هو ابو حاتم السجستاني نفسه ، فقال : « وهذا غلط ، يقال للاصدقاء وغير الاصدقاء اخوة واخوان . قال الله عز وجل (انما المؤمنون اخوة) ولم يعن النسب . وقال (او بيوت اخوانكم) وهذا في النسب ، وقال (فاخوانكم في الدين ومواليكم) »[117] .

ومن ذلك ان ابن عمار وغيره لحنوا البحتري في كلمة (الاغراض) التي وردت في قوله :

بُدلت عبرة مـن الايماض   يوم شدوا الرحال بالاغراض

قالوا : الاغراض جمع غَرْض وفَعْل لا يجمع على أفعال »[118] ، فرد عليهم الامدي قائلا « انما سمعوا بقولهم : فرخ وأفراخ وفَرد وافراد وشَكْل وأشكال وجَفْن وأجفان وعَشْر واعشار وزند وازناد » [119] .

---

(116) الوساطة : 81 .
(117) اللسان : (اخ) .
(118) الموازنة : 2/7 والاغراض : جمع غرض وهو للبعير مثل الحزام للفرس.
(119) الموازنة : 2/7 .

ومن ذلك انكارهم قول القائل :

فالغيث ابخـــل من ســـعى

لانهم ذهبوا الى ان (من) لا تقع الا على عاقل ، والغيث ليس مـــن العقلاء . فاستحق الشاعر أن يدافع عنه ، وكان القاضي الجرجاني ذلـك المدافع ، قال : « وهذا الاعتراض يدل على تقصير شديد في العلم بكلام العرب ، لان العرب اذا وصفت الشيء بصفة غيره ، استعارت له الفاظه ، واجرته في العبارة مجراه ، وان كان لو انفرد ، انفرد عنه بصفته ، وتميز دونه بعبارته . فمن ذلك قول الله تعالى : (والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) لمّا وصفهما بالسجود جمعهما بالياء والنون ، ولا يجمع بهما الا جنس من يعقل او ما خرج عن بابه لعلل مذكورة في مواضعها ، لكنه لما اجرى على الكواكب صفة من يعقل ألحقها في العبارة بهم ... فاذا جعل الغيث بخيلا أو جوادا ، ووجد العرب قد اجازت وتكلمت به ، جاز له الحاقه بالبخلاء والاجواد في استعمال العبارة ، فكأنه قال : الغيث ابخل السعاة ، ولو قال ذلك لم ينكره منكر ، وان كان هذا السعي ابتناء المعالي لا الســـعي على الاقدام . وقد انشدني بعض من اثق به لبعض العرب :

متى نوهت في الهيجـاء باسمي اتاك السيف أول من يجيب

لما جعل السيف مجيبا له الحقه بمن تصح منه الاجابة من العقلاء» [١٢٠].

وكما تعجل بعض النقاد فحكموا بالخطأ ، تعجل آخرون فحكموا بالرداءة ، ولو انهم استقصوا اساليب العرب ، لظهر لهم ان ما عابوه ، جاء موافقا لاساليب واستعمالات رفيعة ، لامطعن فيها لطاعن . ولم يدع النقـــاد اللغويون ، والمنشئون انفسهم في بعض الحالات ، تلك الاستعمالات موصومة بالرداءة ، بل دافعوا عنها ، واثبتوا لها ما نفي عنها من حسن او جودة ، وذلك

(١٢٠) الوساطة : ٤٣٩ ، ٤٤٠ .

بتذكير عائبيها بما يشبهها من اساليب ، وردت في القرآن الكريم ، وفي كلام العرب الفصحاء .

ومن الامثلة على ذلك ما رواه عبدالصمد بن المعذل ، فقال : « قدم علينا ذو الرمة الكوفة ، فوقف راحلته بالكناسة ، ينشدنا قصيدته الحائية ، فلما بلغ الى هذا البيت :

اذا غير النأى المحبين لم يكــد   رسيس الهوى من حب ميّة يبرح

فقال له ابن شبرمة : ياذا الرمة اراه قد برح . ففكر ساعة ثم قال :

اذا غير النأي المحبين لم أجــد   رسيس الهوى من حب مية يبرح

قال : فرجعت الى ابي الحكم بن البختري بن المختار فأخبرته الخبر ، فقال : أخطأ ابن شبرمة حيث انكر عليه ، واخطأ ذو الرمة حيث رجع الى قوله : انما هذا كقول الله عز وجل (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا اخرج يده لم يكد يراها) أي لم يرها ولم يكد » [١٢١] .

وسمع ابو عمرو بن العلاء رجلا من أهل المدينة ينشد قول ابن قيس الرقيـــات :

ان الحــوادث بالمدينـــة قــد   أوجعنني وقرعــن مــروتيــه

« فانتهره ابو عمرو ، فقال : مالنا ولهذا الشعر الرخو ! ان هذه الهاء لم توجد في شيء من الكلام الا ارخته . فقال له المدني : قاتلك الله ! ما أجهلك بكلام العرب ! قال الله عز وجل في كتابه : (ما أغنى عني ما ليه . هلك عني سلطانيه) وقال : (يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم ادر ما حسابيه) فانكــر ابو عمرو انكسارا شديدا » [١٢٢] .

(١٢١) الموشح : ٢٨٢ .
(١٢٢) الخصائص : ٢/٢٩٢ .

وروى أيضا ان الرقيات نفسه أنشد عبدالملك هذا الشعر ، فقال له عبدالملك « احسنت لولا انك خنثت في قوافيه . فقال : ما عدوت كتاب الله : (ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه) » (١٢٣) . فقال له عبدالملك: « انت في هذه أشعر منك في شعرك » (١٢٤) .

ب ـ اختلاف النظرة الى لغات القبائل :

كانت بعض القبائل مقدمة على بعض في سلّم الفصاحة عند عدد من النقاد واللغويين ، فحكموا بالخطأ على بعض الاستعمالات ، مع علمهم بأنها مما تكلمت به بعض العرب ، وذلك لاستيحاشهم منها ، وعدم ثقتهم بفصاحة من تكلم بها ، فضيق هؤلاء النقاد من دائرة الفصاحة ، وجعلوها مقصورة على عدد من القبائل لا تعدو الست ، واما القبائل الاخرى التي كانت تموج بها شبه الجزيرة ، فلم تحظ بأن يدخل لغة الادب شيء من اساليبها واستعمالاتها . لقد دهش كثير يوما وهو في مجلس عبدالعزيز بن مروان ، حين قال له بعض جلسائه : لحنت . فقال كثير : في أي شيء ؟ قال : في قولك :

لا أنزر النائل الخليل اذا ما اعتل نزر الظئور لم ترم

وانما هو ترأم . فقال له : اسكت ، هكذا كلام قومي (١٢٥) .

وازاء هذه النظرة المتشددة ، كان لابد ان ينهض بعض النقاد ، ليدافعوا عن المنشئين ، الذين كانوا يجارون في اقاويلهم قبائلهم ، أو غيرها من القبائل التي اريد لها ان تبقى خارج دائرة الفصاحة . وقد كثرت امثلة هذا الدفاع في كتب النقد واللغة . وحظي المتنبي بشيء كثير منه ، لان خصومه حكموا على كثير من استعمالاته بالخطأ ، لا لشيء الا لانها تساير استعمالات القبائل

(١٢٣) الشعر والشعراء : ١/٥٤٠ .
(١٢٤) الخصائص : ٢/٢٩٣ .
(١٢٥) الموشح : ١٤٦ ط . جمعية نشر الكتب العربية .

التي ارتاب البصريون بفصاحتها ، ولم يروا ان يجارى لها كلام . وقد مر بنا دفاع القاضي الجرجاني عن المتنبي [١٢٦] .

ج ـ التصحيف والتحريف :

ومما احوج النقاد الى الدفاع عن المنشئين ظاهرة التصحيف والتحريف ، التي لحقت بكثير من النصوص ، فافسدت مواضع منها . وكانت هذه الظاهرة سببا في كثير من الاحكام الجائرة التي نزلت بالمنشئين . غير ان النقاد لم يتركوا تلك النصوص موصومة بالخطأ أو الرداءة ، بل عملوا على تنقيتها من التصحيف والتحريف ، والعودة بها الى الصورة التي تركها اصحابها عليها، وهي صورة مشرقة ، لا سبيل الى القدح فيها ، أو الطعن عليها .

والامثلة على ذلك كثيرة ، وقد مر بنا بعضها في فصل (الرواية) [١٢٧]، ومنها قول الشاعر :

زوجك يا ذات الثنايا الغر　　الربلات والجبين الحر

الذي : « يرويه المصحفون والاخذون عن الدفاتر (الربلات) ، وما الربلات من الثنايا والجبين ؟ وهي أصول الفخذين . يقال : رجل أربل اذا كان عظيم الربلتين اي عظيم الفخذين . وانما هي الرتلات بالتاء ، يقال : ثغر رتل اذا كان مفلجا » [١٢٨] . ولو ان البيت ترك مصحفاً ، لشاهت الحقيقة الادبية ، وللحق المنشيء حيف ورمي بخطأ لم تكن له يد فيه .

ومن الامثلة على التحريف قول الحريري : « ولم يسمع في كلام بليغ ولا شعر فصيح تعدية (عيّرته) بالباء ، فاما من روى بيت المقنع الكندي :

يعيرني بالدين قومي وانما　　تدينت في اشياء تكسبهم حمدا

---

(١٢٦) تنظر ص١١٨ ، ١١٩ من هذه الرسالة .
(١٢٧) تنظر ص٣٥ من هذه الرسالة .
(١٢٨) الشعر والشعراء : ٨٤/١ .

فهو تحريف من الراوي في الرواية الصحيحة : يعـــاتبني في الدين قومي » [129] .

د ـ جهل بعض النقاد بمراد الشاعر :

وقد يجهل الناقد احيانا ما قصد اليه الشاعر ، فيحكم عليه بالخطـأ ، ويرميه بمخالفة اللغة ، فيكون حكمه جائرا ، وتكون بالشاعر حاجة الى من ينتصف له ، ويدفع الظلم عنه ، وقد يتولى الشاعر نفسه الدفاع عن استعماله ، وايضاح ما رمى اليه ، وقد يتصدى لذلك ناقد آخر ، يكون ابصر بمرامي الشعر ، واعرف بدلائل الالفاظ . فحين سمع ابن ابي اسحاق قول الفرزدق :

وعينان قال الله كونـا فكانتـــا فعولان بالالباب ما تفعل الخمر

قال للفرزدق : « ما كان عليك لو قلت : فعولين . فقال الفـــرزدق : لو شئت ان تسبّح لسبّحت ونهض فلم يعرف أحد في المجلس ما أراد بقوله : لو شئت ان تسبّح لسبّحت ، أي لو نصب لأخبر ان الله خلقهما ، وأمرهما ان تفعلا ذلك ، وانما اراد انهما تفعلان بالالباب ما تفعل الخمر . قال ابو الفتح: (كان) هنا تامة ، غير محتاجة الى الخبر ، فكأنه قال : وعينان قال الله احدثا فحدثتا ، او اخرجا الى الوجود فخرجتا » [130] . وقال ابو تمام :

مها الـوحش الا ان هاتا أوانـس قنا الخط الا ان تلـك ذوابـل

فجهل الامدي مراد ابي تمام . وزعم انه : « نفى عن النساء لـين القدود » [131] . ومما جعل الامدي يسيء فهم قول الشاعر اعتقاده ان الرماح سميت ذوابل للينها وتثنيها . وقد رد بعض النقاد على الامدي ، وانصفوا ابا تمام منه . قال ابن رشيق ـ فيما نقله عن شيخه عبدالكريم ـ : « اما ابو تمام فقوله الصواب ، لانهم يقولون : رمح ذابل ، اذا كان شديد الكعوب صلبا ، وهو الذي تعرف العرب ، ومنه قوله ذبلت شفتاه اذا يبستا من الكـرب ،

---

(129) درة الغواص : ٧٧ .
(130) الخصائص : ٣/٢٠٢ .
(131) تحرير التحبير : ٣٦٩ .

والعطش او نحوهما »[١٣٢] . وقال ابن ابي الاصبع : « وقد غلط الآمدي في تغليط ابي تمام في هذا البيت ، حيث زعم انه نفى عن القناة لين القدود ، معتقدا ان الرماح سميت ذوابل للينها ، والمعروف عند أهل اللسان ضد ذلك ، لان العرب تقول : رمح ذابل اذا كان صلب الكعوب ، ومن ذلك قولهم : ذبلت شفتاه اذا يبستا ، ولا تعرف العرب الذابل الا اليابس الذي جفت رطوبته ، ومن ذلك قولهم : نوارة ذابلة اذا جف ماؤها واخذت في اليبس . وابو تمام لا يشك أحد انه ابصر من الامدي باللغة ، وأقعر منه بمعرفة اللسان العربي » [١٣٣] .

وقال المتنبي :

كأنك ناظر في كل قلب فما يخفى عليك محل غاش

ومعنى البيت ان الممدوح ذكي ، يعرف قلوب الناس ، ولا يخفى عليه شأن من يقصده ويغشاه . ولكن الصاحب بن عباد اساء فهم كلمة (غاش) وظنها من (الغش) فقال : « ومن مجازاته التي خلقها متفاوتا ، تخفيفه (الغاش) ، وهذا ما لا أعلم سامعا باسم الادب يسوغه ، أو يفسح فيه ، ويجوزه ... فأن جاز هذا جاز ان يقال : عباس بن عبدالمطلب ، وشماخ ابن ضرار ، فلا تشدد الميم ولا الباء . على ان ما أورده اشنع من هذا الذي مثلنا به ، اذ كان لفظ فاعل بني على فاعل مشددا » [١٣٤] .

وقد دافع ابن فورجة عن المتنبي ، ورد على الصاحب بن عباد ، موضحا الوهم الذي وقع فيه ، فقال معلقا على بيت المتنبي السابق : « هذا البيت فضح الصاحب ابو القاسم به نفسه ، في رسالته التي ذم بها ابا الطيب »[١٣٥] . ثم أورد قول ابن عباد السابق وقال : « هذا كلامه : فاذا لم يفهم الكلام اعترض عليه بما يفضح . وكأنه تصور انه يريد (غاشا) من الغش ، ولم يرد

(١٣٢) العمدة : ٢/٢٤٧ .
(١٣٣) تحرير التحبير : ٣٦٩ ، ٣٧٠ .
(١٣٤) الكشف عن مساوىء المتنبي (مطبوع مع الابانة) : ٢٢٨ .
(١٣٥) الفتح على ابي الفتح : ١٦٢ .

ابو الطيب شيئا من ذلك ، وانما اراد محل من يغشاك من صنوف الناس ، يقال : غشيته أغشاه اذا قصدته »[١٣٦] .

ه ـ جهل بعض النقاد بالاعراب :

وبسبب جهل بعض النقاد بالاعراب ، حكموا على بعض التراكيب بالخطأ، فاحتاجت احكامهم هذه الى من يبطلها . وكان ابو نواس ممن حكم على بعض شعره بالخطأ ، وما كان في نظر ابن قتيبة « الا على حجة من الشعر المتقدم ، وعلى علة بينة من علل النحو »[١٣٧] . ولكن مخطئيه جهلوا تلك العلل ، وعسر عليهم توجيه كلامه في ضوئها . ومما أخذ عليه قوله :

فليت ما انت واط من الثرى لي رمسا

الذي دافع عنه ابن قتيبة قائلا : « اما تركه الهمز في (واطىء) فحجته فيه أن أكثر العرب تترك الهمز . وان قريشا تتركه وتبدل منه . واما نصبه (رما) فعلى التمييز ، والبغداديون يسمونه (التفسير) : الا تراه قال (فليت ما انت واط من الثرى لي) فتم الكلام ، وصار جواب (ليت) في (لي) ، ثم بيّن من أي وجه يكون ذلك ، فقال (رمسا) أي قبرا (كما تقول في الكلام : ليت ثوبك هذا لي ، ثم تقول : ازارا ، لان جواب (ليت) صار في قوله (لي) ، وصار الازار تمييزا »[١٣٨] .

وكان نقاد المتنبي ـ على ما ذهب اليه القاضي الجرجاني ـ أحد رجلين : « اما نحوي لغوي لا بصر له بصناعة الشعر ... أو معنوي مدقق لا علم له بالاعراب ، ولا اتساع له في اللغة ، فهو ينكر الشيء الظاهر ، وينقم الامر البين »[١٣٩] . ومعنى قول الجرجاني ان كثيرا من استعمالات المتنبي

---

(١٣٦) الفتح على ابي الفتح : ١٦٢ .
(١٣٧) الشعر والشعراء : ٨١٨/٢ .
(١٣٨) نفسه .
(١٣٩) الوساطة : ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

وصمت بالخطأ ، لجهل بعض نقاده بعلم النحو ؛ وكان ذلك مما دفع الجرجاني الى ان يدافع عن الشاعر ويثبت الصواب لكثير مما ورد من اقواله •

و ـ الخصومة :

ومما أحوج الى الدفاع عن بعض المنشئين ظاهرة (الخصومة) ، وما استتبعت من عيب أمور لا عيب فيها ، واختلاق بعض الاستعمالات ، ودسها على المنشئين ، بقصد النيل منهم ، ورميهم بالتصور أو الخطأ •

يتضح مما تقدم ان الدفاع عن المنشئين كان لابد منه حين يرمون باحكام لا نصيب لها من الصحة ، ولا باعث عليها الا تعجل الناقد ، او ضيق نظرته ، أو جهله ، او ما خالطه من هوى مفسد للحكم ، او مضل عن الحق • واذا كان لابد من ذلك الدفاع ، فقد تولاه المنصفون من النقاد اللغويين ، وقاموا به خير قيام فكان ما صنعوه من اظهر فوائد النقد اللغوي •

٨ ـ الكشف عن اسرار التعبير الادبي وخصوصيته :

وهذه فائدة تكاد ـ عند المحدثين خاصة ـ تفضل فوائد النقد اللغوي السابقة ، فهم عندما يتحدثون عن النقد اللغوي ، لا يرون له من فائدة ، الا البحث عن الاسرار الفنية الكامنة في لغة النص ، والتقاط ما تنبض به الالفاظ والتراكيب من قيم نفسية وشعورية •

وقد مر بنا في التمهيد [١٤٠] ان المعنيين بالنقد اللغوي من المحدثين ، والقائلين بتقديمه على سائر فنون النقد ، والوانه المختلفة ، لم يحملهم على ذلك ، الا نظرتهم للادب على انه (فن لغوي) ، وان اللغة هي المادة الاولية له ، ولذا لا محيد لمن يريد فهم النص الادبي ، والنفاذ الى ذخائره وكنوزه ، من ان يتجه الى هذه المادة الاولية ، يفحصها ، ويعكف عليها ، ويستخلص منها كل ما اودع فيها من قيم واسرار •

---

(١٤٠) تنظر ص١١ وما بعدها من هذه الرسالة •

وانما تحتل اللغة هذه المنزلة من الفن الادبي ؛ لانها ليست فيه ، كما هي في الحديث العادي ، وسيلة ايصال وافهام ، وانما هي غاية بنفسها . يعمل الاديب على تشكيلها تشكيلا يرفعها عما جرى عليه الناس في محاوراتهم ومخاطباتهم . وبهذا التشكيل الجديد للغة ، يتفاوت الادباء ويتفاضلون ، وتتجلى مواهبهم واصالتهم .

ان الناس جميعا يشتركون في عملية التعبير عما يعتلج في نفوسهم ، ولكن المنشيء البليغ ينفرد عن الاخرين بما يمتلكه من موهبة ، أو قدرة ذهنية خاصة ، فاذا كان الناس يعبرون عن افكارهم تعبيرا مباشرا ، يرمون منه الى الافهام ، فان المنشيء البليغ يعبر عن افكاره تعبيرا متميزا ، يمنح اللغة خلاله خصوصية تجعلها تتجاوز مرتبة الافهام الى مرتبة التأثير .

وقد فطن نقادنا العرب الى اهمية الصياغة في العمل الادبي ، وجعلوها معقد اهتمام الاديب الحق ، ومجلى نبوغه واصالته . حتى لقد قال الجاحظ قولته المشهورة : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي والمدني ، وانما الشأن في اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك » (١٤١) . والجاحظ في هذا النص يفصح عن أن طريقة تقديم المعاني ، لا المعاني نفسها ، هي مدار التفاوت بين نص ونص ، وأديب وأديب . وتبع الجاحظ في هذا عدد كبير من النقاد ، فالامدي يرى ان الشعر غير الفلسفة ، وان المعاني الدقيقة او العميقة لا ترفع قائلها الى مرتبة الشعراء ، حتى يحسن صياغتها ، ويجيد التعبير عنها . فالمعنى اللطيف الذي لا تحسن صياغته يكون : « مثل الطراز الجيد على الثوب الخلق ، او نفث العبير على خد الجارية القبيحة الوجه » (١٤٢) . وهو يرى : « ان حسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن ، وزيادة

---

(١٤١) الحيوان : ١٢١/٢ ، ١٢٢ .
(١٤٢) الموازنة : ٤٠٢/١ .

لم تعهد » (١٤٣) . كما يرى : « ان صحة التأليف في الشعر هي اقــوى دعائمه » (١٤٤) ويقول : « فكل من كان أصح تأليفا كان أقوم بتلك الصناعة ممن اضطرب تأليفه »(١٤٥) .

وكان عبدالقاهر يرى ان الاديب كالصائغ والنجار ، فكما ان الخاتم يخرج من يد هذا الصائغ وهو أجمل مرأى ، وأغرب صنعة من الخاتم الذي يخرج من يد صائغ آخر ، في حين ان المادة التي توضع في يد كل منهما واحدة، فكذلك الاديبان يقعان على معنى واحد ، ثم يخرج المبدع منهما ذلك المعنى اخراجا فيه جمال وروعة ، ويعجز الثاني عن ذلك ، وتقعد به موهبته فــلا يلحق بشأو الاول ، ولا يبلغ مبلغه في جمال التعبير ، ودقة الصياغة . وهكذا فان التفاوت بين صانع وصانع ، واديب واديب ، لم يكن في مادة العمل ، وهي الخشب او المعدن او المعاني ، وانما في اخراج هذه المادة ، واسلوب صوغها وتشكيلها . يقول عبدالقاهر في ذلك : « تنظر الى قول الناس : الطبع لا يتغير ، ولست تستطيع ان تخرج الانسان عما جبل عليه ، فترى معنى غفلا عاميا معروفا في كل جيل وامة ، ثم تنظر اليه في قول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

فتجده قد خرج في احسن صورة ، وتراه قد تحول جوهرة ، بعد ان كان خرزة وصار أعجب شيء بعد ان لم يكن شيئا ، واذ قد عرفت ذلك فان العقلاء الى هذا قصدوا حين قالوا انه يصح ان يعبر عن المعنى الواحد بلفظين ، ثم يكون احدهما فصيحا ، والاخر غير فصيح ، كأنهم قالوا انه يصح ان تكون ههنا عبارتان اصل المعنى فيهما واحد ، ثم يكون لاحداهما في تحسين ذلك المعنى وتزيينه واحداث خصوصية فيه ، تأثير لا يكون للاخرى » (١٤٦) .

---

(١٤٣) الموازنة : ٤٠٢/١ .
(١٤٤) الصورة الفنية : ٢٨٥ .
(١٤٥) الموازنة : ٤٠٥/١ .
(١٤٦) دلائل الاعجاز : ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

ولا تختلف نظرة النقاد العرب القدامى لاهمية الصياغة في العمل الادبي، عما يقرره بعض النقاد المحدثين ، الذين : « يرون ان امر المعاني في الشعر ثانوي بالنسبة الى الصياغة » [١٤٧] ، والذين لا يتطلبون من المنشيء : « ان يزودنا بمادة جديدة ، أو أن يعالج مشاكلنا الاجتماعية والنفسية ، تماما كما يفعل العلم » [١٤٨] وانما يبتغون منه : « اثارة احساس معين في نفس القاريء »[١٤٩] ، ولا يتحقق للاديب ذلك ـ في نظر هؤلاء النقاد ـ « عن طريق موضوع قصيدته ، بل هو يصل اليه عن طريق استخدامه للالفاظ والصور وغيرها من عناصر القصيدة استخداما معينا في اطار او شكل معين » [١٥٠] .

فالظاهرة الادبية اذن : « لغوية في جوهرها ، لا سبيل الى التأتي اليها الا من جهة اللغة ، التي تتمثل فيها عبقرية الانسان » [١٥١] . ومعنى ذلك ان النقد اللغوي ، دون سواه من فنون النقد الاخرى ، هو الذي يستطيع ان يتغلغل الى اسرار العمل الادبي ، وينهض بمهمة الكشف عما في لغته من (خصوصية) ، أو عما يعوزها ، ويقعد بها عن أن تسمو بالنص الى مراتب الاعمال الفذة الخالدة .

ولكي يحدث المنشيء البليغ في اللغة (خصوصية) معينة ، تجعلها تجاوز مرتبة الافهام الى مرتبة التأثير ، يتوسل بوسائل مختلفة كالتوكيد والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير والوصل والفصل ، والحذف والذكر ، والعدول عن لفظ الى لفظ ، وما الى ذلك من وسائل يعمد اليها البليغ ليجعل اللغة في العمل الادبي قادرة على اثارة المتلقي وامتاعه .

---

(١٤٧) النقد المنهجي عند العرب : ١١٧ .
(١٤٨) النقد والنقد الادبي : ٣٥ .
(١٤٩) نفسه : ٣٧ .
(١٥٠) نفسه : ٤٠ .
(١٥١) التركيب اللغوي للادب : المقدمة : هـ .

واذا كانت (الخصوصية) في اللغة هي مناط الجمال في العمل الادبي ، فان من أهم فوائد النقد اللغوي ، استكشاف تلك (الخصوصية) وبيان نوعها . وبغير هذا الاستكشاف يظل العمل الادبي منطويا على اسراره ، فلا يستطيع المتلقي فتح مغالقه ، والوقوف على شيء من دقائقه ولطائفه .

وقد بذل النقاد العرب في هذا الشأن جهودا محمودة ، وعنوا بلغة الادب عناية كبيرة ، حتى كان أغلب ما صدر عنهم من نقد ، يهدف الى استكشاف خصائص هذه اللغة ، ويرمي الى تشخيص عللها ، ثم تخليصها من تلك العلل .

ولم يكن اكثرهم يرون الجمال الا في الشكل والصياغة ، ولم يجدوا في العمل الادبي ما هو أحق بالعناية والابراز من جمال الفاظه ، وتناغم تراكيبه، ودقة اختيار مفرداته ، فاهتموا بهذا الجمال الظاهري ، وراحوا يكشفون عن عناصره ومواطنه ، وقلة منهم هم : « الذين كلفوا أنفسهم البحث والتفتيش عما وراء الاشكال الظاهرة » [١٥٢] .

فمن فوائد النقد اللغوي دراسة الشكل دراسة مستفيضة ، وتحليل ظواهره المختلفة ، وبيان ما يستجاد ويستقبح من تلك الظواهر . فبفضل (النقد اللغوي) درست لغة الادب ، ووصلت الينا ثروة كبيرة من الاراء التي دارت حولها ، في المجالين النظري والتطبيقي .

ففي المجال النظري درس النقاد حروف الكلمات وما لها من خصائص وما يتآلف منها وما يتنافر ، كما درسوا الكلمات ووضعوا قواعد يرجع اليها لمعرفة الفصيح الجيد ، والرديء المستهجن ، ثم درسوا التراكيب ، ووضعوا المقاييس التي نميز بها التركيب الجيد من الرديء . وقد اوضحنا ذلك في الفصل الثاني من الباب السابق .

وفي المجال التطبيقي ابدى النقاد مهارة فائقة في تحليل لغة طائفة كبيرة من النصوص ، واستجلوا ما كمن في مفرداتها وتراكيبها من لطائف وأسرار .

---

(١٥٢) الاسس الجمالية في النقد العربي ١٧١ .

ولابد من الاشارة هنا الى ان الباحثين في الاعجاز وضعوا ايديهم على كثير من اسرار اللفظ القرآني ، والعبارة القرآنية • ولعلهم في هذا المجال فاقوا النقاد جميعا ، واظهروا من الفطنة والنفاذ الى دقائق البيان ما لم يظهره سواهم ممن عالجوا النصوص ، وندبوا نفوسهم لاستكشاف الاسرار الكامنة في مفرداتها وتراكيبها • ولا نشك في أن اكتناز اللفظ القرآني والعبارة القرآنية بالدقائق واللطائف ، هو الذي ألهم الباحثين في الاعجاز ما ألهمهم ، وقادهم الى ما توصلوا اليه من نتائج جيدة في الكشف عن خصائص اللفظ ، وسمات العبارة •

والامثلة على ما تكشف عنه النقد اللغوي من نتائج باهرة في مجال تحليل لغة النصوص عامة ، والنص القرآني خاصة ، كثيرة ، حفلت بها كتب الاعجاز والنقد الادبي ، وهي نتائج ، كما قدمنا ، تشهد باهمية هذا الضرب من النقد ، وتقوم دليلا على ان مناهج النقد الاخرى ، لا تغني عنه ، ولا تسد مسده في هذا الشأن ، لانها لا تولي اداة الادب الاولى ، ومادته الخام ، وهي اللغة ، ما تستحقه من عناية ، ولا تحاول استكشاف دقائقها وخصائصها ، فتبقى تلك الخصائص محجوبة مطوية •

ولابد لنا ازاء كثرة الامثلة من الاجتزاء ببعضها • فقد يكون الجمال في المفردات ، كما قلنا ، راجعا الى تنكيرها او تعريفها ، او حذفها او ذكرها او اضمارها او اظهارها ، أو تكرارها ، أو ايحائها ، او ملاءمتها للمعنى المراد التعبير عنه ، أو لما يجاورها من الفاظ ، او الى غير ذلك من الامور التي لا يدركها الا البصير بأسرار الكلام البليغ •

ومن الامثلة على (التنكير) الذي يكسب المفردة جمالا لا يكون في تعريفها قوله تعالى (وتعيها اذن واعية) • قال الزمخشري : « فان قلت لم قيل اذن واعية على التوحيد والتنكير ؟ قلت : للايذان بان الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، وللدلالة على ان الاذن الواحدة اذا

وعت وعقلت عن الله نهي السواد الاعظم عند الله ، وان ما سواها لا يبالي بهم ، وان ملأوا ما بين الخافقين » [١٥٣] .

ويكون للحذف سر جمالي يكشف عنه عبدالقاهر فيقول : « هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ، عجيب الامر ، شبيه بالسحر ، فانك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الافادة ازيد للافادة ، ونجدك انطق ما تكون اذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا اذا لم تبن » [١٥٤] . ثم يورد طائفة من الابيات حذف منها قائلوها بعض المفردات ، فراقت وحسنت بسبب ذلك الحذف . من ذلك قول بكر بن النطاح في جارية كان يحبها ، ثم سعي به الى اهلها ، فمنعوها منه :

غضبى ولا والله يـــا أهلهـــا لا أطعـــم البارد او ترضـــى

قال عبدالقاهر معلقا على هذا البيت : « التقدير : (هي غضبى) أو (غضبى هي) لا محالة . الا انك ترى النفس كيف تتفادى من اظهار هـذا المحذوف ، وكيف تأنس الى اضماره ، وترى الملاحة كيف تذهب ان انت رمت التكلم به » [١٥٥] .

ولاضمار المفردة سر جمالي في الاية (قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبه باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) . قال الزمخشري : « الضمير في (نزله) للقرآن ، ونحو هذا الاضمار ، اعني اضمار ما لم يسبق ذكره ، فخامة لشأن صاحبه ، حيث يجعل لفرط شهرته ، كأنه يدل على نفسه ، ويكتفى عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته » [١٥٦] .

ويكون لاعادة الكلمة احيانا جمال لا يتأتى اذا حذفها المنشيء ، أو اضمرها . وقد فطن الى هذا الصاحب بن عباد فقال « كان الاستاذ ابو الفضل

(١٥٣) الكشاف : ٦٠٠/٤ .
(١٥٤) دلائل الاعجاز : ١١١ .
(١٥٥) نفسه : ١١٧ .
(١٥٦) الكشاف : ١٦٩/١ .

يختار من شعر ابن الرومي وينقط عليه ، قال : فدفع الى القصيدة التي أولها ، (أتحت ضلوعي جمرة تتوقد) ، وقال : تأملها ، فتأملتها ، فكان قد ترك خير بيت فيها ، وهو :

بجهل كجهل السيف والسيف منتضى وحلم كحلم السيف واليد مغمد

فقلت : لم ترك الاستاذ هذا البيت ، فقال : لعل العلم تجاوزه ، قال : ثم رآني من بعد فاعتذر بعذر كان شرا من تركه ، قال : انما تركته لانه اعاد السيف أربع مرات . قال الصاحب : لو لم يعده اربع مرات فقال : بجهل كجهل السيف وهو منتضى ، وحلم كحلم السيف وهو مغمد ، لفسد البيت » (١٥٧) .

وذهب عبدالقاهر الى مثل هذا الرأي ، واحتج له بشواهد رفيعة من القرآن الكريم ، ومن الشعر ، من ذلك قوله تعالى : (وبالحق انزلناه وبالحق نزل) وقوله : (قل هو الله أحد ، الله الصمد) وقول النابغة :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والاقداما

وقد علق عبدالقاهر على هذا البيت بقوله : « لا يخفى على من له ذوق حسن هذا الاظهار ،وان له موقعا في النفس وباعثا للاريحية لا يكون اذا قيل : (نفس عصام سودته) شيء منه البتة » (١٥٨) .

ومما عني به النقاد اللغويون استيحاء الالفاظ ، واستشفافها ، واستنباط ما أراده المنشيء منها . وهذا الاتجاه في النقد مما يتفاوت فيه النقاد ، لان مردّه الى هبات في النفس يرزقها فرد ، ويحرم منها آخر : فكلمة (المطير) التي جاءت في بيت المنخل ، وهو من ابيات الحماسة :

ولقد دخلت على الفتا ة الخدر في اليوم المطير

(١٥٧) دلائل الاعجاز : ٢٩٥ ط مطبعة الفتوح الادبية بمصر .
(١٥٨) نفسه : ٢٩٧ .

لم يرد بها الشاعر معناها الظاهر ، المتبادر منها الى الذهن ، وهو اليوم الذي ينزل فيه المطر ، وقد خاب وخسر ـ في رأي ابن الاثير ـ من يفهم منها هذا المعنى وحده ، وذلك لان الشاعر ـ في رأي ابن الاثير ـ : « قد وصف نفسه بالشجاعة وقوة الجنان » [١٥٩] وأراد : « انه دخل على هذه المرأة وزوجها شاهد أي حاضر في البيت ، ولم تمنعه المراقبة ولا الخوف من دخوله عليها • الا ترى ان العادة في الاكثر والاغلب انه اذا جاء المطر ، يمتنع المسافر من السفر ، والزائر عن الزيارة ، وصاحب الشغل عن السعي في شغله • وقد يسافر عند مجيء المطر ويزار ويسعى في الشغل ، لكن يقع ذلك نادرا ، والحكم انما يكون على الاكثر والاغلب • فالمنخل يريد بقوله (في اليوم المطير) انه دخل على هذه المرأة وزوجها حاضر في البيت ، ولم يرد انه دخل بمرآى منه ، بل دخله وهو حاضر فيه ، ولم يصده عن ذلك خوف ولا مراقبة » [١٦٠] •

لقد استوحى ابن الاثير من كلمة (المطير) ما اراده الشاعر بها ، وعجز عن هذا الاستيحاء غيره • وقد يكون ابن الاثير مصيبا في استيحائه ، وقد يكون غير مصيب ، ولكن المهم أنه لم يقف عند المعنى الظاهر للفظة ، بل حاول ان يرهف سمعه ، ويلتقط ما يتجاوب فيها من اصداء نفسية وشعورية وهنا تكمن قيمة النقد اللغوي • وكلما غمضت مواضع من لغة النص ، أو دقت مراميها ، ولطفت اسرارها ، تجلت لنا اهمية (النقد اللغوي) : لانه سيجلو الغامض ، وينير المعتم ، وبغير ذلك الجلاء وهذه الانارة ، يتعطل النص ، ولا يحدث الاثر المطلوب في قارئه •

وقد تتقارب بعض المفردات في المدلول ، ويجمع بينها معنى عام ، الا ان لكل منها معنى خاصا يختلف عن الكلمة الاخرى ، فيفطن لهذا المعنى الخاص ناقد ، ويغفل عنه ناقد آخر ، ولا شك في أن ابراز المعنى الدقيق

---

(١٥٩) ، (١٦٠) الاستدراك : ٢٢ وما بعدها .

للمفردة ، يرفع من قيمة النص ، ويزيد من استمتاع القارىء به ، فالبحتري حين قال :

فمجدّل ومرمّل وموسّد ومضرّج ومضمّخ ومخضب

عابه بعض النقاد فقال : « مضّرج ومضمّخ ومخضّب بمعنى واحد » [١٦١] ثم قال : « لو اراد رجلا واحدا انه مضرّج ومضمخ ومخضب جاز لان كل لفظة تكون مؤكدة للاخرى ، ولكنه اراد فمنهم مضرّج ومنهم مضمخ مخضب كما قسمّ في صدر البيت » [١٦٢] . اما الامدي فقد رد على هذا الناقد ، وأوضح ان هذه الالفاظ ليست مترادفة ، وان كان يجمع بينها معنى عام مشترك ، وان التقسيم الذي أراده البحتري صحيح . قال الامدي: « المتضرّج من التضريج وهي الحمرة المشرقة التي ليست بقانية ، والمضمّخ يريد به غلظ الدم ، وانه قد صار في متانة الطيب الذي يتضمخ به . والمخضب أراد ان الدم قد خضبه كما يخضب بالحناء ففي كل لفظة ما ليس في الاخرى ، وان كانت الحمرة قد شملت الجميع ، لان المضرّج يجوز ان يكون اراد به طراوة الدم ، أي منهم حديث عهد بالقتل ، والمضمخ من قد خثر عليه الدم ، كأن قتله قد تقدم قبل قتل الاخر ، والمخضب يجوز ان يكون مضى لقتله يوم وأكثر ، فقد اسود عليه الدم ، وهذه معان كلها محتمل . وقد يجوز ان يريد بقوله (مضرّج) سائر جسده ، وبالمضمخ ان السيف اخذ عوارضه وتحت لحيته ، وذلك موضع من مواضع التضمخ بالطيب ، واراد بالمخضب ان السيف اخذ في رأسه وفي يديه ورجليه وذلك مواضع الخضاب . وقد يكون المضرّج المقطع ، يقال : ضرجه اذا قطّعه . وهذه معان لطيفة ويجوز ان يعتد بها ، والوجه القوي هو الاول » [١٦٣] .

---

(١٦١) الموازنة : ٢٧٩/١ .
(١٦٢) نفسه .
(١٦٣) الموازنة : ٢٧٩/١ ، ٢٨٠ .

وهكذا استطاع الامدي ، بفضل حسه اللغوي الدقيق ، ان يستشف من كل كلمة من الكلمات التي بدت لغيره مترادفة معنى يختلف عن معنى الاخرى • ولو ان الامدي لم يتعمق لغة البيت ، لظلت كلمات الشطر الثاني تلوح مترادفة ، ولظل الجمع بينها يبدو ضربا من الهذر والتطويل •

ومن الامثلة على ابراز الفروق الدقيقة بين المفردات المتقاربة المعاني ، قول الزمخشري معلقا على الاية : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) : « فان قلت لم خص الخير بالكسب والشر بالاكتساب ؟ قلت : في الاكتساب اعتمال ، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس ، وهي منجذبة اليه ، وأمارة به ، كانت في تحصيله أعمل وأجد ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال » (١٦٤) •

ومما عني النقاد اللغويون بالكشف عنه من أوجه الجمال في المفردات ما يكون من تلاؤم وانسجام بين اللفظ والمعنى العام المراد بيانه ، او التعبير عنه ، أو بين اللفظ وما يجاوره من الفاظ •

فمن الامثلة على النوع الاول قوله تعالى : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) فقد : « عدل سبحانه عن الطين الذي اخبر في كثير من مواضع الكتاب العزيز انه خلق آدم منه ، منها قوله تعالى : (اني خالق بشرا من طين) ، وقوله سبحانه حكاية عن ابليس : (خلقتني من نار وخلقته من طين) ، فعدل عز وجل ، وهو أعلم ، عن ذكر الطين الذي هو مجموع التراب والماء الى ذكر مجرد التراب لانه ادنى العنصرين ، واكثفهما ، لما كان المقصود مقابلة من ادعى في المسيح الالهية بما يصغّر امر خلقه ، عند من ادعى ذلك ، فلهذا كان الاتيان بلفظة التراب امتن بالمعنى من غيرها من العناصر ، ولو كان موضعه غيره لكان اللفظ غير مؤتلف بالمعنى المقصود » (١٦٥) • وقوله تعالى : (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) الذي علق عليه ابن ابي الاصبع

---

(١٦٤) الكشاف : ١/٣٣٢ •
(١٦٥) تحرير التحبير : ١٩٤ •

قائلا : « فانه سبحانه لما نهى عن الركون للظالمين وهو الميل اليهم والاعتماد عليهم ، كان ذلك دون مشاركتهم في الظلم أخبر ان العقاب على ذلك دون العقاب على الظلم وهو مس النار دون الاحراق والاصطلاء » (١٦٦) .

ومثال اللفظ الملائم لما يجاوره قوله تعالى : « كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا) الذي علق عليه الزمخشري بقوله : « فان قلت : كيف قيل مع الاضاءة (كلما) ومع الاظلام (اذا) ؟ قلت : لانهم حراص على وجود ما همهم به معقود من امكان المشي وتأتيه ، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها ، وليس كذلك التوقف والتحبس » (١٦٧) .

وقوله تعالى (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين) قال الزمخشري : « فان قلت لم قرن الناس بالحجارة ، وجعلت الحجارة معهم وقودا . قلت : لانهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا حيث نحتوها اصناما ، وجعلوها لله اندادا او عبدوها من دونه » (١٦٨) .

وكما جهد النقاد اللغويون في استجلاء الاسرار الجمالية الكامنة في المفردات ، فكذلك فعلوا في التراكيب فأبانوا عما فيها من دقائق ولطائف ، ولبيان ذلك نجتزيء ببعض الامثلة .

قال تعالى : (وجعلوا لله شركاء الجن) ، فعلق عبدالقاهر الجرجاني على هذه الآية ، وبيّن ما في تركيبها من (خصوصية) أكسبته فضلا ، وأوجبت له مزية ، وما هذه الخصوصية الا تقديم كلمة (شركاء) ، فلو تأخرت هذه الكلمة عن موضعها ، لفقد التركيب جماله وعرى من المزية التي وجبت له . قال : « ليس يخاف ان لتقديم (الشركاء) حسنا وروعة ، ومأخذا من القلوب ، انت لا تجد شيئا منه اذ انت أخرت فقلت : وجعلوا الجن شركاء

---

(١٦٦) تحرير التحبير : ١٩٦ .
(١٦٧) الكشاف : ٨٦/١ .
(١٦٨) نفسه : ١٠٢/١ .

لله ، وانت ترى حالك حال من نقل عن الصورة المبهجة ، والمنظر الرائق ، والحسن الباهر ، الى الشيء الغفل الذي لا تحلى منه بكثير طائل ، ولا تصير النفس به الى حاصل ، والسبب في ان كان ذلك كذلك ، هو ان للتقديم فائدة شريفة ، ومعنى جليلا ، لا سبيل اليه مع التأخير ، بيانه أنا وان كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء ، وعبدوهم مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم ، فان تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ، ويفيد معه معنى آخر وهو انه ما كان ينبغي ان يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن ، واذا تأخر فقيل : جعلوا الجن شركاء لله ، لم يفد ذلك ، ولم يكن فيه شيء اكثر من الاخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى ، فاما انكار ان يعبد مع الله غيره ، وان يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه[١٦٩] » .

ومعنى ما ذكره الجرجاني ان تقديم (شركاء) جعل معنى العبارة يتسع ، ولو تأخرت لضاق معناها ، ولم يحصل له من الزيادة ما حصل له في حال تقديمها ، فلو قيل (جعلوا الجن شركاء لله) لم نفهم من العبارة اكثر من انهم عبدوا الجن مع الله ، على حين اننا فهمنا من الآية هذا ، وفهمنا أمرا آخر ، وهو انكار ان يكون لله شريك ، من الجن او غيره . ثم قال الجرجاني : « فانظر الان الى شرف ما حصل من المعنى بان قدم الشركاء ، واعتبره فانه ينبهك لكثير من الامور ، ويدلك على عظم شأن النظم ، وتعلم به كيف يكون الايجاز به وما صورته ، وكيف يزاد في المعنى من غير ان يزاد في اللفظ ، اذ قد ترى ان ليس الا تقديم وتأخير وانه قد حصل لك بذلك من زيادة المعنى ما ان حاولته مع تركه لم يحصل لك ، واحتجت الى ان تستأنف له كلاما ، نحو ان تقول : وجعلوا الجن شركاء لله وما ينبغي ان يكون لله شريك لا من الجن ولا من غيرهم ، ثم لا يكون له اذا عقل من كلامين من الشرف والفخامة ومن كرم الموقع في النفس ما تجده له الان وقد عقل من هذا الكلام الواحد[١٧٠] » .

---

(١٦٩) دلائل الاعجاز : ٢٢١ ، ٢٢٢ .
(١٧٠) نفسه : ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

وقال ابن المعتز :

واني على اشفاق عيني من العـدى   لتجمح منـي نظـرة ثم أطـرق

فعزا عبدالقاهر ما في هذا البيت من جمال الى تنسيق الشاعر للكلمات هـذا التنسيق ، وتعليق بعضها ببعض على هذا النحو دون غيره ، قال : « فتـرى ان هذه الطلاوة وهذا الظرف انما هو لان جعل النظر يجمح ، وليس هو لذلك ، بل لان قال في اول البيت (واني) حتى دخل اللام في قوله (لتجمح) ثم قوله (مني) ، ثم لان قال (نظرة) ولم يقل (النظر) مثلا ، ثم لمكان (ثم) في قوله ثم أطرق ، وللطيفة اخرى نصرت هذه اللطائف ، وهي اعتراضه بين اسم ان وخبرها بقوله (على اشفاق عيني من العدى)[١٧١] » .

وفي قوله تعالى (واشتعل الرأس شيبا) خصوصية ، أثارها عبد القاهر ، ونبّه عليها ، وهذه الخصوصية هي اسناد الاشتعال الى الرأس دون الشيب ، فلو قيل (اشتعل الشيب في الرأس) أو (اشتعل شيب الرأس) لما وجدنا للكلام من الحسن والمزية ما نجده له وهو على صورته الاولى ، والسبب في ذلك ان الكلام في صورته الاولى « يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى ، الشمول وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، وأنه قد استقر به وعم جملته حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه الا مالا يعتد به ، وهذا ما لا يكون اذا قيل اشتعل شيب الرأس ، او الشيب في الرأس ، بل لا يوجب اللفظ حينئذ اكثر من ظهوره فيه على الجملة ، ووزان هذا انك تقول : اشتعل البيت نارا فيكون المعنى ان النار قد وقعت فيه وقوع الشمول ، وانها قد استولت عليه ، وأخذت في طرفيه ووسطه ، وتقول اشتعلت النار في البيت فلا يفيد ذلك ، بل لا يقتضي اكثر من وقوعها فيه ، واصابتها جانبا منه ، فاما الشمول ، وان تكون قد استولت على البيت وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتة[١٧٢] » .

---

(١٧١) دلائل الاعجاز : ٧٨ .
(١٧٢) نفسـه : ٨٠ .

يتضح مما سبق ان للتعبير الادبي أسرارا منها ما يرجع الى المفردات ، ومنها ما يعود الى التراكيب ، او ما بين الالفاظ من علاقات ، وان من مهمة الناقد اللغوى ان يستكشف تلك الاسرار ، ويعمل على فتح مغالقها ، ليصل التعبير الى ما ينشده مبدعه من تأثير وامتاع • وبغير هذا الاستكشاف يبقى التعبير مغلقا ، لا يصل منه الى المتلقي شيء ذو بال • بمعنى ان من اكبر فوائد النقد اللغوى اثارة مواطن الحسن في التعبير الادبي ، ليؤدى الغرض منه ، وهو الاثارة والامتاع • وقد رأينا في الامثلة التي أوردناها كيف ان الناقد اللغوى كان يضع ايدينا على ما في العبارة الادبية من ميزات ، فيزداد اعجابنا بها ، ويتضاعف ما نجده لها من تأثير في نفوسنا •

فاذا كان المنشىء بعقله الخالق يستخدم اللغة استخداما خاصا ، ويستخرج منها كل امكاناتها ، فان الناقد اللغوى كان يجلو سمات ذلك الاستخدام اللغوي الخاص ، ويجعل المتلقي احسن فهما له ، وأشد أنساً به •

الفصـــل الثاني

عيوب النقد اللغوي

حاولنا في الفصل الماضي ان تتلمس ما كان للنقد اللغوي من أثر محمود في اللغة والادب ، وقد اتضح لنا ان هذا الضرب من النقد أسفر عن مجموعة كبيرة من الفوائد خدمت اللغة والادب ، غير ان الذي يدرس ما ضمته كتب النقد من قيم وأحكام ، لا يصعب عليه ان يتبين ان هناك نظرات ومواقف ، من شأنها ان تضر باللغة ، وتسيء الى الادب • وسنحاول في هذا الفصل ان نعرض لتلك المواقف والنظرات ، ونوضح ما فيها من مجافاة للحق ، وعـدول عن الصواب[1] •

اولا ـ التزمت والجمود :

اشتد قسم من النقاد في المحافظة على اللغة ، وغلوا في ذلك غلوا كبيرا ، ورأوا ان حماية اللغة لا تتم الا بثبوت صيغها ومفرداتها عند الحدود التـي رسمها عرب الجاهلية ، وعرب الحقبة المبكرة من العصور الاسلامية ، وهي الحقبة التي انتهت بالنصف الاول من القرن الثاني •

وظهر في كل عصر من اراد ان يحمي اللغة ، فرأى ان الطريق الى ذلـك هو اقامة سياج كثيف ، يصد عنها كل جديد ، حتى ان الناظرين : « في تأريخ اللغة لا يصعب عليهم ادراك اللحظات التي كادت اللغة تختنق فيها بسبب الجمود الذي أراده القائمون عليها[2] » •

---

(1) لابد من الاشارة هنا الى اننا قد اوردنا في مواضع متعددة من هـــذه الرسالة شيئا من هذه العيوب كالاختلاق والتعجل في الحكم والحدة ، ولهذا نمسك هنا عن اعادتها خوف التكرار •

(2) اللغة والحضارة : ٤ •

وقد فات هؤلاء النقاد ان اللغة يجب ان « تقع على الجادة الوسطى بين الجمود المانع من الحركة والتجديد والحياة النامية ، والفوضى او الأباحية اللغوية القاتلة لخصائص اللغة والمشوهة لها[3] .

لم يصدر النقاد المتزمتون في موقفهم من اللغة عن : « فقه صحيح للعربية ، ولا فهم واع لحياتها ، وقواعد نحوها[4] » ، فأخذوا بتلابيب المنشئين ، ووقفوا لهم بالمرصاد ، يحصون عليهم أنفاسهم ، ويحاولون ان يخنقوا كل نأمة تجديد ، او حركة تغيير ، تحدث بين الحين والحين على سطح اللغة الراكد ، فتحركة وتنفث فيه الحياة .

وهكذا تحولت الحماية التي هدف اليها قسم من النقاد ، الى قيد مدمر ، كاد يقعد باللغة ، ويودي بما فيها من حيوية ومرونة ، وقدرة على مسايرة الحياة والاستجابة لمتطلبات التطور الفكري والحضاري .

الا ان الذي حال بين النقاد المتزمتين وما أرادوه من جمود اللغة ، وصد مقومات الحياة عنها ، ما ظهر من مفاهيم نقدية ولغوية مضادة ، عملت على اغناء اللغة ، والذود عما يحدث فيها من جديد ينسجم مع روحها ، وينساق مع فطرتها وخصائصها . وكنا قد عرضنا لهذه المفاهيم في الفصل الماضي ، الذي عقدناه لاهمية النقد اللغوى وفوائده .

اما النظرات والمواقف النقدية التي اتسمت بالتزمت والجمود ، فتتمثل فيما يلي :

أ ـ الاحتكام الى القديم والتقيد بالعرف اللغوي :

ولا نريد هنا ان نغض من مبدأ الاحتكام الى القديم في النقد ، ذلك لان وعي الناقد بالتقاليد الادبية التي سبقته وعاصرته ، أمر محمود ، ومبدأ ضروري ، يعين الناقد على تقويم الجديد ، وميز عناصره . غير ان الذي يخشى

---

(٣) خصائص العربية : ٦٧ .
(٤) نفسه .

منه هو ان يسرف الناقد في تطبيق هذا المبدأ ، الى الحد الذي : « يحول بين الفنان وبين التطور الذي ينشده[٥] » .

كانت عودة بعض النقاد الى القديم ، واستشارتهم اياه في أمر الجديد موقفا لا مفر منه للناقد الحصيف ، ليستطيع ان يقف على ما حققه المجددون ، ويفصل فيه ، فيقبل الاصيل ، ويرفض الزائف . فالجديد لا يعرف الا بعرضه على القديم ، وموازنته به . وهذا مبدأ سليم . ولكن الذي تورّط فيه النقاد المحافظون ، هو انهم لم يرجعوا الى القديم ، لتعرف العناصر الجديدة ، وتقدير قيمتها ، بل رجعوا اليه ليتخذوا منه مقياسا ، فيقبلوا ما وافقه ، وسار على منهجه ، ويرفضوا ما خرج عنه ، ولم يلتزم امثلته او المعروف المتداول من قيمه وأساليبه .

ومما سوّغ لهم هذا الموقف ، وصرفهم عما ينشأ عنه من ضرر باللغة والأدب ، ايمانهم بأن : « الشعر والنثر نوعان من الكلام البليغ لا شكلان متمايزان من التعبير[٦] » . وقد ذهبوا ـ نتيجة لذلك ـ الى ان دور الكلمات في الشعر لا يتمايز عن دورها في النثر ،وان طبيعة استخدامها في كلا الفنين واحدة . واذ فهموا الامر على هذا النحو ، لم يمنحوا الشاعر حرية التعامل مع اللغة ، ولم يجيزوا له أن يتعدى أطرها الثابتة ، أو يحطم نسقها المتعارف عليه . وكل الذي أباحوه له هو ان يتخطى بعض القواعد اللغوية الهينة ، كأن يمد المقصور ، او يقصر الممدود ، او يصرف ما لا ينصرف ، او يحذف ما لا يجوز حذفه في النثر ، الى غير ذلك مما عرف بالضرائر الشعرية . على ان هذه الحرية لم تمنح له ، الا لانها منحت لاسلافه من الشعراء ، الموثوق بنقائهم اللغوي ، وهي بعد ذلك حرية مقيدة ، اذ ليس من حق الشاعر ان يلجأ الى ضرورة لم تبح للقدماء .

---

(٥) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٦ .
(٦) الصورة الفنية : ١٤٢ .

فالضرورة الشعرية : « أشبه ما تكون بعملية قياس ، لا يسمح للشاعر المتأخر بالمضي فيه ، الا اذا استند على شواهد ومقدمات متواترة في الشعر القديم[7] » .

وهذا الرأي في الضرورة لم ينبع من فقه صحيح للفن الشعري ، وما تفرضه التجربة احيانا من تصرف باللغة ، واستخدامها استخداما خاصا ، يخرج بحدود ، ولاسباب معينة ، عن المألوف الثابت من أطرها وصيغها ، وانما نبعت من نظرة شكلية للشعر ، قوامها ان قواعد الوزن والقافية فيه ، وقد تحمل الشاعر على تنكب بعض القواعد ، والاخلال ببعض القوانين .

ومعنى ذلك ان المتزمتين من النقاد نظروا الى الشعر نظرة بعيدة من طبيعته ، بوصفه نشاطا تخيليا من حقه ان يستخدم اللغة على الوجه الذي يتطلبه هذا الضرب من النشاط ، وحاولوا ان يفرضوا عليه نظاما لغويا صارما ، لا يسمح بأي تجديد او تغيير . وهذا يعني انهم تغافلوا عن ان اللغة في الشعر : « لغة انفعال مرنة ، بل أميز ما فيها هو هذه المرونة التي تجعلها متجددة دائما بتجديد الانفعالات . فالانفعالات الجديدة تستخدم الالفاظ دائما استخداما جديدا[8] » .

فالمتزمتون — في نظرتهم هذه — فرضوا على الشعراء اللغة التقليدية بالفاظها وبطرائق استخدامها المعهودة ، وجعلوها الميدان الذي يجب على الشعراء ان يتحركوا خلاله ، وشددوا النكير على كل محاولة للخروج عنه ، او الافلات منه .

ومما زاد من صرامة هذه النظرة اللغوية الى الشعر ، ان جل اللغويين الذين تصدوا للحكم على الشعراء كانوا من المدرسة البصرية ، وهي مدرسة لا تحترم الا الشائع المطرد ، ولا تقيم وزنا للمحاولات اللغوية الفردية ، لانها تحاول ان تقيم للغة نظاما شاملا ، ونسقا صلبا ، لا يمكن تجاوزه ، او الخروج

(٧) الصورة الفنية : ١٤٣ .
(٨) الاسس الجمالية في النقد العربي : ٢٤٠ .

عنه . لقد سعت هذه المدرسة الى ان ترد كل النصوص المختلفة والمتمايزة الى أصل لغوي ثابت ، وان تدخلها في قالب عقلي منطقي . فما دخل من هذه النصوص في ذلك القالب طواعية ، قبلته ، وما أبى ذلك تأولته ، ورأت ان لشذوذه اسبابا عقلية . وما استعصى على التأويل رفضته ، وخطأته .

ولا شك في ان اللغة الحية : « لا تحتمل مثل هذه الـ (فيلولوجيا) الجامدة نظرا لتشعبها واتساعها ، اذ ينبغي الانتباه الى وجود الشذوذ في الاشياء نفسها[٩] » .

وقد تجدى الطريقة البصرية : « في تيسير التعليم ، والتصنيف السهل ، ولكنها من الزاوية الفنية معيبة ، لان اللغة الشعرية ـ في ضوء هذا الفهم ـ لن ينظر اليها الا من خلال أطر ثابتة جامدة[١٠] » .

وما دام هذا النظام اللغوى الصارم الذي اقامته مدرسة البصرة ، قد انبنى على أساس من لغة الشعراء القدامى ، فان هذه اللغة اصبحت المعيار الاساس الذي يرجع اليه في تقويم شعر المحدثين . ومثل هذا المعيار يحول بين الناقد وبين رؤية الجديد في اللغة والصياغة ، بل ويحتم على الناقد ان يصم بالخطأ : « كل من يخرج في اللغة على ما عرفه الاولون ، واتجهوا اليه[١١] » .

وتبعا لهذا المعيار ، أي التقيد بلغة القدامى ، او ما يسمى طريقة العرب الاوائل ، رفض المحافظون كثيرا من الصيغ والعبارات ، واخذوا على الشعراء ان يبتعدوا عن الاطر اللغوية المألوفة . فهذا اسحاق الموصلي يعيب أبا تمام ، ويقول له : « يا فتى ما أشد ما تتكىء على نفسك ، يعني انه لا يسلك مسلك الشعراء قبله ، وانما يستقي من نفسه[١٢] » .

---

(٩) الصورة الفنية : ١٤٧ .
(١٠) نفسه .
(١١) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٧ .
(١٢) الموشح : ٥٠٢ .

واذا أردنا ناقدا تمثلت في نقده نظرة المحافظين الضيقة الى اللغة ، فهو الامدى . لقد هدف هذا الناقد الى تجميد اللغة ، وأراد الشعراء على السير داخل الاطر اللغوية الحاضرة ، وقد جاء حكمه المشهور : « اللغة لا يقاس عليها » دليلا على شدة محافظته . وواضح ان : « مثل هذا الحكم العام يتنافى مع الفهم الصحيح للفن ، وحركة تطوره المستمرة التي لا تنتهي عند حد ، كما انه يؤثر بالضرورة في منهج الناقد ، الذي قد يهمل في حدود هذه النظرة المحافظة الكثير من الجديد الذي قد يحققه الفنان[١٣] » ويحكم الامدى على ابي تمام بالخطأ كلما خرج عن تقاليد اللغة والادب[١٤] . من ذلك انه عاب أبا تمام لقوله (لا أنت أنت ولا الزمان زمان) ورأى في قوله (لا أنت انت) تعبيرا شعبيا ، وأنكر ان يقيسه على قول من قال من العرب القدامى : (ولا العقيق عقيق)[١٥] . « وفي هذا ما فيه من تأثر بالاحكام الى القديم وحده وبنظرته الى اللغة القديمة نظرة تقديس[١٦] » .

وفي نقد الامدى امثلة أخرى على ما تورط فيه من تعنت وجمود ، نتيجة لتمسكه بأن (اللغة لا يقاس عليها) ، ولا ينبغي التجديد فيها . من ذلك انه نقد قول ابي تمام :

فافزع الى ذخر الشؤون وعذبه　　فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد

قال الامدي : « قوله يذهب بعض جهد الجاهد اى بعض جهد الحزن الجاهد ، أي الحزن الذي جهدك ، فهو الجاهد لك . ولو كان استقام له (بعض جهد المجهود) لكان أحسن واليق ، وهذا اغرب واظرف . وقد جاء ايضا (فاعل) بمعنى (مفعول) قالوا : (عيشة راضية) بمعنى مرضية و (لمح باصر) وانما هو مبصر فيه . وأشباه لهذا كثيرة معروفة ، ولكن ليس في كل

(١٣) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٧ .
(١٤) النقد المنهجي عند العرب : ١١٩ .
(١٥) نفسه : ١٢٤ .
(١٦) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٧ ، ٤١٨ . وانظر : النقد المنهجي عند العرب : ١٢٤ .

شيء يقال ، وانما ينبغي ان ينتهي في اللغة الى حيث انتهوا ،ولا يتعدى الى غيره ، فان اللغة لا يقاس عليها[17] » .

وليس على أبي تمام باس اذا استعمل (جاهد) بمعنى (مجهود) ، لان لاستعماله هذا نظائر كثيرة ، كقولهم : (عيشة راضية) بمعنى مرضية ، و (نهار صائم) اي مصوم فيه ، ولكن نظرة الامدي الضيقة الى اللغة ، هي التي دفعته الى عدم الاخذ بالقياس ثم تخطئة مالم يرد عن القدماء ، وان كان جاريا على اساليب اللغة ، وموافقا لروحها ونظامها .

اذن ، لم يكن لدى النقاد المتزمتين تصور ناضج لطبيعة اللغة في الشعر ، ولم يعترفوا بأن لغة الشاعر ترتبط في المقام الاول بطبيعة تجربته ، وبنوع الانفعالات التي يريد تقديمها في قصيدته ، فهو تبعا لذلك مضطر الى أن : « يحتضن الكلمات ويتأملها ، ويعيد تشكيلها ، بل انه قد يغير من صياغتها ، ويحطم من أنسقتها ونظامها العرفي الثابت ويخلق لنفسه نظاما فريدا خاصا به [18] » . ومعنى ذلك ان لغة الشاعر لا ينظر اليها في ضوء عرف لغوي صارم ، وانما في ضوء تجربته الشعرية ، ومدى فاعليتها ، « وخصوصيتها وفرديتها[19] » .

ففي بعض الاحيان يكون النمط التعبيري الذي يفرضه النحاة ، ويرتضونه ، مخالفا لما يريد الشاعر نقله او تصويره ، ومحيلا للكلام الى نظم ركيك ، وعبارات مرصوفة . فالنحاة ـ مثلا ـ يجعلون الفصل بالنعت بين المضاف والمضاف اليه ، ضربا من الضرائر[20] ، التي يحسن بالشعراء تفاديها ، ولو ان معاوية في البيت المنسوب اليه وفّى بما يرتضيه النحاة ، ولم يفصل بين المضاف والمضاف اليه بالنعت ، لكان كلامه ضربا من النظم الركيك ، الذي

---

(١٧) الموازنة : ١/٢١٦ .
(١٨) الصورة الفنية : ١٤٥ .
(١٩) نفسه .
(٢٠) شرح ابن عقيل : ٢/٧٠ .

لا ينطوي على ما اراد تصويره ، ورغب في نقله . يقول معاوية وهو يتحدث عن نجاته ومقتل الامام علي :

نجوت وقد بل المرادي سيفه من ابن ابي شيخ الاباطح طالب

والشاهد النحوي في هذا البيت قوله (أبي شيخ الاباطح طالب) حيث فصل بين المضاف وهو (ابي) والمضاف اليه وهو (طالب) بالنعت ، وهو شيخ الاباطح ، وأصل الكلام من ابن ابي طالب شيخ الاباطح[21] .

ان معاوية كان عامدا الى ان يضع النعت هذا الموضع ، ليكون أسبق في قرع الذهن من الاسم ، وقد احسن مصطفى مندور حين قال معقبا على قول معاوية : « محور البيت هو ـ شيخ الاباطح ـ وما دون ذلك تقريب من وصف العبارات ، وقد جف ماؤها [22] » .

ومعنى ذلك ان تقديم النعت في بيت معاوية ، ووضعه في غير الموضع الذي يرتضيه النحاة ، لم يكن من قبيل الضرورة الشكلية المرتبطة بالوزن ، وانما هو من قبيل الضرورة الملحة النابعة من طبيعة المعنى المراد تقديمه .

ومن الشواهد التي حكم عليها النقاد بالخطأ ، لا نهم نظروا اليها في ضوء العرف اللغوي ، ولم ينظروا اليها في ضوء تجربة الشاعر ، او المعنى الذي يرمي اليه ، قول ابي النجم :

قد اصبحت أم الخيار تدّعي علىّ ذنبا كله لم أصنع

الذي علق عليه عبدالقاهر قائلا : « قد حمله الجميع على انه أدخل نفسه من رفع (كل) في شيء انما يجوز عند الضرورة ، من غير ان كانت به ضرورة ، قالوا لأنه ليس في نصب (كل) ما يكسر له وزنا او يمنعه من معنى أراده ، واذا تأملت وجدته لم يرتكبه ، ولم يحمل نفسه عليه ، الا لحاجة له الى ذلك ، والا لانه رأى النصب يمنعه ما يريد ، وذلك انه اراد انها تدعي ذنبا لم يصنع

(21) شرح ابن عقيل : ٢/٧١ .
(22) اللغة والحضارة : ٧ .

منه شيئا البتة لا قليلا ولا كثيرا ، ولا بعضا ولا كلا ، والنصب يمنع من هذا المعنى ، ويقتضي ان يكون قد اتى من الذنب الذي ادعته بعضه ، وذلك انا اذا تأملنا وجدنا اعمال الفعل في (كل) والفعل منفي لا يصلح ان يكون الا حيث يراد ان بعضا كان وبعضا لم يكن ، تقول : لم ألق كل القوم ، ولم آخذ كل الدراهم ، فيكون المعنى انك لقيت بعضا من القوم ، ولم تلق الجميع ، وأخذت بعضا من الدراهم ، وتركت الباقي ، ولا يكون ان تريد انك لم تلق واحدا من القوم ولم تأخذ شيئا من الدراهم[٢٣] » •

فالنصب الذي يفرضه النحاة ويرتضونه ، ويرون ما عداه خطأ ، او ضربا من الضرورة في الاقل ، لا يلائم المعنى الذي اراده الشاعر ، ولا يؤدي الغرض الذي رمى اليه ، على حين ان الرفع هو الذي يجعل التركيب دقيقا في نقل التجربة ، واداء المعنى ، فركب الشاعر السبيل التي تصل به الى ما يريده وتنكب النظام اللغوي المألوف ، لعدم مطابقته تجربته ، وقصوره عن الاعراب عما يريد •

فالنقاد المتزمتون لم يسلموا للشاعر – فيما عدا الضرائر – بقدر من الحرية اللغوية ، ولم يجيزوا له ان يعدل عن النظام اللغوي الصارم المفروض عليه حين تضطره تجربة ، او يحز به معنى من المعاني •

لقد نظروا الى أي خروج عن العرف اللغوي على أنه خطأ ، ولم يكفوا أنفسهم مؤونة البحث عما وراء الخروج من مسوغات بلاغية ، ولو أن هذا التزمت كان مع الادباء الذين لم تستحصد ملكاتهم ، ولم ترسخ في اللغة أقدامهم ، لكان أمرا محمودا ، ولكنه كان مع الادباء الكبار الذين اذا خرجوا عن الاطار اللغوي العام ، خرجوا عن قصد وبينة ، فكان من المفروض أن : « يحتج بهم على اللغة ، ولا يحتج باللغة عليهم ، ما دامت اللغة كائنا حيا تتطور وعقلية من يتكلمونها[٢٤] » •

---

(٢٣) دلائل الاعجاز : ٢١٥ •
(٢٤) في الادب والنقد : ٢٠ •

وكان حريا بالنقاد المتزمتين ان يستأنسوا بما في القرآن الكريم من خروج في غير موضع عن قواعد النحو الشكلية ، وذلك لمتطلبات بيانية وبلاغية ، فطن لها بعض علماء البلاغة . من ذلك استعماله الافراد بدل التثنية في قوله تعالى : « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى[٢٥] » . او تقديم الضمير على ما يفسره في الآية « فأوجس في نفسه خفية موسى[٢٦] » . أو الاخبار عن ضمير الجمع بالمفرد في قوله تعالى « فاتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين[٢٧] » . او عطف فعل مسند الى مفرد على فعل مسند الى جمع في قوله تعالى « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام[٢٨] » .

ب ـ عدم التفريق بين الخطا والتطور :

ان كل لغة يعروها مع الزمن شيء من التحول ، وذلك لصلتها الوثيقة باحوال متكلميها ، والعربية ـ على الرغم من تمتعها بقسط كبير من الاستقرار اذا ما قيست بغيرها من اللغات ـ لم تتوقف يد التطور عن العمل فيها . ولكن النقاد المتزمتين نظروا الى التطور الطبيعي على انه خطر ، تجب حماية اللغة منه .

ونحن لا نشك في ان حماية اللغة من أهم واجبات الناقد اللغوى ، لان التفريط فيها ، وفتح الباب على مصراعيه امام عوامل التغيير ، معناه القضاء عليها . الا ان الحماية لا تتحقق بالتزمت ، او بتحجير اللغة ، وانما تتم بضرب من المحافظة المعقولة التي تسمح بقدر من التطور اذا كان حسنا ، وقائما على اسس ومسوغات . فلا بد لمن يتصدى لحماية اللغة ان يعمل على نموها ، وان يؤمن بانها كائن حي ، او أشبه بشجرة نامية ، تحتاج بين الحين والآخر الى تجديد في غذائها ، وتشذيب لما جف من اغصانها ، لتبقى حية سامقة ، ولتظل

---

(٢٥) سورة طه . آية : ١١٨ .
(٢٦) سورة طه . آية : ٦٧ .
(٢٧) سورة الشعراء . آية : ١٦ .
(٢٨) سورة الرحمن . آية : ٤١ .

قوية ومزدهرة • ولا بد له ايضا من : « التفريق بين ماهو خطأ وانحراف وما هو توليد وتجديد وتطور فكلاهما حدث جديد في اللغة ، وتبديل في بعض ظواهرها ، ولكن الخطأ تبديل يخالف خصائص اللغة ، وسنن نموها ، وناموس حياتها ، وقواعد فطرتها ، ويخل بنظامها •••• وأما التجديد والتطور فهو تبديل واحداث يجرى وفقا لسننها ، وينساق مع فطرتها ، وينقاد لقواعدها ، ويوافق روحها وخصائصها[٢٩] » • ولابد له أخيرا من ان يدرك ان « اللغة كائن مرموق يستحيل وضعه في وعاء واحد ، او الحكم عليه ليسير في خط محدد[٣٠] » •

واذا وضع الناقد اللغوي هذه الحقائق امام عينيه ، لم يتردد في قبول بعض الظواهر التي تعرض للغة ، او تجد فيها ، اذا كانت مما يوافق روحها ، وينساق مع طبيعتها ، وسنن التعبير بها •

ولكن المتزمتين لم يسلموا بهذه الحقائق ، فراحوا يمنعون اى دم جديد ينساب في عروق اللغة ، ويقضون على كل حدث فيها بأنه خطأ • والذي حملهم على موقفهم هذا هو غيرتهم على اللغة ، ورغبتهم الشديدة في ذب عوامل الفساد عنها ، فكان بعض الذي فعلوه لا يقل خطرا على اللغة من الفوضى ، والخروج عن القواعد والاصول ، لان حماية اللغة ، او المحافظة عليها تعني : « تحريرها من الجمود والعقم من جهة ، ومن الفوضى والخروج على قواعد اللغة[٣١] » من جهة أخرى •

فالموقف دقيق • والسبيل شائكة ، ولابد لمن يتولى حماية اللغة ، من ان يدقق فيما يعرض لها ، ويطرأ عليها ، ليفرز ماهو خطأ لا يمت الى روح اللغة ، ولا يتفق مع فطرتها وخصائصها ، وما هو تطور وتجديد يجرى على وفق سننها ، وينقاد لنظامها وقواعدها •

---

(٢٩) خصائص العربية : ٦٧ •
(٣٠) اللغة والحضارة : ١٢٨ •
(٣١) خصائص العربية : ٦٧ •

أما اللغويون المتزمتون فلم يفرقوا بين الخطأ والتطور ، ورأوا أن تقف العربية عند الحدود التي رسمها لها عرب الجاهلية وعرب القرنين الاول والثاني . لقد اعترفوا بكل ظواهر التطور التي عرضت للعربية في تلك الحقبة ورفضوا ما حدث من هذه الظواهر بعدها ، ونظروا اليها على أنها لحن وخطأ تجب مقاومته . فابن السكت يقول مثلا : « وتقول هي اللبؤة نهذه اللغة الفصيحة ، ولبوة لغة » [٣٢] فيعترف بكلمة (لبوة) غير مهموزة ، لانها سمعت عن بعض العرب ، ثم يقول بعد ذلك : « وهو عامر بن لؤي والعامة تقول لوي بلا همز ، وتقول طيىء تفعل كذا ، والعامة تقول طي" تفعل كذا » [٣٣]، فلا يعترف بنطق كلمتي (لوى) و (طي) لانهما لم تسمعا عن العرب ، مع ان ترك الهمز فيهما لا يختلف عن ترك الهمز في لبوة [٣٤] .

ومثل ذلك قوله : « وقد فقأت عينه ، لا تقل فقيت » [٣٥] ، مع انه كان قد اعترف بان العرب قالت : « وقد استخذأت له وخذأت ، وخذيت لغة » [٣٦] . فتطور (فقات) الى (فقيت) مماثل لتطور (خذأت) الى (خذيت) ، ولكن التطور الذي عرض للكلمات في عصور الاحتجاج مسموح به ، وأما التطور المماثل ، الذي حدث بعد تلك العصور ، فمحكوم عليه بالخطأ .

ولم يكن التطور الذي أصاب المفردات العربية فيما سمي بعصور الاحتجاج ، مقصورا على أصواتها ، وأوزانها ، بل لحق معانيها ، ودلالاتها ، فاعترف اللغويون بهذا الضرب من التطور لانه تم في تلك العصور السعيدة الحظ ، فهذا ابن فارس مثلا ينقل لنا جملة من الالفاظ التي اكتسبت بعد مجيء

(٣٢) اصلاح المنطق : ١٤٦ .
(٣٣) نفسه .
(٣٤) لحن العامة والتطور اللغوي : ١٢٩ .
(٣٥) اصلاح المنطق : ١٤٩ .
(٣٦) نفسه .

الاسلام دلالات جديدة فيقول : « فكان مما جاء في الاسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق ، وان العرب انما عرفت المؤمن من الامان ، والايمان وهو التصديق ، ثم زادت الشريعة شرائط واوصافا ، بها سمي المؤمن بالاطلاق مؤمنا . وكذلك الاسلام والمسلم ، وانما عرفت منه اسلام الشيء ، ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء . وكذلك كانت لا تعرف من الكفر الا الغطاء والستر ، فاما المنافق فاسم جاء به الاسلام لقوم ابطنوا غير ما أظهروا ، وكان الاصل من نافقاء اليربوع ، ولم يعرفوا في الفسق الا قولهم فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرع بان الفسق الافحاش في الخروج عن طاعة الله عز وجل . ومما جاء في الشرع الصلاة ، واصله في لغتهم الدعاء . وقد كانوا عرفوا الركوع والسجود وان لم يكن على هذه الهيأة ... وكذلك الصيام اصله عندهم الامساك ويقول شاعرهم :

خيل صيام وأخرى غير صائمة   تحت العجاج وخيل تعلك اللجما

ثم زادت الشريعة النية وحظرت الاكل والمباشرة وغير ذلك من شرائع الصوم . وكذلك الحج لم يكن عندهم فيه غير القصد وسبر الجراح ، من ذلك قولهم :

واشهد من عوف حلولا كثيرة   يحجون سب الزبرقان المزعفرا

ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشعائره . وكذلك الزكاة لم تكن العرب تعرفها الا من ناحية النماء ، وزاد الشرع ما زاده فيها ، مما لاوجه لاطالة الباب بذكره » (٣٧) .

ونص ابن فارس هذا يفصح عن ان بعض الالفاظ اصابها ما يعرف بالتطور الدلالي ، وهو ضرب من التطور لا يني يحدث في كل عصر ، ويصيب طائفة من المفردات ، الا ان اللغويين المتزمتين اعترفوا بما تم منه في عصر معين ، ثم حرّموه على العرب المتأخرين .

---

(٣٧) الصاحبي : ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .

فابن قتيبة مثلا رفض التطور الدلالي الذي اصاب عددا من المفردات ، ودعا الادباء الى استعمال تلك المفردات في المسموع من معانيها فحسب ، فكلمة (الطرب) قد تخصصت دلالتها ، وصارت تطلق على (الفرح) دون الجزع ، الا ان ابن قتيبة رفض هذا التخصيص ، ودعا الى استعمال الكلمة بالمعنيين [٣٨] ، وكلمة (المأتم) تخصصت دلالتها ايضا ، وصارت تعني اجتماع الناس لمصيبة ، فوصم ابن قتيبة هذا التطور في دلالة الكلمة بالخطأ ، وقال : « انما المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر » [٣٩] ، وكلمة (القافلة) اتسع مدلولها ، وأصبح أعم مما كان عليه ، فهي تعني قديما (الرفقة العائدة من السفر) لانها من (قفل) أي رجع ، ثم صارت تعني الرفقة المسافرة او العائدة . الا ان ابن قتيبة رفض هذا التعميم والاتساع في دلالة الكلمة ، وحكم عليه باللحن [٤٠] ، واتسعت دلالة (يتصدق) فصار الناس يقولون « فلان يتصدق اذا اعطى ، وفلان يتصدق اذا سأل » [٤١] فقال ابن قتيبة: « وهذا غلط . والصواب : فلان يسأل وانما المتصدق المعطي » [٤٢] .

وانتقلت دلالة بعض الكلمات ، وتغير مجال استعمالها فوقف ابن قتيبة من هذا التطور موقفه من تخصيص الدلالة او تعميمها ، ووصمه بالخطأ أيضا .

ومن أمثلة انتقال الدلالة قوله : « من ذلك أشفار العين : يذهب الناس الى انها الشعر النابت على حروف العين ، وذلك غلط ، انما الاشفار حروف العين التي ينبت عليها الشعر ، والشعر هو الهدب » [٤٣] ، وقوله « ومن

---

(٣٨) أدب الكاتب : ١٨ .
(٣٩) نفسه : ٢٠ .
(٤٠) نفسه .
(٤١) نفسه : ٢١ ، ٢٢ .
(٤٢) نفسه : ٢٢ .
(٤٣) نفسه : ١٧ .

ذلك الحشمة : يضعها الناس موضع الاستحياء ، قال الاصمعي : « وليس كذلك انما هي بمعنى الغضب » [٤٤] .

وكان موقف الامدي شبيها بموقف ابن قتيبة ، فقد رفض انزلاق الالفاظ عما وضعت له ، ووصم أبا تمام بالخطأ لانه استعمل بعض الالفاظ في غير المسموع من معانيها . قال ابو تمام :

وصنيعة لك ثيّب أهديتها وهي الكعاب لعائذ بك مصرم
حلت محل البكر من معطى وقد زفت من المعطي زفاف الأيّم[٤٥]

فخطأه الامدي لانه استعمل (الايم) بمعنى (الثيّب) . قال الامدي : « الايم هي التي لا زوج لها بكرا كانت او ثيّبا . قال الله عز وجل : وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم) افتراه اراد انكحوا الثياب من النساء دون الابكار ؟ انما اراد تبارك اسمه انكحوا النساء اللواتي لا أزواج لهن . فالثيب والبكر ، والصغيرة والكبيرة ممن لا زوج لها تدخل في الآية ، قال الشماخ :

يقر بعيني ان أحدث انها وان لم أنلها أيم لم تزوّج

وهذا هو المعنى المعروف في كلامهم » [٤٦] .

وقد علق احسان عباس على نقد الامدي هذا قائلا : « ان الالفاظ تنزلق احيانا انزلاقا يسيرا عما وضعت له بمرور الزمن ، وهذا مبدأ لا يحترمه أمثال الامدي القائلون بالتدقيق » [٤٧] .

---

(٤٤) أدب الكاتب : ١٩ .
(٤٥) يريد ان هذه الصنيعة ثيب عندك ، لانك قد اصطنعت مثلها مرارا ، وهي الكعاب ــ يريد البكر ــ عند هذا العائذ بك ، لانها اول ما اصطنعت اليه ، او لانها اكبر صنيعة صنعتها عنده . والمصرم : القليل المال .
(٤٦) الموازنة : ١/١٥٩ .
(٤٧) تاريخ النقد الادبي : ١٧٩ .

وقال ابو تمام يصف فرسا :

ما مقرب يختـال في اشطانـه ملان من صلف بـه وتلهـوق

فخطاه الامدي أيضا لانه استعمل (الصلف) بغير المسوع من معناها. قال الامدي : « قوله (ملان من صلف به) يريد التيه والكبر ؛ وهذا مذهب العامة في هذه اللفظة ، فاما العرب فانها لا تستعملها على هذا المعنى وانما تقول : قد صلفت المرأة عند زوجها ، اذا لم تحظ عنده ؛ وصلف الرجل كذلك ، اذا كانت زوجته تكرهه ... والصلف الذي لا خير عنده »[48] .

فانتقال دلالة كلمة (الصلف) ، وتغير مجال استعمالها ، أمر لا بأس باقراره ، والتسليم به ، لان له في العربية نظائر كثيرة ، وهو على ذلك ليس خطأ وانما هو من باب التطور والتجديد في معاني المفردات .

وعلى هذا فمن الجمود المنافي لروح اللغة وخصائصها ، ومن التضييق الذي لا مسوغ له ، ان يمنع ابن قتيبة والامدي ، وسواهما من المتزمتين ، اكتساب عدد من المفردات دلالات جديدة .

جـ ـ التمسك بالافصح :

لم تكن القبائل العربية في نظر المتزمتين سواء من حيث الفصاحة ، بل كان بعضها فصيحا ، موثوقا بكلامه ، وكان بعضها مطّرحا ، لا يؤخذ بما يروى عنه ، ويعزى اليه من صيغ واستعمالات . وقد أدت هذه النظرة الى اهدار كثير من كلام العرب ونبذه ، والحكم عليه بالشذوذ او الندرة او الضعف وعدم السماح للمنشئين بالتكلم به ، أو النسج على منواله .

قال ابن جني عن الاصمعي : « ومعلوم كم قدر ما حذف من اللغة ، فلم يثبته لانه لم يقو عنده »[49] . وروى ابن خالويه في شرح فصيح ثعلب قول ابي حاتم : « كان الاصمعي يقول أفصح اللغات ، ويلغي ما سواها ، وابو

(٤٨) الموازنة : ١/٢٢٤ .
(٤٩) الخصائص : ٣/٣١١ .

زيد يجعل الشاذ والفصيح واحدا فيجيز كل شيء قيل • قال : ومثال ذلك ان الاصمعي يقول : حزنني الامر يحزنني ولا يقول أحزنني • قال ابو حاتم : وهما جائزان ، لان القراء قرأوا (لا يحزنهم الفزع الاكبر) و (لا يحزنهم) جميعا بفتح الياء وضمها » [٥٠] •

وقد نهج هذا النهج كثير من النقاد اللغويين ، فحرّموا صيغا ، وانكروا مفردات ، لا لشيء الا لانها أثرت عن قبائل لا يثقون بفصاحتها ، أو لانها ليست من الشائع او المعروف في كلام العرب •

وكان ابن قتيبة ممن سلك سبيل التشدد ، واحتضن مذهب الاصمعي فوسم باللحن والخطأ اشياء كثيرة صحيحة [٥١] • وقد رد ابن السيد البطليوسي على ابن قتيبة في اشياء جعلها من اللحن اعتمادا على ما رواه ابو حاتم عن الاصمعي ، وكان ينبغي ان يقبلها لان غير الاصمعي من اللغويين قد أجازوها ، أو كان ينبغي له : « الا يجحد شيئا وهو جائز من أجل انكار بعض اللغويين له » [٥٢] •

وكان الزبيدي من المتزمتين الذين دعوا الى استعمال أفصح ما وعت اللغة من صيغ ومفردات ، كما كان يعيب ابا زيد لتسامحه ، وتجويزه للشاذ والقليل ، ويقول عنه : « كان ابو زيد يتسع في اللغات ••• وكل ما اتسع في اللغات فهو شر » [٥٣] • وقد وردت في كتابه (لحن العامة) نقول كثيرة عن الاصمعي وابن قتيبة ، وهما معروفان ، كما قلنا بالتشدد ، وبالاخذ بالافصح [٥٤] •

---

(٥٠) المزهر : ٢٣٢/١ ، ٢٣٣ •
(٥١) الاقتضاب : ٢١٦ •
(٥٢) نفسه : ١٠٦ •
(٥٣) طبقات الزبيدي : ١٨٢ •
(٥٤) ابو بكر الزبيدي وآثاره في النحو واللغة : ٤٠٧ وتنظر ص ٦٩ من هذه الرسالة •

وقد مرّ بنا ان الحريري كان قد تشدد في كتابه (درة الغواص) وحكم على كثير من الاستعمالات بالخطأ ، فرد عليه ابن برى والشهاب الخفاجي ، واثبتا ان العرب قد تكلمت بتلك الصيغ والاستعمالات [٥٥] .

وكان الادباء والمنشئون ، كما تقدم ، يتاسون هذا التزمت ، ويوصمون باللحن أو الخطأ اذا نحوا في كلامهم منحى لغة قليلة ، أو نادرة ، أو جاروا في استعمالهم تلك القبائل المطرحة ، أو المرغوب عن لهجاتها .

ولم يحاول المتزمتون من النقاد ان يتأسوا بما في كلام الفصحاء انفسهم من استعمالات ضعيفة ، او نادرة ، أو ردوها وهم على علم بضعفها ، وقلة من يتكلم بها من العرب . مثال ذلك قول الفرزدق :

كلاهما حين جد الجرى بينهما قد اقلعا وكلا أنفيهما رابي

« فقوله : كلاهما قد اقلعا ضعيف ، لانه حمل على المعنى ، وقوله : وكلا أنفيهما رابي قوي ، لانه حمل على اللفظ » [٥٦] . وقول ابن قيس :

لئن فتنتني لهي بالامس افتنت سعيدا فاضحى قد قلى كل مسلم

لان : « فتن أقوى من أفتن ، حتى ان الاصمعي لما أنشد هذا البيت شاهدا لافتن قال : ذلك مخنث ولست آخذ بلغته . وقد جاء به رؤبة الا انه لم يضمه الى غيره ، قال :

يُعرضْن اعراضا لدين المفتن » [٥٧]

وقد علل ابن جني ظاهرة ايراد الفصحاء لما ضعف من الاستعمالات بأنهم انما يفعلون ذلك لانهم يرغبون في توسيع مجال القول على أنفسهم ولانهم يعتزون بجميع اللغات ويكرهون ان يفرطوا في شيء منها ، قال ابن جني :

« وقد يستعملون من الكلام ما غيره آثر في نفوسهم منه ، سعة في التفسح ، وأرخاء للتنفس ، وشحا على ما جشموه فتواضعوه ،

---

(٥٥) تنظر ص٧٨ ، ٧٩ من هذه الرسالة .

(٥٦) الخصائص : ٣/٢١٤ .

(٥٧) الخصائص : ٣/٢١٥ .

أن يتكارهوه ، فيلغوه ويطرحوه ، فاعرف ذلك مذهبا لهم ، ولا تطعن عليهم متى ورد عنهم شيء منه »[٥٨] . وقال في موضع آخر : ووجه الحكمة في الجمع بين اللغتين القوية والضعيفة في كلام واحد هو أن يروك ان جميع كلامهم ـ وان تفاوتت احواله فيما ذكرنا وغيره ـ على ذكر منهم ، وثابت في نفوسهم ، نعم ، وليؤنسوك بذاك ، حتى انك اذا رأيتهم وقد جمعوا بين ما يقوى ويضعف في عقد واحد ، ولم يتحاموه ولم يتجنبوه ، ولم يقدح اقواهما في أضعفهما ، كنت اذا افردت الضعيف منهما بنفسه ، ولم تضمه الى القوى فيتبين به ضعفه ، وتقصيره عنه ، آنس به ، واقل احتشاما لاستعماله »[٥٩] .

فابن جني هنا يمنح المنشيء حرية في تعامله مع اللهجات ، ويسمح له بان يتكلم بما شاء منها ، أسوة بالقدماء من شعراء العربية ، الذين كانوا لا يتورعون عن استعمال ما سماه المتزمتون فيما بعد ، بالضعيف أو المرذول من اللهجات.

لقد كان فصحاء العرب ، وهم القدوة في هذا الشأن ، يحترمون اللهجات جميعا ، ولا يفضلون بعضها على بعض ، كما افصح عن ذلك ابن جني ، وأتى بما يثبته من الشواهد ، الا ان النقاد المتزمتين أبوا ان يفيد المنشئون من ثراء العربية ، وتعدد لهجاتها ، وكثرة قبائلها ، وراحوا يصنفون الكلام الى قوي وضعيف ، أو كثير وقليل ، ثم يدعون الى استعمال القوى والتجافي عن غيره ، فاذا عثروا على ما تواصفوه بالضعف ، وحكموا عليه بالقلة ، رفضوه ، وأوسعوا قائله لوما وتعنيفا .

وهكذا غلب الجمود على عدد غير قليل من النقاد واللغويين واتسمت آراؤهم بالتزمت ، وقد تجلى جمودهم وتزمتهم في مظاهر ثلاثة ، هي الاحتكام الى القديم والتقيد بالعرف اللغوي ، وعدم التفريق بين الخطأ والتطور ، ثم التمسك بلغات عدد نزر من القبائل ، والحكم على لغات القبائل الاخرى بالبعد من الفصاحة .

---

(٥٨) الخصائص : ٣١٩/٣ .
(٥٩) نفسه : ٣١٧/٣ .

ولم تمر ظاهرة الجمود في النقد اللغوي ، دون ان تترك أثرا كبيرا في الشعر العربي ، فقد ظل الشعراء لا يجرؤون على التغيير ، أو الافلات مما رسمه المتزمتون من مناحي التعبير ، وطرق الصياغة ، وظلت اقوال المتزمتين تطاردهم ، وتسفه كل جديد يأتون به ، لان ذلك الجديد : « خلاف ما عليه العرب » [٦٠] أو : « ضد ما نطقت به العرب » [٦١] أو « ليس على طريقة العرب ولا مذاهبهم » [٦٢] .

لقد قيد المتزمتون « الاسلوب والقالب ولم يحفلوا بضرورة تطوره » [٦٣] ، فادى ذلك الى ان يركد الشعر العربي ، ويظل محتفظا بنمطية ثابتة ، وان يشيع فيه ما يمكن ان نسميه بـ (اسلوب الذاكرة) ، ونعني به الاسلوب القائم على استخدام « التعابير المحفوظة التي طال استعمالها حتى هزلت وامحت معالمها ، كالنقود التي ياكلها التحات من كثرة التداول » [٦٤] .

وكيف لا يشيع مثل هذا الاسلوب ، والنقاد يدعون الى ان يجري المتأخر بريح المتقدم ، ويرفضون ان يتكيء الشاعر على نفسه ، ويأتي بما لم يألفه القدامى من أنماط الصياغة ، ووجوه التعبير . وكيف لا يشيع مثل هذا الاسلوب ، اذا وجد الشعراء ان الاجادة لا تكون الا بتقليد الاوائل ، والسير على درب السابقين .

ولكن ، اذا كنا هنا نحمل النقاد المتزمتين ما أصاب الشعر العربي من جمود ، فاننا لا نعفي الشعراء من التبعة ، ذلك : « لان النقد انما يستمد تطوره من تطور الفن ، وينسحب على اذياله » [٦٥] . بمعنى ان الشعراء كان بوسعهم ــ لو تهيأت لهم الموهبة اللازمة ــ ان يخرجوا من الاطر اللغوية

---

(٦٠) الموازنة : ١٩٩/١ .
(٦١) نفسه : ١٤٢/١ .
(٦٢) نفسه : ١٩٥/١ .
(٦٣) النقد الجمالي : ١٤٩ .
(٦٤) في الادب والنقد : ٢١ .
(٦٥) النقد الجمالي : ١٤٩ .

المالوفة ، التي رسمها لهم المتزمتون ، كما فعل ابو تمام ، حين أقدم على استعمالات لغوية جديدة ، الا تكن نالت استحسان المتزمتين ، فقد تيّض لها نقدة منصفون ، يستطيعون هضم الجديد ، فاحتفلوا بها ، وانتصروا لقائلها •

فالشاعر ـ اذا تهيأت له الادوات اللازمة ـ يستطيع ان يغير مسار النقد ، ويحدث حركة في قيمه وأحكامه •

ثانيا ـ التعصب للمنشيء او عليه : .

وهذا عيب آخر من عيوب النقد اللغوي يجده الدارس بوضوح في بعض ما وصل الينا من احكام ونظرات نقدية • ومهمة الناقد هي عرض النتاج الادبي : « على الذوق المهذب ، والمقاييس المسلّمة ثم الانتهاء من كل ذلك الى تقرير الحقيقة التي يقرها العقل ، ويرضى عنها الذوق ، سواء أكانت في صالح الشاعر أم في غير صالحه ••• » [٦٦] • ومعنى ذلك ان سمة الناقد الاولى هي التجرد ، والبعد من الاهواء الشخصية ، لتسلم نظرته ، وتصح النتائج التي يصل اليها •

ولكن عددا من نقادنا لم يصدروا عن هذه الروح المتجردة ، ولم تسلم نظرتهم الى النصوص التي ينقدونها من الهوى الاسر ، والغرض المضل • وسواء بعد ذلك ان يكون الهوى مع النص او عليه ، أو يكون الغرض باعثا على الدفاع او الهجوم ، فكلا الموقفين مذموم ، لا نستطيع ان نسمي اصحابهما نقادا ، أو باحثين •

لقد تعصب غير واحد من نقادنا لشاعر معين ، أو مجموعة من الشعراء ، فأدّاهم التعصب الى ان يتقبلوا الخطأ ، بعد أن يتأولوه ، ويلتمسوا له تخريجا، او يرتضوا الرديء الذي يرفضه الذوق ، وتأباه المقاييس •

---

(٦٦) المتنبي بين ناقديه : ٢٧٦ •

كما تعصب عدد آخر من النقاد على شاعر او مجموعة من الشعراء ، فجرّدوهم من كل احسان ، ونسبوا اليهم كل نقيصة ، ولم يتورعوا عن اختلاق العيوب ودسها على من تكارهوه ، وتعصبوا عليه .

فمن أمثلة النظرات النقدية التي أملاها التعصب ، ما زعمه اللغويون المتقدمون من ان الشاعر القديم لا يخطيء في اللغة ، لانه يملكها فطرة وسليقة ، والسليقة عندهم ترتبط بالجنس والوراثة [٦٧] ، ومعنى ذلك انه لا يمكن لغير الشخص العربي ان يتقن اللغة العربية اتقانا تاما كما يتقنها الجنس العربي [٦٨] .

وتبعا لهذه النظرة ارتابوا في فصاحة الموالي ، وأبوا ان يحتجوا بأقوالهم، أو بمروياتهم . واتفق الرأي على أن الذي يحتج به في الشؤون اللغوية : « هو كلام العربي الاصيل الذي لا مجال لاتهامه او تجريحه » [٦٩] .

وتيجة لذلك قبلوا كل ما وصل اليهم من الشعر القديم ، ونظروا اليه على انه حجة لا تنقض ، ولو خالف القياس ، أو الشائع والمألوف في اللغة . وكانوا اذا وقفوا في شعر شاعر جاهلي ، أو اسلامي متقدم ، على اخلال ببعض القواعد ، أو خروج عن المألوف اضطره اليه الوزن او القافية ، راحوا يلتمسون له المعاذير والحيل ، ويتكلفون له التأويل والتخريج ، فان لم يسعفهم تأويل او تخريج ، غيروا رواية البيت ليجعلوه متفقا مع القاعدة .

ومن الامثلة على ذلك ما صنعوه في بيت الفرزدق المشهور :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع   من المال الا مسحتا او مجلّف

فقد رفع الفرزدق (مجلف) وحقها أن تنصب ، وما فعل ذلك الا ان القافية قهرته عليه . غير ان اللغويين والنحاة أبو ان يعترفوا بخطأ الفرزدق ،

---

(٦٧) فصول في فقه العربية : ٧٩ ، ١٤٢ .
(٦٨) نفسه .
(٦٩) في اصول النحو : ١٩ .

وكبر عليهم ان يتصوروا ان شاعرا يسلك اللغة فطرة وسليقة ، يخل باللغة من أجل قافية ، فذهبوا في الدفاع عن الفرزدق كل مذهب .

ففي الخصائص : « فأما قولهم : وَدَعَ الشيء يدع ـ اذا سكن ـ فاتدع فمسموع متبع ، وعليه أنشد بيت الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يَدَعْ من المال الا مسحت او مجلّف

فمعنى (لم يَدَع) ـ بكسر الدال ـ اي لم يتدع ولم يثبت ، والجملة بعد (زمان) في موضع جر لكونها صفة له ، والعائد منها اليه محذوف للعلم بموضعه ، وتقديره : لم يدع فيه او لأجله من المال الا مسحت او مجلّف ، فيرتفع (مسحت) بفعله ، و (مجلف) عطف عليه ، وهذا أمر ظاهر ، ليس فيه من الاعتذار والاعتلال ما في الرواية الاخرى » [٧٠] . وفي الانصاف : « فرفع مجلف على الاستئناف فكأنه قال : أو مجلف كذلك » [٧١] . وعلى كثرة ما جاء به النحاة من تأويلات وتخريجات لخطأ الفرزدق فأنهم : « لم يأتوا فيه بشيء يرضى » [٧٢] . وكان ابن قتيبة قد علق على تأويلات النحاة هذه قائلا : « ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر ان كل ما أتوا به من العلل احتيال وتمويه » [٧٣] .

ومن ذلك أيضا قول جرير :

ولو ولدت لعنزة جرو كلب لسبّ بذلك الجرو الكلابا

« فنصب الكلاب بغير ناصب ، وقد تحيل له بعض النحويين بكلام كالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع » [٧٤] .

(٧٠) الخصائص : ٩٩/١ ، ١٠٠ .
(٧١) الانصاف في مسائل الخلاف : ١٨٩/١ .
(٧٢) العقد الفريد : ٣٦٢/٥ .
(٧٣) الشعر والشعراء : ٨٩/١ .
(٧٤) اعلام الكلام : ٢٧ .

ويطول بنا القول لو مضينا نستقري الاخطاء التي ارتكبها الشعراء الذين عاشوا فيما عرف بعصور الاحتجاج ، ثم نورد التأويلات والتخريجات التي تكلفها اللغويون والنحاة لتلك الاخطاء •

ويبدو ان هذه النظرة التي اسبغت العصمة على الشعراء القدماء ، لم يتد بها الزمن ، فقد ظهر في القرن الرابع نقاد ولغويون نظروا الى اللغة على انها شيء يكتسب ، وان مكتسبها عرضة لان يزل فيها ، ويخل بشيء من قواعدها ، لهذا العامل أو ذاك ، وان احدا مهما بلغت منزلته ، وأيا كان عصره ، غير معصوم من الخطأ اللغوي • وكان الجدير بقدماء اللغويين ان يعترفوا بهذه الحقيقة ، ويحفظوا على نفوسهم ما بذلوه من جهد في تخريج الاخطاء ، والتماس التأويلات لها •

ومن هؤلاء النقاد الامدي ، فهو يقول : « اللحن لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ، ولا سلم منه شاعر من شعراء الاسلاميين ، وقد جاء في اشعار المتقدمين ما علمتم من الاقواء وغير الاقواء ، مما لا يقوم العذر فيه الا بالتأويلات البعيدة »[٧٥] •

وعبدالعزيز الجرجاني يقول : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية والاسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه ، اما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه او اعرابه ؛ ولو أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم انهم القدوة والاعلام والحجة ، لوجدت كثيرا من اشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ، لكن هذا الظن الجميل ، والاعتقاد الحسن ستر عليهم ، ونفى الظنة عنهم ، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب ، وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام »[٧٦] •

---

(٧٥) الموازنة : ١/٢٨ •
(٧٦) الوساطة : ٤ •

وابن فارس يقول : « وما جعل الله الشعراء معصومين يوقون الخطأ والغلط ، فما صح من شعرهم فمقبول ، وما أبته العربية واصولها فمردود » (٧٧) .

ويقول : « ان الشعراء يخطئون كما يخطيء الناس ، ويغلطون كما يغلطون ، وكل الذي ذكره النحويون في اجازة ذلك ،والاحتجاج له جنس من التكلف » (٧٨) .

ولم يسلم ابن جني بامكان صدور الخطأ عن العربي القديم فحسب ، بل أورد تعليلا لذلك ، كان قد ذهب اليه شيخه ابو علي الفارسي . قال تحت عنوان (باب في اغلاط العرب : « كان ابو علي رحمه الله يري وجه ذلك ويقول : انما دخل هذا النحو في كلامهم لانهم ليست لهم اصول يراجعونها ، ولا قوانين يعتصمون بها ، وانما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ، فربما استهواهم الشيء ، فزاغوا به عن القصد » (٧٩) . ثم ساق ابن جني أمثلة من أخطاء العرب الاقدمين ، منها : « قولهم حلأت السويق ورثأت زوجي بابيات ، واستلأمت الحجر ولبّأت بالحج ، وقوله :

كمشترىء بالحمد أحمرة بترا » (٨٠)

ومنها قول بلال بن جرير :

اذا ضفتهم او سآيلتهم وجدت بهم علة حاضره

« أراد : ساءلتهم (فاعلتهم) من السؤال : ثم عزّ له أن يبدل الهمزة على قول من قال (سايلتهم) فاضطرب عليه الموضع ، نجمع بين الهمزة والياء، فقال : سآيلتهم ، فوزنه على هذا (فعاعلتهم) » (٨١) .

---

(٧٧) الصاحبي : ٢٧٦ .
(٧٨) ذم الخطا في الشعر : ٣١ .
(٧٩) الخصائص : ٢٧٣/٣ .
(٨٠) نفسه : ٢٧٩/٣ .
(٨١) نفسه : ٢٨٠/٣ .

وكلام ابن جني يدل على أن سبب وقوع الغلط من العرب القدامى هو أنهم كانوا يتكلمون سليقة وطبيعة من غير معرفة بالقواعد والقوانين التي استقريت من كلامهم فيما بعد [٨٢] . ومعنى هذا ان معرفة القواعد تمنع الخطأ ، أو تحول دونه . والحقيقة أن الخطأ في اللغة لا ينجم دائما عن الجهل بقواعدها ، وانما ينشأ عن الجهل حينا وعن عوامل أخرى لمح بعضها القدامى، وفصّلها المحدثون [٨٣] .

فسواء أكان المتكلم يجري على فطرته ، ويتساند الى طبعه اللغوي الذي طبع عليه ، وأخذه من بيأته ، دون ان يعلم بالعلل والقوانين التي يخضع لها في نطقه أو تركيب كلامه ، أم كان يعرف القواعد التي تحكم لغته ، فان احتمال وقوعه في الخطأ اللغوي غير بعيد .

ولو أن قدماء اللغويين والنحويين فطنوا الى هذه الحقيقة ، أو أعترفوا بها ، لما تحملوا مشقة الدفاع عما وجدوه من أخطاء عند الشعراء الذين عاشوا في عصور الاحتجاج .

واذا كان اللغويون المتقدمون تعصبوا للقدامى من الشعراء ، والتمسوا التخريجات لاخطائهم ، فانهم تعصبوا على الشعراء المحدثين ، وأسرفوا في استنكار أساليبهم والغض من شعورهم .

وكما وجدت ظاهرة التعصب لعصر أدبي أو عليه ، كذلك وجدت ظاهرة التعصب لشاعر واحد أو عليه . وأقرب مثال على ذلك هو المتنبي الذي التقى عنده جمعان من النقاد ، بعضهم له ، وبعضهم عليه . فأما الذين له فقد افرطوا في نصرته ، ودافعوا عن كل أقواله ، حتى أن احدهم اذا عثر : « على بيت مختل النظام ، أو نبّه على لفظ ناقص عن التمام ، التزم من نصرة خطئه ،

---

(٨٢) كان ابن جني قد ذهب في غير هذا الموضع الى عكس هذا المذهب فرأى ان العرب كانوا يعرفون العلل والقواعد التي تصرف كلامهم ، ينظر : الخصائص : ١/٧٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٨٣) ينظر مثلا : لحن العامة والتطور اللغوي : ٢٠ وما بعدها .

وتحسين زلله ، ما يزيله عن موقف المعتذر ، ويتجاوز به مقام المنتصر »[٨٤].
وأما الذين عليه فقد جردوه من كل حسنة أو مزية ، وغالى بعضهم فنحله أقوالا لم يقلها ، ليتسنى له تجريحه ، والطعن عليه . وقد مرت بنا الامثلة على هذا في فصل (الخصومة) [٨٥] .

يتضح من ذلك ان ظاهرة التعصب بارزة في نقدنا اللغوي ، وهي ظاهرة معيبة ، ساقت الى الكثير من المواقف الخاطئة .

ثالثا ــ الفصل بين اللفظ والمعنى (الشكل والمضمون) :

ومن عيوب النقد اللغوي ان اكثر النقاد في بحثهم لموضوع اللفظ والمعنى ، فصلوا بين هذين الركنين ، ولم يجمعوا بينهما ، ونظروا الى الالفاظ على انها كساء للمعنى ، أو وعاء موصل له .

والعمل الادبي ــ على وفق هذه النظرة ــ متكون من عنصرين متمايزين، يمكن لاحدهما ان ينفصل عن الاخر ، كما يمكن للكساء أن ينفصل ، أو كما يمكن للوعاء أن يوجد ، من غير ان يكون في داخله شيء .

وقد برزت فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى اولا عند المتكلمين في (خلق القرآن) . فقد ذهب هؤلاء الى : « التفرقة بين المدلول والدلالة في النص القرآني ، فالمدلول ــ وهو المعنى القائم بالنفس من الكلام ــ قديم ، وسابق في وجوده ، اما الدلالة ــ وهي العبارات أو الالفاظ التي يعبر بها المتكلم ــ فهي محدثة ، وعارضة . وكلام الله قديم من حيث معانيه ، لاتصاله بالذات الخالقة ، اما من حيث الفاظه المتصلة بالبشر المخلوقين فهو محدث ومخلوق » [٨٦] .

ثم انتقل هذا التصور الثنائي للعلاقة بين الالفاظ والمعاني من دائرة المتكلمين الى مباحث الادب بوجه عام ، والشعر بوجه خاص .

---

(٨٤) الوساطة : ٣ .
(٨٥) تنظر ص١١٨ وما بعدها من هذه الرسالة .
(٨٦) الصورة الفنية : ٣٨٢ وينظر : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام : ١٤٢ .

ثم جاء شرّاح أرسطو ، فعمقوا في النقاد فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى ، وجعلوها أكثر نضجا . لقد ذهب هؤلاء الشراح الى ان كل شيء مصنوع لابد له من صورة وهيولى (اي شكل ومادة) يتركب منهما . وقالوا ان العلاقة بين الاثنين وثيقة ، ثم قالوا : ان المادة الواحدة « يمكن ان تتشكل باشكال أو صور مختلفة ، تتفاوت قيمتها تبعا لما يحدث فيها من تأليف مخصوص ، أو نسبة بين الاجزاء » (٨٧) . فمن الممكن ان نجد اشياء كثيرة ، هيولاها واحدة ، وصورها مختلفة ، مثال ذلك « ... الباب والكرسي والسفينة وكل ما يعمل من الخشب ، فان اختلاف اسمائها انما هو بحسب اختلاف صورها ، فاما هيولاها التي هي الخشب فواحدة . وعلى هذا المثال يعتبر حال الهيولى والصورة في المصنوعات كلها ، لان كل مصنوع لابد له من هيولى وصورة يركب منها » (٨٨) .

ثم طبق النقاد هذا الفهم للعلاقة بين الصورة والهيولى على الشعر ، لانهم افترضوا ان الشعر صناعة مثل غيره من الصناعات .

ومما زاد فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى رسوخا ، فوق ما قدمناه ، هو التصور القديم للغة ، ذلك التصور الذي يفصل اللغة عن حركة الفكر ، ويجعلها (علامات) لاشياء ادركناها من قبل .

والنظر الى اللغة بوصفها علامات أو سمات : « لا يعني في جوهره الا فصل اللغة عن حركة الفكر ، وكأننا ندرك الاشياء ثم نسميها ، ونكون افكارا مستقلة عن العالم ، ثم نبحث لهذه الافكار عن علامات تشير اليها » (٨٩) .

وقد أشار الفخر الرازي الى هذا المفهوم للغة عندما قال : « ان الوضع

---

(٨٧) الصورة الفنية : ٣٨٣ .
(٨٨) رسائل اخوان الصفاء : ٦/٢ .
(٨٩) الصورة الفنية : ٣٨٧ .

لا يكون الا بعد التعقل » [٩٠] . ومعنى ذلك أننا نعقل الاشياء ، ثم نجيء لها بعد ذلك بعلامات تشير اليها .

فالعلاقة بين اللغة والفكر ـ على وفق هذا المفهوم ـ علاقة احتواء ، أو تجاور ، أي ان الالفاظ توضع بازاء الفكر ، فنحن ندرك أولا ، ثم نخلع على مدركاتنا ثوب اللغة ثانيا . أو بعبارة اخرى ان اللغة : « وسائل متميزة من الغايات ، واضافات طارئة على الفكر ، تضاف اليه اضافات خارجية ، لتحمل كساعي البريد غايات القائلين الى اذهان السامعين » [٩١] .

لقد عمّقت هذه المفاهيم فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى ، ووضعت لها مسوّغا فلسفيا أغرى النقاد بها ، وزادهم حرصا عليها .

وقد نتج عن فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى عدد من الاراء اللغوية والنقدية الخاطئة . فالجاحظ ذهب الى ان المعنى يمكن ان يوجد من غير لفظ يصوره ، او يعبر عنه [٩٢] .

وذهب اخوان الصفاء الى مثل هذا فقالوا : ان « كل معنى لا يمكن ان يعبر عنه بلفظ ما ، في لغة ما فلا سبيل الى معرفته[٩٣] » . ومؤدى هذا القول « ان هناك معاني يمكن ان توجد دون أن نعبر عنها بالكلمات[٩٤] » .

ولا شك في ان هذا الرأي غريب ، وان مصدقه ساذج ، فلا سبيل الى ان تصور ان هناك معنى ليس له لفظ يدل عليه ، لان وجود معنى يستلزم بالضرورة وجود الصورة التي تعبر عنه ، او اللفظ الذي يبرزه . والمعنى الذي لا تعبر عنه اللغة ليس معنى ، ولا وجود له ، لاننا لا نفكر الا باللغة ، وما كلماتنا الا المعاني نفسها : « وليس هناك (تعقل) يعقبه (وضع) وانما هناك وضع لا يفارق حركة التعقل [٩٥] » .

---

(٩٠) الصورة الفنية : ٢٨٧ .
(٩١) نفسه .
(٩٢) البيان والتبيين : ١/٧٥ ، ٧٦ .
(٩٣) رسائل اخوان الصفاء : ٢/١٠٩ .
(٩٤) الصورة الفنية : ٢٨٩ .
(٩٥) نفسه : ٢٩٠ .

وترتب على الفصل بين اللفظ والمعنى ان ابن قتيبة ذهب الى امكان وجود معنى جيد تعبر عنه الفاظ رديئة ، او العكس ، قال : « تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب : ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ... وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فاذا انت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ... وضرب منه جاد معناه وقصرت الفاظه عنه ... وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه[٩٦] » .

وذهب ابن المعتز الى قريب من هذا فعدّ : « الالفاظ والصور الفنية شكلا من اشكال التزيين للشعر ، ومن ثم كان المعنى عنده هو الجوهر ، والالفاظ وسائل من التزيين والتنميق[٩٧] » .

ولم يبتعد ابن طباطبا عن هذين الناقدين حين قرر ان المعنى الجميل يبقى محتفظا بجودته اذا عبر عنه بالفاظ رديئة ، كما ان المعنى القبيح يمكن ابرازه بالفاظ حسنة. قال ابن طباطبا :« وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه ؛ وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه[٩٨] » .

وصرّح قدامه بأن شكل العمل الادبي لا يتأثر بمضمونه ؛ ورأى الا ضير على الشاعر فيما يسوق من معان رفيعة كانت ام وضيعة ، وحميدة كانت ام ذميمة ، وحقا كانت أم كذبا ، ذلك ان : « المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة ، والشعر فيها كالصورة ... وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه[٩٩] » ، وكما لا يعيب جودة النجارة رداءة الخشب في ذاته ، كذلك لا تؤثر رداءة المضمون في جودة الشكل في العمل الشعري[١٠٠] .

وهذه الاحكام خاطئة ، وقد ساقهم اليها ايمانهم بانفصال شكل العمل الادبي عن مضمونه ، وعدم تأثر احداهما بالاخر . فالمعنى شيء ، والتعبير عنه

(٩٦) الشعر والشعراء : ٦٤/١ وما بعدها .
(٩٧) قضايا النقد الادبي والبلاغة ، ص ٢٨٤ .
(٩٨) عيار الشعر : ٨ .
(٩٩) نقد الشعر : ١٣ ، ١٤ .
(١٠٠) نفسه : ١٤ .

شيء آخر موضوع بازائه ، وكلاهما يحتفظ بجوهره وخصائصه على الرغم من تبدل الاخر واختلافه .

ان العلاقة بين لغة النص الادبي ومضمونه ـ في نظر هؤلاء النقاد ـ لا تتعدى علاقة الكساء بالجسم ، أو الغلاف الخارجي بما يحتويه ، وكل من هذين لا يؤثر ولا يتأثر بجوهر ما يحويه .

والحقيقة ان العلاقة بين لغة العمل الادبي ومضمونه لا تفهم على هذا النحو ، ولا يمكن بحال ان تشبه بعلاقة الكساء او الوعاء بما في داخلهما، اذ ان الكساء والوعاء يعرضان ما فيهما دون تأثير او تأثر جوهريين .

ولو صح ان علاقة لغة النص الادبي بمضمونه كعلاقة الكساء بالجسم ، او الوعاء بما يحويه ، ولو صح كذلك ان المعنى الجيد يمكن التعبير عنه بلفظ رديء مرة ، وبلفظ جيد مرة أخرى ، ثم تبقى له صفة الجودة في الحالتين ، لو صح هذا لامكن ان نستبدل ببعض كلمات النص الادبي كلمة أخرى ترادفها ، او تشبهها في المعنى دون ان يفقد السياق معناه ، او شيئا من خصائصه واذا كان هذا غير ممكن ادركنا ان لغة النص ليست كساء لمحتواه ، ولا غلافا خارجيا له ، يمكن استبداله على نحو ما تستبدل الاكسية والاغلفة ، دون ان يكون لاستبدالها أثر في جوهر ما تعرضه .

والقائلون بان معاني الشعر ليست بذات اثر فعال في شكله الخاجي : او صورته التي هي الغالبة ، او ان شكل الشعر ليس له أثر فعال في معانيه ، يستندون ـ كما يستند قدامة ـ الى حجة فلسفية ، مؤداها ان صورة الشيء لا تؤثر في هيولاه ، او المادة التي صيغ منها . فكما ان الخشب واحد لا يتغير بتغير صورته كان يكون بابا او كرسيا او سفينة ، فكذلك المعنى وهو هيولى الشعر ، يبقى واحدا مهما اختلف صوغه ، او تبدلت طريقة اخراجه والتعبير عنه .

وقد نفى عبدالقاهر تعدد الصياغة للمعنى الواحد ، وقرر عدم امكان بقاء المعنى في حال تغير صياغته ، واختلاف التعبير عنه . وفي هذا اعتراف

بتلازم الصورة والمضمون في العمل الادبي ، وتلاحمهما تلاحما يفضي الى ان يتغير أحداهما لما يطرأ على الاخر •

لقد أخطأ اذن عدد من النقاد حين ذهبوا الى ان الصياغة في العمل الادبي شيء طارىء على مضمونه ، طروء الكساء على الجسم ، او الوشي على الثوب ، او الغلاف على المحتوى ، فالحقيقة ان الصياغة شيء وثيق الاتصال بالمضمون ، وان كلا منهما مؤثر ومتأثر بالاخر ، ذلك لان المضمون يستدعي نمطا خاصا من عناصر التعبير ، ويعين ضربا من الصياغة ، بحيث يأتي كل عنصر في التعبير لاظهار عنصر مقابل له في التجربة ، او المعنى المراد تقديمه ، ويكون العنصران متلازمين ، يولدان في وقت واحد ، ثم لا يستغني احدهما عن الاخر ، ولا يمكن له ان يظهر بدونه • وان أي تبديل في اي منهما يعني تبديل الاخر • وهذا النحو من الترابط بين شكل العمل الادبي ومضمونه هو الذي يسميه المحدثون بالترابط العضوي ، تشبيها له بما يكون بين اعضاء الجسم الحي من ترابط •

والفصل بين الشكل والمضمون أدى الى خطأ آخر ، هو الاهتمام بالشكل ووقوف النقاد عنده في درس النصوص وتحليلها ، مغفلين شأن المعاني والافكار • ولذا نرى ان أغلب الاحكام التي وصلت الينا تتصل بالشكل الخارجي ، او باللفظ دون المعنى • ذلك لانهم جعلوا البراعة في الشعر : « لا تكمن في مادة المعاني او الافكار ، ولا تتصل بقيمة هذه المادة في ذاتها من حيث جلالها وهوانها ، او صدقها وكذبها ، انما تكمن في الشكل الذي تتخذه هذه المعاني وفي طريقة الصياغة التي تخيل للمتلقي أمرا من الامور ، فيفضي به الى اتخاذ وقفة سلوكية بعينها ، تتجلى في فعل او انفعال[١٠١] » •

وان كان الشعر ظاهرة : « لغوية في جوهرها لا سبيل الى التأتي اليها الا من جهة اللغة التي تتمثل فيها عبقرية الانسان ، وتقوم بها ماهية

---

(١٠١) الصورة الفنية : ٣٨٤ •

الشعر[102] » ، فان للغة النص صلة وثقى بالمضمون ، فالتعريج على ذلك المضمون والنظر فيه ، وبيان الصلة العضوية بينه وبين اللفظ او الشكل ، امور مهمة ، ينبغي للناقد ان يوليها عنايته ، ويصرف اليها اهتمامه .

ليس شكل العمل الادبي ، كما تقدم آتيا من العدم ، او قائما على فراغ ، وانما هو نابع من تجربة معينة ، ومن أفكار وخواطر ، أملت ذلك الشكل بعينه وما على الناقد إلا أن يبرز التلاحم العضوي بين الشكل وما وراءه من عالم باطني مكتنز بالاسرار .

ان العالم الخارجي للشعر ثمرة لعالم داخلي ، ومن ثم لا يكون عمل الناقد اللغوى تاما ، ولا تكون النتائج التي يتوصل اليها صحيحة ، اذا أغفل العالم الثاني ،وحبس بحثه ونظره على العالم الاول . وقد أغفل عدد من نقادنا نفس المنشىء وعالمه الداخلي ، ولم يروا لهما علاقة بنمط الصياغة التي يختارها ، فجاءت أحكامهم قاصرة ، تتناول اللفظ ، وتنصب على العبارة .

وقد علل عزالدين اسماعيل عناية النقاد القدامى بالشكل دون المحتوى بأمرين : ذهب في الاول الى ان العرب عامة ، كانوا يرون الجمال الظاهري ، وقلما اهتموا بما وراء الظاهر ، فشاعرهم حين يحدثنا عن صورة حبيبته يلح دائما على بيان الاجزاء الظاهرة من جسمها ، وقلما نجده يحدثنا عن الوفاء او الطيبة او الذكاء او الحنان او غير ذلك من معنويات ينطوي عليها ذلك الشكل الجميل . ولم تختلف نظرة النقاد الى النص عن نظرة اسلافهم الى صور محبوباتهم ، بمعنى أنهم وقفوا عند ظاهره المتمثل في الفاظه وصوره ، الى ان الشكل في العمل الأبي محسوس « والمحسوس يمكن تبيّن القاعدة التي يتبعها[104] » .

(١٠٢) التركيب اللغوي للادب (المقدمة) : هـ .
(١٠٣) الاسس الجمالية في النقد العربي : ١٧٦ .
(١٠٤) نفسه : ١٧٥ .

وعندي ان التفسيرين كليهما غير مقبولين ، ذلك لانهما ينطويان على اتهام العربي بقصور النظرة ، وعدم شموليتها ، او بالعجز عن رؤية الخفي ، والنفاذ الى ما وراء الظاهر •

والتعليل الصحيح لاهتمام النقاد بالشكل يقوم على أمرين : الاول ايمانهم باستقلال الشكل عن المضمون استقلالا يلغي ما بينهما من تفاعل ، والثاني عدم حفلهم بالمعاني ، وتهوينهم من شأنها في عملية الخلق الادبي ، تلك العملية التي ردوا صفات البراعة فيها الى الشكل دون المضمون •

رابعا ـ الجزئية :

ان كل دارس للنقد العربي عامة ، والنقد اللغوي خاصة ، يجد ان النقاد في كثير من الاحيان يلتزمون خطة لا يحيدون عنها ، وهي النظر في البيت الواحد ، والكلمة المفردة ، لا يلتفتون الى القصيدة ككل ، ولا يلقون عليها نظرة موحدة مجملة(١٠٥) •

لقد نظر النقاد الى كل بيت على انه قائم بنفسه ، لا يحتاج الى ما بعده لاتمام معناه ، فاذا لم يقم البيت بنفسه ، واحتاج الى الثاني عابوا الشاعر ، ورموه بالعجز • ومن هنا شبّه كثير منهم القصيدة بالعقد من الجوهر ، وكل بيت فيها جوهرة قائمة بنفسها ، مستقلة عن أختها •

وكما أفردوا البيت ـ عند نقده ـ عن القصيدة ، كذلك أفردوا الكلمة عن البيت ثم افردوا القصيدة عن نتاج الشاعر بأكمله • وجاءت احكامهم ـ تبعا لذلك ـ مشحونة بالخطأ ، غالية في القسوة ، بعيدة من طبيعة الفن الادبي •

لقد كان الناقد يسمع القصيدة ، فليتقط منها ما يناسبه ، او ينسجم مع ذوقه ، فيخصه بالنظر والنقد ، ثم يطرح سائرها ، او كان يسمع القصيدة فلا يلفت نظره منها سوى كلمة شذت عن مقاييس اللغة ، او اتست بثقل او كراهة ، فكم جنت كلمة على قصيدة ، وكم جنى بيت على ديوان •

---

(١٠٥) النقد الجمالي : ١٤٧ •

فهذا يونس بن حبيب يسقط قصيدة كاملة للاعشى بسبب كلمة (الطحال) التي وردت في أحد ابياتها . وكان يونس قد أصدر هذا الحكم الجائر على قصيدة الاعشى عندما أنشده مروان بن ابي حفصة لنفسه قصيدته التي اولها :

طرقتك زائرة فحيّ خيالها

قال يونس لمروان : « يا هذا اذهب فاظهر هذا الشعر ، فانت والله فيه أشعر من الاعشى ، يريد في قوله :

رحلت سمية غدوة اجمالها

فقال له مروان : قدة سؤتني وسررتني ، فاما الذي سررتني به فلارتضائك الشعر ، واما الذي سؤتني به فلتقديمك اياى على الاعشى . قال : نعم ، ان الاعشى قال :

فرميت غفلة عينه عن شاته فاصبت حبة قلبها وطحالها

والطحال لا يدخل في شيء الا أفسده ، وانت لم تقل ذاك[106] » .

وهذا ابن لنكك البصري يحكم على مصراع واحد من قصيدة بأنه يسقط دواوين كاملة . جاء في الوساطة ان ابن لنكك سمع قول المتنبي :

بقائي شاء ليس هم ارتحالا

فجعل يعجب من هذا المصراع من حضره ويقول :هل رأيتم أشد تعقيدا ، وأظهر تكلفا ، واسوأ ترتيبا من هذا الكلام . قال ـ يعني راوي الخبر ـ فقلت له : هب الامر على ما ادعيته ، وانا سلمنا لك ما زعمته ، اين أنت من قوله في اثر هذا البيت :

كأن العيس كانت فوق جفني مناخات فلما ثرن سالا

(١٠٦) الموشح : ٧٤ ، ٧٥ .

قال : فاستشاط غيظا ، ثم قال : هذا المصراع يسقط دواوين عدة شعراء[١٠٧] » .

ونجد ابن شرف القيرواني يحكم على قصيدة لجرير بالثقل لورود كلمة (بوزع) في أحد ابياتها ، وهي لفظة ثقيلة عندهم . قال جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصا   هلاّ هزئت بغيرنا يا بوزع

فقال ابن شرف : « وهذا البيت في قصيدة من أحلى قصائد جرير وأملحها وأجزلها وأفصحها ، فثقلت القصيدة كلها بهذه اللفظة[١٠٨] » .

وبسبب النظرة الجزئية ، وتطلبهم من البيت الواحد ان يستقل بمعناه رفضوا قول جرير :

فيالك يوما خيره قبل شره   تغيّب واشيه وأقصر عاذله

قال خلف : « ويله وما ينفعه خير يؤول الى شر ؟ ... الاجود له لو قال : فيالك يوما خيره دون شره[١٠٩] » . ولو ان خلفا ، ومن تبعه ، نظروا الى بيت جرير وهو في سياقه ، ولم يقتطعوه عما سبقه من أبيات ، لفهموا المراد ، ولم يغيروا رواية البيت ، ولنجا جرير من وصفهم اياه بأنه : « كان قليل التنقيح مشرد الالفاظ[١١٠] » . وبقي حكم خلف على بيت جرير مأخوذا به ، حتى جاء ابن رشيق ، ففطن الى فساد هذا الحكم ، وأدرك ان سببه هو النظر الى البيت مستقلا عما قبله . قال جرير :

وليل كابهام الحبارى محبّب   الـي هـواه ، غالـب لي باطله
رزقنا به الصيد الغرير ولم نكن   كـمن نبلـه محرومـة وحبائلـه
فيالـك يومـا خيره قبـل شـره   تغيـب واشيـه وأقصـر عاذلـه

(١٠٧) الوساطة : ٤١٦ ، ٤١٧ .
(١٠٨) اعلام الكلام : ٣٨ .
(١٠٩) الموشح : ١٩٦ .
(١١٠) نفسه .

وقال ابن رشيق معلقا على حكم خلف السابق : « أما هذا الاصلاح فمليح الظاهر ، غير انه خلاف الظاهر ، وذلك ان الشاعر اراد انه كان ليلة في وصال ، ثم فارق حبيبه نهارا ، وذلك هو الشر الذي ذكر ، والراوية جعله لم يفارق فغير عليه المعنى(١١١) »

يتضح من ذلك ان نظرة عدد من النقاد الى القصيدة على انها مجموعة من أبيات مستقلة ، كانت مجافية للمنهج النقدي الصحيح ، هذا المنهج الذي يعد القصيدة كلا لا يتجزأ ، ولا ينفصل بعضه عن بعض .

ان الكلمات في القصيدة ليست قطعا من خشب صف بعضها الى جوار بعض ، وانما هي اعضاء في نسيج حي ، تتفاعل فيمنح بعضها بعضا دلالات وفاعليات خاصة(١١٢) . واذا كانت الكلمات داخل السياق تتفاعل على هذا النحو ، وتتماسك كاعضاء جسم حي ، تعذر على الناقد ان يتناول بعضها بمعزل عن بعض ، او يخص كلمة بملاحظة أو حكم دون نظر الى السياق الذي جاءت فيه .

وما يقال عن علاقة الكلمة بالكلمة ، يقال عن علاقة البيت بالبيت داخل القصيدة . فأبيات القصيدة لم تركب تركيبا آليا ، بحيث يمكن للناقد ان يفصل بعضها عن بعض ، او ينظر في بيت منها دون آخر ، وانما عليه أن ينظر اليها على أنها أجزاء في جسم حي ، تتعاون جميعا على تكوينه ، وبث الحياة فيه(١١٣) . فالبيت الواحد لا يعني شيئا بنفسه ، وانما هو جزء مكمل ، وان قيمته ترجع الى صلته بما قبله وما بعده من جانب ، والى صلته بموضوع القصيدة كله من جانب آخر .

واذا كان الامر كذلك فقد اخطأ القدامى اذ كانوا يقتطعون البيت من سياقه ، او الكلمة من مكانها ، ثم ينظرون الى كل منها على انه شيء مستقل ، لا صلة له بسواه .

---

(١١١) العمدة : ٢/٢٤٨ .
(١١٢) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٢٤١ .
(١١٣) النقد والنقد الادبي : ٦٦ ، ٦٧ .

وقد فطن المبرد الى أهمية ملاحظة السياق في الحكم على الكلمة ، وأشار الى ضرورة مراعاة مكانها من التركيب، عند نقدها وتقويمها ،فقد تكون الكلمة مشينة اذا اقتطعت من موضعها ، ونظر اليها وهي خارج السياق ، فاذا ضمها التركيب ، وانعطفت عليها جنبتا الكلام ، غطى ذلك على عوارها ، وستر من شينها . يقول المبرد : « وقد يضطر الشاعر المفلق ، والخطيب المصقع ، والكاتب البليغ ، فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلق ، واللفظ المستكره ، فاذا انعطفت عليه جنبتا الكلام غطتا على عواره ، وسترتا من شينه [١١٤] » .

وفي قول المبرد هذا تأكيد على مراعاة (الكل) عند الحكم ، ودعوة الى الاقلاع عن النظرة الجزئية ، التي تقف عند الكلمة المفردة ، والبيت الواحد ، لان مثل هذه النظرة لا تؤدي الى ادراك القيمة الفنية الصحيحة للكلمة او البيت ، فالجزء الواحد من العمل الادبي لا يقوم بنفسه ، ولا تكون له قيمة بذاته ، وانما تظهر قيمته عند النظر الى ما يكمله ، ويتلاحم معه من أجزاء اخرى ، تتعاون جميعا على خلق العمل الادبي ، واعطائه سماته .

واذا كان المبرد قد اشار الى أن قيمة الكلمة تتغير اذا دخلت في تركيب ، وتآخت مع غيرها في سياق ، فان عبدالقاهر قد افاض في شرح هذه الناحية ، وحشد لها العديد من الادلة ، وذلك في اثناء عرضه لقضية (النظم) .

وكما جزأ نقاد القصيدة أو البيت جزأوا نتاج الشاعر ، ونظروا في بعضه ، ثم طرحوا سائره ، فجاءت أحكامهم قاصرة ، ان صدقت على بعض ذلك النتاج ، فانها لا تصدق عليه كله .

واهمال « أدب الاديب في جملته تقصير من النقد ، والتشنيع ببعض سقطاته تقصير في جانب الحق ، وهو عيب من ناحيتين : الناحية الفنية ، وهي تلزمك بالنقد في جملة ما يقول الاديب وما اتجه ، والثانية الخلقية التي تمس الانصاف نفسه ، فيكون موقف الناقد من المنقود موقف التحدي له ، والنقمة عليه[١١٥] » .

---

(١١٤) الموشح : ١٦١ ، ١٦٢ .
(١١٥) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان : ٢٣٢ .

فالنقاد كانوا يقدمون من يقدمونه من الشعراء ، ويؤخرون من يؤخرونه منهم ، دون استقراء واسع لأدبهم ، ولا درس واف ودقيق لما قالوه وأنتجوه. وقد وصلت الينا احكام كثيرة ، تقضي لهذا الشاعر او ذاك بالسبق والتقدم ، لبيت قاله ، او معنى بديع وقع عليه كما وصلت الينا احكام أخرى تصف هذا الشاعر او ذاك بالتأخر او الجهل ، لهفوة عابرة ، او زلة يسيرة . فالذي جعل الاصمعي مثلا يضعف الطرماح ، ويحكم عليه بالجهل باللغة ، خطأ واحد . قال الاصمعي : « كنا نظن الطرماح شيئا حتى قال :

وأكره ان يعيب علي قومي هجائي الارذلين ذوى الحنات

لانها احنة واحن ، ولا يقال : حنات[116] » .

ويذكر المبرد أنه كان يحترم علي بن الجهم ، ويثق بلغته ، ثم تغيّر رأيه فيه للحن سمعه منه : قال المبرد : « كنا عند محمد بن عيسى بن عبدالرحمن الكاتب ، ومعنا علي بن الجهم ، فاراد الانصراف ، فقال له محمد بن عيسى : لو متعتنا بنفسك . فقال له : انه بلغني شيء وأقلقني مازور (كذا) في قعودي . قال ابو العباس : فنقص في عيني ، وانما هو موزور[117] » .

وابن جني مثل الاصمعي والمبرد كان يقر لبعض الشعراء بالفصاحة ويتلقى كلامه بالقبول ، حتى انشده يوما لنفسه شعرا يقول فيه (كان فاى) وكان الصواب ان يقول (فيّ) بالياء ، لان ياء المتكلم تكسر أبدا ما قبلها ، فكان هذا الخطأ كافيا لان يقلب اعجاب ابن جني بالشاعر الى نفرة منه ، واطراح للغته[118] .

وكان الصاحب بن عباد قد حمل على المتنبي ، وقضى عليه بالتأخر ، ولم يبن حكمه هذا على درس واسع لشعر الرجل ، وانما بناه على قرابة ثلاثين

(١١٦) الموازنة : ١/٤٣ .
(١١٧) الموشح : ٥٢٨ .
(١١٨) الخصائص : ٢/٧ .

الخاتمـة

لم يحظ موضوع (النقد اللغوي عند العرب) بعناية كبيرة ، ولم يلتفت اليه الباحثون ، ولم تقم عليه مؤلفات كاملة ، بالرغم من اهميته وكثرة ما وصل الينا من آراء فيه ، ولذا أحسست حين انتهيت من هذه الرسالة ، بعد جهد طويل مضن ، أنني استطعت ، بحدود ما اعرف وبأقصى ما يمكن ان يوصلني اليه البحث ، ان اقدم عملا علميا ، أتمنى ان يسد فراغا وأن ينال مكانة طيبة في المكتبة العربية وأن يفيد الدارسين وان يكون منطلقا لبحوث اخرى ومؤلفات متواصلة .

ان التراث العربي ، وان جندت الطاقات الهائلة لخدمته وتجليته ، ما فتئت جوانب منه بمنأى عن ايدي الدارسين ، وكان الجانب الذي تناولته هذه الرسالة واحدا منها . فان اكن في بحثي هذا قد وفقت الى ما هدفت اليه من رسم صورة كاملة للنقد اللغوي عند العرب ، ففي ذلك عزائي عما لقيته فيه من نصب ، وكابدته من عناء ، والا فحسبي أني لم اقصّر ، ولم أبخل بوقت او جهد .

وان كان شيء قد حداني على الكتابة في هذا الموضوع ، غير ما ذكرت من أهميته ، وانصراف الدارسين عنه ، فهو ما استشعره من ان اللغة في عصرنا هذا ينبغي ان تكون قطب النقد الاول ومداره الرئيس ، كما كانت عند اسلافنا من النقاد ، لأنها مادة الأدب ووسيلته ولا شيء يحدد منزلة الاديب ويعطيه سماته التي تميزه من غيره مثل اللغة ، وطريقة استخدامها ، والتعامل معها . ومن هنا كان لنا ان نقول ان عمل الناقد الاول هو البحث عن (الشخصية) في (اللغة) او التفرد في استخدامها .

ان (اللغة المتميزة) مبتغى الاديب المبدع في كل عصر ، ولا بد للنقد من ان يتقصّى على آثار الاديب ، ويستكشف ما في لغته من عناصر الابداع .

واذا كانت ظاهرتا الادب والنقد ترتبطان باللغة هذا الارتباط الوثيق ، فان الاتجاه الى (اللغة) وجعلها في مقدمة ما يعنى به النقد امر ضروري •

واذا كنا نطلب من النقاد المعاصرين ان يتجهوا الى لغة النص الادبي ، ويحاولوا فقهها ، والبحث عما يميزها ، فان الاسترشاد بما في تراثنا من آراء بهذا الشان أمر محتوم ، ليكون ما تبنيه من تقاليد جديدة امتدادا لما في ذلك التراث ووثيق الصلة به •

وهنا تكمن اهمية هذه الرسالة ، فقد اضطلعت بتجلية ما في تراثنا النقدي من نظرات وتقاليد تخص لغة الادب ، ليكون الصالح من تلك التقاليد الاساس الذي نبني عليه والمثال الذي نحتذيه ، اذا نحن اتجهنا الى لغة النص ، وجعلناها الغاية الاولى من النقد • واظهر ما سنجنيه من اهتمامنا بلغة الادب ، هو اننا سنعطي العربية للاجيال القادمة سليمة ومعافاة ، قوية ونامية ، كما اعطانا اياها الاقدمون ، بعد ان اهتموا بها ، وتفننوا في ابتغاء الوسائل الى خدمتها ، واستكشاف عبقريتها •

لقد بدأ البحث بتمهيد تضمن عرضا موجزا لاهمية اللغة ، في حياة الجماعة وبيانا لنوعين من التعامل بها ، فهي مرة اداة تتواصل بها الجماعة في شؤونها اليومية ، ومرة اخرى وسيلة للخلق الادبي ، والفرق بين الحالتين هو ان الانسان العادي يتقيد في استعمال اللغة بما تواضعت عليه الجماعة ، اما الاديب فيتمتع بقدر كبير من الحرية الفنية في استخدامه للغة ، ويستعملها على نحو لم تألفه الجماعة في مخاطباتها ومحاوراتها •

وقد بينت ان عددا من النقاد المحدثين فطنوا الى اهمية اللغة في الادب فرأوا ان المنهج النقدي الملائم للعمل الادبي هو المنهج اللغوى ، فشرحت هذا المنهج ، وابرزت ما بينه وبين المناهج النقدية المتعارفة من فروق ، كما أوضحت تقصير تلك المناهج في خدمة النص ، وقلة عنايتها بمادته الاولى وهي (اللغة) • ثم بينت ان العرب عرفت (النقد اللغوى) منذ حقبة مبكرة في العصر الجاهلي ، وقدمت صورا من هذا النقد في ذلك العصر •

ودرست في الباب الاول العوامل المؤثرة في (النقد اللغوى) . وقد بحثتها في خمسة فصول : بحثت في الفصل الاول الرواية : وقد كانت عاملا اذكى حركة النقد اللغوي ، وبعثها قوية ونشيطة ، وكان النقد اللغوي القائم حولها نوعين : الاول نظري يتمثل في مقاييس عديدة هي : (الزمان والمكان) ، وبمقتضى هذا المقياس قبل الرواة بعض الشعر لانتمائه الى زمان معين ومكان معين ، ورفضوا آخر لعدم انتمائه الى ما تعارفوا عليه من حدود زمانية ومكانية . و (الغرابة) فقد اشترط الرواة في الشعر المروى ان يكثر فيه الغريب . و (الطبع والصنعة) فقدحوا في الشعر المهذب المحكك ، وقدموا عليه الشعر الذي يجمع فيه قائله الغث الى السمين ، والجيد الى الردىء ، لانهم عدوا هذا النوع من الشعر دليل التمكن الفطرى من اللغة .

واما النوع الثاني من النقد الذي نشط بسبب الرواية فهو (النقد العملي) وهو الذي يعني باصلاح لغة النص المروى ، وتخليصه مما لحقه من تصحيف او تحريف ، او تحديد ما كان مختلقا ، من النصوص وقد هداهم اليها ما في لغتها من شذوذ عن التعبير اللغوى المعهود ، او الكثير المطرد .

وبحثت في الفصل الثاني (التطور اللغوى) : وهو العامل الثاني من العوامل المؤثرة في النقد اللغوي ، وخلاصته ان العربية لم تجمد على ما هي عليه ، بل امتدت اليها يد التطور ، منذ عصر الفتوحات ، وظلت تعمل فيها ، محدثة الوانا شتى من التغيير ، فادى ذلك الى ان ينشط النقد اللغوى ، ويتصدى في كل عصر نفر من النقاد لحماية اللغة من التطور ، والعودة بالناطقين الى الموروث من النطق الصائب والاستعمال اللغوي السليم .

وقد رأيت ان التطور بدأ يسيرا في العصر الاموى ، ثم اشتد في اوائل العصر العباسي ، وتفاقم في القرون المتأخرة ، فكان النقد اللغوي يتأثر بنوع التطور وطبيعته ، ففي العصر الاموى واوائل العصر العباسي كان النقاد اللغويون يتشددون ويطالبون المنشىء بافصح ما وعت اللغة من صيغ وأساليب ، وفي القرون المتأخرة ، عندما انحط المستوى اللغوى ، وضعفت الملكات

اللغوية عند الادباء ، ترك النقاد التشدد ، وقبلوا كثيرا مما كان الاوائل يرفضونه ، ويحظرون النطق به .

ثم درست في الفصل الثالث عاملا آخر من عوامل نشاط النقد اللغوى وهو (التعصب للقديم) ، فبسبب هذا العامل نشأت مقاييس ، وصدرت احكام ومواقف نقدية ، هي : (الميل الى الغرابة والفخامة) ، بمعنى ان انصار القديم حاربوا السهولة ، وارتضوا من الاساليب ما كان فخما ، يزخر بالغريب .

و (رفض اشتقاق ما يسمح به القياس) ، ومعنى ذلك أن المحافظين رفضوا ما استحدثه بعض الشعراء من صيغ وأساليب ، قاسوها على نظائرها ، وانما فعل المحافظون ذلك حماية للغة من ان يدخلها لفظ ، لم ينطق به العرب .

و (رفض المعرّب والدخيل) ذلك لان المتعصبين رأوا ان التعريب حق مقصور على العرب الاوائل انفسهم ، ولا يحق لمن بعدهم أن يدخل في اللغة لفظا لم يدخلوه .

والمقياس الاخير الذي نشأ بسبب (التعصب للقديم) ، هو (التقيد بالعرف اللغوى) في صوغ المجاز وبناء الاستعارة . وبمقتضى هذا المقياس رفض المحافظون كثيرا من مجازات المحدثين ، لانهم وجدوا ان العرب كانت تستعير اللفظ لمعنى يقارب معناه الاصلي ، او يكون متصلا به بسبب من الاسباب ، اما المحدثون فلم يجروا في هذه السبيل ، وعبروا بالالفاظ عن معان مجازية لم تتقرر في العرف اللغوى المأثور ، فجر عليهم ذلك نقد المتعصبين للقديم .

وتكلمت في الفصل الرابع على عامل آخر من العوامل المؤثرة في النقد اللغوى وهو (الخصومة) ، وعنيت بها (الخصومة الشخصية) التي لم تنشأ لدواع فنية ، وانما اذكتها عوامل شخصية لا علاقة لها بالفن والادب . وأوضحت ان غير قليل من النقد اللغوى نشأ بسبب هذه الخصومة ، وانه كان يمكن ان يختفي لو تجرد النقاد من الحسد والهوى ، ثم قدمت امثلة كثيرة للنقد اللغوى الذي كانت الخصومة باعثا عليه ، وكامنة وراءه .

اما العامل الخامس وهو (الاعجاز) فقد تكفّل الفصل الخامس باظهاره ، وبيان اثره في النقد اللغوي . لقد بينت في هذا الفصل ان الاسلوب القرآني بهر العرب ، واستولى على افئدتهم ، فعجزوا عن مجاراته ، وانعقدت السنتهم عن الاتيان بمثله ، فانطلق فريق من العلماء يبحثون عن سر هذا الاعجاز وكنهه ، فأداهم البحث الى نظرات اغنت النقد اللغوي ، وأمدته بأسباب القوة والنماء . لقد برزت في هذا النقد قضايا وموضوعات لم تكن لتظهر لولا فكرة (الاعجاز)، وقد شرحتها ، واسهبت في الكلام عليها . ومن ذلك قضية (السهولة والغرابة) و (موسيقى اللفظ والتركيب) وَ (الفروق بين المترادفات) ثم (اللفظ والمعنى) وقضية (النظم) وما تفرع عنها من مسائل واحكام .

وكان موضوع الباب الثاني من هذه الرسالة هو (موضوعات النقد اللغوي ومقاييسه) وقد ضم فصلين : تكلمت في اولهما على (مقاييس الخطأ والصواب) ، وذهبت الى ان النقاد عثروا في لغة الشعراء على صيغ واستعمالات لا تجرى على المعهود من قوانين اللغة واستعمالاتها ، فحملوا بعضها على (الضرورة) ، وحكموا على بعضها بالخطأ ولم يسلّم النقاد جميعا بالضرورة ، بل اختلف موقفهم منها : فهناك من اجازها وجعلها مقصورة على ما عرف منها عند الشعراء القدامى الذين يحتج بأقوالهم ، ومنهم من رفضها وعدها لاحقة بالخطأ الذي يحاسب الشاعر عليه ، وتوسط فريق ثالث فقبل ما جاء منها عن عصور الاحتجاج ، ورفض ان يحدث المولدون شيئا منها في شعرهم . وان جاء عن الشعراء الموثوق بفصاحتهم ، وقد رد هذا الرأي عدد من العلماء منهم ابن جني ، وتكلمت بعد ذلك على (الاخطاء) الصريحة التي لم يحملها احد على الضرورة ، ولما كانت تلك الاخطاء كثيرة ، فقد اجتزأت بأمثلة منها ، وبينت ما دار حول تلك الامثلة من خلاف .

وتناول الفصل الثاني من هذا الباب (مقاييس الجودة والرداءة) وجعلت الكلام على هذه المقاييس في قسمين: تناول القسم الاول مقاييس الجودة والرداءة في (المفردات) ورأيت ان النقاد كانوا يستجيدون المفردة ، اذا حسن تأليفها ،

وابتعدت من الحوشي الغريب ، وارتفعت عن العامي المبتذل ؛ وكان لها ايحاء محبب ، ووقع جميل • كما كانوا يستجيدون المفردة اذا كانت تلائم المعنى الذي سيقت له ، وتجانس الغرض الذي تكفلت هي وجاراتها بابرازه • ويستجيدونها ايضا اذا كانت دقيقة الدلالة على المعنى ، غير زائدة في التركيب او مقحمة عليه ، وذات دلالة محددة ، فإن كان لها اكثر من معنى وجب ان تصاحبها قرينة ، تكشف معناها ، وتحدد المراد منها • ومن مقاييس جودة (المفردة) الا تكرر الا اذا كان وراء تكرارها علة تسوغه ، وتجعله مقبولا ومفيدا ، وقد بينت المواضع التي يحسن فيها التكرار في نظرهم • ومن مقاييس جودتها الا تكون من المصطلحات والفاظ العلوم ، وان تكون مصغرة اذا عبر بها عن معنى فيه خفاء وضؤولة • كما كان لاسماء الاعلام والاماكن واسماء الاشارة والموصول والضمائر وكاف المخاطب مقاييس خاصة ، وقد اوضحتها ، ودللت عليها • ولم اترك آراء النقاد فيما اوردوه من مقاييس بشأن المفردات دون مناقشة ، بل قبلت بعض ما ذهبوا اليه ، ووافقتهم عليه ، ورفضت بعضه ، وبينت خطله وبطلانه •

وتناول القسم الثاني مقاييس الجودة والرداءة في (التراكيب) واوضحت فيه ان التركيب الجيد عندهم هو التركيب الذي تتآلف مفرداته ، وتنسجم الكلمات في داخله فينساب في سهولة ؛ كما اوضحت المواطن التي تسبب الثقل للعبارة ،وتجعل الفاظها متنافرة •

واوضحت كذلك ان النقاد استجادوا التركيب الذي تنسجم الكلمات فيه من الناحية الصوتية ، بحيث تؤلف بمجموعها نغما تطرب له الاذان ، وتقبل عليه النفس ثم بينت الوسائل التي يعمد اليها المنشيء ليحقق لعبارته قيما موسيقية ترفع منها ، وتكسبها الجودة والروعة •

ورأيت ان جودة التركيب ورداءته تتعلق بوضوحه او غموضه ، وبينت ان النقاد كانوا يستجيدون التركيب الواضح ، وينفرون من التركيب المعقد او الغامض • على ان الغموض عندهم نوعان : غموض منشؤه الالفاظ ،

وطريقة التاليف بينها ، وقد حاربوا هذا النوع من الغموض ، وذموا التراكيب التي تتصف به . وغموض مرده الى صعوبة المعاني ودقتها ، وهو غموض محبب ، رضي عنه النقاد ، ومالوا اليه . لقد احبوا الادب الذي يتطلب فهمه وذوقه شيئا من جهد ومعاناة ، اما الادب الذي لا يستدعي جهدا ، فقد ازدروه ، ونالوا منه .

ثم بينت بعد ذلك انهم استجادوا (وحدة النسج) ، وتطلبوا في التركيب ان تتآخى الفاظه ، وتنسجم ، وتأتي على صفة واحدة ، فلا تتفاوت بين الرقة والجزالة ، والوعورة والسهولة ، والطرافة والابتذال . ولم يتطلبوا وحدة النسج في العبارة الواحدة ، بل راموه في القصيدة كلها ، وتاج الشاعر جميعه . وقد ناقشت هذه المقاييس ، ورضيت ما اتضح لي وجه الحق فيه ، ورفضت ما لم يكن النقاد فيه على صواب .

وجاء الباب الثالث ليبين قيمة النقد اللغوي ، ويوضح ماله من اهمية وفوائد ، وما عليه من المآخذ . وقد كان هذا الباب في فصلين :

تكلمت في الفصل الاول على وجوه الاهمية ، وضروب الفوائد التي أسفر عنها النقد اللغوي ، ورأيت أنها :

١ ـ حماية اللغة ودرء عوامل التغيير والفساد عنها ، ولا شك في ان لاستقرار اللغة ـ بفضل النقد اللغوي ـ وثبات صيغتها الرئيسة قيمة عظمى ، ونفعا محمودا ، وذلك من اكثر من وجه ، وقد فصلت تلك الأوجه .

٢ ـ تهذيب اللغة ، وتصفية متنها من كثير مما شابه ، أو أفسده من اخطاء وأوهام ، تجعل ذلك المتن غير صالح لان يبنى عليه ، او يستنبط منه شيء من الحقائق اللغوية ، ثم غربلتها ونفي ما اصبح قليل الفائدة من الفاظها ، او ما ليس بالحي ولا المستعمل من لهجاتها .

٣ ـ تنمية اللغة ، وجعلها أوفر مادة عن طريق قبول صيغ واستعمالات كان المنشئون يأتون بها ، اما قياسا على ما في اللغة من نظائر لها ، واما مجاراة للهجات النادرة ، واما اقتباسا من لغات اخرى .

٤ ـ رصد وملاحقة ما كان يبرز في اللغة من ظواهر ، وعنينا بالظواهر الغريب والنوادر ، وما كان يجد في اللغة من خصائص واتجاهات تلفت نظر الناقد اللغوى ، وتسترعي انتباهه .

٥ ـ تصحيح أخطاء المنشئين، وقد رأينا انهذا من الفوائد الجلية التي اسداها النقد اللغوي للعربية ، وللناطقين بها ، ذلك لان اصلاح اخطاء المنشيء كان يمنع سيرورتها وانتشارها وما يؤدى اليه ذلك من تاثير في حياة اللغة ، كما ان اصلاح تلك الاخطاء قد يبعث المنشيء على استكمال حظه من الثقافة اللغوية قبل التصدى لابداع الادب ، او الاقدام على نشر ما ينتج منه .

٦ ـ ارشاد المنشيء الى الحسن والاحسن من الالفاظ والتراكيب .

٧ ـ الدفاع عن المنشيء حين يظلم فيرمى بالخطأ او يوصف كلامه بالرداءة . وقد بينت المواقف التي كان المنشيء يحتاج فيها الى الدفاع .

٨ ـ الكشف عن اسرار التعبير الادبي وخصوصيته ، وهذه فائدة تكاد تفضل فوائد النقد اللغوى السابقة ، لان المنشيء بما يملك من موهبة كان يستخدم اللغة استخداما خاصا ، ويستخرج منها كل امكاناتها ، فكان الناقد اللغوى يبرز سمات ذلك الاستخدام اللغوى الخاص ، ويجعل المتلقي احسن فهما له ، وأشد أنسا به .

ثم تكلمت في الفصل الثاني على عيوب النقد اللغوى ، وما ظهر فيه من احكام ومواقف كان من شأنها ان تضر باللغة ، وتسيء الى الادب . وقد رأيت ان تلك العيوب هي :

١ ـ تزمت وجمود عدد كبير من النقاد اللغويين ، وقد تجلى تزمتهم وجمودهم في مظاهر ثلاثة هي : الاحتكام الى القديم والتقيد بالعرف اللغوى ، وعدم التفريق بين الخطأ والتطور ، ثم التمسك بلغات عدد نزر من القبائل ، والحكم على لغات القبائل الاخرى بالبعد من الفصاحة .

٢ ـ التعصب للمنشيء او عليه ، ويبدو هذا العيب واضحا لمن يدرس النقد اللغوي عند العرب ، فقد تعصب عدد من النقاد للشعراء القدامى ، او من عرفوا بشعراء عصور الاحتجاج ، وعدوا كل ما صدر عنهم حجة لا يتورها الشك ، وان ظهر لهم في شعر هؤلاء ما يند عن المألوف من قواعد اللغة ،راحوا يلتمسون لهم المعاذير والحيل، ويتكلفون التخريج والتأويل • وكما تعصب هؤلاء النقاد للقدامى من الشعراء ، والتمسوا التخريجات لاخطائهم ، فانهم تعصبوا على الشعراء المحدثين ، وغضوا من اساليبهم • وبجانب ظاهرة التعصب لعصر ادبي او عليه ، وجدت ظاهرة التعصب لشاعر راحد او عليه ؛ وقد شرحت ذلك كله ، وضربت الامثلة الكافية عليه •

٣ ـ الفصل بين اللفظ والمعنى او (الشكل والمضمون) ، وقد ترتب على هذه النظرة عدد من الاحكام النقدية الخاطئة ، عرضت لها ، وفصلت القول فيها •

٤ ـ الجزئية : وهي عيب بارز من عيوب النقد اللغوي ، وعنينا به ان عددا من النقاد اللغويين التزموا خطة لم يحيدوا عنها ، وهي النظر في البيت الواحد ، والكلمة المفردة ، ولم يلتفتوا الى القصيدة ككل ، ولم يلقوا عليها نظرة موحدة ومجملة • ولم يفردوا الكلمة عن البيت ، او البيت عن القصيدة فحسب ، بل عزلوا القصيدة عن نتاج الشاعر كله ، فجاءت احكامهم ـ تبعا لذلك ـ مشحونة بالخطأ وبعيدة من النصفة • وقد اومأت الى ان بعض النقاد قد فطنوا الى ضرورة مراعاة (الكل) وعدم الوقوف عند (الجزء) في عملية النقد والتقويم •

وواضح من هذه الابواب والفصول انها بما تقدم من مادة وامثلة ومناقشات ، لا يمكن ان تتماثل سعة وضيقا وتحديدا ، ولذا تركت لتلك الابواب والفصول مرونتها فيما تستوعبه وتحتويه •

المصادر

- القرآن الكريم .

١ ـ الابانة عن سرقات المتنبي ، ابو سعد محمد بن احمد العميدي تحـ . ابراهيم الدسوقي البساطي ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ .

٢ ـ ابن السكيت اللغوي ، محيي الدين توفيق ابراهيم ، الطبعة الاولى ١٩٦٩ .

٣ ـ ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، الدكتور عبدالعزيز الاهواني ، القاهرة ١٩٦٢ .

٤ ـ ابو بكر الزبيدي الاندلسي وآثاره في النحو واللغة ، نعمة رحيم العزاوي ، مطبعة الاداب في النجف الاشرف ١٩٧٥ .

٥ ـ ابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية ، الدكتور بدوي طبانة ، الطبعة الثانية ١٩٦٠ .

٦ + اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، الدكتور محمد مصطفى هدارة ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .

٧ + اتجاهات النقد الادبي في القرن الرابع الهجري ، الدكتور احمد مطلوب ، الطبعة الاولى بيروت ١٩٧٣ .

٨ ـ الاتقان في علوم القرآن ، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، الطبعة الثالثة ١٩٥١ .

٩ ـ اثر القرآن في تطور النقد العربي الى اخر القرن الرابع الهجري ، الدكتور محمد زغلول سلام ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٦١

١٠ + اخبار ابي تمام ، ابو بكر محمد بن يحيى الصولي ، تحـ . خليل محمود عساكر ورفيقيه ـ بيروت ، بلا تاريخ .

١١ + اخبار ابي نواس ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، تحـ . محمد عبدالرسول ابراهيم وعباس الشربيني ، القاهرة ١٩٢٤ .

١٢ ـ الاخطاء اللغوية الشائعة ، محمد علي النجار ، القسم الثاني ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠ .

١٣ + اخلاق الوزيرين ، ابو حيان علي بن محمد التوحيدي ، تحـ . محمد بن تاويت الطنجي ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق .

١٤ + ادب الكاتب ، ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، تحـ . محمد محيي الدين عبدالحميد ، الطبعة الثالثة ١٩٥٨ .

١٥ — ادب الكتاب ، ابو بكر محمد بن يحيى الصولي ، تصحيح محمد بهجة الاثري ، بغداد ١٣٤١هـ .

١٦— اساس البلاغة ، جارالله محمود بن عمر الزمخشري ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .

١٧ — الاستدراك على سيبويه في كتاب الابنية والزيادات على ما اورده فيه ، ابو بكر محمد بن حسن الزبيدي ، تح . جويدي ، روما ، ١٨٩٠ .

١٨— الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المساة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية ، ضياءالدين بن الاثير ، تح . حفني محمد شرف ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٩— اسرار البلاغة ، عبدالقاهر الجرجاني ، تح . هـ . ريتر . استانبول ١٩٥٤ .

٢٠ — الاسس الجمالية في النقد العربي ، عزالدين اسماعيل ، الطبعة الاولى ١٩٥٥ .

٢١— اسس النقد الادبي عند العرب ، الدكتور احمد احمد بدوي ، الطبعة الاولى ١٩٥٨ .

٢٢— اصلاح المنطق ، يعقوب بن اسحاق السكيت ، تح . احمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ، الطبعة الثانية ١٩٥٦ ، دار المعارف بمصر .

— اصول النحو العربي ، الدكتور محمد عيد ، القاهرة ١٩٧٣ .

٢٣— الاضداد في اللغة ، محمد حسين آل ياسين ، بغداد ١٩٧٤ .

٢٤ — اعجاز القرآن ، لابي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، تح . السيد احمد صقر ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .

٢٥ — أعلام الكلام ، ابو عبدالله محمد بن شرف القيرواني ، عني بتصحيحه وضبطه الفاظه عبدالعزيز امين الخانجي ، الطبعة الاولى ١٩٢٦ .

٢٦ — الاغاني ، ابو الفرج علي بن الحسين الاصبهاني ، من جـ ١ — جـ ١٦ طبعة دار الكتب المصرية وجـ ١٧ طبعة ساسي .

٢٧— الاقتراح ، السيوطي ، طبع مجتبائي (بلا تاريخ) .

٢٨ — الاقتضاب في شرح ادب الكتاب ، ابو محمد عبدالله بن السيد البطليوسي ، بيروت ١٩٠١ .

٢٩— الالفاظ الكتابية ، عبدالرحمن بن عيسى الهمذاني ، ضبط وتصحيح الاب لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ١٩١١ .

٣٠— الالفاظ اللغوية : خصائصها وانواعها ، عبدالحميد حسن ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١ .

٢١ـ الانصاف في مسائل الخلاف ؛ كمال‌الدين ابو البركات عبدالرحمن بن محمد الانباري ؛ تحـ . محمد محيي‌الدين عبدالحميد ؛ الطبعة الرابعة ١٩٦١ .

٢٢ ـ بديع القرآن ؛ ابن ابي الاصبع المصري ؛ تحـ . حفني محمد شرف ؛ الطبعة الاولى ١٩٥٧ .

٢٣ ـ بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ؛ الدكتور ابراهيم سلامة ؛ الطبعة الثانية ١٩٥٢ .

٢٤ ـ البلاغة تطور وتاريخ ؛ الدكتور شوقي ضيف ؛ دار المعارف بمصر ١٩٦٥ .

٢٥ ـ البيان والتبيين ؛ ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ؛ تحـ . عبدالسلام محمد هارون ؛ الطبعة الثانية ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ .

٢٦ ـ تاريخ النقد الادبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع الهجري ؛ طه احمد ابراهيم ؛ دار الحكمة ـ بيروت .

٢٧ ـ تاريخ النقد الادبي عند العرب ؛ نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ؛ الدكتور احسان عباس ؛ الطبعة الاولى ١٩٧١ بيروت .

٢٨ ـ تاويل مشكل القرآن ؛ ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ؛ تحـ . السيد احمد صقر ؛ القاهرة ١٩٥٤ .

٢٩ ـ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن ؛ ابن ابي الاصبع المصري ؛ تحـ . الدكتور حفني محمد شرف . القاهرة ١٣٨٣هـ .

٤٠ ـ التركيب اللغوي للادب ؛ الدكتور لطفي عبدالبديع ؛ الطبعة الاولى القاهرة ١٩٧٠ .

٤١ ـ تصحيح الفصيح ؛ عبدالله بن جعفر بن درستويه ؛ تحـ عبدالله الجبوري ؛ بغداد ١٩٧٥ .

٤٢ ـ تطور الاساليب النثرية في الادب العربي ؛ انيس المقدسي ؛ الطبعة الاولى بيروت ١٩٦٠ .

٤٣ ـ التطور اللغوي التاريخي ؛ الدكتور ابراهيم السامرائي ؛ معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٦ .

٤٤ ـ التفسير النفسي للادب ؛ الدكتور عزالدين اسماعيل ؛ دار العودة ودار الثقافة بيروت .

٤٥ ـ التنبيه على حدوث التصحيف ؛ حمزة بن حسن الاصفهاني ؛ تحـ . الشيخ محمد حسن آل ياسين ؛ الطبعة الاولى ١٩٦٧ بغداد .

٤٦ ـ التنبيهات على اغاليط الرواة ؛ علي بن حمزة ؛ تحـ . عبدالعزيز الميمني الراجكوتي ؛ مطبوع مع (المنقوص والممدود للفراء) دار المعارف بمصر ١٩٦٧ .

٤٧ — تهذيب اللغة ، ابو منصور محمد بن احمد الازهري ، تحـ . عبدالسلام هارون ، دار القومية العربية للطباعة ١٩٦٤ .

٤٨ — ثلاث رسائل في اعجاز القرآن .
بيان اعجاز القرآن ، لابي سليمان حمد بن محمد الخطابي .
النكت في اعجاز القرآن ، لابي الحسن علي بن عيسى الرماني .
الرسالة الشافية ، لعبدالقاهر الجرجاني . تحـ . محمد خلف‌الله ومحمد زغلول سلام . دار المعارف بمصر .

٤٩ — ثمرات الاوراق ، تقي‌الدين ابو بكر بن علي بن حجة الحموي ، تحـ . محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٠ .

٥٠ — جامع البيان عن تاويل آي القرآن ، محمد بن جرير الطبري ، الطبعة الثانية ١٩٥٤ القاهرة .

٥١ — الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ، ضياءالدين بن الاثير ، تحـ . الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٦ .

٥٢ — جمهرة اللغة ، ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد ، الطبعة الاولى حيدر آباد الدكن ١٣٤٤هـ .

٥٣ — حديث الاربعاء ، الدكتور طه حسين ، المطبعة التجارية الكبرى بمصر ١٩٢٥ .

٥٤ — الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ، الدكتور محمود الربداوي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٥٥ — الحيوان ، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحـ . عبدالسلام محمد هارون ، الطبعة الاولى ١٩٣٨ .

٥٦ — خزانة الادب ولب لباب لسان العرب ، عبدالقادر بن عمر البغدادي ، الطبعة الاولى ، المطبعة الاميرية ببولاق .

٥٧ — الخصائص ، ابو الفتح عثمان بن جني ، تحـ . محمدعلي النجار ، الطبعة الثانية ــ بيروت .

٥٨ — خصائص العربية ومنهجها الاصيل في التجديد والتوليد ، محمد المبارك ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠ .

٥٩ — دراسات في اللغة ، الدكتور ابراهيم السامرائي ، بغداد ١٩٦٠ .

٦٠ — درة الغواص في اوهام الخواص ، ابو محمد القاسم بن علي الحريري ، الطبعة الاولى ــ القسطنطينية ١٢٩٩هـ .

٦١ — الدرس النحوي في بغداد ، الدكتور مهدي المخزومي . بغداد ١٩٧٤ .

٦٢ — دروس في البلاغة وتطورها ، الدكتور جميل سعيد ، بغداد ١٩٥١ .

٦٣ ـ دلائل الاعجاز ، عبدالقاهر الجرجاني ، صحح اصله الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنقيطي ، وقف على تصحيح طبعه وعلق حواشيه محمد رشيد رضا ، الطبعة الرابعة ـ دار المنار بمصر ١٣٦٧هـ.

٦٤ ـ صحح اصله الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنقيطي ،طبع مطبعة الفتوح الادبية بمصر .

٦٥ ـ دلالة الالفاظ ، الدكتور ابراهيم انيس ، الطبعة الاولى ١٩٥٨ .

٦٦ ـ ديوان ابي الطيب المتنبي بشرح ابي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان . ضبطه وصححه مصطفى السقا ورفيقاه . الطبعة الثانية ١٩٥٦

٦٧ ـ ديوان ابي الطيب المتنبي ، شرح ابي الحسن علي بن احمد الواحدي، طبع برلين ١٨٦١ .

٦٨ ـ ذم الخطا في الشعر ، احمد بن فارس ، مطبوع في ذيل (الكشف عن مساوىء شعر المتنبي) عنيت بنشرهما مكتبة القدسي . القاهرة ١٣٤٩هـ .

٦٩ ـ ذيل الامالي والنوادر ، ابو علي اسماعيل بن القاسم بن عيذون القالي ـ طبع دار الفكر .

٧٠ ـ الرد على الزبيدي في لحن العوام ، محمد بن احمد بن هشام اللخمي مخطوطة الاسكوريال رقم ٤٦ .

٧١ ـ رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، طبع دار صادر . بيروت ١٩٥٧ .

٧٢ ـ رواية اللغة ، الدكتور عبدالحميد الشلقاني . دار المعارف بمصر .

٧٣ ـ الرواية والاستشهاد باللغة ، الدكتور محمد عيد . القاهرة ١٩٧٢ .

٧٤ ـ زهر الاداب وثمر الالباب ، ابو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني تح . علي محمد البجاوي . الطبعة الاولى ١٩٥٢ .

٧٥ ـ سر صناعة الاعراب ، ابو الفتح عثمان بن جني ، تح . مصطفى السقا واخرون . الطبعة الاولى ١٩٥٤ .

٧٦ ـ سر الفصاحة للامير ابي محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي ، شرح وتصحيح عبدالمتعال الصعيدي ، القاهرة ١٩٦٩ .

٧٧ ـ شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك ، لقاضي القضاة بهاءالدين عبدالله ابن عقيل تح . محمد محيي الدين عبدالمجيد ، الطبعة الثالثة عشرة ١٩٦٢ .

٧٨ ـ شرح درة الغواص في اوهام الخواص ، احمد شهابالدين الخفاجي . الطبعة الاولى . قسطنطينية ١٢٩٩ .

٧٩ـ شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، ابو احمد الحسن بن عبدالله العسكري تحـ . عبدالعزيز احمد ، الطبعة الاولى ١٩٦٣ .

٨٠ ـ الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، الدكتور احمد عبدالستار الجواري ، مطابع دار الكشاف ـ بيروت .

٨١ ـ الشعر والشعراء ، ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، تحـ . احمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ .

٨٢ ـ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، احمد بن فارس ، تحـ . مصطفى الشويمي . بيروت ١٩٦٣ .

٨٣ ـ صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ابو العباس احمد بن علي القلقشندي، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية .

٨٤ ـ الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، يوسف البديعي ، تحـ . مصطفى السقا ورفيقيه . دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .

٨٥ ـ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، الدكتور جابر احمد عصفور، القاهرة ١٩٧٤ .

٨٦ ـ الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر ، محمود شكري الالوسي ، دار صعب بيروت .

٨٧ ـ ضرائر الشعر او كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة ، محمد بن جعفر التميمي القزاز القيرواني ، تحـ . محمد زغلول سلام ومحمد مصطفى هدارة ، الاسكندرية ١٩٧٢ .

٨٨ ـ ضياءالدين بن الاثير وجهوده في النقد ، الدكتور محمد زغلول سلام ، مكتبة نهضة مصر .

٨٩ ـ طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، تحـ . محمود محمد شاكر ، دار المعارف للطباعة والنشر .

٩٠ ـ طبقات النحويين واللغويين ، لابي بكر محمد بن حسن الزبيدي ، تحـ . محمد ابي الفضل ابراهيم . الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٥٤ .

٩١ ـ الطرائف الادبية ، صححه وخرجه عبدالعزيز الميمني ، القاهرة ١٩٣٧ .

٩٢ ـ طراز المجالس ، شهاب الدين احمد بن محمد الخفاجي ، القاهرة ١٢٨٤هـ .

٩٣ ـ عبقري من البصرة ، الدكتور مهدي المخزومي ، بغداد ١٩٧٢ .

٩٤ ـ العربية ـ دراسات في اللغة واللهجات والاساليب ، يوهان فك .ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار ، القاهرة ١٩٥١ .

٩٥ ـ عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح ، بهاءالدين السبكي ، الطبعة الثانية القاهرة ١٣٤٢هـ .

٩٦ــ العقد الفريد ، ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي ، تحـ . احمد امين ورفيقيه ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ــ القاهرة .

٩٧ــ العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ، ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، تحـ . محمد محيي‌الدين عبدالحميد ، الطبعة الثانية ١٩٥٥ .

٩٨ــ عيار الشعر ، محمد بن احمد بن طباطبا العلوي ، تحـ . الدكتور طه الحاجري والدكتور محمد زغلول سلام ، القاهرة ١٩٥٦ .

٩٩ــ العين ، الخليل بن احمد الفراهيدي ، تحـ . الدكتور عبدالله درويش ، بغداد ١٩٦٧ .

١٠٠ــ عيون الاخبار ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .

١٠١ــ الفتح على ابي الفتح ، محمد بن احمد بن فورّجة ، تحـ . عبدالكريم الدجيلي بغداد ١٩٧٤ .

١٠٢ــ فصول في فقه العربية ، الدكتور رمضان عبدالتواب ، الطبعة الاولى ١٩٧٣ .

١٠٣ــ فقه اللغة ، الدكتور علي عبدالواحد وافي ، الطبعة الثانية ١٩٤٤ .

١٠٤ــ فنون الادب ، هـ . ب . تشارلتن ، ترجمة زكي نجيب محمود ، القاهرة ١٩٤٥ .

١٠٥ــ في الادب والنقد ، الدكتور محمد مندور ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٦ .

١٠٦ــ في اصول النحو ، سعيد الافغاني ، الطبعة الثالثة ١٩٦٤ .

١٠٧ــ في تاريخ النقد والمذاهب الادبية ، العصر الجاهلي والقرن الاسلامي الاول ، الدكتور طه الحاجري ، الاسكندرية ١٩٥٣ .

١٠٨ــ في الميزان الجديد ، الدكتور محمد مندور ، الطبعة الثانية ، القاهرة بلا تاريخ .

١٠٩ــ في النقد الادبي ، عبدالعزيز عتيق ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٢ .

١١٠ــ القاموس المحيط ، مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٢ .

١١١ــ قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، الطبعة الثانية ١٩٦٥ .

١١٢ــ قضايا النقد الادبي والبلاغة ، الدكتور محمد زكي العشماوي ، القاهرة ١٩٦٧ .

مكتبتنا العربية

١١٣ ـ قواعد الشعر ؛ ابو العباس احمد بن يحيى ثعلب ؛ تح . الدكتور رمضان عبدالتواب ؛ الطبعه الاولى ؛ القاهره ١٩٦٦ .

١١٤ ـ القواعد النحوية مادتها وطريقتها ؛ عبدالحميد حسن ؛ الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٣ .

١١٥ ـ الكامل ؛ ابو العباس محمد بن يزيد المبرد ؛ تح . محمد ابي الفضل ابراهيم والسيد شحاتة ؛ القاهره ١٩٥٦ .

١١٦ ـ كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ؛ ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري ؛ تح . علي محمد البجاوي ومحمد ابي الفضل ابراهيم ؛ الطبعة الاولى ١٩٥٢ .

١١٧ ـ كتاب ما تلحن فيه العوام ؛ علي بن حمزة الكسائي ؛ تح . عبدالعزيز الميمني ضمن (ثلاث رسائل) . القاهرة ١٣٤٤هـ .

١١٨ ـ كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة ؛ محمد بن جعفر القزاز القيرواني؛ تح . المنجي الكعبي . الدار التونسية للنشر ١٩٧١ .

١١٩ ـ كتاب النوادر ؛ ابو مسحل الاعرابي (عبدالوهاب بن حريش) تح . عزة حسن ؛ دمشق ١٩٦١ .

١٢٠ ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل ؛ جارالله محمود بن عمر الزمخشري ؛ دار الكتاب العربي ؛ بيروت .

١٢١ ـ الكشف عن مساوىء المتنبي ؛ للصاحب بن عباد ؛ مطبوع مع (الابانة عن سرقات المتنبي) .

١٢٢ ـ لحن العامة والتطور اللغوي ؛ الدكتور رمضان عبدالتواب ؛ الطبعة الاولى ؛ القاهرة ١٩٦٧ .

١٢٣ ـ لحن العوام ؛ ابو بكر محمد بن حسن الزبيدي ؛ تح . الدكتور رمضان عبدالتواب ؛ الطبعة الاولى ١٩٦٤ .

١٢٤ ـ لسان العرب ؛ ابو الفضل جمالالدين محمد بن مكرم بن منظور ؛ طبعة بولاق وطبعة دار صادر .

١٢٥ ـ اللغة ؛ فندريس ؛ ترجمة عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص ؛ القاهرة ١٩٥٠ .

١٢٦ ـ اللغة بين الفرد والمجتمع ؛ اوتوجسبرسن ؛ ترجمة ؛ الدكتور عبدالرحمن محمد ايوب ؛ القاهرة ١٩٥٤ .

١٢٧ ـ اللغة بين المعيارية والوصفية ؛ الدكتور تمام حسان ؛ القاهرة ١٩٥٨ .

١٢٨ ـ اللغة الشاعرة ؛ عباس محمود العقاد ؛ القاهرة ١٩٦٠ .

١٢٩ ـ اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ؛ جورج الكفوري ؛ بيروت ١٩٤٨ .

١٢٠ــ اللغة والحضارة ، الدكتور مصطفى مندور ، الاسكندرية ١٩٧٤ .
١٢١ــ اللغة والمجتمع ، الدكتور علي عبدالواحد وافي ، الطبعة الثانية ١٩٥١ .
١٢٢ــ اللغة والنحو بين القديم والحديث ، عباس حسن ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .
١٢٣ــ مباحث لغوية ، الدكتور ابراهيم السامرائي ، مطبعة الاداب في النجف الاشرف ١٩٧١ .
١٢٤ــ المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ، الدكتور محمد عبدالرحمن شعيب ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .
١٢٥ــ المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ، ضياءالدين بن الاثير ، تحـ . محمد محيي‌الدين عبدالحميد ، القاهرة ١٩٣٩ .
١٢٦ــ مجالس ثعلب ، ابو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، تحـ . عبدالسلام محمد هارون ، دار المعارف بمصر ١٩٤٨ .
١٢٧ــ المجتمعات الاسلامية في القرن الاول ، الدكتور شكري فيصل ، دار العلم للملايين ــ بيروت .
١٢٨ــ مجلة مجمع اللغة العربية الملكي ، جـ ١ اكتوبر ١٩٣٤ .
١٢٩ــ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها ، ابو الفتح عثمان بن جني ، تحـ . علي النجدي ناصف ورفيقيه ، القاهرة ١٣٨٦هـ
١٣٠ــ المخصص ، علي بن اسماعيل بن سيده ، الطبعة الاولى ــ بولاق ١٣١٨هـ .
١٣١ــ المدخل الى النقد الادبي الحديث ، الدكتور محمد غنيمي هلال ، القاهرة ١٩٥٨ .
١٣٢ــ مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، الدكتور مهدي المخزومي ، بغداد ١٩٥٥ .
١٣٣ــ مراتب النحويين ، ابو الطيب اللغوي عبدالواحد بن علي ، تحـ . محمد ابي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٥ .
١٣٤ــ المزهر في علوم اللغة وانواعها ، عبدالرحمن جلال‌الدين السيوطي ، تحـ . محمد ابي الفضل ابراهيم ورفيقيه، مطبعة عيسى البابي‌الحلبي ــ بلا تاريخ .
١٣٥ــ مستقبل اللغة العربية المشتركة ، الدكتور ابراهيم انيس ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠ .
١٣٦ــ مشكلات حياتنا اللغوية ، امين الخولي ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٨ .

١٤٧ — مشكلة السرقات في النقد العربي ، محمد مصطفى هدارة ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٤٨ — مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، الدكتور ناصرالدين الاسد ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .

١٤٩ — مطالعات في الكتب والحياة ، عباس محمود العقاد ، القاهرة ١٩٢٤ .

١٥٠ — المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث ، الدكتور محمد احمد ابو الفرج ، الطبعة الاولى ١٩٦٦ .

١٥١ — معجم الادباء ، ياقوت الحموي ، بعناية الدكتور احمد فريد رفاعي ، مطبوعات دار المامون .

١٥٢ — المعجم العربي نشاته وتطوره ، الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٦ .

١٥٣ — المفصل في علم العربية ، جارالله محمود بن عمر الزمخشري ، الطبعة الثانية — دار الجيل .

١٥٤ — مقاييس اللغة ، احمد بن فارس ، تحـ . عبدالسلام هارون ، الطبعة الاولى ١٣٦٦هـ — ١٣٧١ .

١٥٥ — من اسرار اللغة ، الدكتور ابراهيم انيس ، الطبعة الثالثة ١٩٦٦ .

١٥٦ — من قضايا اللغة والنحو ، علي النجدي ناصف ، مكتبة نهضة مصر — بلا تاريخ .

١٥٧ — منهاج البلغاء وسراج الادباء ، ابو الحسن حازم القرطاجني ، تحـ . محمد الحبيب بن الخوجة ، تونس ١٩٦٦ .

١٥٨ — منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه ، مصطفى الصاوي الجويني ، دار المعارف بمصر .

١٥٩ — من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده ، محمد خلف‌الله ، القاهرة ١٩٤٧ .

١٦٠ — الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ، ابو القاسم الحسن بن بشر الامدي ، تحـ . السيد احمد صقر ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ — ١٩٦٥ .

١٦١ — موسيقى الشعر ، الدكتور ابراهيم انيس ، الطبعة الثانية ١٩٥٢ .

١٦٢ — الموشح ، ابو عبيدالله محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، تحـ . علي محمد البجاوي ، القاهرة ١٩٦٥ .

عنيت بنشره جمعية نشر الكتب العربية ، القاهرة ١٣٤٣ هـ .

١٦٣ — نحو القرآن ، الدكتور احمد عبدالستار الجواري ، بغداد ١٩٧٤ .

١٦٤ — نزهة الالباء في طبقات الادباء ، ابو البركات كمال‌الدين عبدالرحمن بن

محمد الانباري ؛ تحـ . الدكتور ابراهيم السامرائي ؛ الطبعة الثانية ١٩٧٠ .

١٦٥ ـ نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ؛ الدكتور علي سامي النشار ؛ القاهرة ١٩٥٤ .

١٦٦ ـ نصرة الثائر على المثل السائر ؛ ابو الصفاء صلاح‌الدين خليل بن ايبك الصفدي ؛ القسم الاول ؛ تحـ . مناهل فخرالدين فليح ؛ رسالة ماجستير مخطوطة في المكتبة المركزية ـ جامعة بغداد .

١٦٧ ـ نظرات في اللغة والنحو ؛ طه الراوي ؛ الطبعة الاولى ؛ بيروت ١٩٦٢ .

١٦٨ ـ النقد الادبي ؛ الدكتورة سهير القلماوي ؛ الطبعة الثانية ١٩٥٩ .

١٦٩ ـ النقد الادبي في العصر المملوكي ؛ الدكتور عبده عبدالعزيز قلقيلة ؛ الطبعة الاولى ١٩٧٢ .

١٧٠ ـ النقد الادبي واثره في الشعر العباسي ؛ ناصر الحاني ؛ بغداد ١٩٥٥ .

١٧١ ـ النقد الجمالي واثره في النقد العربي ؛ روز غريب ؛ الطبعة الاولى ؛ بيروت ١٩٥٢ .

١٧٢ ـ نقد الشعر ؛ ابو الفرج قدامة بن جعفر ؛ تحـ . كمال مصطفى ؛ الطبعة الاولى ١٩٤٨ .

١٧٣ ـ النقد العربي القديم بين الاستقراء والتاليف ؛ الدكتور داود سلوم ؛ الطبعة الثانية بغداد ١٩٧٠ .

١٧٤ ـ النقد عند اللغويين في القرن الثاني ؛ سنية احمد محمد ؛ رسالة ماجستير مخطوطة في المكتبة المركزية ـ جامعة بغداد .

١٧٥ ـ النقد المنهجي عند العرب ؛ الدكتور محمد مندور ؛ دار نهضة مصر للطبع والنشر ؛ بلا تاريخ .

١٧٦ ـ النقد والنقد الادبي ؛ الدكتور رشاد رشدي ؛ بيروت ١٩٧١ .

١٧٧ ـ نهاية الارب في فنون الادب ؛ شهاب‌الدين احمد بن عبدالوهاب النويري ؛ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .

١٧٨ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني ؛ تحـ . محمد ابي الفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوي ؛ الطبعة الثالثة ؛ بلا تاريخ .

١٧٩ ـ وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ؛ ابو العباس شمس‌الدين احمد بن محمد بن خلكان ؛ تحـ . محمد محيي‌الدين عبدالحميد ؛ الطبعة الاولى ١٩٤٨ .

١٨٠ ـ يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ؛ ابو منصور عبدالملك بن محمد ابن اسماعيل الثعالبي ؛ تحـ . محمد محيي‌الدين عبدالحميد ؛ الطبعة الثانية ؛ القاهرة ١٩٥٦ .

فهرس الأعلام[1]

(أ)

---

(١) صنعنا هذا الفهرس على وفق المشهور من العلم ، اسمه أو لقبه أو كنيته ، وقد اهملنا لفظة (أم ، اب) في الكنى .

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

الفهرس

تصميم الغلاف : نضال الاغا
الخطوط : رضا الخطاط

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
(٢٥٧ لسنة ١٩٧٨)

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م